



المفكر

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة التاسعة / العدد السادس والثلاثون / لسنة ١٤٣٩



المهدي

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن
مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مشرف العام

السيد محمد صادق الهاشمي

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

المتابعة الفنية

السيد أحمد الهاشمي

مركز الهدى

❖ مركز علمي مستقل يعنى

بالقضايا والشؤون الحوزوية.

❖ يعنى بانجاز البحوث والدراسات

العلمية التي تهم الحوزة العلمية

وسبل إسنادها وتطويرها والدفاع

عنها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المهدي

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

شروط النشر في مجلة الهدى

تود هيئة تحرير مجلة الهدى ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الهدى وفق المعايير التالية:

◀ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
تعمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.

◀ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.

◀ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
◀ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

المحتويات

الإمام الخامنئي (عليه السلام)

تصور معالجة المشاكل من خلال التفاوض أو إقامة علاقات مع أمريكا خطأ فادح

ملف العدد :

المجتمع الإسلامي

المقومات، المطارحات، المعالجات

- ❖ المجتمع الإسلامي فريدة الخصائص المكوّنة
آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي ١٥٥
- ❖ العلاقات الاجتماعية في الإسلام
الشيخ جميل الربيعي ١٦٥
- ❖ العوامل الاجتماعية والسياسية
الدكتور عبد الغني عماد ٢٠٧
- ❖ منظومة القرآن الكريم في علاج المفاصل الاجتماعية
السيد محمد الموسوي الغريفي ٢٣٣
- ❖ صلاة الجماعة حركة اجتماعية ونظام حكم
د . أحمد السعدي ونخبة من جامعة طهران ٢٦٧

كلمة التحرير

❖ الأمركة بين خنجر الاقتصاد وهرولة الأمن والسياسة ١١

في ضفاف الفكر المقاوم

- ❖ التبليغ أهدافه ووسائله في فكر الإمام الخامنئي
الشيخ توفيق المحمدي ٢١
- ❖ الإمام الخميني وإحياء الخطاب الديني
فرح محمد موسى ٣٣
- ❖ حوزة النجف الأشرف ودورها المقاوم للاحتلال
رضا قاسم ٦٣

مراجعات في الفكر والسياسة

- ❖ الاستشراق الأمريكي والاستثنائية الأمريكية
ترجمة : د . وضاح الخطيب ٩٣
- ❖ حقيقة الصراع بين الإسلام والغرب
أ. حفيظ الرحمن الأعظمي ١٣١
- ❖ ظاهرة الشيعة فوبيا
أ. ناصر البخيتي ١٤١

✍️ الدراسات الفكرية

❖ الهرمونوطيقا ومسألة التأويل

السيد محمد علي الموسوي

٣٠٧

❖ مصادر المستشرقين عن الإسلام والمسلمين

د. علي بن براهيم الحجازي

٣٤١

❖ قراءة تحليلية في كتاب الشر السائل

الشيخ عبد الهادي الدراجي

٣٧١

✍️ في رحاب أهل البيت

❖ الحياة السياسية للإمام الكاظم

يوسف بيات

٣٩٣

❖ من أعلام الشيعة

❖ الفاضل جمال الدين الحلبي السيوري

إعداد : هيئة التحرير

٤١٥



تصور معالجة المشاكل من خلال
التفاوض أو إقامة علاقات
مع أمريكا خطأ فادح



أكد قائد الثورة الإسلامية المعظم سماحة الإمام السيد علي الخامنئي خلال استقباله وزير ومسؤولي وزارة الخارجية برفقة سفراء إيران في دول العالم، أن تأمين وحفظ المصالح القومية بمعناها الحقيقي هو الهدف الرئيسي لسياستنا الخارجية وأضاف: نستطيع من خلال الروح الثورية الحقيقية والدبلوماسية الذكية والهادفة، أن نوسع علاقاتنا الخارجية وتحويل عناصر قوة النظام إلى داعم لنا في الوصول لمكاسب سياسية و دبلوماسية.

وبيّن سماحته الظروف الراهنة والجهة الشاسعة التي تشكّلت لمواجهة الإسلام والجمهورية الإسلامية في إيران مشيراً إلى أنّ الجهود الدبلوماسية تنطوي على أجر إلهي ومفخرة تاريخية ووطنية في الدفاع عن أحقية الشعب الإيراني وتابع سماحته قائلاً: يضاعف الإنسان الغيور والحكيم والصبور حجم جهوده ومستوى عمله عند التعرض للتحديات ولذلك فمن الضروري نشر روحية تحديث الأنشطة في الجهاز الدبلوماسي.

وأضاف سماحته خلال اللقاء: ان الحفاظ على السلامة الدينية والطهارة المعنوية والروحية لكم ولعوائلكم والتزامكم السلوكي واللفظي بالاحكام الشرعية، يعد من أهم واجبات مسؤولي ومنتسبي وزارة الخارجية وخاصة السفراء وأعضاء البعثات الإيرانية في الخارج.

وأكد سماحته ان الجهاز الدبلوماسي هو القسم الرئيس للسياسة الخارجية للبلاد وهو الواجهة الخارجية لنظام الجمهورية الاسلامية، وأضاف: على وزارة الخارجية وخاصة السفراء ان يلتزموا بعمق بقيم الاسلام والثورة، وأن يكون سلوكهم وأقوالهم تجسيدا لهذه القيم.

وأضاف قائد الثورة الإسلامية المعظم أن الهدف الرئيس والحقيقي للدبلوماسية يتمثل في الحفاظ على المصالح الوطنية وأن التعامل او المواجهة هما الأسلوبين الوحيدين لضمان المصالح الوطنية التي اعتبرها بأنها منبثقة من السياسات العامة وقيم النظام.

وأشاد قائد الثورة الإسلامية المعظم بتصريحات الرئيس الإيراني خلال زيارته الاخيرة الى أوروبا والتي اكد فيها "اذا لم تتمكن إيران من تصدير نفطها فإن أي بلد في المنطقة لن يصدر نفطه"، ووصفها بأنها تصريحات هامة وتجسد سياسة النظام وتوجهاته، مضيفاً: ان من واجب وزارة الخارجية ان تتابع بجدية هكذا مواقف لرئيس الجمهورية.

وتطرق سماحته الى موضوع "الدبلوماسية الايديولوجية"، وانتقد الداعين الى الفصل بين الدبلوماسية والايديولوجية، وأضاف: يتحدث البعض خاطئين عن ضرورة الفصل بين الدبلوماسية وبين الايديولوجية، والحال أن الدبلوماسية الايديولوجية لا ضير فيها، وإلقاء التقابل بين الايديولوجية وبين المصالح الوطنية أمرٌ عارٍ عن الصحة والمنطق.

وأوضح سماحته: ان الهدف من تشكيل الجمهورية الاسلامية صيانة المصالح الوطنية والاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية والامن القومي، وأن الايديولوجية بصدد ضمان المصالح الوطنية وصيانتها وتعتبر هوية للشعب.

وأشار سماحة الإمام الخامنئي الى وجود الايديولوجية في سلوك الدول الغربية وسياساتها، وقال: ان الاميركان يستخدمون مرارا عبارة "القيم الاميركية" في تصريحاتهم، وهي ايديولوجيتهم ذاتها، ومستقاة من وثيقة استقلال اميركا، كما ان الافكار الايديولوجية سائدة على السلوك والانشطة السياسية في الدول الاوروبية.

وأكد قائد الثورة الإسلامية المعظم ضرورة التصدي للحرب النفسية التي تتعرض لها ايران من قبل الماكنة الاعلامية للاعداء، وقال: على الدبلوماسي الايراني ان يفخر بالثورة، ولا بد ان تبرز العزة والشعور بالاقتدار والثقة بالنفس في تعاملاته ونشاطاته الدبلوماسية بوضوح، وبالطبع فإن السلوك الثوري يتم من خلال تبين الكلام المنطقي وهو يختلف عن إثارة الفوضى والغوغاء.. فعلى السفراء والدبلوماسيين الايرانيين ان يتحلوا بالشعور بالأحقية، وأن يردوا من خلال ذلك بشكل قاطع ومنطقي على اتهامات الأجانب.

واعتبر سماحته ان اتهام ايران دوما بقضايا سلبية هو الديدن الأساس للحرب النفسية المستمرة التي يمارسها الاعداء، ولتحقيق هذا الهدف يتكرر موضوع "التخويف من ايران ومحاربة ايران والهروب من ايران واتهامها بانتهاك الديمقراطية والحريات وحقوق الانسان"، في دعايات الاعداء.

وأشار سماحة الإمام الخامنئي الى جرائم الاوروبيين والغربيين في المستعمرات السابقة، وتقييد الديمقراطية في الغرب بالقوانين او برأي مراكز خاصة، ووجود الديكتاتورية الحزبية في أميركا وبعض الدول الاوروبية وكذلك الجرائم الحالية للغربيين بما فيها الشراكة مع السعوديين في قتل الشعب اليمني، مضيفا: ان الغربيين هم مظهر لانتهاك حقوق

الانسان، الا انهم وبكل صلافة يتهمون ايران بحيث يستغرب الانسان من شدة صلفهم. واعتبر قائد الثورة الاسلامية المعظم ان تصور إمكانية حل مشكلات البلاد من خلال التفاوض مع اميركا او إقرار العلاقات معها، بأنه خطأ سافر، وقال: ان اميركا لديها مشكلة اساسية وبنوية مع أصل النظام الاسلامي، كما ان هناك دولا عديدة في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية لديها علاقات مع أميركا، لكنها مازالت تعاني من العديد من المشكلات.

وفي تبينه لعرق العداء الاميركي للجمهورية الاسلامية، قال سماحة الإمام الخامنئي: ان الاميركان بصدد العودة الى مكائنتهم السابقة في ايران قبل الثورة، ولن يرضوا بأقل من ذلك. ورأى سماحته ان معارضة أميركا لتوصل ايران الى القدرات النووية والتخصيب وأيضا لتواجدها في المنطقة، ناجمة عن عدائها العميق لعناصر اقتدار النظام الاسلامي، مضيئا: ان التواجد الاقليمي هو من جملة عناصر قوة ايران وأمنها، وتعتبر عمقا استراتيجيا للبلاد، ولذلك يعارضها الاعداء.

وأشار سماحته الى أنه وسائر المسؤولين أكدوا مرارا عدم جدارة أميركا بالثقة، حتى انه لا يمكن الثقة بتوقيعها، لذلك فإن التفاوض مع اميركا لا فائدة منه.

ونوه سماحته الى ضرورة تفعيل الطاقات غير المستخدمة أو قليلة الاستخدام في البلاد، وأضاف: لا ينبغي قطع المفاوضات مع الاوروبيين، لكن لا ينبغي ان نعطل كل شيء بانتظار الحزمة الاوروبية، بل يجب متابعة الكثير من الاعمال والمهمات في داخل البلاد.

ولفت سماحة الإمام الخامنئي الى ضرورة تطوير العلاقات والتواصل متعدد الاطراف وخاصة الثنائي وبذل اهتمام خاص بالتكتلات الاقليمية، وأضاف: على السفراء ومبعوثي ايران في الخارج ان يكونوا على إدراك تام بطاقات الشعب وقدراته.

ونوه سماحته الى ان المسؤولين الاميركيين أنفسهم اعترفوا بذكاء الشعب الايراني، وقال: منذ عدة سنوات كنت أؤكد ان الذكاء الايراني اعلى من المتوسط العالمي، وهذه حقيقة تمثل فرصة داخلية هامة، مثلما يشكل الايمان والشجاعة والإيثار واعتزاز الشعب بالقيم من العناصر الاخرى لقدرات ايران.

وتطرق قائد الثورة الإسلامية المعظم الى ان التواصل مع العلماء والنشطاء السياسيين

والنشاط الاقتصادي في الدول الأخرى يشكل نوعاً من الأساليب الدبلوماسية السائد في العالم.. وبهذه الأساليب يمكن تطوير نطاق نشاطات الجهاز الدبلوماسي. وأضاف سماحته بأن القوة الميدانية تشكل أيضاً دعامة للدبلوماسية، مشدداً على ضرورة تحويل أي عنصر للاقتدار إلى نوع من المكاسب السياسية والاقتصادية. قبيل كلمة قائد الثورة الإسلامية المعظم، تحدث وزير الخارجية محمد جواد ظريف مؤكداً أن طهران نجحت بفضل توجيهات قائد الثورة ودعمه في إفشال مخطط الصهاينة في التخويف من إيران. وأشار وزير الخارجية إلى توجهات الجهاز الدبلوماسي لاسيما إزاء بلدان الجوار والتركيز على الدبلوماسية الاقتصادية، مؤكداً: أننا نسعى لمواجهة التحديات والدفاع عن مصالحنا الوطنية بصلافة باعتماد الثقة بالنفس. ولفت إلى أن ترامب وبنانيا هو يحاولون عبر استعراضات جوفاء تكرار مخطط التخويف من إيران إلا أنهما باتا مهمشين بين حلفائهما أيضاً. ونوه وزير الخارجية إلى تأسيس مقر عمليات حربية والمساعد الواسعة التي تبذلها أميركا لممارسة الضغوط والغطرسة ضد الشعب الإيراني، مشدداً: أننا أكدنا للبلدان الأخرى لاسيما حلفاء أميركا أنهم ينبغي أن يتجاوزوا التزاماتهم السياسية إلى اتخاذ خطوات عملية وفق برنامج زمني محدد. ولفت إلى أن إيران اجتازت اختبارات أكثر صعوبة. وأعرب عن ثقته بالتغلب على الصعوبات في ظل التكاتف والوفاء الوطني واجتياز التحديات القادمة بصورة طيبة وباقل الأضرار الاحتمالية بفضل العناية الإلهية وتوجيهات قائد الثورة ودعم الشعب.

كلمة التحرير

الأمركة بين خنجر الاقتصاد وهراوة الامن والسياسة»

العميقة وهم اصحاب الكارتلات والشركات وصناع الاسلحة والنفط من دونالد ترامب ، وهم يرون ان مصالحهم وهي قدس الاقداس تتعرض للضييق والانحسار ، وهم الذين لم يصبروا على جون كندي الديمقراطي وعجلوا مصرعه في ستينيات القرن الماضي لانه اراد ان يسكب مياها باردة على الازمة (النووية) التي كانت مشتعلة مع كوبا ، كما سعى الى حل قضية فيتنام ولم يوافق على اشعال الحرب معها ، ومحاولا في ذات الوقت ان يخلع اسنان

ضمن الذين انضموا الى جوقه المنددين والناقمين على انبطاح ترامب امام بوتين بالقمة الاخيرة في هلسنكي كان ممثل الاكشن النمساوي الاصل ، ارنولد شوارزينغر ، والذي اصبح حاكم ولاية كاليفورنيا ، الذي وصف الزعيم الامريكي بانه قطعة من پاستا ، وانه رعديد خائف ، وقد هز الزهو والعزة الامريكية التي تطاولت على السنين .

والسؤال الكبير الذي يشغل المراقبون والاستراتيجيون ، ماهو موقف الدولة

حققها رونالد ريغان الذي سقط في عهده الاتحاد السوفيتي ، حيث الشخصية الثانية في الحياة الامريكية بعد الزعيم ابراهام لنكولن الذي وصف بمحرر العبيد ، الا انه تعرض الى عملية اغتيال كادت تؤدي بحياته لولا الانج الواحد الذي فصل بين الرصاصة الثاقبة ورئتيه ، وقد كشفت الرثائق انه كان على خلاف مع اللوبي اليهودي الذي يشكل طرفا فاعلا في الدولة العميقة ، فارسل اليه من اغتاله ، وحينما القي القبض على القاتل سارعوا بتشخيصه بانه مريض نفسيا وادخل المصححة العقلية وبقي هناك ٣٢ سنة ، وكان يخلى عنه في الشهر الواحد ١٧ يوما بحجة زيارة امه في فرجينيا ، ولم تهدأ خواطر اليهود عليه حتى صنعوا له فضيحة الكونترا التي ارعشت ادارته حيث فضحت حكومته ببيع الاسلحة لايران ، لتوفير الدعم المالي للمتمردين في نيكاراغوا.

لاشك ولا ريب ان ترامب هو اغبى رئيس عرفه العالم ، وسيدخل جينز ومن الباب الواسع لرقمه البلاهي ان لم يكن الجنوني ، ولاشك ايضا ان المجتمع الصناعي العميق قد اخفق في اختار الرجل

الحرب في كثير من مناطق العالم ، فضاقت صدر الدولة العميقة به ذرعا ، وخصوصا صناع الاسلحة والحرب فهندسوا له اغتيالا مازال الى يومنا هذا لغزا يحاول فكه المتخصصون في علم الجريمة والاغتيال .

وما انجلت غبرة الانتخابات من بعده الا وكان جونسون الجمهوري في البيت الابيض وكان اول قراره دخول المعركة في فيتنام .

وحينما اراد ان ينأى بنفسه عن الحرب الباردة التي كانت قائمة بين بلاده والاتحاد السوفياتي ، ونوى التقارب معها ، حيث قال لبرجيتيف ، ان من الضرورة ان تعمل الدولتان العظميان معا لتغيير العالم واحلال السلام ، حتى سارعت الدولة العميقة الى صناعة اكبر فضيحة له وهي ووترغيت ، حيث فضحوه وهو متلبس بجرم التجسس على مكاتب الحزب الديمقراطي ، وقد اعطوا الوثائق السرية التي ادانته الى صحفي كان يعمل في المباحث الفدرالية واستمرت المحاكمة حتى قدم استقالته في عام ١٩٧٤ اي قبل نهاية دورته الرئاسية الثانية ، فاستلم الرئاسة جيرالد فورد الجمهوري ايضا.

وبالرغم من الشعبية الكبيرة التي

من نصف المكسيك متمثلاً بولاية تكساس وكاليفورنيا ونيفادا ويوتا وقسماً من العاصمة مكسيكو سيتي ومعظم أرزونا وأجزاء من كولورادو وويومينج وغيرها وكل هذه الأراضي الشاسعة اشترتها أمريكا ب (١٨) مليون دولار فقط مع تنازلها عن ديونها بحق المكسيك وقدرها ثلاثة ملايين دولار فقط ، وهو مبلغ بخس جداً ، وكل هذا الاجرام ورد في معاهدة غوادا لوبي هيدالغو القاسية.

ربما تتخذ الدولة العميقة قرارها وقد يكون قريباً ويصدر بحق هذا المتهور الارعن ما يسكته ابداً ، ولا من يأسف له الا عربان الخليج الذين رقصوا معه بالسيف وظنوا به نجاتهم ، وقد نسوا الله وانفسهم وشعوبهم وتمسكوا فيه ، فخذلهم لانه اضعف من بيت العنكبوت واوهن ، ومارفض ولي العهد استقباله وهو في بريطانيا الا احد الشواهد على ذلك.

في ظل هكذا صراع خفي ستبرز القوة الشيعية قطبا مهما في المعادلات الدولية عاجلاً أم آجلاً وستكون الجمهورية الاسلامية الايرانية مصدر قيادة العالم الاسلامي

الذي ظنوا به خيراً ، لكونه تاجر عقارات وسيجلب لهم المال الكثير ، الا ان ما حظي به من تراجعات واخفاقات عالمية ، وخصوصاً مع حلفاء أمريكا التقليديين ، وعلى المستويين الاقتصادي اولا الذي لم ينتج الا الخسران ، وما المليارات التي انتزعها بأسلوب البلطجة من البيت الخليجي ، فانها لاتداوي بحر المديونية المليارية التي في ذمة أمريكا ، وما تمخض في هذا المورد هو سبة الدهر التي لطخت وجه امراء الخليج ، واما على المستوى السياسي والامنّي فما زالت المقاومة واقفة كالرمح الطويل الذي لاتهزه الريح في سوريا واليمن ولبنان وغيرها بل سجلت نجاحاً وخصوصاً في سوريا يشهد بذلك الاعداء قبل الاصدقاء .

قليل الكثير بشأن هذا الخضوع الترامبي امام بوتين ، ومنها تورطه في فضائح جنسية ومالية ومخابراتية وانتخابية ، في حين انه تطاول على الصين والاتحاد الاوربي وكندا وعلى المكسيك الذي فرض عليها ان تبني الجدار الفاصل للحيلولة دون وصول العمال المكسيكيين الى امريك التي انتزعت اكثر

في ضفاف الفكر المقاوم

التبليغ

أهدافه ووسائله

في فكر وكلمات الإمام الخامنئي

الشيخ توفيق المحمدي

استاذ وباحث من لبنان

الهداية بعد إيصال الحقيقة إليه .
أما فيما يخص مراحل التبليغ فإنها
تبدأ من النفس وتنتهي بآخر إنسان يمكن
أن يلتقي به .
ولا شك ولا ريب بأن الثقة تعم قلوبنا
حيث أن ما نعتقده ونؤمن به هو الصواب ،
لأن الإسلام الأصيل المنزه عن كل شائبة
أو عائبة ، يحمل في روحه ومظهره أجنحة
الحق ، التي نطير بمعيتها إلى واحة
السعادة الكاملة .

التبليغ يعني الإيصال في اللغة
العربية^(١) ، وفي القرآن الكريم قال تعالى :
﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾^(٢) .

وللتبليغ مرادفات جمّة كالتبشير ،
والإنذار ، والتحذير ، والإرشاد ، والدعوة ،
والهداية ، والتبيين والبيان .

ومساحة التبليغ تشمل الأبعاد
الإنسانية بكاملها ، فإن الإنسان يمثل
ساحة أساسية للتبليغ لأنه المرتجى من

التبليغ حيزه المتميز في فكر وقلب الإمام الخامنئي دام ظله ، لينقله من وهدة التقهقر إلى قمة السطوع والتنور .

ولقد ركّز الإمام الخامنئي دام ظله على هذا الأمر كثيراً ، وجعله من صلب اهتماماته بالرغم من تراكم الهموم والشجون على شخصه المبارك .

وفي أنت تقرأ ما جلاه وبلوره حل « التبليغ » تستشعر بحرقه بالغة في صدره ممتزجة مع أمل وتفاؤل كبيرين .

التبليغ أساس الدين

إن كل باحث عن أرضية نشوء الأديان وانتشارها ، يدرك تمام الإدراك بأنها تولدت من رحم التبليغ وانتشرت بفضلله .

وإن أي نبي يصطفيه الله عز وجل لنبوته ويختاره لحمل الرسالة يبدأ نشاطاً تبليغياً صرفاً ، وبطبيعة الحال فإن أدوات هذا التبليغ تعضده وتسانده فضلاً عن الدعامة الإلهية .

إلا أن الأساس هو التبليغ ، وانطلاقاً من هذا اعتبر الإمام الخامنئي دام ظله أ الدين الإسلامي هو دين تبليغي بالأصل .

بيد أن الأساليب التي نمتشقها سيفاً ، ونتخذها درعاً لنا في زمن العصرنة المتهورة - وللأسف - ليست مواكبة بالشكل المطلوب لعظمة نور الإسلام الأصيل ، بل هي بعيدة عن عالم التخطيط ، والبرمجة ، وهذا خطأ كبير قد يشوه الحقيقة تماماً كما تشوه الطابعة الخبرة الكتابة السلسلة والشيقة .

ولللأسف مرة أخرى فإن الأساليب المميزة والفتاكة التي تخدم المضمون السيء ، قد تجعل الرديء براقاً ولا معاً تماماً كيباض الثلج الذي يكسو بقعة النفايات ، وهذه حقيقة ثابتة التمسناها من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَ لَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (٣) .

فلا فرق بين المحق والمبطل في عملية الأخذ بالأسباب والمسببات ، فالحياة مركب يرتقيه حسن القيادة .

مرة ثالثة لن نقول للأسف لأن موضوع التبليغ هذه المرة قد أسقط على الخبير به ، والمعني بإدارة عجلته لهجة توظيفه في خدمة الحق والحقيقة ، فلقد شاعت القدرة الإلهية أن يأخذ موضوع

يقول دام ظلّه : « إن الدين الإسلامي هو دين التبليغ »^(٤) .

بل إنه لا سبيل لقوة الإسلام ولا لانتشاره إلا التبليغ ، ولو لا التبليغ الذي كان قوياً في السابق لما عمّ نور الإسلام آفاق العالم ، ومن هنا فإن من السفه والجهل القول بأن الإسلام قام على السيف ، لأن السيف إن كان له دور فإن دوره في تحريض الناس على الإسلام وتغييرهم منه .

يقول الإمام الخامنئي دام ظلّه : « فإن السبيل الأساس للإسلام هو التبليغ ... لاحظوا ، أن التبليغ للإسلام عمّ آفاق العالم ، وحالياً كلما اتجهتم نحو المناطق الواقعة شرق إيران ، تجدون أغلب المسلمين قد أسلموا بالموعظة والتبليغ والدعوة قبل السيف ، ما الذي قاد إلى الإسلام كل هؤلاء المسلمين في الصين ؟ أكان التهديد بالسيف ؟ لو كان لسيف السلطان محمود الغزنوي من تأثير ، فإن تأثيره تجلّى في تحريض الناس ضد الإسلام »^(٥) .

لا ريب بأن الإسلام يريد لجميع الناس أن يصيروا في أحضان النور والحقيقة ، ويريدهم أن يعيشوا تحت أشعة

شمس الحقيقة والهداية ، ولهذا فإنه في الإسلام طريقان أحدهما أصلي والآخر فرعي هما :

الطريق الأول : التبليغ باللين والحسنى . وهذا هو الأصل .

الطريق الثاني : الشدة لإزالة الموانع التي تمنع من احتضان الحقيقة وتقبلها .

وهذه الشدة تتمثل بالجهاد في سبيل الله عزّ وجل ، وهو ليس موجهاً إلى أحد طالما لا يعيق إيصال الحقيقة الساطعة للإسلام ، أما إذا أراد أن يطمس الحقيقة بأن الجهاد يوجه بوجهه ، لا لأنه لم يختار الإسلام بل لأنه يهاجم الإسلام .

فالجهاد يوجه إذن بوجه كل من يعمل على وضع المعوقات والحواجز والموانع أمام الحق والحقيقة .

ولهذا فإن الجهاد في الإسلام ليس أمراً اعتباطياً ، بل هو من أشرف الأعمال ، ولكن هذا الجهاد له هدف وغاية وهي إيصال الحقائق والهداية فإذا ما تحققت هذه الغاية فلا حاجة إلى أعمال الجهاد من رأس ، ولهذا لو أننا افترضنا عدم وجود من يعيق انتشار الحقيقة في العالم بأسره ، لما

كان للجهاد وظيفة تُذكر .

ومن هذا المنطلق كان رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو الأعداء إلى الإسلام قبل حربهم ، وكذا كان يفعل الإمام علي عليه السلام .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله بهذا الصدد : « صحيح أننا في الدين الإسلامي المقدس لدينا جهاد من أجل تحقيق الأهداف الإلهية المقدسة ، إلا أن الأصل هو التبليغ والتبيين »^(٦) .

نعم فالجهاد يأتي بعد اليأس من فائدة التبليغ ، ومع من ؟!

مع أولئك الظلمة المعتدين الذين يتغنون تعطيل العقل والفكر ليعطوا لأنفسهم دور الريادة اللاعقلانية .

وهؤلاء بالحقيقة أشبه بذاك الرجل المعتدي الذي يمنع وصول الماء إلى العطاشى ، والدواء إلى المرضى ، والعلم إلى الجهلة ، وهؤلاء لن ينفع معهم التبليغ لأنهم وطنوا أنفسهم على عدم قبول الحقيقة ، فلا ينفع في ردع هؤلاء إلا الجهاد والقوة .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله :

« فللجهاد فلسفة أخرى ، الجهاد لمواجهة الطغاة والظلمة وموانع التبليغ وانتشار نور الإسلام »^(٧) .

أن هذا التوصيف من قبل دام ظله هو عينه ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في سيرتهم العطرة ، حيث أن عملهم عليهم الصلاة والسلام كان منصباً على نشر كلمة التوحيد ، وكان الطريق الأساس لذلك الكلم البليغة ، والموعظة الحسنة ، والدعوة بالتي هي أحسن ، أما الجهاد فقد كان يحل ثانياً تبعاً لعدم استجابة القوم .

ولهذا فإن من يستخدم القوة والسيف دون سبق عملية التبليغ فهو يحارب الإسلام ولا يعمل لأجل .

وذلك لأن من يؤمن بالقوة لا يخلو :

أ- إما أن يؤمن ظاهراً ويكفر باطناً ، وهذا الإيمان الظاهري يضر ولا ينفع خاصة في الأوقات الحرجة تماماً كما حصل مع المنافقين في بدء الدعوة الإسلامية .

ب- وإما أن يؤمن مؤقتاً وبعدما يزول تهديد السيف فإنهم أسبق الناس إلى الطعن في هذا الذي آمنوا به .

عمل إنساني خلاق ، بل هذا من أشرف الأعمال الإنسانية .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « إذ أن له - أي التبليغ - صفة علماء الإسلام ، وزعماء الشيعة على امتداد التاريخ ، له صفة الهمة (لتبيينه للناس ولا تكتمونه) وهو ذو صبغة إنسانية أيضاً لأنه ينتهي إلى الأخذ بقلوب وعقول المحرومين من العلم والمعرفة » ^(٩) .

التبليغ يعني إيصال الحقيقة

بما أن الإسلام دين الحق والحقيقة والوضوح ، فإن الدعاة إليه وأهل التبليغ ورواده ، هم يكشفون عن هذه الحقيقة ، ويحكون عنها بكل صدق وأمانة ، وعلى هذا فإن الدور المنوط بهم مقتصر على هذا المورد بلا زيادة ولا نقصان .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « فنحن لدينا حقيقة وضاء اسمها التوحيد والإسلام ، وقد حجبها سحب الجهل والدعاء ، التبليغ يعني توصيل تلك الحقيقة إلى أذهان الناس وعقولهم » ^(١٠) .

ولا شك بأن الحقيقة حتى تصل إلى الناس فهي إما تصل من دون مانع وهذا

وهذا بخلاف من يؤمن بقناعة تامة ، وعن رأي ثابت ، فإنه ليس فقط سوف يحافظ على إيمانه وتمسكه بهذا الإيمان ، بل أنه سوف يضحي من أجل هذا الإيمان . ولذا المطلوب القناعة التامة والسيف لا يأتي بهذه القناعة الراسخة ، وحده التبليغ الحسن يضمن ذلك ، والمطلوب القلب مطمئن بالإيمان والسيف يُرهب القلب ولا يجعله مطمئناً .

ولهذا فإن الذين أعملوا السيف هم الذين تسببوا بوجود خصوم وأعداء للدين ، لا أنهم كثروا نصراء الدين .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « إن سيوف المغول في الهند وأكبر شاه وجهانكير شاه وأورنك زيب وأمثالهم - وهم معروفون والآن يتفاخر البعض بهم - كانت منشأ لظهور السيخ في الهند ، والسيف لا يجعل المرء مسلماً في أعماق قلبه ، فمسلّموا الهند لم يسلموا بالفتح الجهادي بل الدعوة » ^(٨) .

إن التبليغ له صفة إنسانية لأنه يجعل من المبلّغ أخذاً بيد الإنسان الجاهل إلى العلم وهذا عمل إنساني ، ويجعل المبلّغ أخذاً بيد الإنسان الضال إلى الهداية وهذا

والمعاني إلى أذهان وقلوب المخاطبين»^(١١) .
 علماً أن هذه الحقيقة الواجب إيصالها لا بدّ من الإتيان بها كاملة من دون تجزئة أو انتفاء ، أو زيادة أو نقصان ، وذلك لأنّ ما يستبطنه الإسلام يشوه فيما لو زيد عليه أو نُقص منه ، بل إن ذلك بدعة محرمة عقوبتها النار .

ونحن ندرك بأن تأكيد الإمام الخامنئي دام ظله على ضرورة أن يأتي التبليغ بالحقيقة كاملة ، إنما يأتي صدأً لأولئك الذين ينتقون من الحقائق ما يعضدهم ويخدم أهواءهم ، وبالوقت عينه هم يسكتون عن الحقائق الأخرى التي لا تخدم أهدافهم .

ومن هذا المنطلق أكّد الإمام الخامنئي دام ظله على مهمة الشهادة في عملية التبليغ ، فإن التبليغ هو شهادة صدق ، والمبلغ يمثل دور الشاهد الحقّاني النزيه والصادق ، لا دور شاهد الزور ، والمتحایل في القضايا والأمر .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله :
 « التبليغ الديني لا يجزىء الحقيقة وإنما يكشفها كاملة ، ولو لم يستمرئها المخاطب ،

هو المطلوب ويكون عمل المبلّغ هنا سهلاً ، وإما أنها لا تصل حتى يُعمل على إزالة الموانع وهنا يكون دور المبلّغ ليس بالسهل بل يحتاج إلى مزيد تعمّل حتى يتمكن من إزالة الموانع أولاً ، ومن ثمّ يعمل على إيصال الحقيقة ثانياً .

والعمل الشاق والمضني الذي يتكفل به رواد التبليغ ، هو العمل الذي يقول به هؤلاء عند وجود جبهة مضادة تعمل على تعطيل أعمالهم ، وإحباط جهودهم من خلال نشر الكفر والإلحاد والجهل بأساليب مشوقة .

ولهذا فإن المطلوب من رواد التبليغ فهم كل الملابس والظروف المحيطة بالناس حتى يضمنوا وصول الحقيقة المتمثلة بالإسلام إلى الأذهان ، ولا بدّ من الحرص الشديد على إيصال الحقيقة إلى القلوب والأذهان ، واليقين بذلك لا مجرد الظن والاحتمال ، لأن الوصول إلى هذه الغاية ليس أمراً مزاجياً بل هو واجب .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله :
 « والتبليغ معناه الإيصال ، ولكن ما هو الشيء الواجب إيصاله ؟ إنه إيصال لتلك الحقائق

الكبار ، والحكماء الأفاضل أو من يضاهيهم في الشأن فضلاً عما هم أرفع شأنًا .

جاء فكر الإمام الخامنئي دام ظله ليدقق هذه المزاعم والشبهات وليثبت بأن التبليغ منوط بهم أيضاً بل إن لهم الأولوية ، بل هم من وظائف الأنبياء أيضاً .

قال دام ظله : « فالتبليغ الذي عبر عنه القرآن الكريم بكلمات من قبيل البلاغ ، والبيان والتبيين ، وما شاكلها يدخل في عداد الوظائف المقدسة . وهو من جملة واجبات الأنبياء والعلماء والمفكرين والمصلحين » (١٣) .

وهؤلاء بطبيعة الحال لم يتوانوا عن وظيفة التبليغ والحرص تمام الحصر على ذلك الدور ولهذا فإننا : « نحمد الله على أن علماء الإسلام حرصوا في القرون الأخيرة على هذه المهمة أشد الحرص ولم يتركوا هذا القبس الوهاج - أي قبس تبليغ الدين والأخلاق والقيم المعنوية - يخبو لهيبه » (١٤) .

ويظهر جلياً أن حرص علماء الإسلام على مهمة التبليغ ، إنما لكون التبليغ ممن له صفة إلهية ، وصفة إنسانية .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « التبليغ الذي أمر به الإسلام وحرص عليه

التبليغ الديني بين الحقيقة كما هو دون زيادة أو نقصان ، وبعيداً عن الرغبات والأهواء ، وبكلمة أخرى إن المبلغ الديني يؤدي الشهادة مثل الشاهد الصادق ، فيكشف عن الحقيقة ويضعها أمام المنظار » (١٣) .

أن الطرح الأقوى عند الإمام الخامنئي دام ظله يتمثل في التمييز بين التبليغ بالإصلاح المعاصر الآخذ بالزخارف بمعزل عن المعنى والمحتوى ، وبين التبليغ بالاصطلاح القرآني المرتكز على الحقيقة الجوهرية ، والمحتوى المليء ، والمضمون الثمين .

فالمبلغ بالمصطلح المعاصر هو العامل على إيصال ما يريد سواء كان مضمون ما يريد إيصاله صادقاً أم كاذباً ، كاملاً أم جزئياً ، مفيداً أم ضاراً .

أما المبلغ بالمصطلح القرآني فهو يهدف إلى إيصال ما يريده الحق لا ما يريده هو ، وهو يهدف إلى إيصال الحقيقة كما هي من عند الله عز وجل .

التبليغ منوط بأشرف الناس

بعدما ترشحت إلى الأذهان ترهات قائلة : بأن التبليغ ليس مهمة الفقهاء

فقد يهاجر عالم ما إلى منطقة معينة ، فيعمل على نشر الإسلام بأسلوب يجده مناسباً ، وهذا يحكي عن أصالة وإبداع ، إذ أن مبلغ التراث العلمي الموجود لدينا ، وانتساب الكثير إلى الإسلام ، إنما هو نتاج جهود شخصية محضة من قبل علماء الإسلام في السابق .

لكن عصرنا الحاضر يحتاج إلى المؤسسة والتنظيم ، واشتراك الجهود ، واجتماع الأفكار ، ومنهجية الطريق ليتوضع التبليغ في إطاره اللائق .

لقد بات من الواضح أن الثورة الفكرية المعاصرة ، بمؤسساتها الكبيرة ، وبإمكانياتها المبهولة ، وبطاقم عملها العملاق ، قد بهرت العقول ، وجذبت القلوب إليها ولكن عن طريق الباطل .

ومن الواضح أن هناك من لم ينجذب إلى هذه الثورة الغربية إلا بمقدار ما ينفع البشرية ، إلا أن حركته لم تعمل على مواجهة الثقافات الفاسدة ، بل اتخذت صفة الجمود والركون .

وأمام هذا الواقع انطلقت فئة مخلصـة واعية لم تنكر الثورة الفكرية والعلمية

علماء الإسلام وزعماء الشيعة على امتداد التاريخ له صبغة الهية» (١٥) .

هذا ولكي تتركز فكرة كون التبليغ منوط بأشرف الناس تعمّد دام ظله إلى ذكر شواهد على ذلك بعد حثه دام ظله على ضرورة أن يتصدى لهذا العمل أشرف الناس .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « إن ارتقاء المنبر والتحدث في أمر الدين من أشرف الأعمال ، ويجب على أشرف الناس وأعلمهم ، وأوعاهم بالقضايا الإسلامية ، وأكثرهم عملاً بالأحكام الشرعية أن يسيروا بهذا الطريق ويعتبروه فخراً لهم ... فمثلاً كان الشيخ جعفر الشوشتری العالم الأخلاقي الكبير صاحب منبر ، وكان المرحوم الحاج السيد رضا الهمداني الواعظ صاحب كتاب هدية النملة واعظاً وخطيباً دينياً ، وهكذا كان ابنه السيد ميرزا محمد الهمداني الذي كان من العلماء الكبار ، وكذا أمثالهم » (١٦) .

أساليب التبليغ

في السابق كان علماء الإسلام يعتمدون على الجهود الشخصية في إيصال أفكار الإسلام إلى الناس .

والمجلات ، ولا ترسل العدد الكافي من المبلغين ، فثمة طلب دائم إلينا من أنحاء العالم كافة (إفريقيا وأوروبا وآسيا) أن نرسل إليهم العلماء »^(١٧) .

ويقول دام ظلّه : « لا توجد مواد تبليغية مثل تصنيف البحوث وتشخيصها لكل فئة من المستمعين فعلى سبيل المثال ، إذا أردتم التوجه إلى بلد معين ستستفيدون من مطالب معينة لا تنفعكم في بلد آخر ، وهكذا فإن ما تحتاجون إليه في القرية ، يختلف عما تحتاجون إليه في المدينة الكبيرة ، وفي طهران والجامعة والبيئة الطلابية تتباين المقتضيات عن مجلس تعزية نسائي ، إن هذا التصنيف غير موجود في الحوزة »^(١٨) .

الوجهة الثانية : إيجاد الحلول :

يقول دام ظلّه : « يتعين على المؤسسة التبليغية في الحوزة إيجاد الاستعدادات الأولية والعامة للمبلغين عبر دورات قصيرة ، يطلعون خلالها على المسائل الضرورية في التبليغ »^(١٩) .

وقال دام ظلّه : « يجب على الحوزة طي طريق آخر إلى جوار الطريق الأول » الأكثر عمومية « وذلك من خلال تأسيس قسم للتبليغ وتخصيص جزء من إمكانياتها له »^(٢٠) .

المعاصرة ، ولم تتخلّ عن تراثها ، وبالتالي فهي لم تجمد حركتها ، بل فسرت هذه الثورة المعاصرة وفق الرؤية الإسلامية القائمة على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل ، وما هو منسجم مع الفكر الإسلامي ، وما هو غير ذلك . وهذه الفئة الواعية انطلقت لخدمة الحق والحقيقة من خلال النظرة الثاقبة إلى الواقع المعاش .

إن الإمام الخامنئي دام ظلّه يدعو هذه الفئة الواعية والمخلصة إلى اختيار منهج المؤسسة والبرمجة والتخطيط .

وبما أ المؤسسة موجودة والواقع ليس مكتفياً بما تقيضه ، فالمطلوب إصلاح المؤسسة وتطويرها من خلال الشكل فقط ، لأن مضمونها سليم للغاية ، وهذه المؤسسة هي الحوزة الدينية كما لا يخفى .

إن الإمام الخامنئي دام ظلّه عرض أساليب التبليغ من خلال وجهتين هما :

الوجهة الأولى : تشخيص المشكلة :

يقول الإمام الخامنئي دام ظلّه : « إن انحسار النشر والتبليغ إحدى المشاكل التي تعاني منها الحوزة ، إذ لا تصدر الحوزة ذلك المقدار الكافي من الكتب والصحف

والدعوة إلى اتخاذ وسائل جديدة من قبل الإمام الخامنئي دام ظله ، جاءت حاكية عن حقيقة التغيير التي طرأت على البشرية .

بيد أن من اللافت جداً تأكيد دام ظله على بقاء المنبر مع أنه وسيلة قديمة ، ونفى دام ظله الشبهة القائلة بأنه مع وجود الوسائل الإعلامية الحديثة فلا داعي للمنبر .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « يظل المنبر محافظاً على صورته التقليدية والصحيحة ، ولا نعني بالتقليدية أن تبقى جمع خصائصه مشابهة لخصائص المنبر في الماضي »^(٢٣) .

وعلى كل حال ، فإن الوسائل التي حث سماحته على استخدامها للتبليغ ، تقسم إلى قسمين : تقليدية وحديثة ، إلا أن الوسيلة التقليدية ينبغي أن تؤخذ بطريقة عصرية ، وهذه الوسيلة هي « المنبر » .

فالمنبر يعطي فائدة عملية مرجوة ، لأنه يجعل الخطيب مواجهاً للمخاطب ومؤثراً فيه ، نعم لا بدّ من إحاطة الخطيب علماً بأن هذه الوسيلة لم يستغن عنها حتى

إن الإمام الخامنئي دام ظله يريد من وراء ذلك كله تنظيم عملية التبليغ ، وإبعادها عن الفوضى والتسيّب .

يقول دام ظله : « يتعين علينا القيام بعملين : أحدهما : تنظيم التبليغ بأفضل نحو ، فبالتنظيم نستفيد من القوى مهما صغرت في مورها المناسب »^(٢٤) .

وأما بالنسبة إلى المبلّغ فإنه لا بد وأن يتحلى بصفات جمّة أهمها على الإطلاق صفة إصلاح النفس .

يقول دام ظله : « إذا لم يهذب المبلّغ نفسه ويصلحها ، لم يقدر على إصلاح غيره »^(٢٥) .

أما بالنسبة للصفات الأخرى فلا بدّ للمبلّغ أن يتحلى بالتهذيب ، والإخلاص ، والوعي الديني ، والإلمام الثقافي ، والورع والزهد ، والأدب والرحمة ، والتدبير والجد ، والتقوى وغيرها .

وسائل التبليغ

لكل عصر وسائله وأدواته ، ووسائل هذا العصر مختلفة عن العصور المضمحلة .

في الغرب .
فرصة ثمينة ينبغي استغلالها على أكمل وجه ، ويكفي بهذه الفرصة قيمة أن ما يوجد لدينا من إمكانيات يعد حلاً لمن كان قبلنا ، فمثلاً كان النبي صلى الله عليه وآله يبحث عن رجل يسمع له ، أما الآن فالناس تتجمع حول المبلغ من دون أي مشقة .

يقول دام ظله : « أخوتي الأعزاء ثمة فرصة عظيمة »^(٢٦) .

الخاتمة

لقد تم إعادة تصحيح الكتاب في أربعينية الإمام الحسين عليه السلام سنة ١٤٣١ هـ الموافقة ذاتاً وعرضاً أشكره تعالى على التسديد والتأييد وأسأله الحشر مع محمد وآله الأطهرين ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الأطهار .

أما القسم الثاني الحديث ، فهو الإعلام المعاصر من قبيل التلفاز ، والإذاعة ، والصحف والمجلات وغيرها ، بالإضافة إلى المسرح ، والأفلام السينمائية المعاصرة .

يقول الإمام الخامنئي دام ظله : « لا تنجز هذه الأعمال بين ليلة وضحاها فإذا بدأتكم اليوم بالعمل في هذه المجالات وقمتهم بإنتاج البرامج الصوتية والتصويرية وبخاصة التصويرية ، فربما تتوافر للحوزة هذه المقدرة بعد عشر سنوات ، لكننا نفتقدها حالياً ولا نستفيد من الفن »^(٢٤) .

ويقول الإمام الخامنئي دام ظله : « ينبغي الاستفادة القصوى من الفن ، وأعني الاستفادة من الفناني »^(٢٥) « الموجودين » .

لا شك أن للتبليغ في عصرنا الحاضر

الهوامش

- ١- المصباح المنير للفيومي ، ص ٦١ ، ولسان العرب ، مادة بلغ ، ج ٨ ، ص ٤٢٠ .
- ٢- الأحزاب ، ٣٩ ،
- ٣- الإسراء ، ٢٠ ،
- ٤- التبليغ في الإسلام ، ص ٨ ،
- ٥- م. ن. ص ٨ - ٩ ،

- ٦- م. ن. ص ٨،
- ٧- م. ن. ص ٩،
- ٨- م. ن.
- ٩- سلسلة في رحاب الولاية، عدد ٢٠٣، ص ٢،
- ١٠- التبليغ في الإسلام، ص ٢٦،
- ١١- سلسلة في رحاب الولاية، عدد ٢٠٣، ص ٢،
- ١٢- التبليغ في الإسلام، ص ٢٥،
- ١٣- سلسلة في رحاب الولاية، عدد ٢٠٣، ص ٢،
- ١٤- م. ن.
- ١٥- م. ن.
- ١٦- التبليغ في الإسلام، ص ٧،
- ١٧- م. ن. ص ٦٠، - ٦١،
- ١٨- م. ن. ص ٥٦،
- ١٩- م. ن. ص ٦٥،
- ٢٠- م. ن.
- ٢١- م. ن. ص ٦١،
- ٢٢- م. ن. ص ٢٩،
- ٢٣- م. ن. ص ٧،
- ٢٤- م. ن. ص ٥٥،
- ٢٥- م. ن. ص ٥٣،
- ٢٦- م. ن.

الإمام الخميني رحمته الله

وأحياء الخطاب الديني

وإشاعة المفردات والمفاهيم الدينية

فرح محمد موسى
كلية التربية - جامعة بغداد

والكاشفة قدر الإمكان عن مميزات هذا
الخطاب وخصائصه .

شهد عالمنا الإسلامي خطابات
ومفردات ومفاهيم كثيرة لم تجد في إعادة
الحيوية إلى الشعوب الإسلامية ، ولم
تساهم في تحريرها من أسر الطاغوت ، بل
زادت في مشاكلها ، وحالت دون
استقلالها ، نظراً لما شوب هذه الخطابات
والمفاهيم من أخطاء وملاسات وتمويهات
جعلتها قاصرة عن أحداث تغييرات شكلية

لا شك إن الإمام الخميني رحمته الله في جهاده
المتواصل استطاع أن يحيي الخطاب الديني ،
وأن يحقق أعظم معجزة في هذا العصر ،
وإذا كانت هذه الأوراق لا تتسع للحديث عما
حققه من انجازات ، وما أحياه من مفردات
ومفاهيم ، وعن تأثيرات خطابه الديني
والسياسي ، فإن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى
ما تميز به خطابه من حيوية وفاعلية وقدرة على
التأثير في مجتمعات المسلمين والمستضعفين ،
وقد ارتأينا أن نذكر بعض الإشارات الموجزة

أو جوهرية في حياة المسلمين .

وهنا نسأل : ما هي الأسباب التي جعلت خطاب الإمام عليه السلام الديني والسياسي متميزاً وفاعلاً وممتداً لدرجة أن جميع المسلمين باتوا واثقين من أن أي تغيير يبقى مستحيلاً ما لم تستحضر مضامين ومفاهيم ومفردات خطاب الإمام فيما يسعى المسلمون والمستضعفون لتحقيقه من حرية واستقلال .

لقد أجاب الإمام الخامنئي (دام ظله) عن هذا التساؤل بالقول : « إن الإمام الخميني عليه السلام سلك الطريق نفسه الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله من أجل إعادة الحياة إلى الإسلام ، وهو طريق الثورة ^(١) .

إن نصوص الإمام عليه السلام وكلماته الخالدة تحفل بالدعوة إلى استحضار الإسلام والاهتداء بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته ، لأن الحياة في ظل القرآن والسنة ، والثورة على الظلم هما شرطان أساسيان لتحقيق العزة والكرامة والاستقلال ، وقد بينت التجارب في التاريخ انه حيث كان الإسلام حياً كانت السعادة والسلامة على مستويات الحياة كافة .

ولئن كان العالم المستكبر يتنكر فاعلية وحيوية هذا الخطاب الإسلامي ، ويعتبره قاصراً عن الفعلية والتأثير وعاجزاً عن إيجاد الحلول لما يعيشه العالم الإسلام من مشاكل ، وإذا كان يدّعي بأنه يملك الحلول السحرية لهذه المشاكل ، فقد سبق للمستكبرين من أمثال قارون وفرعون وهامان أن أدّعوا ذلك ، ولم تكن النتيجة إلا مزيداً من القهر والفقر والحرمان ، وقد استطاعت النبوة الكشف عن زيف هؤلاء فيما يدّعون من حلول سحرية وقدرات وهمية ، وأدنى تأمل في تاريخ الصراع بين الأنبياء والمترفين يمكن أن يُعطى صورة واضحة عما آلت إليه أوضاع الناس مع الأنبياء وفي ظل دعواتهم بعد تحريرهم من استعباد واستخفاف الفراعنة .

إن الإمام الخميني عليه السلام في خطابه الديني والسياسي استحضر خطاب النبوة الخاتمة والرسالة الكاملة ، ولم يتجاوزها ، بل بقي خطاباً قرآنياً في كل مفرداته ومفاهيمه ، باعتبار أن الإسلام دين كامل على الصعيد النظري فيما ينطوي عليه من قوانين وأحكام ومبادئ ، ولا حاجة

بالمسلمين لأن يتلقفوا مفردات ومفاهيم اصطنعها هذا القطب أو ذاك لنفسه كيما يعبر بها عن مشروعه .. ؟

لقد أيقن الإمام (عليه السلام) أن المفهوم الديني والسياسي الذي حقق الانتصار على الإمبراطوريات القديمة وهزم الأحزاب في بدر وأحد والخندق في أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يزال قادراً على هزيمة الجاهلية الجديدة المتمثلة اليوم بالحضارة الغربية (المادية) ، والمتقومة بالنظرة الحيوانية إلى الإنسان ، وبالنظرة المادية إلى الكون والحياة ، والقدرة هذه إنما تتأتى للمسلمين فيما لو اقتدوا بالخطاب الإلهي ، واستجوبوا لما أمر الله به ونهى عنه ودعا إليه ، حيث قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (١) .

فالإمام (عليه السلام) لم ير ضرورة ولا سبباً يوجب التماهي مع الغرب أو الشرق فيما اصطنعه لنفسه من مفردات ومفاهيم ومبادئ وقوانين ، لأن الإسلام - كما قلنا - دين كامل وشامل ، ومن شأنه - فيما لو أخذ المسلمون به - الاهتداء إلى سبل

السلام والأمن ، وتحقيق السلامة على مستوى الدين والدنيا ، إضافة إلى ما يكون للمسلمين في ظله من عزة وكرامة واستقلال ، يقول (عليه السلام) : « في ظل القرآن استطاع الإسلام في مدى نصف قرن أن ينتصر على إمبراطوريات زمانه ، ونحن ما دمنا في ظل القرآن فإننا سوف نغلب أعداءنا .. إن الحرية والاستقلال إنما هما في الاقتداء بالقرآن الكريم والرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) » (٢) .

إن الله تعالى نهى عن أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ، ولم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وهذا يعني فيما يعنيه ، أن يكون المؤمنون أحراراً فيما يؤسسون له وينطلقون منه نحو الأهداف السامية التي حث القرآن والرسول وأهل بيته (عليهم السلام) على الانطلاق نحوها ، والسعي من أجل بلوغها ، فالشهادة والوسطية التي جعلها الله للأمة الإسلامية لا تعني نفي الآخرين أو نبذهم فيما لو كانوا موحدين لله وعابدين له ، وإنما تعني الحرية والموقع الفاعل والمستقل والمؤثر ، بحيث يكون للمسلمين دورهم وأثرهم وطريقة عملهم في بناء الحياة دون تبعية

منها البشر كل بحسب استعداده وإمكاناته»^(٤).

إن خطاباً يستحضر الإسلام عقيدة وشرعية ونظام حكم لا بد أن تكون له فعليته وحيويته وأثره في حياة الناس ، وحينما نتحدث عن إحياء الخطاب الديني عند الإمام الخميني فإننا لا نستطيع أن نتغاضى عن شخصيته وقيادته في هذا العصر ، ذلك أنه من غير الممكن الفصل بين حضور الإسلام في حياة الناس وبين القائمين بمهمة الإصلاح والتغيير ، فالقرآن لا بد له من ترجمان ، وأدنى تأمل في التاريخ الإسلامي وما رفع فيه من شعارات تتخذ من الإسلام شعاراً لها من شأنه أن يكشف لنا عن طبيعة وحقيقة ما كان عليه المسلمون في تاريخهم ، سواء لجهة تأويل القرآن بما يوفق السلطة الجائرة أو لجهة اختلافات الفرق الإسلام وتناحرها ، فهذا كله حال دون أن يكون الخطاب الإسلام حياً وفاعلاً ، إذ أنه غالباً ما كان السلاطين ومن لاذ بهم من فقهاء البلاط يحولون دون رجوع الناس إلى الإسلام وسنة رسول الله ﷺ ، ويدفعون بهم إلى التماس الإسلام وقوانينه مما كانوا

لأحد ولا رضوخ ، بل استقلال في الموقع والفعل والقرار ، ولو أن الأمة الإسلامية موحدة اليوم لاستطاعت أن ترسم لنفسها خطأ وسطاً في علاقاتها مع العالم ، ولهذا نجد الإمام الخميني يركز في خطابه على الوحدة باعتبارها شرطاً أساسياً لكل نهوض وفاعلية في حياة المسلمين .

حيوية الخطاب الديني وآثاره عند الإمام الخميني

سبق أن أشرنا في تمهيدنا لهذا البحث أن الإمام الخميني لم يستحضر خطاباً جديداً من خارج التاريخ والزمان ، بل أحيا خطاب الإسلام والنبوة في حركته الدينية والسياسية ، باعتبار أن الإسلام دين كامل على المستوى النظري ، ويحتوي على جميع المفردات والمفاهيم التي يحتاج إليها البشر في حركتهم من أجل الحرية والاستقلال ، يقول الإمام الخميني : « إن سبب البعثة هو إنزال الكتاب العظيم الذي يحتوي على كل آيات الخلقة ، وعلى كل الأشياء التي يجب أن تنجز في البعثة ، أنه سفرة بسطها الله تبارك تعالي لبني البشر بواسطة النبي الأكرم ﷺ ليستفيد

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْعُرْوَفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٥) .

والحق يقال : أنه ليس من الحيوية في شيء أن يتحضر خطاب الإسلام والنبوة لمجرد التبرك به دون أدنى اعتبار عملي له ، وهكذا كان الخطاب الإسلام لفترة طويلة من الزمن خطاباً نظرياً مجرداً مشوهاً لم يتجاوز اللسان إلى الالتزام به والتعبير عنه في مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين ، إلى أن جاء الإمام ﷺ ، فبعث فيه الروح وجعله خطاباً حياً ومتميزاً في ما أحدث من آثار ، وصنع من معجزات .

إن الإمام ﷺ لم يجدد الخطاب الديني ، بل أحياه وأعاد وصله بالماضي المشرق في تاريخ المسلمين ، وأعطاه بعده الواقعي من خلال استلهم السيرة الجهادية للرسول وأهل بيته ﷺ الذين لم يتوانوا عن إقامة الحق وبسط العدالة الاجتماعية ، وكما يقول الإمام ﷺ : إن الرسول ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ أقاما الدولة والحكومة ، وبسطوا العدالة الاجتماعية من دون الحاجة إلى استعارة مفاهيم ومفردات

ينتجونه من فقه وكلام وسياسات في معامل الهوى وحب الدنيا . باختصار نقول إن الإسلام والقرآن كان في جانب ، والسلطة في جانب آخر ، بسبب ما آلت إليه أوضاع المسلمين في ظل السياسات السلطانية .. ؟

لقد أدرك الإمام الخميني معنى وحقيقة وأثر استحضار خطاب النبوة والرسالة في زمن امتلأت فيه بلاد المسلمين بالمترفين والمستكبرين ، فانبرى من موقع مسؤوليته وأمانته على وحي الله تعالى إلى صياغة الخطاب الإسلام في ضوء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذي يؤهل الأمة الإسلامية لأن تنطلق من جديد في حركتها من أجل تحقيق نفسها بالإسلام ، ويدفع بها إلى المحافظة على مكوناتها وخصائصها بحيث تعود إلى شهادتها ووسطيتها ، كما أرادها الله تعالى ، ذلك هو معنى أن يكون الخطاب الديني حياً ، أن تنطلق الأمة من خلال الإسلام وفي ضوئه في سبيل إقامة الحكومة الإسلامية ، وتطبيق القانون الإلهي ، والإصلاح في الأرض على النحو الذي يؤدي بالأمة إلى أن تكون خير أمة

الإسلامي أسير الهوى ، ومطلباً دنيوياً ، ولا شك أنه يستحيل في ظل حكومات الجور وما تمارسه من ظلم واعتساف تأويل لكتاب الله تعالى بما يوافق الهوى أن يحتفظ الخطاب الديني بخصائصه ومميزاته التي كان عليها أيام رسول الله ﷺ ، وبما أن حكومات اليوم تتعمد تشويه هذا الخطاب لتدعيم مشروعها السياسي السلطوي ، فإن إحياء الخطاب الديني سيبقى متعذراً ما لم يقيم المسلمون بواجبهم ، وستبقى حياتهم وبلادهم عرضة لمفردات ومفاهيم الحضارة الغربية (المادية) التي حذر الإمام ﷺ من أفكارها وسلعها وسائر ما تجود به على بلاد المسلمين من مفاتن الحياة .. ! ؟

وإذا كان الإمام ﷺ قد اتخذ موقفاً سلبياً من الحضارة المادية فيما صدر عنه من بيانات ووصايا ، وطرح الإسلام بديلاً لها ، فإن ذلك لا يعني أن الإمام قد اتخذ موقفاً سلبياً من العلم وما انتهى إليه العالم من اختراعات وصناعات ، إذ كيف يكون ذلك ، والإسلام يحث على طلب العلم والتطور شرط أن تبقى للإنسان كرامته وروحيته وهيمنته ، يقول الإمام ﷺ : « إذا

وقوانين من خارج دائرة الإسلام^(٦) ، » فهو دين على خلاف جميع المذاهب غير التوحيدية ... ولم يترك أي قضية مهما كانت صغيرة ما دام لها تأثير في تربية الإنسان والمجتمع^(٧) .

إن العودة إلى القرآن كفيلة بإحياء الخطاب الديني وترجمته على النحو الذي يؤدي إلى إقامة الحكومة ، وتحقيق العدالة ، ولم يُطلق من المسلمين اليوم أكثر مما طلب منهم في أيام رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ ، فإذا ما جعل المسلمون القرآن موضوعاً للتدبير والتأمل ، فإنه سيكون لهم الخطاب الحي والفاعل ، وسينطلقون من جديد في رسم الخط الوسط في علاقتهم مع العالم .

فقوله ﷺ أن الأمر تحول شيئاً فشيئاً إلى حكم باسم الإسلام ، واليوم ، كثيرون هم الذي يدعون أنهم أتباع الرسول ﷺ والإسلام في الحكم ، ناظر إلى الأسباب التي تحول دون انطلاق الأمة الإسلامية في مسيرتها على هدى الرسول وأهل بيته ﷺ إذ لا يزال الخطاب الإسلامي حتى يومنا هذا في كثير من البلاد

في ظل التقليد الأعمى للآخرين تحول من كونه خطاباً إسلامياً إلى خطاب معبر عن الحضارة المادية ، وكانت النتيجة استلاباً على مستوى الخطاب الدينيين والسياسي ، وعلى مستوى المفاهيم المفردات والقيم والمبادئ والأهداف ، فلم يبق من الإسلام إلا أسمه ، ومن القرآن إلا رسمه بسبب تقلد المتغربين والمتشرقين لأموور الناس الدينية والسياسية ، والأكثر من ذلك عجباً هو أنه ما تزال هناك أصوات ترتفع وتدعو إلى إحياء الخطاب القومي والعلماني والليبرالي وغير ذلك مما كان له أكبر الأثر في تخلف المسلمين وتجزئتهم . والذي حال دون تمادي المتغربين والمقلدين للغرب والشرق ، والداعين إلى تمثيل الحضارة الغربية بكل أزماتها وسلبياتها ، هو الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت بعث الروح والحيوية في عالم المسلمين ، وفي الخطاب الإسلامي ، فانطلق في مواجهة كل الأطروحات الوضعية ، وحقق نتائج باهرة على مستوى المواجهة مع العدو الصهيوني ، سواء في لبنان أو في فلسطين أو في غيرهما من البلدان الإسلامية ، وما كان ذلك ليتم لولا

كان المقصود من التمدن والتطور والصناعات المتطورة التي تساهم في تقدم المدنية الإنسانية ، فإن الإسلام يؤكد ضرورة العلم والتقدم والصناعة ، أما إذا كان المراد من التمدن والتطور هو إطلاق الحرية لممارسة أنواع الرذائل ... فهذا ما ترفضه جميع الأديان السماوية ، والعلماء العقلاء رغم أن المتغربين والمتشرقين - ولا نقيادهم الأعمى - يروجون ذلك «^(٨) .

نخلص إلى القول بأن الخطاب الديني لا يكتسب حيويته وفعليته مما ينتجه الغرب أو الشرق من مفاهيم ومفردات وصناعات كما توهم بعض المتغربين والمتشرقين في البلاد الإسلامية الذين تلقفوا كل شيء من الأجانب إلا الصناعات والعلوم ، فهي بقيت في بلاد الغرب والشرق دون أن تستفيد منها البلاد الإسلامية في شيء ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى الاستلاب الحاصل في عالمنا جراء الاقتداء الأعمى بحضارة الغرب التي تم الأخذ بها دون تأمل ولا تبصّر ، وكان لا بد أن ينعكس ذلك سلباً على واقع المسلمين والمستضعفين وثقافتهم وخطابهم الديني والسياسي ، حيث أن الخطاب الإسلامي

المتغربين والمقلدين اجتروا مفاهيم الغرب والشرق عن الحياة والإنسان ، ونقلوا إلى بلادهم ما أسفرت عنه الحضارة المادية من أزمات معنوية وروحية دون أن يتمتعوا بأدنى نصيب مما حققته هذه الحضارة من انجازات علمية وتقنية وصناعات مختلفة ! ؟

لاشك أن غياب المفردة والمفهوم ، الإسلاميين من حياة المسلمين قد أدى إلى الانسجام تماماً مع الخطاب المادي الوافد من الغرب والشرق ، ومن أجل إشاعة المفردات والمفاهيم الديني ، فلا يسع المسلمون إلا أن يحققوا الثورة الداخلية ، سواء على مستوى النفس أو على مستوى الواقع ضد الاستخفاف والعبودية والتقليد وغير ذلك مما كان ولا يزال سبباً في تخلفهم بحيث تكون الثورة الإسلامية في إيران قدوة لشعوب العالم في طلب الحرية والاستقلال . وهذا ما ركّز عليه الإمام ﷺ في خطابه الديني والسياسي ، وطلب إلى المسلمين أن يتفاعلوا مع الإسلام ، محذراً إياهم من الوقوع في شرك خطابات كثيرة تنسب نفسها إلى الإسلام ، وتدعي أن الإسلام ليس شيئاً غير الانسياق مع

حيوية الخطاب الديني الذي اكتسب أبعاده الشاملة مع الثورة الإسلامية ومن خلالها .

إن الخطابات الأخرى سواء أكانت القومية أو العلمانية أو الليبرالية أثبت فشلها فيما قامت به من مهمات ، وفيما عبرت عنه من نظريات ، وخير ما يمكن أن نتبصر به في هذا السياق هو ما تنبأ به الإمام الراحل ، عما ستؤول إليه أوضاع العالم الغربي في ظل الحضارة المادية والقوانين الوضعية ، وعما سيكون للإسلام من دور في إنقاذ البشرية من أزمته الروحية والمعنوية ، ففي رسالة إلى « غورباتشوف » بيّن أن المادية هي سبب الموت المتحقق على مستويات الحياة والمبادئ والقيم في مجتمعات الغرب والشرق ، ونتيجة للتقليد الأعمى لهما وقعت مجتمعات المسلمين في أزمات متعددة ، يقول الإمام : « لا يمكن للمادية أن تنقذ البشرية من أزمة عدم الاعتقاد بالمعنويات ، هذه الأزمة التي تعد أهم أساس لمعاناة البشرية في الشرق والغرب »^(٩) .

وما يؤسف له ويعجب منه هو أن

لم تعد لنا جرأة على المبادرة إلى أي إبداع وراح الكتاب والخبلاء المتغربون والمتشرقون الجهلة ينتقدون هازئين بثقافتنا وتقاليدها وحتى صناعاتنا وما قد نبذعه ، وسعوا لكبت طاقاتنا الذاتية وبعث اليأس فيها وترويج التقاليد الأجنبية مهما كانت مبتذلة وبذيئة بسلوكياتهم وكتاباتهم بمدحها وتحسينها لتثبيتها لدى الشعوب^(١)

إن حيوية الخطاب الديني بكل مفرداته ومضامينه بنظر الإمام ﷺ لا تكون بالتبعية والتقليد الأعمى ، وإنما بالاستقلال والحرية والوعي وتعبئة النفوس وتربيتها على الجهاد والصبر في مواجهة الظلم والترف والاستكبار ، وهذا كله يبقى غير ممكن ما لم يقتد المسلمون والمستضعفون بالقرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ وسائر الأئمة والصالحين ، لأن المتشرقين والمتغربين كانوا ما يزالون يستغلون غربة الإسلام والقرآن عن حياة الناس لإشاعة الفحشاء والمنكر والبغي لإفساد المجتمع وتغيير خلق الله تعالى بوحى من شياطينهم الذين يتربصون شراً بالإسلام والمسلمين .

الحضارة والتمثل بها والاستفادة من انجازات العصر العلمية والتقنية وغير ذلك ، وغالباً ما تصدر هذه الدعاوى عن أناس يحكمون باسم وبيررون تبعيتهم للغرب أو الشرق الاستناد إلى كثير من الآيات التي سبق لفقهاء البلاط أن أولوها بما يلائم دعاوى المتغربين والمتشرقين ، وقد ترافقت هذه الدعاوى الباطلة مع إشاعة مفاهيم ومفردات على أنها مفردات ومفاهيم إسلامية ، من قبيل أن الإسلام ليس ضد القومية ، ولا ضد العلم ، ولا ضد التطور ... والاشتراكية ، وقد انطلت هذه المزاعم والأقاويل على الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية فأخذوا بها واعتبروا الدليل على دينيتها وإسلاميتها ما حصل من تقدم مادي وصناعي ، ساهين عن أن التقدم المادي ليس دليلاً على صحة الاعتقاد وسلامة المعنوية والروحية ، والأكثر من ذلك ألماً ، كما يقول الإمام ﷺ : « هو أن القطبين الشرق والغرب أبقيا الشعوب المظلومة المستعبدة مختلفة في جميع الأمور ، وجعلنا بلدانها استهلاكية وأوجدنا في أنفسنا حالة عميقة من الرهبة تجاه مظاهر تقدمها وقواهما الشيطانية ، حتى

شمولية الخطاب الديني وعالميته عند الإمام

إن ما أراده الإمام الخميني (ع) وسعى إلى تحقيقه هو أن تعود الحياة إلى المفاهيم الدينية ، وأن يترك المسلمون ما خدعهم به الغرب من مفردات ومفاهيم ، وقد حرص (ع) على أن يكون المصطلح القرآني هو الأساس والجوهر لكل خطاب ديني ، ولهذا نجد في نصوصه وبياناته يركز على الاستضعاف مقابل الاستكبار ، وعلى التزكية مقابل الاستعلاء . على الإسلام والشورى مقابل الديمقراطية ، وعلى الإيمان مقابل الكفر ، فلم ير ضرورة ولا سبباً لأن يتشدد عالمنا بمصطلحات كانت ولا تزال مجهولة التعريف التحديد وخاصة مصطلح الديمقراطية الذي تغلفت به كل مشاريع الاستبداد ، فلا حاجة للأخذ بمصطلحات غير واضحة ، ما دام في الإسلام كل ما تحتاج إليه البشرية في سعيها من أجل السعادة والسلامة في دينها ودنياها .

لذلك فإنه (ع) عمل من أجل إعادة التواصل مع الرسول والرسالة بالشكل والمضمون ، لأن النبوة فيما جاءت به من

دعوات ، وما قامت به من مهام لم تكن بحاجة إلى مفردات ومفاهيم المترفين والمستكبرين عن الكون والحياة والإنسان ، وانطلاقاً من هذه الحقيقة ، لم يكن عند الإمام (ع) مندوحة عن تأسيس الخطاب الديني والسياسي في ضوء حركة النبوة في التاريخ ، وهذا هو الشيء الذي جعله منسجماً في دعوته وثورته ، ومن ثم في دولة الإسلام مع خطاب النبوة إلى البشر ، حيث أن الإمام (ع) أدرك في حياته ، ومن خلال ما عايشه من أحداث إن إحياء الخطاب الديني غير ممكن ما لم يتواصل الناس مع تاريخ النبوة والإمامة لما لذلك من أثر في حياة الناس باعتبار أن الأنبياء جميعاً دعوا الناس إلى التوحد تحت راية الإسلام ، وإلى الثورة ضد الظلم وقد عمل الإمام (ع) من أجل إحياء هذه الخطاب في ضوء الإسلام ومن خلال تاريخ النبوة الحافل بالمجاهدات والرياضات والانتصارات . إن إحياء الخطاب الديني يستحضر كل ما هو أصيل وثابت وكامل بهدف تحرير المجتمع وإحيائه على النحو الذي ينفي كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى دون تمييز بين مسلم أو مسيحي ، لأن المرتكز الأساسي في حركة الإمام (ع) هو

بنظام الإسلام ، ولهذا نجده يوحد بين قضية المسلمين وقضية المستضعفين كما في قوله : « يا مسلمي العالم ، وبأ مستضعفي العالم .. هيا إلى النظام الذي جاء من قبل الله تعالى لنموكم وتكملكم . ولسعادتكم في الدنيا والآخرة ، ولإزالة الظلم وحقن الماء ، ونصرة المظلومين في العالم ، ولأجل التربية والتعليم الإنسانيين ، ولأجل حرية واستقلال أقطاركم » ^(١٤) .

إن الثورة الإسلامية التي انطلقت من إيران لم ولن تكون محدودة الأهداف ، هي ثورة شاملة ، وتحمل أطروحة كاملة ، وهي مسؤولة بحكم مركزيتها ودورها الوسطي والشاهد ، وعالمية دعوتها وشمولية خطابها عن تحقيق المجتمع الإنساني بالإسلام وإحلال العدالة الإلهية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ^(١٥) ، ذلك هو معنى إحياء الخطاب الديني على مستوى العالم الإسلامي والعالم المستضعف ، أن تكون الثورة الإسلامية ممتدة بكل أبعادها ، باعتبار أن

الإيمان الإبراهيمي المتجلي بقوة في خطابه الديني والسياسي ، يقول في وصيته الخالدة لمستضعفي العالم : « لا تتعدوا بانتظار أن يهبكم الحرية والاستقلال حكام بلدانكم .. أن تهبكم ذلك القوى الأجنبية .. يا مسلمي العالم اجتمعوا تحت راية التوحيد وفي ظل تعاليم الإسلام » ^(١٦) وهذا الخطاب لا يستفاد منه أن المسلمين وحدهم المعنيون بهذا الخطاب ، وإنما خطاب النبوة الخاصة والعامة كان يدعو الناس كافة إلى الاجتماع تحت راية التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ^(١٧) .

إن المسلمين بحكم موقع وسطيتهم وشهادتهم وخيريتهم مسؤولون عن إقامة حكم الله في الأرض وحماية المستضعفين والدفاع عنهم وتحقيق الوحدة في مواجهة الكفار والمشركين ، وقد جاء الإسلام كما يقول الإمام : « ليوحد العالم تحت اسم الأمة الإسلامية » ^(١٨) . كما أن عقيدة التوحيد ، وجوهر العدل الإلهي ، يقتضيان أن يكون من أهداف الخطاب الإسلامي نصرة المستضعفين ومجاهدة المستكبرين لا بهدف أن يعود المسلمون فقط إلى الإسلام ، بل من أجل شمول العالم كله

من منطلق أنه خطاب صادر عن إمام مسلم وحسب ، بل منطلق أنه خطاب يدعو إلى الحرية والاستقلال وتحقيق العدالة الاجتماعية . وينصر قضايا الشعوب وحقوقها في تقرير مصيره ..

والحق يقال : إن إيران الإسلام اليوم ليست جغرافيا ولا تاريخ ، وإنما أطروحة تجسد مشروع النبوة في مواجهة أطروحات المترفين والمستكبرين القائمة على منطق التقليد والهادفة إلى بناء الحياة المادية وتحقيق الأبدية والدهرية من خلال المال والسلطة ، وغير ذلك مما يظنه المترفون سبباً للسعادة والكرامة والسلامة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (١٨) .

وكيف كان ، فإن تفاعل أحرار العالم مع هذه الثورة ، وانسجامهم مع خطاب الإمام ﷺ يؤكد عالمية هذه الثورة الإسلامية ، وتجاوزها لذاتها فيما تدعو إليه وتسعى لتحقيقه من أهداف ، ليس من المبالغة في شيء أن يقال بأن مستضعفي العالم في أي أرض كانوا وإلى أي دين

الإسلام دين عالمي ، وكذل خطابه ، وما على المسلمين ما يقول الإمام ﷺ إلا أن يعرفوا العالم بهذا الدين ، ويخططوا لإقامة الحكومة الإسلامية تمهيداً لإقامة الحكومة العالمية على يد الإمام المهدي ﷺ ، يقول الإمام : « ثقوا بأن من وراء تعريف العالم بالإسلام نتائج حسنة وترحيباً شديداً يستقبل به الإسلام » (١٦) .

لقد تجلّت عظمتة في نصرته المستضعفين سواء أكانوا هوداً أو نصارى أو مسلمين أو غيرهم ، لأن الله تعالى كرم بني آدم ، ومن جوهر الإسلام وعدالته وعالميته أن يحول القيمون عليه بين الطواغيت وحاكمية العباد والبلاد بحيث لا يكون لهم سبيل على المؤمنين والمستضعفين ، وهذا ما عبّر عنه بقوله : « إن المسيح اليوم موجود فإنه سوف يكون معنا ، ولا يمكن أبداً أن تكون دعوة المسيح منحصرة فقط بالعبادة ترك الظالمين وشأنهم » (١٧) .

إن ما يدل على شمولية لخطاب الإمام وعالميته وحيويته في العالم ، هو تفاعل غير المسلمين مع هذا الخطاب ، وتبني أكثر حركات التحرر مفرداته ومضامينه لا

يكون الإسلام تارة قومياً ، وطوراً اشتراكياً ، وثالثة علمانياً ، غالباً ما كانت المسوغات لذلك تصدر عن المتقديسين والمتزئنين بلباس الدين بحجة إن الإسلام مع التطور ، ولا بد أن يكون الاجتهاد خاضعاً لمقتضيات العصر ومواكباً لحركة التطور العلمية !! .

فالإمام ﷺ في خطابه الشامل ودعوته العالمية لم ينتق مفردة أو مفهوماً أو مصطلحاً معيناً ليبعث فيه روح الإسلام من جديد ، بل نفى كل شيء لأجل إعادة الحياة لكل شيء ، بمعنى آخر نقول : لم يكن الانتقاء سبيلاً إلى إحياء الخطاب الديني وسائر المفاهيم والمفردات الدينية عند الإمام ﷺ ، بل كان الخطاب الديني مرتكزاً إلى الإسلام المحمدي الأصيل ، ومتميزاً بمفرداته ومفاهيمه دون اعتبار لما إذا كان هناك من المفاهيم والمصطلحات ما يوافق المفهوم الإسلام ، لأن منشأ الالتباس كان ولا يزال هو الانتقاء الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى تغليب المفاهيم والمفردات الأجنبية على المفاهيم والمفردات الإسلامية ، وعلى فرض أنها كانت موافقة للإسلام وغير

انتموا لا ينتابهم أدنى شك في أن الثورة الإسلامية تعبر عنهم وتعمل من أجل خلاصهم ، وكما قال الإمام ﷺ : « أسأل الله تعالى أن يمنحنا القدرة التي نطلق بها صرخة الموت لأمريكا وروسيا لا من كعبة المسلمين فقط ، بل من كنائس العالم أيضاً » (١٩) .

والحق يقال : إن الشعوب الإسلامية والمستضعفة اليوم في أكثر البلاد الإسلامية تعيش في ظل مفردات ومفاهيم دينية وسياسية لا تمت إلى الإسلام بصلة لا من حيث الجوهر ولا من حيث الممّون ، وإذا كان هناك ثمة مفردات ومفاهيم لم يتمكن المتغربون والمتشرقون من إزالتها لاستبدالها بألفاظ أخرى ، فلم يمنهم ذلك من تحريفها وإفراغها من مضمونها الإسلامي بحيث يكون لها معان أخرى تتفق وما يحملونه من أفكار ومشاريع أجنبية ، وقد نجحوا إلى حد ما في تجريد الألفاظ والمفردات الإسلامية من معناها بعد أن غزوا واقع المسلمين بكثير من المفاهيم والمفردات من قبيل الديمقراطية والدستورية والقومية والوطنية والاشتراكية والعلمانية وغيرها ، وهذا كله أدى أن

الدستورية (المشروطة) لن تكون هي الحل لما تنطوي عليه من تعقيدات ومجاهيل لا قدرة للشعب الإيراني المسلم على فكها وفهم مدلولاتها ، وفي نهاية المطاف لم يكن الحل إلا بالإسلام بعد مخاضات وصراعات وأحداث دموية تسبب بها الرأي والرأي المضاد في المفاهيم والمصطلحات .

يقول الإمام ﷺ : « كلكم رأيتم ، وسيسمع ذلك الجيل القادم أن أيدي محترفي الألاعيب السياسية الشرقيين والغربيين ، قد أخرجوا من الساحة علماء الدين الذين وضعوا أساس (المشروطة) بجهودهم وأتباعهم ، وعلماء الدين أيضاً انطلت عليهم أحبولة المتلاعبين بالسياسة واعتبروا التدخل في أمور البلاد والمسلمين لا يتناسب مع مقامهم وتركوا الساحة إلى المهزومين أمام الغرب ، وأنزلوا بـ (المشروطة) والدستور والبلاد والإسلام ما يحتاج جبرانه إلى زمن طويل » (٢٠) .

إن الحل ، برأي الإمام لا يكون إلا بالعودة إلى الإسلام مفردة ومفهوماً ومصطلحاً ، شكلاً ومضموناً إذ ؟ أنه ليس من المدنية أو العصرية في شيء أن تتبدل

مخالفة لها ، لكنها كانت مع مرور الوقت ، ونتيجة لولع الناس بكل ما هو غريب ، تتحول عن موافقتها للإسلام لتصبح غريبة عنه .

وقد حصل في التاريخ الإسلامي أن تلاعب الاستعمار الغربي والشرقي بالمفردات والمفاهيم التي يتوهم للوهلة الأولى أنها ملائمة للإسلام شكلاً ومضموناً وخاصة في تاريخ إيران التي تأرجحت ولفترة طويلة من الزمن بين الدستورية المشروطة ، والمستبدة ، وكانت النتيجة خلافات وصراعات بين الفقهاء من جهة والسلطين من جهة أخرى ، وذلك حينما طرحت مسألة الدستورية وما إذا كانت صالحة لتأسيس نظام غير مستبد ، وكان من جملة من تصدى لتسويق الدستورية (المشروطة عدد من فقهاء النجف الأشرف ، أبرزهم الميرزا النائيني في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) ، وقد تقابل هذا الدعم للحركة الدستورية (المشروطة) من قبل فقهاء النجف ، مع رفض مطلق لها من قبل فقهاء إيران دعوا إلى أن يكون الإسلام بمفرداته ومضامينه هو البديل ، ولا شك أن هؤلاء كانوا يعون تماماً أن

المفاهيم والمفردات ، أو أن يحمل الإسلام مفاهيم وأشكال لا تنسجم ومضمونه ، فهو كتاب يدعو إلى الحرية والاستقلال ، وإلى إقامة العدل وتحقيق المساواة ، وتبقى المدنية والعصرية رهن التفاعل معه والأخذ به في شتى حقول وميادين الحياة الإنسانية ، وإذا كان لابد من الدستورية لحكم العباد والبلاد ، فلتكن هذه تعبيراً عن روح وجوهر الإسلام ، لأن حكومة الإسلام ، هي في الحقيقة حكومة دستورية ، ولكنها تختلف عن الدستورية المعنونة بالديمقراطية ، التي تجترها الأنظمة السياسية في أكثر بلاد العالم اجتراراً ، اختلافاً جوهرياً سواء من حيث التشريعات القانونية ، أو من حيث ملاحظة مصالح الناس وتحقيق العدالة الاجتماعية ؟ !

هكذا أراد الإمام الخميني أن يكون الإسلام عنواناً لكل شيء ، وقد أفادته التجربة كثيراً فيما يعود إلى الحياة الدستورية والديمقراطية تحت عناوين الغربية والشرقية ، وأيقن أن الإسلام ما لم يكن أطروحة الحياة ، ومحور الخطاب الديني والسياسي ، فإن الحياة الدستورية

وغير ذلك مما جعله الاستعمار والتابعون له بديلاً للإسلام ، قد تتحول إلى الاستبداد وممارسة الظلم بحجة حماية القوانين والحرريات العامة كما كان يحصل في تاريخ إيران السياسي حينما أوهم السلاطين كثيراً من علماء الدين من أن السياسة والعمل بها عمل مناف لجوهر الإسلام ، ولا تليق بمقام العلماء كما أوضح الإمام ﷺ ، فكان الإسلام شعاراً للحياة الدستورية ، ولكنه في الحياة العملية كان تطبيقاً لا يحمل خصائص النظرية الإسلامية من حيث هي نظرية كاملة وشاملة ، حيث أن السلاطين ، كما يقول الإمام ﷺ ، كانوا يستعيرون قوانين ومفاهيم ومفردات الغرب والشرق ، من ثم يسدلون عليها ستار الإسلامية والدستورية والديمقراطية ، وكانت النتيجة صراعات وحروباً وقوميات عنصرية ووطنيات مشبوهة أتى بها المتغربون والمستشرقون من هنا وهناك ليحولوا دون حيوية الخطاب الإسلامي في حياة المسلمين ، ولهذا يقول الإمام : « إني أوصي الشعوب الإسلامية أن لا تنتظر أحداً من الخارج ليعينها على الوصول إلى الهدف وهو الإسلام وتطبيق

واستقلالاً ، وإذا كانت الشعوب لا تستوي في لغاتها وإشكالها وألوانها ، فذلك لا يعني أن قضاياها متباعدة ، بل هناك قضية واحدة يمكن أن تتلخص بالسؤال الآتي : كيف تحيي الشعوب الإسلامية خطابها الديني والسياسي في مواجهة الاستكبار وعملائه في داخل البلاد الإسلامية وخارجها ؟ ! فإذا كان الإسلام هو الحياة ، وهو النظام ، وهو الخطاب ، فلا شك أن المسلمين لن يكون لهم أكثر من هدف واحد هو إعطاء الإسلام أبعاده كافة في الواقع ، وقبله في القلوب والعقول والنفوس .

مما تقدم نخلص إلى القول بأن حيوية الخطاب الديني وشموليته لا تكون بالتبعية والتقليد ، ولا باجترار ما ينتجه الغرب والشرق من مفاهيم ومفردات مخالفة لروح الإسلام ، وإنما باستلهم تاريخ النبوة في صراعها مع المترفين والمستكبرين ، واستحضار ما جاءت به من مفردات ومفاهيم ، وهذا يقتضي أن يبادر علماء الدين المحترمين إلى تقلد أمور الناس الدينية والسياسية ، لأنهم أولى الناس بهذا الأمر ، وبمعزل عن دور العلماء والفقهاء

أحكامه ، يجب عليكم أن تنتفضوا من أجل هذا الهدف الذي يحقق الحرية والاستقلال ، وعلى علماء الدين أن يدعوا الشعوب إلى الوحدة وتجنب النعرات المخالفة لتعاليم الإسلام ، وإلى أن يمدوا يد الأخوة إلى إخوانهم في الإيمان بمختلف بلدانهم وقومياتهم ، فالإسلام العظيم سماهم أخوة ، وإن تحققت هذه الأخوة الإسلامية ، فتسرون أن المسلمين يشكلون أكبر قدرة عالمية ^(٢١) .

لكن ما يؤسف له ، هو أن عالمنا ما يزال حتى اليوم يتأرجح بين الديمقراطية والاستبداد ، ويخضع لمفردات ومفاهيم شتى ، ويسمع لخطابات القومية والعلمانية التي كانت ولا تزال مسميات تحول دون حيوية الخطاب الديني والسياسي في حياة المسلمين ، وما حققه الشعب الإيراني المسلم من حيوية في حياته الدينية والسياسية ، وفي علاقاته مع العالم ، يجدر بالشعوب الإسلامية والمستضعفة أن تنظر فيما أجاد به هذا الشعب على نفسه وعلى العالم من دروس في الحرية ، وأن تقتدي به لطالما أن هذا الشعب استطاع توفير المناخات الملائمة لمن أراد حرية

ما أن ما تضمنته بعض النصوص الدينية لجهة الحديث عن اعتزال السياسة ، فهو أيضاً مما بثته دوائر المعادين للأديان السماوية ، لأنه يستحيل أن يكون الأنبياء قد تخلوا عن السياسة للمترفين ، وانطلاقاً من هذه الحقيقة ونعني بها قيام الأنبياء بالمهام الدينية والسياسية ، يمكن القول بأنه ليس من الخطوة في شيء أن يقبل المسلمون والمسيحيون وسائر المستضعفين في الأرض بحكم الجفافة الطباع في سبيل الفوز برحمة الله ورضوانه كما هو مضمون ومنطق رسالة القديس « بولس » في الكتاب المقدس لما بيناه من أن المسيح لو كان اليوم موجوداً لما تساهل مع أعداء الدين ، وكذلك ليس من الخطوة في شيء أن نعطي الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن ، باعتبار أن الأنبياء جميعاً كسروا الأصنام ، ومنعوا من الاستبداد ، وأصلحوا في الأرض ، وكفروا بالطاغوت قولاً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

إن ملاحظة تاريخ الصراع بين النبوة والمترفين ، يؤكد أن الأنبياء لم يكونوا على تهاون مع المترفين ، ومن يعتبر نفسه

في الرعاية والهداية والتدبير ، يبقى الحديث عن الخطاب الديني وحيويته حديثاً لا ينطوي على أي معنى ، باعتبار أن العلماء هم عمدة هذا الخطاب ، ومن الإسلام في كل شيء أن يحول العلماء بالله بن المتقدين والمترفين وبين أن يكون لهم سلطان على الناس ، وهنا يمكن أن نسأل :

هل من إحياء الخطاب الديني في شيء أن يتخلى العلماء عن السياسة ، وأن تعطى مقاليد الأمور للجاهلين بأمر الله ونهيه ، ولمن يتربص بالإسلام والمسلمين شراً تحت عنوان أن السياسة كذب وخداع ونفاق ؟ ؟

لقد أجاب الإمام الخميني رحمته الله عن هذا التساؤل بقوله : « إن ما قيل ويقال من أن اهتمام الأنبياء محدود بالأمور المعنوية ، وإن شؤون الحكم والإدارة للأمور الدنيوية عمل منبوذ أجنبته الأنبياء والأولياء والصالحون ، وعلينا أن نجتنبه أيضاً ، فهذا خطأ مؤسف يؤدي إلى تلاشي الشعوب الإسلامية وفتح الباب أمام الاستعمار وناهبي العالم ... » ^(٢٢) .

فالأنبيا والأئمة عليهم السلام لم يجعلوا أولياء للناس لمجرد ذلك فقط ، أي أن يكون الجعل الاعتباري لمجرد التبرك ، كما أن البعثة لم تكن بهدف تنصيب الأنبياء والأئمة ملوكاً ، أو ليخفوا عن عزيمة الإنسان في سعيه من أجل بناء حياة سليمة ومتوازنة ، بل بعثوا للكشف عن هوية ومضمون كل الملوكيات العارية التي استبدت وطغت وأترفت واستخفت بكل القيم والأهداف والمبادئ ، حيث أن رحمة الله تعالى ، وعنايته وحكمته أبت أن يترك الناس هملاً تقذف بهم أهواء الترف وسياسات الغرور في كل اتجاه ، فبعث إليهم بما يحييهم ، بالرسول والرسالة لإخراجهم من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى سبيل الرشاد ...

خلاصة القول : إن النبوة الخاتمة أسست لمنطق وفعل حضاري متكامل الأبعاد ، وليس معنى إحياء الخطاب الديني أكثر من أن يستحضر المسلمون والمستضعفون فعل النبوة وقولها في حياتهم العملية . فالنبوة لم تدخل الزمن حياتهم العملية . فالنبوة لم تدخل الزمن لأجل أن تغيب ، بل لتبقى فاعلة وحية

امتداداً للنبوة في الزمان ، فلا يسعه إلا أن يقوم بالمهام الدينية والسياسية نفسها التي كان يقوم بها الأنبياء ، إذ أن منطق الصراع وجوهره بين الحق والباطل يقتضي أن يستمر مشروع النبوة في الحياة مع الفقهاء ، وبتعبير آخر نقول : إن منطق فرعون « قد أفلح اليوم من استعلى ، لا بد أن يقابله ويواجهه منطق الأنبياء والأئمة ، منطق ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، فهذه سنة الله ولمن تجد لسنة الله تبديلاً ...

فالنبي موسى عليه السلام كما يقول الإمام الخميني رحمته الله « ثار بوجه فرعون وحيداً ، وكذلك نبي الإسلام لم يكن معه سوى الإمام علي وخديجة ، وقد تمكن الأنبياء جميعاً من بعث الروح في المجتمع الإنساني بما توفرنا عليه من عزيمة وصدق وإخلاص ، وعليه ، فإن الخطاب الديني الشامل والحي لا يمكن أن يتم بمعزل عن السيرة الجهادية لأنبياء الله وأوليائه ، وما لم يقم العلماء المحترمون بمهام النبوة ، فإن الخطاب الديني سيبقى رهين السياسات الشيطانية ، وقد عبّر الإمام عن هذا بقوله : « إن عزل العلماء المحترمين هو مخطط شيطاني ... » ^(٢٣) .

يقول الإمام الخامنئي (دام ظله) أعظم معجزة في هذا العصر : « الإمام ﷺ هو محيي التفكير الديني ومؤجج شعلة الإيمان وخالق أعظم ملحمة شعبية في عصرنا هذا »^(٢٥).

دور علماء الدين والمراكز الدينية في إحياء الخطاب الديني

إذا كان الإمام الخميني ﷺ قد أرسى بجهوده وتضحياته قواعد الخطاب الديني والسياسي ، واستطاع أن يحقق المجتمع الإسلامي بالمفردات والمفاهيم الدينية التي كانت غائبة أو غريبة في مجتمعات المسلمين نتيجة لتخلي المسلمين عن القرآن ولحاقهم بالحضارة الغربية المادية ، فإن الإمام في خطابه الإسلامي لم يغفل عن دور علماء الدين في إحياء الخطاب الديني بكل مفرداته ومفاهيمه ، وعن قدرتهم على إصلاح ما فسد من أمور المسلمين ، يقول : « إن قيادة الأمة إلى الإصلاح ومعرفة الإسلام على وجهه الصحيح ، تستلزم صلاح أهل العلم وحملة الشريعة ، بمعنى ضرورة تكامل نشاطهم التعليمي والاعتماد على النفس والثقة بها واجتناب الكسل والوهن والنكول ،

وحاضرة بأطروحتها الإيمانية والتوحيدية ، بخطابها الكامل الشامل ، وإن أهم فعل حضاري يمكن أن يقوم به الإنسان اليوم ، هو إخضاع حركته التاريخية وحيويته الزمانية ، وحياته الواقعية إلى منهج وفعل وحركة النبوة الخاتمة بكل ما جاءت به من مفاهيم ومفردات ، باعتبارها نبوة خاتمة وكاملة وشاملة . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢٤).

لقد عرف الإمام الخميني ﷺ كيف يستحضر النبوة في حركته وثورته وخطابه الديني والسياسي ، كما أنه استطاع أن يُعطي هذا الخطاب كثيراً من امتداداته في الواقع ، فأقام الدولة ، وطبّق الشريعة وحقق العدالة وأصلح في الأرض ، وكفر بالطاغوت ونادى بالولاية التي ما نودي بشيء مثله ...

إن دور الإمام ﷺ في إحياء الخطاب الديني ، وإشاعة المفردات والمفاهيم الدينية ساهم ولا يزال يساهم وسيبقى يساهم في تنوير ما أظلم من أفكار ومفاهيم ومفردات إسلامية أصيلة ، وإذا كان لا بد من الاختصار فلنقل : إن الإمام ﷺ أضاء شعلة الإيمان ووصل الزمان وحقق كما

والإرشاد» (٢٩) .

على أي حال فإن إحياء الخطاب الديني يبقى في الدرجة الأولى مسؤولية علماء الدين الذين عقلوا عن الله وفهموا عن الإسلام والأئمة ما ينبغي القيام به لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وإزالة الظلم والحرمان عن الشعوب المسلمة والمظلومة في العالم ، لأنه إذا لم يقيم هؤلاء العلماء العدول بمهمة الإصلاح والقيادة فإن كل شيء في بلاد المسلمين وحياتهم يصبح عرضة للمسح والتشويه ، وقد روجت الأنظمة الجائرة على طول تاريخنا الإسلامي بأنه ليس من مسؤولية علماء الدين القيام بالمهمة السياسية لما يرافقها من خبث ومكر وخداع ، وهذا كله يتنافى مع الإسلام ، ومما يؤسف له أن كثيرين من علماء الدين وقعوا في التباس ، واستجابوا لهذه المزاعم وقد دفعوا بأنفسهم إلى الاعتزال والانزواء تاركين السياسة لمن يغدر ويفجر ويملك فنون الكذب والاحتيال والدهاء ، بحجة أن هذه الأعمال ليست من الإسلام في شيء ، وكما يرى الإمام الخميني (ره) : « إن أحد رجال الدولة في إيران خاطبة في السجن بالقول : إن

ومحاولة محو آثار ما ينشر في الناس من أبطال ... وطرده فقهاء القصور الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم ، من صفوفنا ، وأبعدهم عن زينا وتعريتهم وفضح أعمالهم » (٣٠) .

وكما ورد في كثير من الأحاديث عن الأئمة (عليهم السلام) من أنه إذا صلح العالم صلح العالم ، وما لم يقيم علماء الدين بمسؤولياتهم الثقيلة والجسيمة ، فإنهم بذلك يكونون قد تركوا أمور الناس وشؤونهم الدينية والسياسية للحكام الجائرين ومن يقتدي بهم من فقهاء البلاط الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم كما يقول الإمام الخميني (ره) ، وهو يذكر « إنه ذات مرة ذهب إلى بعض المدن في فصل الصيف ، فرأى الناس مؤذيين مهذيين ، والسبب في ذلك كما تبين للإمام هو أن عالم تلك المنطقة إنسان متق صالح » (٣١) . وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) : أنه قال : « كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية » (٣٢) ، يقول الخميني (ره) : « إن مجرد وجود العالم المتقي في منطقة ما كاف في إرشاد الناس والتأثير عليهم حتى إذا لم يقيم بالوعظ

فاعتبروا التدخل في شؤون البلد والمسلمين لا يناسب مقامهم فأودعوها بأيدي المتغربين» (٣١) .

فالإسلام دين ، سياسته عبادة وعبادته سياسة كما يقول الإمام ﷺ ، وإذا كان الإسلام كذلك ، فكيف يمكن الفصل بين الدين والسياسة ؟ بل ما معنى الدين إذا كانت البلاد وأهلها ، ستترك للفراغة والمترفين ؟ وهل ما قام به الرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام من مهام سياسية ، قبل وبعد إقامة الأمة الإسلامية لم يكن عملاً سياسياً ؟ !

لاشك أن السياسة هي عبادة من عبادات الإسلام ، وما لم يتصد علماء الدين المحترمون لهذه المهمة ، ويقوموا بمهمة الإصلاح ، فإن المفردات والمفاهيم الدينية ستبقى دون تأثير في الحياة العملية للناس ، باعتبار أن الأحياء لهذه المفاهيم ولكل ما ينطوي عليه الخطاب الإسلامي من مفردات ، إنما يكون ممكناً وفاعلاً في ظل إقامة الحكومة الإسلامية ، ومن خلال تصدي العلماء المحترمين لمهام الرعاية والهداية والتدبير ، بحيث يكون هناك صيرورة على

السياسة خبث وكذب ونفاق اتركوا ذلك لنا ، يقول الإمام : « هذا صحيح ... ولكن السياسة في الإسلام ولدى الأئمة الذين هم ساسة العباد لا تعني ما قاله لي ذلك الرجل .. » (٣٢) .

لقد تأثر الخطاب الديني والسياسي عند كثير من علماء المسلمين بما روج له السلاطين وفقهاء البلاط ، على الرغم من أن فقهاء البلاط كانوا يقومون بمهام سياسية ودينية لتسويق مشروع الحاكم الجائر ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخطبون في الملاء أن التدخل في السياسة عمل لا يتفق وجوهر الإسلام ، وقد خدع الناس بهؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما كان يقوم به فقهاء البلاط من مهام سياسية ليسألوهم عن معنى الدين والسياسة في أجواء الترف والجور السلطاني .

إن الإمام ﷺ في خطابه الديني يحث علماء الدين المحترمين أن لا يعزلوا أنفسهم عن قضايا المجتمع ، كما أن عليهم أن يكشفوا عن زيف والأعيب محترفي السياسة التابعين للغرب والشرق في بلاد المسلمين ، يقول : إن العلماء قد خدعوا بالأعيب محترفي السياسة ،

فرصة الانقلاب على ما حققته النبوة على مستوى العقيدة والمشروع السياسي ، فوجد المترف نفسه مضطراً لسلوك الطريق السري ليحقق أهدافه ، أي أن مقولة أنا ربكم الأعلى ، ويا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، هذه المقولات لم تختف بالفعل الديني أو السياسي نهائياً ، وهي لا تزال تقال حتى يومنا هذا ، لكن منها ما يقال باللفظ ومنها ما يقال بالمعنى ، وذلك يبقى خاضعاً لضعف أو قوة الإيمان في مجتمع إنساني ما ، إذ أنه حيث يكون الاستخفاف بالناس تكون الفرعونية ، وحيث يكون الإيمان تكون النبوة أو أثرها ، وما ينبغي قوله هنا ، هو أن المترفين وإن تخلوا عن مشروعهم السياسي ومقولاتهم التقليدية والذهرية بسبب قوة وحضور الإسلام ، فذلك لم يكن إذعائاً منهم أو تسليمًا بما جاءت به النبوة ، وإنما خوفاً منها وقناعة منهم بعدم جدوى تأليه أنفسهم ، مما اضطرهم إلى التكلم باسم الدين ووسم أنفسهم بصفة القداسة والحكم باسم الله ، وكما يقول الكواكبي : « إنه ما من مستبد إلا ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله »^(٣٢) .. لكن هذه

مستوى الفعل السياسي ، فلا يقتصر الأمر على خطاب ديني وسياسي مجرد عما يعيشه المسلمون ويتعرضون له من مصائب ومحن وبلاءات بسبب تصدي الجهلاء ، وكل من تسمى بالعلم وليس به منه ومن أخلاقه شيء .

إن الخطاب الإسلامي مع كل الذين حكموا باسم الإسلام لقرون من الزمن كان خطاباً إسلامياً بالشكل لا بالمضمون ، وهو غالباً ما كان خطاباً بمفردات ومفاهيم الفرعونية الخفية التي رفعت شعار الإسلام والشورى والعدالة لإيهام الناس بأنها من الإسلام في شيء ، لكنها في المضمون كانت فرعونية تحكم باسم التفويض الإلهي ، وغير ذلك من مقولات ، من قبيل أنا سلطان الله في الأرض كما قال المنصور ، وإن الله أراد لي الملك وأنتم له كارهون كما قال معاوية بن أبي سفيان ، ولو أردنا استعراض ما تنطوي عليه كتب التاريخ من النصوص الفرعونية الخفية لما اتسع لها هذه البحث .

والحق يقال : إن الترف العلني ، بعد انتصار النبوة ، لم تعد له قوة أن يملك

إذن الخطاب الديني الحي والفاعل إنما يكون بتصدي الفقيه العادل لأمر الناس الدينية والسياسية ، حيث تكون له القدرة على إحياء ما يحتاج إليه المجتمع من مفردات ومفاهيم تعزز دوره وتؤهله لأن يرتقي في كمالاته ، أما أن ينزوي علماء الدين ، وتترك الأمور للسلطين وفقهاء البلاط ، فذلك ما ابتلى به المسلمون لفترة طويلة من الزمن ، وقد حذر الإمام من ذلك ، داعياً إلى أن تكون الأمور ومجاريها بأيدي العلماء والمراجع لكونهم من أقدر الناس على الرعاية والهداية والإصلاح .

على أي حالة ، فإن الاستبداد ما يزال يتحكم بكثير من الشعوب المظلومة والمستضعفة في العالم ، وإن اختلفت أشكاله وألوانه ، ووسائله ، فهو من حيث الطبيعة والأهداف والنتائج واحد ، وقد شق طريقه في تاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام من خلال ما يسمى بالسلطة المطلقة القائمة أساساً على اعتبار الحاكم حاكماً بأمر الله وذا طبيعة إلهية معصومة ترفع به عن كونه بشراً . وإن هذا الشكل من أشكال الحكم كان دائماً يظهر على يد مجموعة تدعي إتباع هذا الدين أو ذاك

الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه ، كما فعل فرعون قديماً ، « وقد تكون خافية مستترة وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ »^(٢٣) .

إن الإمام الخميني في خطابه الديني والسياسي ، وفيه وصيته السياسية الإلهية لشعوب العالم الإسلامية والمستضعفة حينما يدعو إلى إصلاح المتقديسين ، وتطهير المراكز الدينية ، وطرد فقهاء السلطين^(٢٤) ، هو إنما يؤكد البدء بإحياء الخطاب الديني الصحيح من خلال القضاء على دور هؤلاء في حياة الناس وكشف ألعيبهم لئلا يكونوا أعداء للأمة من الداخل ، يقول : « فهؤلاء يوجهون أكبر لطمة للإسلام بصورة مشوهة ، ويجد من هؤلاء كثير في الحوزات العلمية ، ولهم تأثير على بسطاء الناس ، كما أنهم يعارضون أية صرخة لإيقاظ الناس من السبات ويدعون إلى الكسل والتخاذل »^(٢٥) ، وقد ورد في الحديث في شأن فقهاء السلطة : أخشوهم على دينكم »^(٢٦) .

وصفته ، باعتباره حاكماً اصطفاه الله وأودعه السلطة ، ومن قبيل هذا ما نقرأه في رسالة القديس « بطرس » الأول في أولياء الأمر ، وما نقرأه في تاريخ الخلفاء والأمراء الذين حكموا باسم الإسلام وما تزال هذه النصوص حية في القول والفعل حتى يومنا هذا .

فالتurf الخفي الذي حاول الحكام الجائرون في تاريخ الأديان السماوية تدعيمه وتبريره ، لم يكن ترفاً وجوراً مشابهاً لما كان عليه الترف الفرعوني من صراحة ووضوح ، وكما يقول الإمام الخميني : « لو أن المسلمين تساهلوا مع هؤلاء الجائرين والمترفين لما توانوا عن تنصيب أنفسهم آلهة للبشر »^(٣٧) ، وعن إدعاء الربوبية كما قال فرعون : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ . لكن هذا الترف يلتقي في كثير من الوسائل والأهداف ، والحق يقال : إن الذي حال دون استمرار الترف الفرعوني بأسلوبه ومضمونه هو النبوة وما تركته من آثار إيمانية وسياسية ومعرفية في حياة الناس ، ولما كان هدف المتربصين بالنبوة وأتباعها شراً ، فلم يجدوا بداً من استخدام الدين الجديد ، وإظهار حرصهم الشديد عليه ، وقد استطاعوا

يدفع بها الترف وحب الدنيا والرياسة إلى تأويل النصوص المقدسة على وفق ما تراه ملائماً لمصالحها وأهدافها الخاصة ، وتقدم اجتهادات شخصية وتأويلات ذاتية تمكنها من الوصول إلى الفقه باسم الدين فتكون لها مقاليد الأمور ، وتستخدم في عملها أخط الوسائل والدسائس والقتل والرشوة والمال والإرهاب والكذب على الله ورسوله لتحقيق رغباتها !!

إن المترفين والمستكبرين الذين حذر منهم الإمام الخميني ودعا إلى نبذهم كانوا يحاربون الله والنبوة وكل من يؤمن بهما ويخوضون حرباً ضروساً ضد ما جاء به الأنبياء من تعاليم ومبادئ وقوانين ، وقد تحولوا بعد هزيمتهم في صراعهم مع النبوة إلى محاربين لها باسمها وباسم الدين ، كما هو شأن كل السلطات المطلقة والحكومات الجائرة التي تعتبر نفسها من طبيعة إلهية ، وتحمل نظرية الحق الإلهي المباشر ، وقد تطورت هذه النظرية مع ظهور المسيحية والإسلام ، وهذا التطور السلبي للتurf والاستكبار يمكن ملاحظته فيما انطوت عليه بعض الكتب والأحاديث حول تقديم الطاعة للحاكم مهما كان نوعه

من تعاليم وقوانين وأحكام في الدين والدولة ، فإن الاستبداد السياسي سيبقى مدعماً بكثير من النظريات الدينية والفتاوى الشرعية ، ومما يدل على هذا ، هو أن السلاطين في التاريخ الإسلامي قد أنشأ والفرق أو على الأقل دعموها لتقوى وتنتشر لتساعدتهم على تأليف الأفكار الدينية والسياسية التي تساهم في تقوية نظام الحكم القائم تحت شعار الحكم بما أنزل الله تارة ، والقتال لأجل أن يعود الأمر شورى بين المسلمين طوراً ، كما حصل في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم .

لسنا نقصد بالتurf الديني المبرر للاستبداد السياسي غير ما تقدم ذكره من وجود رجال دين تسموا بفقهاء السلطة ، في خدمة المشروع السياسي السلطة ، وفي خدمة المشروع السياسي للسلطان الجائر الذي دلت حياته وسيرته وأعماله على نماذج حقيقية للفرعونية القديمة وتشبيهات أكيدة لها ، وأدنى تأمل في تاريخ المسلمين يكشف عن أن العلماء الملتزمين بالكتاب والسنة وكل الذين شكلوا امتداداً حقيقياً للرسول وأهل بيته ﷺ كانت شكاياتهم ومعاناتهم من التurf الديني أكثر

إلى حد ما من تحقيق نجاحات كثيرة على مستوى تحريف النص وتأويله له على النحو الذي يمكنهم من بسط سلطانهم الديني والسياسي على الناس ، وكادت مشاريعهم أن تنجح في الدين والسياسة لو لم تكن هناك امتدادات للنوبة في الحياة البشرية ، فالمقصود بالتurf الديني هو ما قام به فقهاء السلطة في كل زمان من تبرير للسلطة المطلقة وللتفويض الإلهي لهؤلاء بأن يحكموا باسم الله !

وما زلنا نشاهد في عصرنا هذا دور بعض رجالات الدين في دعم سلطان الحكم المطلق والحكومات الجائرة من خلال تقدم الفتاوى اللازمة لذلك . إنه ترف ديني يستعمل اسم الله وفي سبيل الله قولاً ، ولكنه في الجوهر والفعل يخدم السلطان الجائر ، ويستعمل آلة الدين للدنيا ، كما قال الإمام علي عليه السلام : « بلى أصبت لقناً غير المأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدنيا ، ومستظهِراً بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه » (٣٨) .

كان وما يزال التurf الديني بعد انقضاء النبوة عمدة الاستبداد السياسي ، وما لم يحكم أتباع النبوة والعارفون بما جاءت به

على هذه المدارس ، وقد شهدنا مؤخراً ،
وحصراً منذ سنة ١٩٩١ التي بدأت فيها
مفاوضات مدريد بين العرب و (إسرائيل)
كثيراً من الفتاوى المبررة للصلح مع
(إسرائيل) على قاعدة قوله تعالى :
﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ ^(٣٩) ،
﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ^(٤٠) .

إضافة إلى ما أدعاه بعض المترفين
الدينيين ، من إن الجهاد ليس معناه قتال
الكفار والمشركين ، وإنما معناه محاربة
الجهل والفقر والمرض وما إلى ذلك من
مقولات واجتهادات وتأويلات شخصية تبرر
الصلح مع العدو الصهيوني وتدعو إلى إقامة
علاقات طبيعية معه .. ؟ !

إننا نزعّم بأن بعض المتدينين
والمقدسّين ممن يفترض فيهم أن يتحملوا
مسؤولية الدفاع عن المشروع الإسلامي
والعمل من أجل تطبيقه ، قد وصلوا إلى
مرحلة من الترف سواء في المال ، أو في
السلطة ، قلما استطاع أن يصل إليها
المترف السياسي المستبد ، وبما أن الدين
ليس ترفاً ولا حرصاً على الدنيا بما فيها من
أموال ومتاع الغرور ، لما بينته النبوة
والرسالات من أنه مسؤولية وأعباء ودفاع

مما كانت من الاستبداد السياسي المتمثل
بالسلطة الجائرة بدليل ما واجهه الإمام
عليه السلام في حرب الجمل ، وفي حرب
صفين ، وحرب النهروان وفي غيرها من
المواقع العسكرية ، وأكثر ما كانت هذه
المعاناة في المواقع السياسية التي كان
يستخدم الصراع فيها حول طبيعة الحكم
ومن تكون له الأحقية به ، أو حل الشورى
وما إذا كانت بديلاً للنص وغير ذلك ...

ولو أردنا إقامة البرهان على ما للترف
الديني من أثر سلبي في حياة الناس في
عصرنا الحاضر لما احتجنا إلى مزيد من
التأمل والبحث ، فيما آلت إليه المدارس
الفقهية والمذاهب الكلامية في ضوء
تحكمات الاستعمار الجديد بالمنطقة
العربية الإسلامية ، وبروز مدارس ترف
جديدة ساعدت على إيجاد الكيان
الصهيوني في فلسطين ، وقتل روح
الجهاد في أفراد وجماعات الأمة
الإسلامية ، وكيف لا تصل الأمة إلى هذا
المستوى من الهزيمة على صعيد الروح
والمادة معاً ، إذا كان كل شيء مبرراً من
قبل بعض المدارس الفقهية والكلامية ،
ومؤمناً له الغطاء الكامل من قبل القيميين

يعقد لهم عقدة ، ولا يبنّي معهم بناء .. »^(٤١) .

وهنا أراني مضطراً للقول : بأن انقسام العالم اليوم إلى مترفين وفقراء ، وأقوياء وضعفاء ، لم يكن ذلك بسبب رجالات السياسة فقط ، بل ساهم في هذا الانقسام والاستبداد فقهاء السلطة أيضاً ، حيث أعطوا رجال السياسة مقاليد الأمور بتكليف من دوائر الأمن والاستخبارات^(٤٢) ، ودخلوا معهم في أتون الترف والفساد ، حتى بلغ الأمر بهم درجة البطر بالنعم والتفريط بها ، بدل أن يرشدوهم ويقدموا لهم النصيحة فيما ينبغي أن يعملوه من أجل حماية الأمة من شرور الفراعنة والطغاة .

لقد ساهم هذا الترف وما تسبب عنه من انقسامات على مستوى الأمة ، في خلق الظروف المناسبة لإيجاد الكيان الصهيوني في فلسطين ، وما كان ذلك ليتم لولا التهاون بكل المبادئ والقوانين والإرشادات التي أتى بها الأنبياء لإحياء المجتمعات البشرية ، وإذا كان التهاون يدل على شيء فإنه يدل على عقلية الترف وسياسة الترف الحاكمة في المجتمع ، وقد أثبتت التجارب التاريخية ، إن هذه العقلية

عن قضايا المستضعفين وحقوقهم ، فإن ذلك يحتم إعادة النظر فيما انتهت إليه الحوزات العلمية والمدارس الفقهية والكلامية في العصر الحاضر ، من ترف ديني وسياسي لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تصدع هذا البناء المقدس بسبب ما لحق به من غرور وكبرياء وترف وتهاون بالمسؤولية الشرعية التي أُلقيت على عاتقه منذ القدم ، إن الأمة ما تزال ترى في هذا الصرح العلمي المقدس الأمل والرجاء والعلم والتقوى ، وما لم يتحرر هذا الصرح الذي يحتوي على كل العلوم التي تحتاجها الأمة لبناء نفسها وتحقيق مشروعها ، وما لم يتحرر أهله من عقلية الترف التي تستبد بالأكثرية منهم ، فإن المستقبل سيوجد على الأمة بكثير من المصائب والبلايا قد لا يكون أقلها تحكم (إسرائيل) بخيرات وثروات وقرارات هذه المنطقة الغنية من العالم ، يقول الإمام الخميني : « إن الحوزة الدينية هي موطن الفقهاء العدول ، ومعدن أمناء الله وخلفاء الرسل ، ومن يكون أمين الله في عبادته وبلاده لا يطمع في شيء من فضول الحياة ، ولا يطيع للظالمين أمراً ، ولا يزكي لهم عملاً ، ولا

عليه ، وإن كنتم - لا سمح الله - إنما تدرسون علوم الدين لتترفوا في الحياة ، فأنا أؤكد لكم أنكم لا تبلغون من الله شيئاً ، ولا تنالون لديه مقاماً محموداً ، والله يحرمكم من التوفيق إلى فضيلة الاجتهاد والفقهاء والبصر في أحكام الدين ، ولستم بذلك أمناء الرسل ولا ورثة الأنبياء ، ولا حصون الإسلام ، واتركوا زخارف الحياة واكتفوا بعيش الكفاف ليقفدي الناس بكم في عفة نفوسكم» (٤٣) .

إن سلامة الدين على مستوى العقيدة والشريعة لم تكن بسبب السلطان ومن لاذ به من فقهاء البلاط ، ولا بسبب المترفين الذين اتخذوا الدين شعاراً وديناً ، وإنما استمر الدين حياً مع العلماء والعدول الذين أسسوا للثورة ضد الظلم والظالمين ، وقد تعرض هؤلاء العلماء إلى كثير من المن والمصائب في سبيل إبقاء تعاليم الدين حية في المجتمع الإنساني ، كما إن وجود هؤلاء العلماء قد حال دون إفساد عقائد الناس بما تمكنوا من الحفاظ عليه في ظل حكم الاستبداد والترف ، إن العلماء بالله وإن كانوا قلة ، فقد استطاعوا توجيه النقد إلى كل الذين تزينوا بزي الدين زوراً ونفاقاً ،

لا بد أن يتولد عنها فقر مادي وروحي ، هذا فضلاً عما يتولد عنها من جهل بأمور الدين والدنيا ، وإذا ما استمرت هذه العقلية في حكم الدولة والمجتمعات ، فإن النتيجة ستكون لا خسارة فلسطين وحسب ، بل خسارة شاملة على مستوى وجود الأمة وحضورها وفعلها .

لقد أرشد الإمام الخميني إلى حقيقة ما ينبغي القيام به من قبل علماء الدين والمراجع العظام ، والإمام (ع) - كما نعم - قرأ بدقة لا متناهية تجارب الاستبداد الديني والسياسي وعرف مواطن الخطأ ، ومقاتل الأمة : وأدرك أسباب المصائب التي وقعت على المسلمين تحت شعارات شتى في الدين والسياسة ، وارتفع فوق أطروحات القومية والدستورية والعلمانية وغيرها ، ليلامس حقيقة الإسلام المحمدي الأصيل ، ومن موقعه هذا استطاع أن يرشد وينصح العلماء والفقهاء بأن يبتعدوا عن الترف في الحياة ، لأنه يؤدي إلى أن يكون الدين مشروعاً مستثمرأ في مشاريع الترف الدينية والسياسية يقول : « أعرضوا عما ضمن لكم في هذه الحياة الدنيا ، وزكوا أنفسكم ، واتقوا ربكم واتكلموا

من انكبابهم على تحصيل الجاه والرياسة وتمشية أغراض الملوك . في ما لا يجوز ، أنظر إلى ما يقاسيه في نفسه ومجتمعه العالم والمجاهد في سبيله «^(٤٥) .

ودأبوا على تسويغ مشروع السلطان السياسي ، وتشويه سيرة العلماء الحقيقيين ليحولوا بينهم وبين تسلّم السلطة^(٤٤) .

يقول الملا صدرا : « لقد اتهموهم وتوجهوا بالنقد إلى فقهاء البلاط لما رأوه

الهوامش:

- (١) الإمام الخامني، حديث الشمس، ترجمة رعد جبارة، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ص ١٠٤.
- (٢) الأنفال: ٢٤.
- (٣) الاستقامة والثبات في شخصية الإمام عليه السلام، وترجمة كاظم ياسين، بيروت، مركز الإمام الخميني الثقافي، ص ٣٣٥.
- (٤) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، ص ٣٣٦.
- (٥) آل عمران: ١١٠.
- (٦) الوصية السياسية الخالدة للإمام الخميني عليه السلام، طهران، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.
- (٧) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، يقول الإمام الخميني عليه السلام: «لقد أسس نبي الإسلام حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتاز عنها بدافع إقامة العدالة الاجتماعية وبسطها وكان لخلفاء الإسلام الأوائل حكومة على أمصار أوسع وأشمل، وتأسيس حكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام بالدافع نفسه ولكن على نطاق أوسع وأشمل، وبعده تحول الأمر شيئاً فشيئاً إلى حكم باسم الإسلام، واليوم أيضاً كثيرون هم أدعياء أتباع الإسلام والرسول عليه السلام في الحكم». انظر الوصية الإلهية، وزارة الإرشاد الإسلامي.
- (٨) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٩) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (١٠) من رسالة الإمام الخميني إلى ميخائيل غورباتشوف.
- (١١) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (١٢) النحل: ٣٦.
- (١٣) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، ص ٢٩٥.
- (١٤) الوصية الخالدة، مصدر سابق.
- (١٥) هود: ٨٨.
- (١٦) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، ص ٣٢٢.
- (١٧) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، ص ٣٢٤.

- (١٨) سبأ: ٣٤ - ٣٥.
- (١٩) الاستقامة والثبات، مصدر سابق، ص ٣٢٥.
- (٢٠) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٢١) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٢٢) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٢٣) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٢٤) الأنبياء: ١٠٧.
- (٢٥) حديث الشمس، مصدر سابق، ص ٨٧.
- (٢٦) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، دروس فقهية في النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ.
- (٢٧) الإمام الخميني، الجهاد الأكبر، ترجمة حسين كوراني، الدار الإسلامية ص ١٣.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ١٣.
- (٣٠) الحكومة الإسلامية، مصدر سابق، ص ١٣٦.
- (٣١) الوصية السياسية، مصدر سابق.
- (٣٢) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، بيروت، دار النفائس ص ٦١.
- (٣٣) إمام، إمام عبد الفتاح، الطاغية، دراسة فلسفية لنشوء الاستبداد، ١٩٩٤، ص ٩.
- (٣٤) الحكومة الإسلامية، مصدر سابق، ص ١٣٢، ١٣٣.
- (٣٥) المصدر نفسه.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
- (٣٧) حديث الشمس، مصدر سابق، ص ٣٣.
- (٣٨) الإمام علي عليه السلام نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٤٧.
- (٣٩) الأنفال: ٦١.
- (٤٠) النساء: ١٢٨.
- (٤١) الحكومة الإسلامية، مصدر سابق، ص ١٤١.
- (٤٢) المصدر نفسه، حيث إنه في كلامه ما يفيد هذا المعنى.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤.
- (٤٤) المصدر نفسه، ص ١٧٢.
- (٤٥) الملا صدرا، مفاتيح الغيب، إيران، مؤسسة مطالعات، ص ١٩٩.

حوزة النجف الأشرف

ودورها المقاوم للاحتلال والاستبداد

دراسة في الفكر المقاوم للحوزة النجفية

ثورة العشرين وما بعدها نموذجا

رضا قاسم

باحث بوزارة التعليم المصرية ، وله مؤلفات عن فكر أهل البيت عليه السلام

مقدمة عن العراق بين الاحتلالين

لا يخفى على لبيب بالإشارة يفهم أن الفكر الشيعي هو فكر ثوري مقاوم من البداية للنهائية هو فكر يرفض الظلم والاستبداد والقهر ، هو فكر يمنع الأذى عن بني الإنسان أيا كان دينه ومذهبه وعرقه ، ولم لا وقد أوصى الإمام علي

سلام الله ابنه الإمام الحسن عليه السلام قائلا له : (كن للظالم خصما وللمظلوم عوناً) ، وقد كان الظلم دوما ما يقع على الشيعة ولكنهم دوما ما كانوا يحرصون على وحدة الصف ، ولكنهم وفي المقابل كانوا يرفضون الاستبداد والظلم والقهر ، فكانوا يثورون على الطغاة ، ولكنهم يتعاملون مع الناس بالخلق الحسن ، وقد قال الإمام جعفر

البريطانيون مع أشخاص مثل الملك فيصل الأول ورفاقه من القادة العراقيين ذوي المؤهلات العالية والانتماء الكبير فإن الإدارة الأمريكية اليوم تفاوض نفسها .

إن إعادة رواية الأحداث يربطها بأحداث قريبة مشابهة ، ويجعل الناس يعرفون كيف واجه آبائهم وأجدادهم الاحتلال وقاوموه ، وكبدوه خسائر فادحة ، ويملك الجمهور اليوم وعيا كبيرا لا يقاس معه وعي الأمس وإمكانياته ، ما يستوجب الإقدام والمبادرة لحشد الجماهير من أجل تحرير الوطن ، وعلى أسس مختلفة عن السابق ، تلك الأسس التي جعلت الوطن يسقط قبل أن يحارب .

إن درس العراق بمقدار ما يعني العراق بالدرجة الأولى والأساسية ، فإنه يعني المنطقة كلها ، لأن أميركا مخططا تريد تطبيقه لإحكام سيطرتها على المنطقة أولا ، ثم مد هذه السيطرة إلى مناطق أخرى من العالم ، إلا إذا بدأت المقاومة وأوقفت هذه المد البربري الذي يريد أن يغير العالم حسب مشيئته .

الصادق عليه السلام . كونوا دعاة للناس بغير أسنتكم) ، أي بالقُدوة الحسنة والسلوك القدوة ، ولذلك فقد رأينا الشيعة طوال التاريخ يقاومون الاستبداد والاحتلال والطغيان على السواء ، فكل الثورات جاءت منهم ، وكل النهضات العلمية وقعت على أكتافهم ، وقد تمثلت الحوزة العلمية في النجف الأشرف هذا الدور المقاوم منذ تأسيسها رغم كل التضحيات التي وقعت عليها ، والممارسات الظالمة التي حدثت للحوزة وللشيعة عموما ، وفي هذا البحث نلقي الأضواء على هذا الدور المقاوم الذي تمثلته الحوزة النجفية وخاصة في العصر الحديث عليه ، لأن إلقاء الضوء على هذا الدور يخدم المقاومة ضد الاحتلال الأمريكي للعراق ، حيث تثير المطالعة التاريخية للاستعمار البريطاني للعراق بعد الحرب العالمية الأولى مقارنات كثيرة مع الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ .. ٣ ربما يكون استحضارها مهما ومفيدا .

فقد بدأ كل من الاحتلالين بإدارة مباشرة ولكن المقاومة الشديدة اضطرتهمما للتخلي عن المشروع لصالح حكم وطني ، ولكن في الوقت الذي كان يتعامل فيه

أولاً: الفكر الثوري عند أهل البيت عليه السلام

إن الأئمة من أهل البيت عليه السلام يمثلون الامتداد الرسالي للدعوة الإسلامية ، فقد كانت مهمتهم توضيح القضايا الإسلامية التي اعتراها الغموض والإبهام بعد النبي صلى الله عليه وآله بسبب الظروف والملابسات الكثيرة التي رافقت الإسلام في تلك الفترات ، والقيام بدور الحارس الأمين للقيم والمفاهيم الإسلامية ، حذراً من أن تُشوّه أو تحرّف وفقاً لمقتضيات الظروف السياسية للحاكمين ، الذين تحيط بهم فئة من المرتزقة تتملق الحكم في كل نزوة من نزواته وشهوة من شهواته ، فتعد لهم تفسيراً يتلاءم معها ، ومبرراً يستتر فضائحتها ، على حساب المفاهيم العامة التي تشوّه وتحرّف كما يشاء الحكم ، وكما يريد الحاكم .

وهنا نشعر بثقل المهمة الملقاة على عواتقهم وهم يتحدثون عن كلّ المؤثرات وكل هذه العقبات ، ليوّجهوا وليوضحوا وليحدّوا تلك المفاهيم ، فلا يبقى هناك مجال للتشويه وللتحريف ، كل ذلك بأساليب عديدة كانت الثورة منها ، كما في

نهضة الحسين العظيمة عليه السلام ، وكان الدعاء الموجه من بعضها ، كما رأيناه في حياة زين العابدين عليه السلام .

وكان التوجيه والتثقيف والبحث والمناظرة من جملتها ، كما نقرأه في حياة الإمام الباقر وولده الصادق وبقية الأئمة عليه السلام ، حسب الظروف الزمنية التي قد تسمح لبعضهم بأكثر مما تسمح به للبعض الآخر .

وقد اجتمع من ذلك كله ثروة علمية دينية ، حصلنا منها على الشيء الكثير في مختلف مجالات الحياة بفضل الدراسة الموضوعية الحرة .

رسالة الأئمة عليه السلام

كان الحكام من بني أمية ومن بني العباس ، يتحيّنون الفرص للوقوف أمام الأئمة في تأدية رسالتهم ، ويتفنّنون في اختراع أساليب الاضطهاد والتعذيب للأئمة وأصحابهم ، حتى كان أهون على الإنسان في بعض تلك الفترات أن يقال له يهودي من أن يقال عنه إنه يتشيع لأهل البيت عليه السلام .

ولماذا كان هذا ، مع أن الأئمة عليه السلام لم

يعلنوا الثورة ضد أي شخص من هؤلاء ،
منذ ثورة الحسين (ع) ؟

وإن دققنا النظر ، لعرفنا أن السبب
في ذلك يعود إلى أن الثورة التي حمل
الحسين (ع) لواءها ، تحولت نتيجة
الظروف إلى ثورة فكرية وروحية يقودها
الأئمة (ع) ضد الظلم والطغيان والتفسخ
الديني والخلقي الذي كان يمثله الكثيرون
من هؤلاء .

وتتمثل هذه الثورة في الرسالة التي
يحملها الأئمة من أهل البيت ، وهي
قيامهم بعرض الإسلام للناس بحقيقته
وواقعه ، بعيداً عن تحريف المحرّفين
وتشويه المشوّهين .

الإسلام الذين يلعن الظالم والظالمين
ويصرخ بهم مهدداً ومتوعداً ويدعو إلى
محاربتهم ومقاطعتهم ويلعن من يتعاون
معهم .

الإسلام الذي يعتبر الأمة مسؤولة عن
تولي الظالمين الحكم ، لأنها تقدّم لهم
الطاعة والمعونة على إدارة شؤون الدولة ،
ما يسهل لهم مهمة التحكم في رقاب
العباد ومقدراتهم . وإلا فما عسى أن يفعل

فرد أو جماعة أمام إرادة الملايين من أبناء
الأمة ، الذين لو قاموا بمقاطعته فقط ، فلا
يلبث حكمه أن ينهار ويتلاشى ، ليفسح
في المجال أمام حكم عادل يعمل
للمصلحة الإسلامية العليا قبل كل شيء .

الإسلام الذي يحدّد للحاكمين
صلاحياتهم ومسؤولياتهم ، ويجعل للأمة
الرقابة الواعية عليهم ، فلا يستطيعون
الانحراف عن الطريق المستقيم ، وإلا كان
لهم بالمرصاد يحاسبهم على ما عملوه من
صغيرة وكبيرة .

الإسلام الذي يقدّم العدالة الاجتماعية
بأروع صورها للناس متمثلةً في مساواة
الحاكم للمحكوم أمام القانون العادل .

ومن الطبيعي أن عرض الإسلام بهذه
الصورة الوضيئة يتعارض والمصالح
الشخصية لأولئك الطغاة ، الذين كانت
أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم معلّقة
بكلمة تصدر منهم أو شهوة تعرض لهم ،
من دون أن يحاذروا رقيباً أو حسيباً بسبب
الضغط والإرهاب ، بالإضافة إلى ما دفعوا
إليه المجتمع الإسلامي من الانحدار
الخلقي والروحي والفكري .

عليها في شكلها النهائي وصورتها الحقيقية . وإلا فإن عنصر العظمة في هذه الثورة ، لا يكمن في استشهاد مائة رجل ، وأسر مائة امرأة وطفل ، ولا في بشاعة الطريقة التي مارس بها العدو عملية القتل بهم . فالتاريخ يحفل بثورات كثيرة ، وتضحيات كثيرة وأسرى بأعداد كثيرة .

ولكن أيا منها لا يرقى إلى ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) من حيث المستوى البطولي ، نظرا إلى الأوضاع الراهنة آنذاك . فإذا أخذنا بعين الاعتبار ظروف ثورته ! وكيف أنه ثار في ركود اجتماعي ، ولا مبالية جماعية ، ويأس من إمكانية التغيير إذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار فسندرك قيمة ثورته ، ليس فقط كأنبيل ثورة من ثورات التاريخ .. وإنما .. كرمز ..

إن الحسين تحول بالشهادة المأساوية ، والتلاحم بين الفكر والممارسة ، وتقديم كل ما يملك قربانا لتحريك الوضع وتغييره ، إلى رمز للثورة .. فالرمز في هذه الثورة هو الأهم : لأنه العطاء الذي لن ينضب .. ونقطة الدم الساخنة التي ستظل تنزف بالكبرياء والكرامة ، وتنضب بالحق والحرية على

لذلك كنا نجد كل فرد منهم ، لا يكاد يتولّى الحكم حتى يكون موقفه من الإمام الذي يعاصره أول ما يفكر فيه ، وفي الطريقة التي يمكنه أن يقضي على الأصوات الخيرة التي تنطلق من الدعوة الإسلامية الصريحة ، وعلى التفكير الثوري الذي كانت تعاليم الأئمة تركّزه في أعماق الأمة .. فكان القتل بالسّم وغيره ، وكان الاضطهاد وكان التعذيب وكان السجن ، وغير ذلك من الأساليب التي تعرّض لها الأئمة من جبابرة زمانهم .

ولكن .. متى كانت هذه الأساليب تقتل فكرة ، أو تخنق ثورة ؟ ومتى كان الظلم يستطيع أن يحجب الشعاع الخير المنطلق من نفوس المصلحين وعقولهم مهما أثار من الغبار ، ومهما حشد من الضباب ؟

الحسين رمز الثورة

بين القتل والثورة مسافة طويلة ، هي المسافة بين الأيديولوجية ، والشهادة من أجلها ، وبين المغامرة ، وشهوة الموت .. وبمعرفة الظروف الموضوعية التي أحاطت بثورة الإمام الحسين (عليه السلام) يمكننا التعرف

كانت من أجل تغيير واقع ، بهدمه ، وبناء واقع آخر مع وجود العناصر التالية :

- ١- إيديولوجية واضحة .
 - ٢- خطة .. دقيقة .
 - ٣- ترجمة الإيديولوجية إلى سلوك عملي يمارس في النضال .
 - ٤- الاعتماد على العنف المقدس .
- فإن ثورة لإمام الحسين اكتملت فيها هذه العناصر بشكل رائع لا مثيل له .
- وبملاحظة (قبل) و (بعد) عاشوراء ، والتغيير الذي حدث نستطيع أن نعرف أهمية الرمز في ثورة الإمام .

فقبل الثورة ، قامت السلطات الحاكمة بسحق الروح التغييرية في الأمة ، عن طريق الإرهاب الجماعي وتنمية الروح الطبقية وتعميق الهوة بين الفرد ، وإيمانه (حتى كثرت التجمعات ، وغلبت المصلحة على كل شيء ، ووصلت الأخلاق العامة إلى أقصى درجة في الانحدار) . وفي زمن تواصل فيه السلطة القتل كأبسط الوسائل لضرب انتماء الرجل ، كان التملص من الانتماء ، والتنقل من ولاء لآخر ، ومن جبهة إلى أخرى سمة عامة ، خاصة وأن السلطات

مدى التاريخ . لقد ثار الإمام على (ماركة الإسلام) الفارغة من حقيقته ، وفي ظروفه تلك التي اعتاد الناس فيها على التمسك بالمظاهر الإسلامية والتعصب لكل ما يصدر عن الجهات الحاكمة من دون تقييم لنوعيته ، كانت ثورته (الأولى) من نوعها . إن الإمام عندما بدأ المسيرة لاقى معارضة عنيفة من كل (عباد) الأمة و (زهادها) وواجه فتوى صريحة بوجوب محاربته باعتباره : خارجا على إجماع الأمة ، والشاق لعصاها ، وكانت الفتوى صادرة من كبير القضاة في حينه ، وهو شريح القاضي حيث أفتى بضرورة ووجوب محاربة الإمام باعتباره خارجا على (أمير المؤمنين) !! انه فوجئ في كربلاء بأكبر (عالم ديني) في الكوفة وهو شبت بن ربي - الذي كان يتجاوز السبعين عاما - على رأس ٤ آلاف مقاتل يقف ضده ، وفي ذلك كله كانت (ثورة رائدة) . كانت .. البداية !

وكانت .. الرمز !

وكانت .. التراث الثوري الذي يرجع إليه الشائرون على امتداد التاريخ .. وإذا كانت الثورة ، أية ثورة ، لا تكتمل إلا إذا

التي كانت تحكم باسم الدين كانت هي تعاني من تحليل عميق من أي التزام . وحين يحكم السيف تضيع الكرامة ، ويستسلم الكثيرون ، ويستدعون من أنفسهم كل الكوامن الخبيثة ، ليعايشوا السلطة الفاجرة بأسلحة من طباعها ..

وحين ينتصر الباطل - بما يمثله من ظلم - واحتكار ، وطبقية ، وإقطاع - ويكتسح الإرهاب البلاد يحدث ما يشبه الوباء ، ذلك لأنه يفصل بين لقمة عيش الرجل ، وبين إيمانه والتزامه ، فيجبر الناس على الانتماء للسلطة من أجل الحصول على لقمة الخبز .

وماذا يمكن ان يعمل الجائع ؟!

انه يكفر بمعنى انه يمشي خلف الخبز ، حتى فيما إذا كان عند أهل الباطل .

وهنا تكون السلطات هي المسؤولة تماما - كما أن السيد الذي أجاع خادمته حتى زنت في سبيل الحصول على لقمة العيش كان هو المسؤول دون الخادمة عن عملية الزنا . ومن الواضح ان دافع الإمام الحسين إلى الثورة لم تكن القضايا

الاقتصادية وان كانت هي أيضا مقصودة ، كقضية حق ، لأن الصراع بين الظالم والمظلوم تحول إلى صراع بين القيم الإنسانية العليا والقيم الجاهلية . فالثورة ليست مجرد تغيير تنشده وتعمل له مجموعة مقهورة لتلغي قهرها وتسترد حقوقها ، بل هي أعمق من هذا ، إنها طريق في سلم التطور الأخلاقي للمجموعة البشرية وهذا السلم يبدأ من السلوك الفردي في أبسط صورة إلى السلوك الجماعي للأمة والإنسانية بشكل عام . والصراع من أجل توزيع الثورة هو ذريعة للتطور البشرية من حالة أخلاقية رديئة إلى حالة أخلاقية راقية .. بما تعني كلمة الأخلاق من التزامات وطريقة عمل .. وقائد الثورة في كربلاء لم يكن تحركه إلى الثورة ضغوط الحرمان أو القهر - لأنه كان يعيش في رفاهية ، وكان يستطيع ان يترك الثورة ويحصل على ما يريد - ولكنه كانت تحركه قيم إنسانية أعلى من القيم السائدة .

إن التركيبة النفسية للإمام - التي كانت صنعة إيمانه بالله والتزامه أمامه - كانت تتناقض مع القيم الأخلاقية السائدة

منه ، ورحمة الله عليه حيا وميتا ، ومن كان إنما يريد الدنيا وحدثها ، فوالله ما نأتي فيئا نستفيئه ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هي الا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا ، ومن كان ينوي غير هذا فلا يصحبنا .. (. ونشب القتال ، واستبسل سليمان بن صرد وأصحابه وقتل معظمهم ، ولم يبق منهم غير القليل .

وبعد سليمان . قام المختار ، وجعل من مقتل الحسين وسليمان دافعا جديدا لمكافحة الطغيان ، وأخذ يتهيا لإعلان الثورة من جديد ، وكانت أهداف ثورته (الدعوة للعمل بكتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين ، والدفاع عن الضعفاء) . وانتصر في ثورته ، وأنزل العقوبة بقتله الإمام ..

وبعد المختار ، ثار صالح بن مسرح التميمي داعيا إلى (محاربة الجور ، وإقامة العدل) وقتل في عام ٧٦هـ .

وفي سنة ٧٧هـ ثار مطرف بن

في مجتمعه ، فهو كان مدفوعا بدوافع قوية للدفاع عن المثل التي أهدرت وليشعر بأن طريق الناس إلى قيم الله ، والارتقاء قد احتل من قبل قوات السلطة ، وأنه المطالب بالتغيير ، أو كما عبر هو : (وأنا أحق من غيري !) .. كانت القضية أن طريق الحق قد طمس .. فكان بحاجة إلى رش الدم عليه ليتوهج من جديد تحت ضوء الشمس ، ويعود التعرف عليه من جديد .. كان الهدف بعث الروح من جديد .

وبعد عاشوراء .. ماذا نرى ؟

ثورات .. تمرد .. انتفاضات .. نقد .. مقاومة .

وهذا جدول سريع ببعض الثورات التي انتشرت بعد عاشوراء .

ففي سنة خمس وستين - وبالضبط - بعد أربع سنوات من عاشوراء - خرج سليمان بن صرد الخزاعي في عدد من أصحابه لم يتجاوز أربعة آلاف وكانت دعوته ، دعوة إلى الجهاد في سبيل الحق والموت دون تحقيقه ، ولذلك كان يقول لأصحابه . (من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله ثواب الآخرة فذلك منا ونحن

سريج (إنكارا للجور) وقتل في العام نفسه .

وفي سنة ١٢٨ نفسها ، ثار أبو حمزة داعيا للثورة ومناهضة (مروان وآل مروان) .

وفي سنة ١٢٩ هـ . قام أبو مسلم الخراساني .

وفي سنة ١٣٢ هـ . كانت الدولة الأموية قد سقطت بشكل نهائي .

هي إذن ثورات مستمرة من أجل المستضعفين والمحرومين ، وقد دامت تلك الثورات أثناء الحكم العباسي وما تلاه من عصور ، مما يخرجنا عن فكر هذا البحث ، لأننا نتعرض لفكر أهل البيت الثوري وما مثلته المرجعية الدينية في النجف الأشرف من فكر مقاوم .

ثانياً: أشهر الحوادث في النجف الأشرف

لقد تعرضت النجف على مدى التاريخ لأحداث تاريخية هامة ، ففي القرن الرابع الهجري كان هجوم مرة الخارجي على النجف ، ودخلها بعد حصار وحرب داما

المغيرة ، فأعلن خلع عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ودعا إلى (قتال الظلمة وجهاد من عند الحق واستأثر بالفيء وترك حكم الكتاب) وقد قتل هو وأصحابه في العام ذاته . وفي سنة ٨١ هـ . ثار عبد الرحمن بن الأشعث ، داعيا إلى (كتاب الله وسنة نبيه وخلق أئمة الظلم) ولكنه قتل على يد الحجاج . وفي سنة ١٢٢ هـ . ثار زيد بن علي بن الحسين داعيا الناس إلى (كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد الظالمين ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا) . وقد قتل هو وأصحابه في العام نفسه ولكنه بقي مصلوبا لمدة ثلاث سنوات حيث طافوا برأسه على مدن دمشق ، والمدينة ، ومصر ، ثم (أحرق ونسف في اليم نسفا) ! وبعده ثار ابنه يحيى بن زيد في سنة ١٢٥ هـ . وقتل أيضا فيها .

ثم ثار عبد الله بن معاوية ، متابعا للاتجاه العام الثوري الذي أوضحه وعمقه زيد بن علي .. وقتل عام ١٢٧ هـ .

وفي سنة ١٢٨ هـ . ثار الحارث بن

سنة أيام ، وأراد أن ينبش القبر المطهر ، فحدثت كرامة لصاحب القبر جعلت هذا الخارجي عبدة لمن اعتبر ، وسبب إقدامه على ذلك أن علياً عليه السلام قتل الكثيرين من آبائه وأجداده .

وفي سنة ٨٥٨ كانت حادثة المشعشعي الغالي حيث هجم على النجف ، وكسر الصندوق الذي على قبر أمير المؤمنين وأحرقه ونهب المشهد المقدس ، وعاث فساداً في المدينة المقدسة ، حيث قتل أهلها قتلاً ذريعاً ، وشرد الكثيرين منهم .

وفي سنة ٩٩٧ سار ملك الأربك ، عبد المؤمن خان بالعسكر ، ونزل على مشهد الإمام علي عليه السلام وقتل أهل النجف بشكل بشع وفظيع ..

وفي سنة ١٠٣٢ هـ . حاصر الروم النجف ، وقاومهم النجفيون ، واستمر الحصار زمناً طويلاً ، ولم يظفروا منهم بطائل ..

وفي أيام السلطان مراد حين توجه إلى فتح بغداد ، تعرضت النجف لعدة هجمات ، كان عسكر الشاه عباس الأول

الذي كان في النجف يدفعها .

وفي سنة ١٠٤٠ هـ . دخل كنج عثمان النجف وكربلاء ظافراً .

وفي سنة ١٠٤١ هـ . فتح النجف خسرو باشا حينما عجز عن فتح بغداد التي كانت تحت سيطرة الصفويين .

وبعد ظهور الوهابية في الحجاز ، صار الوهابيون يغيرون على النجف طمعاً بالذخائر والتحف والأموال وبدافع من عصبية بغیضة ، فينذر النجفيون بهم ، فيغلقون أبواب السور ، فيطيف الوهابيون بالسور ، ويقتلون من يظفرون به ، ويلقون برأسه إلى داخل البلد ..

وفي سنة ١٢١٦ هـ هجم الوهابيون على كربلاء ، وقتلوا أهلها ، وهتكوا حرمة الحرم الحسيني ثم توجهوا إلى النجف وحاصروها ، وكانت النتيجة أن انكسر الوهابيون أمام النجفيين شر كسرة .

وفي سنة ١٢١٧ هـ . جاؤوا مرة أخرى ، وأغاروا على النجف بمناسبة عيد الغدير ، وقتلوا جملة من العلماء والمجاهدين ..

وفي سنة ١٢٢١ هـ . بلغ أهل النجف

وهي أحداث حصلت بين أهالي النجف أنفسهم ، الذين انقسموا إلى هذين الفريقين وبدأت العداوة والبغضاء ، وقامت الحرب بينهم واستمرت نحو مئة سنة وكانت آخر وقعة بينهم في سنة ١٣٢٣ هـ . كان النصر فيها أنثذ للزكرت .

مظلومية شيعة العراق أيام الاحتلال العثماني

يشهد التاريخ بأن ما لاقاه الشيعة طيلة القرون الماضية (منذ استشهاد الإمام علي عليه السلام ولحد هذه الساعة) من تقتيل وتشريد وتدمير لم تلاقيه أمة من الأمم في العالم الإسلامي والغريب بأن من قتلهم ليس العدو الخارجي وإنما إخوانهم في الإسلام والدافع في الكثير من الأحيان هو سياسي .

لم يتطرق علماء الشيعة ومثقفهم إلى تلك المظالم إلا نادراً ، وأعتقد أن السبب يعود إلى حرصهم على شعار الوحدة الإسلامية فتراهم يتناسون كل جراحاتهم من أجل ذلك الشعار وهذا هو ديدنهم .

نورد هنا بعض المظالم التي لحقت بشيعة العراق في فترة الاحتلال العثماني

نبأ توجه الوهابيين إليهم ، فنقلوا خزانة الأمير إلى الكاظمية ، خوفاً عليها من النهب واستعدوا للدفاع ، وكان القائم بعبء ذلك الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء ، بمساعدة آخرين من العلماء الأبرار ، وجاء الوهابيون ونزلوا على النجف ليلاً .. على أمل أن يهجم ابن مسعود على البلدة نهاراً ، ويوسع أهلها قتلاً ونهباً ، وكان أكثر أهل النجف قد فروا إلى العشائر من خوفهم ، ولم يبق فيها إلا حوالي مائتين من المقاتلين وقد وطنوا أنفسهم على الموت لقتلهم وكثرة عدوهم ، ولتداعي السور الذي يدافعون من خلفه ..

وبات ابن سعود بجنده خارج البلدة وهم خمسة عشر ألف رجل ، وما أصبح الصباح إلا وهم قد انجلوا عن البلدة المشرفة ، وتفرقوا أيدي سباً ، وقد قتل منهم سبعمائة رجل وكفى الله العباد والبلاد شرهم ، ويظهر من بعض النصوص : أن سبب ذلك هو أن النجفيين فاجؤوهم ليلاً فصار يقتل بعضهم بعضاً وانتهى الأمر بهزيمتهم شر هزيمة ..

وبعد ذلك كانت حوادث الزكرت والشمرت التي أقلق راحة النجفيين ،

فعله المغول بأعدائهم إذ شيد اهرامات عالية من جماجم الثوار بلغ مجموع كل هرم منها ألف جمجمة .

٤- في سنة ١٧٦٣ م ذهب علي باشا (والي العراق) بنفسه على رأس حملة (تأديبية .. !) ليقصص من بني لام .

٥- عمرو باشا غزا بلاد الخزاغل واحرق لموم العاصمة ، وطرده شيخ القبيلة وأمر بقطع ٦ رؤوس من أعيان الخزاغل وبعث بها إلى الآستانة .

٦- هجوم الوهايبة سنة ١٨ . ١ م على مدينة كربلاء المقدسة وما ألحقه من سقوط عدد كبير من السكان الأبرياء والزوار الإيرانيين بين شهيد وجريح وقد سلب ونهب ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) وأخيه العباس (عليه السلام) والاستيلاء على الخزائن والتحف الثمينة المحفوظة في الضريحين والمسجدين المهداة من الملوك والأمراء عبر التاريخ وتدنيس الضريحين .

٧- هجوم الوهايبة على مدينة النجف الاشرف في عام ١٢١٨ هـ ١٨٠٣ م لكنهم لم يفلحوا في غزوهم لها ولقد استمر هجوم الوهايبة حتى بعد تشكيل الدولة العراقية .

الذي دام أكثر من ٤ قرون ، ولقد كان تعامل الأتراك مع شيعة العراق تعاملًا طائفيًا ، فقد اعتقد أن من حكم العراق بعد الأتراك قد استخدم نفس أسلوبيهم في التعامل مع الشيعة ، وقد توجهها صدام التكريتي سواء بالمقابر الجماعية وبشعاره العلني لا شيعة بعد اليوم .

١- استحضر السلطان سليم الفتوى من (شيخ الإسلام .. !) تعتبر الشيعة خارجين على الدين الإسلامي فقد قرر السلطان محاربتهم وقتلهم واسترقاق نسائهم وأطفالهم ، وأمر والي اسكندر باشا في سنة ٩٧٥ هـ في التوجه إلى بلاد المشعشع (الحويزة) فحاربهم وبدد شملهم وخرب بلادهم بعد أن حذرهم واتهمهم بالفسق والفجور والبدع .

٢- إسماعيل باشا شن حملة ضد سكان كربلاء .

٣- والي مصطفى باشا (والي بغداد وهو صربي) قضى على ثورتين الأولى في القرنة والبصرة قادها (الأمير مانع) والثانية قادها (حاكم الحويزة فرج الله) واحتفل هذا والي بانتصاراته على غرار ما

٨- مذبحة كربلاء سنة ١٨٤٣ م على يد القوات التركية وكانت اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى المباركة وقد استبيحت المدينة المقدسة ٤ ساعات فصاروا الجنود يفعلون ما يشاؤون بلذة عارمة ولم يكن أمام سكان المدينة إلا أن يلتجأوا إلى ضريح الإمام الحسين (عليه السلام) وأخيه العباس (عليه السلام) وقد توجهت القوات التركية إلى ضريح العباس (عليه السلام) وأخذوا يفتكون بالناس فتكا ذريعا وقد وجد فيما بعد ٣ .. شهيد في السرداب تحت ضريح العباس (عليه السلام) وراح ضحية هذه المجزرة بين ٤ آلاف على أقل التقدير .

٩- في صيف ١٨٧٧ م ثار سكان مدينة النجف الاشرف وكربلاء ولكن الثورة في كربلاء المقدسة قمعت بمحاصرة المدينة واقتحامها ، واتخذت القوات التركية تدابير عسكرية دون رحمة .

١٠- هجمات الأتراك ضد أهالي مدينة النجف الاشرف وكربلاء المقدسة في سنتي ١٩٠٥ - ١٩٠٦ وقد قصف الأتراك حرم الإمام علي (عليه السلام) واستباح المدينة من قبل جنود الأتراك .

١١- استباحة الحلة في شهر تشرين

الثاني سنة ١٩٠٦ م قبل الأتراك .

ولكن النجف الأشرف قاومت كل ذلك الظلم من واقع مرجعيتها ، لقد ظلت الحوزة العلمية في النجف الأشرف تدافع عن العثمانيين باعتبارهم خلفاء المسلمين ، ومع ذلك لم يمنع ذلك العثمانيين من قتل الشيعة والادعاء عليهم بما ليس فيهم ، ولكن وبعد سقوط الخلافة العثمانية ودخول الاحتلال البريطاني إلى العراق ، كان للنجف الأشرف دور المقاوم للاحتلال ، وهو ما نكتب عنه السطور التالية .

ثالثا : صور مضیئة للمقاومة النجفية في العصر الحديث

نكتب هنا بعض صفحات عن الدور الذي قامت به الحوزة العلمية بالنجف الأشرف ومراجعها العظام من مقاومة للاحتلال أو الاستبداد أو الانحراف الفكري ، وذلك في اختصار لا يخل بالبحث .

١- حوزة النجف الأشرف ومقاومة الاحتلال البريطاني

ثم كانت بعد ذلك حوادث الاحتلال البريطاني ، فبعد إعلان الحرب العالمية

بعد وقت طويل وجهد شاق ..

علماء النجف وأحداث ثورة العشرين

وبعد ذلك قامت ثورة العشرين بقيادة النجف وعلمائها ومفكرها ضد الاحتلال الإنكليزي وكان إعلان الثورة من النجف في يوم الأحد في النصف من شوال ١٣٣٨ هـ . وقاد كل زعيم قومه إلى الجهاد فانسحب الإنكليز من النجف إلى الكوفة ، واحتشد الجند هناك ، وتوالت الثورات في أكثر من نقاط الفرات الأدنى وكان الأسرى من الجيش الإنكليزي يجلبون إلى النجف حيث مركز قيادة الثورة وقد جيئ من معركة الرارنجية ب ١٦ .

أسيراً إلى النجف . وعلى كل حال .. فإن ثورة العشرين ، التي قادتها النجف بعلمائها ومفكرها هي التي دفعت العراق إلى السير في طريق الاستقلال وقيام حكم عربي يدين بالإسلام - مبدئياً - بدلاً من الحكم الاستعماري المقيت .

ثورة العشرين سياسياً

منذ أن قدم الإمام محمد تقی

الأولى قام العراقيون مع الأتراك وأفتى علماء الشيعة بوجوب الدفاع عن بيضة الإسلام ، بل لقد اشترك العلماء بأنفسهم في الدفاع ضد الإنكليز ، وقد قاد السيد محمد سعيد الحبوبى جيشاً جراراً إلى جبهة الشعبية وكذلك غيره من العلماء الأعلام ، لكن الأتراك خسروا الحرب ، وأساءوا معاملة العراقيين ، والنجف بشكل خاص ... فثار النجفيون في وجههم وطردوهم ، وألفوا حكومة محلية وطنية تحكم بلادهم دامت سنتين ..

وبعد ذلك احتلال البريطانيون في بغداد حتى وضعوا أيديهم على النجف .. ولكن النجفيين بدافع من دينهم ووطنيتهم أبوا هذا الحكم الدخيل ، وشكلوا تنظيمات تقود الناس إلى الحصول على حريتهم وكرامتهم ، وكان العلماء الأعلام فيها في طليعة الأحداث وهم الذين يخططون ، ويدبرون ويشتركون في التنفيذ في كثير من الأحيان .. وحصل الصدام الأول بينهم وبين الإنكليز الذين حشدوا له أربعين ألف مقاتل وقتلوا من الإنكليز حوالي سبعمائة جندي في مقابل أربعين قتيلاً كثير منهم من الناس العزل .. ولم يسيطر الإنكليز على الوضع إلا

فرد أن مؤتمر الصلح هو الذي سيقدر نهائياً
وضع للقاطعات العربية ومصيرها .

لماذا أغفل ذكر (الحكم العربي المستقل بلاوصاية إنجليزية) ؟

لقد أجري الاستفتاء من أجل تحقيق
هدف واحد هو : تأييد بقاء الحكم
البريطاني المباشر في العراق ومن الطبيعي
أن تكون الطريقة التي ابتعت في تنفيذه
منسجمة مع الهدف النهائي منه ..
فالاستفتاء لكي يأتي موافقاً لرغبة
البريطانيين لابد أن يجري بالتقسيم ...

الاستفتاء في النجف الأشرف

قرر "ويلسن" أن يجري الاستفتاء في
النجف الأشرف ربما بسبب حالة "اليأس"
التي عمت المدينة بعد الانتفاضة الفاشلة
في الربيع .

وفي يوم ١٣ كانون الأول عقد اجتماع
في دار الحكومة حضره بالإضافة إلى
ويلسن ونوربري (حاكم الشامية
والنجف) ، وانفض الاجتماع .. وغادر
ويلسن النجف إلى بغداد بخفي حنين .
بعد الاجتماع الفاشل الذي عقده

الشيرازي إلى كربلاء المقدسة في حمادي
الأول عام ١٣٣٦ الموافق ٢٣ شباط ١٩١٨ .
حتى اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة
الأولى في ثورة ٣٠ / حزيران / ١٩٢٠ . مرت
سنتان وثلاثة أشهر وسبعة أيام ..

الثورة السياسية في مرحلة الرجاء

بيان الحرية الذي نشره الجنرال مود
على الشعب العراقي يوم فتح بتاريخ (٢٤ /
حمادي الأولى / ١٣٣٥ - الموافق ١٩ /
آذار / ١٩١٧) لم يكن يستطيع أن يمنح
الشعب العراقي دف الأمل . فالضرورات
العسكرية كانت واضحة على معالم ذلك
البيان المصلحي ..

الإمام الشيرازي والوصاية الإنجليزية

شهر الاستفتاء - (ليس لأحد من
المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم
للإدارة والسلطة على المسلمين) .

وفي الثلاثين من شهر تشرين الثاني
عام ١٩١٨ بعث مكتب الهند بتعليمات
جديدة إلى نائب الحاكم المدني وويلسن جاء
فيها : (ينبغي أن يكون مفهوماً لدى كل

الإمام الشيرازي وحدث موقف الأغلبية المسلمة في المدن المهمة بالعراق ، كربلاء والنجف والكاظمية وبغداد ضد استمرار الحكم الإنجليزي ، ومضبطة أهالي كربلاء أصبحت (نموذجاً) اقتدى به الآخرون .

لقد أدرك الإمام الشيرازي أن هناك مؤامرة على الشعب العراقي وان (الاستفتاء المزور) لم يكن سوى الخطوة الأولى في المؤامرة السابقة ستتبخّر تلقائياً ، وتكتسب السلطات المحتلة (الشرعية القانونية) وعلى أساس تلك الشرعية سيلغي الإنجليزي حقوق الشعب .

رسالة الإمام الشيرازي إلى السفير الأمريكي بطهران

بتاريخ ١٣ / شباط / ١٩١٩ بعث الإمام الشيرازي بالرسالة الثالثة للسفير الأمريكي بطهران (تحظى بخدمة الأجل سفير دولة أميركا في طهران ، بعدم الاحترام الفائق ، لزمنا أن نحرر لكم في هذه الآونة على سبيل الإنجاز وذلك نظراً إلى ما أملته حكومة الولايات ...

ويلسن قام صفوة المجتمعين بزيارة الإمام اليزدي لاستلهم رأيه في الموضوع وطبيعي أن رأي المرجع الديني (سيكون رأي جميع المؤمنين ، ولما كلموه في الموضوع استغرب قائلاً : عجيب لقد كان عصر أمس عندي - أي ويلسن)

الاستفتاء في كربلاء المقدسة

فوجئ الإنجليز بفتوى شرعية صريحة ضدهم يصدرها الإمام الشيرازي في كربلاء ، وهذا نصها :

(ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين) ومع صدور هذه الفتوى انتشر في جميع أنحاء العراق .. وكان له الأثر الكبير في مزيد من التفاصيل .

الاستفتاء في الكاظمية

الاستفتاء في الكاظمية جرى بعد اثنين وعشرين يوماً من استفتاء كربلاء المقدسة ، ويبدو أن أنباء مضبطة أهالي كربلاء ، وفتوى الإمام الشيرازي كانت قد انتشرت في البلاد ، والخلاصة : إن فتوى

رسالة الإمام الشيرازي إلى الرئيس الأمريكي

إتباعاً لمنهج الإمام الشيرازي في عدم الانفراد بالقيادة واشتراك سائر العلماء ممن هم دون بمنزلة في القضايا الهامة ، بعث الإمام الشيرازي برسالة إلى الرئيس الأمريكي بالتضامن مع الشيخ فتح الله الاصفهاني الذي تسلم قيادة الثورة بعد وفاته .

رسالة الإمام الشيرازي إلى رئيس وزراء إيران

إلى مقام رئاسة الوزراء ادم تأييدهم ..

بعد تقديم الأدعية الخالصة .. نعلمكم أن الكتب العديدة التي وردت من إيران تنبئ عن أنكم عقدتم مع الإنجليز معاهدة خشي منها ذهاب استقلال إيران ، فأوجب ذلك اضطرابنا نحن خدام الشريعة المطهرة .

المرحلة الثانية: المواجهة الناجحة

بينما كان نشاط (الجمعية الإسلامية) في كربلاء المقدسة قد وصل الذروة ، وكانت البؤر الثورية في كل مكان

تتجمع في إطار منظمة أو جمعية مناهضة للحكم الإنجليزي .. قررت السلطات البريطانية - بعد أن أكملت مهمة الاستفتاء - توقف حركة المعارضة ، باعتقال قادتها .

الإمام الشيرازي يهدد بالهجرة إلى إيران

رسالة ويلسن الجوابية أغلقت أبواب الحوار بوجه الإمام الشيرازي ، فقرر مواجهة التحدي بإعلان عزمه على الهجرة إلى إيران لكي يفتي من هناك بالجهاد ضد الإنجليز ، وكانت خطة ذكية ، إذ أن إعلان الهجرة إلى إيران يعني حدوث نتيجة واحدة هي إعلان الجهاد من الخارج دون عوائق ، فيتأزم موقف الاحتلال .

المرحلة الثالثة: الانفراج السياسي

عاد المنفيون من كربلاء ولكن الهدوء لم يعد إلى العراق .. إن الانفراج السياسي المحدود الذي تحقق بعود المبعدين إلى ديارهم لم يرافقه أي تعهد بريطاني بمنح الاستقلال للعراق ، ولم يعتبر العراقيون ذلك الإجراء تفضلاً من سلطات الاحتلال ، بل اضطراباً ...

المرحلة الرابعة : الانفجار الجماهيري

سبعون يوما ثم الانفجار الجماهيري ابتداءً من سابق شهر شعبان (٢٥ / نيسان / ١٩٢٠) وبلغت الذروة بانطلاق الرصاصة الأولى في ثورة العشرين في الثالث عشر من شهر شوال (٣٠ / حزيران / ١٩٢٠) حيث انتهت المرحلة السياسية من الثورة ، وتبدأ المرحلة العسكرية ...

الكفاح المسلح

أمام الوضع الجديد لم يكن أمام الشعب سوى احد طريقين : إما الاستسلام المطلق ، أو الاستمرار في المقاومة حتى بالسلاح .. ولكن الشعب العراقي - تحت قيادة الزعامة الدينية - إختار الطريق الثاني ، هكذا بدأت تتبلور فكرة الكفاح المسلح لدى القيادات الثورية الدينية

التعبئة السياسية

في اجتماع النصف من شعبان في كربلاء المقدسة تقرر تعبئة الشعب ، وتوحيد صفوفه ، وخاصة توحيد موقف الطائفتين الإسلاميتين الشيعية والسنة .

وكان أبطال هذه المرحلة علماء الدين المتمرسين على الخطابة وتعبئة الجماهير وكذلك الشعراء الأكفاء ..

الاستقلال والحكومة الإسلامية

ومع بداية شهر رمضان المبارك وجه الإمام الشيرازي نداءً عاماً لجميع العراقيين دعاهم فيه إلى الاجتماع والقيام بالمظاهرات السلمية للمطالبة بحقوقهم المتمثلة في الاستقلال والحكومة الإسلامية ..

حركة الوفود .. وتنظيم المضابط

وأول وفد قام بمقابلة السلطات البريطانية كان وفد أهالي الكاظمية وبغداد ، ومع أن رسالة الإمام الشيرازي إلى الشعب قد كتبت بعد يومين من انتخاب ذلك الوفد إلا أن الرسالة تكشف عن (اتفاق) مسبق بهذا الخصوص .

الإمام الشيرازي يوجه آخر تحذير للإنجليز

الجو يمطر سخطاً .. الجماهير المحتشدة في مدينة كربلاء تتفجر غضباً

بدأت الثورة من الرميثة وانتهت إليها ..

الرصاص الأولى في الثورة

الشيخ شعلان ابو الجون .. شيخ عشيرة الطوالم المتفرعة من عشيرة أبو حجيم الشهيرة كان قد حضر مؤتمر النصف من شعبان كربلاء المقدسة الذي اقسام فيه زعماء العشائر لدى الإمام الشيرازي بالكفاح المسلح في سبيل أهداف الثورة ، بعد ذلك ضرب الثوار حصارا محكما على حامية الرميثة ، يحدثنا القائد العام للقوات البريطانية عن الثورة في الرميثة : (ويظهر أن الاضطرابات لم تكن محلية حيث أن القطار قد قطع في أماكن عديدة جنوب الرميثة وان أحد الجسور قد خرب ، وان قطار الاستطلاع ...

الخطوة العسكرية الإنجليزية لقمع الثورة

عندما كانت الثورة مشتعلة في الرميثة كان الجنرال هالدين في (ساري ميل) قرب كرمانشاه في إيران .. وقد وصلت برقية من لندن إلى بغداد تتساءل : (ماذا

وحماسا ، الاجتماع الحاشد الذي جرى في اليوم الرابع من شهر شوال (المصادف ١٢ / حزيران / ١٩٢٠) في صحن الإمام الحسين عليه السلام ، والخطاب الثوري الذي ألقاه الشيخ محمد الخالصي كان بداية شعلة الثورة ...

الميجور بولي الحاكم السياسي للحلة

ولكن صلابة الإمام الشيرازي والجو الثوري العام كان وراء التحدي الذي جابه به الإمام الشيرازي موقف الميجور بولي .. وموقف الإمام الشيرازي الصلب في هذه المواجهة تكشف عن عزمه على الاستمرار في الثورة حتى النهاية .

ثورة العشرين عسكريا

الجو السياسي معباً للثورة إلى الدرجة القصوى ، محاولات السلطة في بذل وتجديد الوعود القديمة ت الجديدة بمنح الاستقلال وتأسيس حكومة وطنية بغية تخدير الجماهير وكسب الوقت أضحت مكشوفة للجميع ، لم يبق في يد السلطة أية أوراق يمكن أن تلعب بها ..

مرة أخرى: الجهاد ضد الاستعمار

بغض النظر عن حساب الأرباح والخسائر ، وعن مدى جدية الأطراف في حركة مايس لمواجهة السياسة البريطانية ، فان حركة مايس كانت انعطافا كبيرا في مجرى تاريخ الجيش ، والانتقال من التنفيذ المقرر لسياسة السلطة ، إلى الثورة على تلك السياسة .

٢- علماء النجف ومكافحة المد الأحمر

بعد انقلاب (١٤ / تموز) سمح عبد الكريم قاسم المجال واسعا أمام الشيوعيين الذين كانوا صنابع بريطانيا في العراق .. ووجهها ثوريا وتقدما لها .. فغرق العراق في حمامات الدم لخلال ستة اشهر .. وكانت المظاهرات الشيوعية عمت أرجاء العراق .. وهي تهاجم بيوت ... وبعدها صدرت الفتاوى ضد الشيوعية ..

وكان نص فتوى الإمام الحكيم كالتالي :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي

تفعل في الجبال والثورة تشتعل في السهول (توجه هالدين فورا من كرمانشاه إلى بغداد لإدارة المعارك عن ...

المعاهدة والانتفاضة الشعبية الأولى

حاول الإنجليز أن يمرروا مشروع المعاهدة الاستعمارية عبر افتعال قضية يثبتون فيها للشعب العراقي انه لا حياة لهم ولا أمن ولا دولة من دون الإنجليز ، فأوعزوا إلى عميلهم (بن سعود) كي يبعث برجاله إلى بعض نواحي العراقي لينزل به القتل والخراب

الانتفاضة الثانية

بدأت الانتفاضة حين شرح تشرشل في مجلس العموم البريطاني اثر سؤال وجه إليه : (إن الملك فيصل وحكومته لم يخبرا بريطانيا عن رفض الشعب العراقي للانتداب) .

وبدأ الشك يتسرب إلى نفوس الزعماء الوطنيين في بغداد في حقيقة موقف (الملك)

ضربة قاتلة لمرجعية آية العظمى السيد محسن الحكيم ، من خلال توجيه تهمة التجسس لنجله العلامة السيد مهدي الحكيم ، الذي كان يمثل مفصلاً مهماً لتحرك المرجعية ونشاطها .

فكان للسيد الشهيد الموقف المشرف في دعم المرجعية الكبرى من جانب ، وفضح السلطة المجرمة من جانب آخر .

فأخذ ينسّق مع السيد الحكيم لإقامة اجتماع جماهيري حاشد ، ويعبر عن مستوى تغلغل المرجعية الدينية ، وامتدادها في أوساط الأمة ، وقوتها وقدرتها الشعبية .

فحصل الاجتماع في الصحن الشريف لمرقد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وكان حاشداً ومهيئاً ، ضمّ كل طبقات المجتمع العراقي وأصنافه .

ولم يقف دعمه عند هذا الحد ، بل سافر إلى لبنان ليقود حملة إعلامية مكثفة دفاعاً عن المرجعية .

حيث قام بإلقاء خطاب استنكر فيه ما يجري على المرجعية في العراق ، وأصدر كثيراً من الملصقات الجدارية التي ألصقت

فإن ذلك كفر والحاد وترويج للكفر والإلحاد أعاذكم الله وجميع المسلمين من ذلك وزادكم إيماناً وتسليماً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لم تكن بداية الانفجار .. بل الانفجار ذاته

الجماهير التي تأثرت بروح الحسين الثورية ، واستلهمت منه الدروس فتصدت ومنذ البداية لكل التيارات المنحرفة وشتت على مر التاريخ حرباً لا هوادة فيها ضد الطغاة والمفسدين من الحكام ومصاصي دماء الشعوب .

فالتاريخ يحتفظ لنا بالكثير من هذه المواقف ...

٣- مقاومة الشهيد محمد باقر الصدر

كان للسيد محمد باقر الصدر مواقف مشرّفة كثيرة ضد النظام العراقي البعثي .

نوجزها بما يلي :

- في عام (١٩٦٩ م) ، وفي إطار عدائها للإسلام ، حاولت زُمرة البعث الحاكمة على الإسلام والمسلمين توجيه

حدث خلال فترة الحصار والإقامة الجبرية أيام انتصار الثورة الإسلامية في إيران (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) إجابته على كل البرقيات التي قد أرسلت له من إيران ، ومنها برقية الإمام الخميني .

علماً أن جميع تلك الرسائل والبرقيات لم تصله باليد ، لأن النظام العراقي كان قد احتجزها ، لكن السيد الشهيد كان يجيب عليها بعد سماعها من إذاعة إيران / القسم العربي .

وكان من حَقِّ السيد الشهيد أن يعتذر عن الجواب ، فمن هو في وضعه لا يُتَوَقَّع منه جواباً على برقية ، لكن لم يسمح له إياؤه ، فعَبَّرَ عن دعمه المطلق ، وتأييده اللامحدود للإمام الراحل ، والثورة الإسلامية الفتيّة المباركة ، مسجلاً بذلك موقفاً خالداً في صفحات التضحية والفداء في تاريخنا المعاصر .

شهادته

بعد أن أمضى السيد الشهيد الصدر رحمته عشرة أشهر في الإقامة الجبرية ، تمَّ اعتقاله في التاسع عشر من شهر جمادي الأولى ، من سنة (١٤ .. هـ) ، الموافق

في مواضع مختلفة من العاصمة بيروت .

- في صباح اليوم الذي قرَّر الإمام الراحل السيد الخميني مغادرة العراق إلى الكويت ، قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران ، قرر السيد الصدر الذهاب إلى بيت الإمام لتوديعه ، بالرغم من الرقابة المكثّفة التي فرضتها سلطات الأمن المجرمة على منزله .

وفي الصباح ذهب لزيارته ، ولكن للأسف كان الإمام قد غادر قبل وصوله بوقت قليل .

والحقيقة أنه لا يعرف قيمة هذا الموقف وأمثاله إلا الذين عاشوا تلك الأجواء الإرهابية ، التي سادت العراق قبيل وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران .

- بعد حادثة اغتيال الشهيد مرتضى المطهري في إيران على أيدي القوات المضادّة للثورة الإسلامية في إيران ، قرر السيد الصدر إقامة مجلس الفاتحة على روحه الطاهرة ، وذلك لأنه كان من رجال الثورة ومنظرها ، وكان من الواجب تكريم هذه الشخصية الكبيرة .

- ومن مواقف الفداء والتضحية ما

٥ / ٤ / ١٩٨٠ م .

المجاورة لمرقد الإمام علي عليه السلام في مدينة
النجف الأشرف .

هذا دور مقاوم مشرف لأحد علماء
النجف الأشرف ضد الطغيان ، والذي يثبت
أن الفكر الثوري للنجف له جذوره
الممتدة .

٤- الانتفاضة المباركة والنظام وساعة الصفر المعلنة

هي القضية الجماهيرية العارمة
للشعب المسلم في العراق بوجه البعث
والتي حدثت بمناسبة إحياء ذكرى أربعين
سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام
عام ١٣٩٧ هـ .

هذه الانتفاضة التي قد يصورها
البعض حسب تصوراتهم وأهوائهم
السياسية ...

لقد قاد معارضو النظام العراقي هجوما
لاذعاً ضد هذا الأخير عام ١٩٩١ بعد
القصف الذي تعرضت له البلاد على يد
قوات التحالف الدولية .

غير أنه ، وكما يشهد بذلك محللون
كثيرون منهم جواد بشارة ، أحد المقرّبين
من الحزب الشيوعي العراقي والعضو في

وبعد ثلاثة أيام من الاعتقال الأخير
استشهد السيد الصدر (قدس سره) بنحو
فَجِيع ، مع أخته العلوية الطاهرة بنت
الهدى .

وفي مساء يوم ٩ / ٤ / ١٩٨٠ م ،
وفي حدود الساعة التاسعة أو العاشرة
مساءً ، قطعت السلطة البعثية التيار
الكهربائي عن مدينة النجف الأشرف .

وفي ظلام الليل الدامس تسلّلت
مجموعة من قوَّات الأمن إلى دار السيد
محمد الصدر ، وطلبوا منه الحضور معهم
إلى بناية محافظة مدينة النجف الأشرف .

فكان بانتظاره هناك المجرم مدير أمن
مدينة النجف الأشرف ، فقال له : هذه
جنازة الصدر وأخته ، قد تمَّ إعدامهما ،
وطلب منه أن يذهب معهم لدفنهما .

فأمَرَ مدير الأمن الجلاوزة بفتح
التابوت ، فشهد السيد الصدر (قدس
سره) ، مضرجاً بدمائه ، آثار التعذيب على
كل مكان من وجهه ، وكذلك كانت
الشهيدة بنت الهدى (رحمها الله)

وتمَّ دفنهما في مقبرة وادي السلام ،

قاسم البريسم عن الانتفاضة في كتابة الشرارة والرماد : أما بالنسبة للعوامل الداخلية فيشير إلى طبيعة الانتفاضة وتشكيلها ، وعفويتها ، وفقدان القيادة فيها ، وأهداف القائمين عليها ، وطبيعة النظام الدموي في العراق ، الذي استخدم أبشع وسائل القتل والتنكيل دون رحمة بطفل أو شيخ أو امرأة .

وكان بين ممارساته « إجبار المنتفضين على شرب البنزين ومن ثم إطلاق النار عليهم ، أو شدهم بين سيارتين ، أو شد الصخور بين أرجلهم ثم رميهم في الأنهار ، وغيرها من الوسائل التي لا تخطر على بال أعتى المجرمين ، ولم تصل لها سينما الخيال العلمي السادي .

كما استخدم الأسلحة الثقيلة ، كالدرع والدبابات والراجمات في قصف المناطق الأهلة بالسكان ، قبل اقتحامها ، حتى امتلأت الأنهار بأجساد الناس وتفسخت على أرصفة الشوارع وأكلتها الكلاب السائبة » .

ويقول إنه عندما كان يشاهد أفلام

المؤتمر العراقي الذي يضم معارضي صدام حسين المقيمين في باريس : " في العام ١٩٩١ ، استطاع الهيجان الشعبي تحرير أربع عشرة مدينة كبيرة ونصف مدينة بغداد ، غير أن الأمريكيين لم يكونوا يرغبون في حكم بديل في يد الشيعة ، تحت ذريعة أن ذلك سيسهل على الشيعة التحالف مع إيران . ولقد فكّوا الحصار عن الحرس الجمهوري وسمحوا له باستعمال أسلحة الدمار الشامل وصواريخ أرض أرض والملاحة الجوية ، أي كل ما كان ممنوعاً بمقتضى اتفاقات وقف إطلاق النار ، لردع العصيان السالف الذكر . " والحال أن الواقع أكثر تعقيداً من الدعاية . إذ أن سياسة الولايات المتحدة في المنطقة هذه تمت السيطرة عليها ، منذ الثورة الإسلامية في إيران ، بالرغبة في إضعاف الحركات الشيعية عامة وإيران بشكل خاص .

لذلك قامت الولايات المتحدة بتمويل وعسكرة نظام صدام حسين حتى يتسنى له الهجوم على إيران . ثم بعد حرب الخليج ، تابعت استغلالها لنظام صدام هذه المرة لردع الحركات الشيعية العراقية ، وقاوم العراقيون الظلم الجديد ، يقول الأستاذ

« حين بدأ التعذيب يفتك بنا ، بدأت قاعاتنا تدفع ضريبة الموت يومياً ، لذا لم تمر ليلة إلا ونودع الكثير - غالباً يموت أصحابنا في الليل ، بعد انتهاء التحقيق اليومي .

وحين جاءت سيارة النفايات الصباحية ، لتأخذ ضحايا الليل في أول يوم لنا في الرضوانية ، شعرنا أن أمواتنا يدفنون أو يرمون بعيداً .

لكن مرة جاء أصحابنا بعد انتهاء تحقيق الأيام الأولى ، أخبرونا أنهم شاهدوا على مقربة من ساحة التحقيق وغرفها ، كومة من الأجساد البشرية لم تدفن .

وحين استمر عطاء القاعات من الضحايا ، بدأت تكبر تلك الكومة ، وأصبحت واضحة ، يراها كل من ذهب إلى التحقيق ، وعاد منه سالماً ، حتى أصبحت بعد فترة وجيزة جبلاً من الأجساد والجماجم البشرية . »

ولكن هل استكان المظلومون؟

لا لم يستكن العراقيون للظلم الذي حاق بهم ، فانتفضوا رغم القوات الصدامية البعثية التي تركتها أمريكا تعيث في دماء العراقيين فساداً لقد كانت الانتفاضة

الخيال العلمي ، ومركباته التي كانت تهبط في مجاهل عجبية من الكون ، وتقطنرها مخلوقات مرعبة ومخيفة ، أشكالها وصورها غير أشكال وصور البشر ، كان يستغرب ويعد ذلك من فعل الخيال المستحيل ، ولكن بعد أن « حطت مركبة عبوره في » كوكب « الرضوانية المنفلت من مدار الأرض ، والمتحرر من جاذبية السلوك البشري ، صدق إن كل ما رآه من خيال ، هو حقيقة محضة ، وإنه يتحقق في الواقع » . وهو إذ يتخيل دستوراً لهذا « الكوكب » ، يجد بين نصوصه أن نسبة ذبح الداخلين في مداره تصل إلى ١ .. % ، وقد وردت فيه المادة التالية : « تروى أشجار هذه البقعة المظلمة من الأرض بدماء العراقيين الأحرار فقط ، فهي لا ترضى بالماء بدلاً من الدم ، ولا بالسماذ الحيواني بدلاً من سماذ الأجساد البشرية ، وإذا ما رويت بالماء ماتت أشجارها الشيطانية ، وسقط ورقها الأحمر . على المزارعين من الوزراء والمسؤولين في الأمن والمخابرات ، تنفيذ هذه المادة ، وعلى الشعب العراقي التوقيع بالقبول إلى الأبد » .

وفي إطار معاناته وهو الذي كان نزيل هذا المكان الرهيب يقول البريسم :

وبركات إنتفاضة شعبان المباركة ...

لقد هيات الإنتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ الشعب العراقي إلى المزيد من الانتفاضات والمزيد من الثورات وأصبحت المنطلق والمتنفس الذي يقاس عليه عمل العراقيين ضد نظام صدام ، إضافة إلى ذلك تجريم صدام أمام المجتمع الدولي والعالمي برغم أن العديد منهم كان من المساعدين لهذا النظام ، كانت نقطة الانطلاق للمعارضة العراقية في خارج العراق لتعيد نشاطها بعد السبات والركود الذي أصابها ، بسبب امتدادات الانتفاضة الشعبانية تم إسقاط صدام ونظامه ، أصبح شعور لدى أبناء الانتفاضة بأنهم قادرين على القيام بانتفاضة بأي وقت ، وقد تكون هناك بركات معنوية يحملها أبناء الانتفاضة الذين استمرت انتفاضتهم منذ عام ١٩٩١ وإلى يومنا الحاضر يواكبون الأجيال ويواجهون الظلم ، ولقد قاد تلك الانتفاضة المباركة علماء من حوزة النجف الأشرف ، منهم السيد أبو القاسم الخوئي والسيد علي السيستاني والسيد عبد الأعلى السبزواري وغيرهم كثيرون مما يفوق الحصر ، وهذا يدل على أن النجف ترفض القهر والذل

الشعبانية في العراق صفحة مشرقة لتأريخ العراق وسجلت صفحة الانتفاضة عنوان التغيير الذي بدأت ملامحه تتحرك منذ تلك المدة التي شارك وبدأها أهالي جنوبي العراق في صرخة مدوية خرقت آذان الصمت المخيم والمطبق على شفاه الكثير من متخوفين من نظام وطاغوت العصر ، ولم يأبه بكل قوة وإمكانية صدام الذي حكم العراق بالحديد والنار فكانت إرادة الجماهير في انتفاضة شعبان المباركة أقوى من كل الصرخات وأعنف من كل التحديات وكان كل شخص من المنتفضين لديه قوى خارقة يحطم بها رؤوس الظلمة وهذا ما شعر به أبناء الانتفاضة لعام ١٩٩١ .

لقد اندلعت الانتفاضة الشعبانية في محافظات العراق كافة ماعدا ثلاث محافظات ، فمن هنا بدأت نقطة الخلاف بين هذه المحافظات وبقية محافظات العراق الأخرى وحتى اللحظة تقف هذه المحافظات الثلاث العقبة التي تؤرق العراقيين ولكن من دون جدوى فمهما كانت إعتراضاتهم ومخالفاتهم فلن يوقفوا المد العارم والفيض المستمر من نفحات

الذين أذاقوهم الويلات طيلة عقدين من الزمن ، ولم تكن انتفاضة شعبان مشروع فئة بذاتها بل مثلت مشروعاً وطنياً أدهش العالم الذي لم يكن يتوقع هذا الرفض الواسع لنظام صدام البائد ، ذلك المشروع الوطني الذي استمر بالتصاعد لنيل الحقوق واستعادة الكرامة والحرية وإسقاط الدكتاتورية في العراق .

لقد سال نهر من الدماء الطاهرة الزاكية من إخواننا وأبنائنا في العراق منذ انتفاضة شعبان حتى سقوط النظام الصدامي وانهياره في ٢٠٠٩ / ٤ / ٣ .

تلك بعض مما فعلته حوزة النجف ، وهي تستمد فكرها المقاوم من فكر أهل البيت عليه السلام ، وما زالت الحوزة العلمية في النجف الأشرف تقوم بدورها المقاوم لاحتلال الأمريكي في صورته السلمية والمقاومة العسكرية أيضاً ، وهو دور كبير وممتد عبر الزمن ، له عقب التاريخ لأهل البيت وحوزة النجف الأشرف المشرف كله .

والطغيان ، حتى لو كان هذا جاء من طاغية مثل صدام حسين الذي لم يكن له مثل في قديم التاريخ أو حديثه .

وصدق السيد عبد العزيز الحكيم عندما قال : لقد انتصر العراقيون في تلك المعركة ، عندما قالوا كلمة "لا" كبيرة ومدوية ومضمخة بدماء زكية وتضحيات عزيزة امتدت حينها لأكثر من عقدين طوال حكم حزب البعث العراقي ، كثفت واختزلت كل رفض العراقيين لأولئك الظالمين الذين لم يتركوا وسيلة الا واستخدموها في محاولة إذلال أبناء الشعب العراقي والتنكيل بهم بفنون من القتل لم يعرفها ويستخدمها أكثر الظالمين تعسفاً وظلماً في التاريخ .

لم تكن انتفاضة شعبان بهذه المعايير إلا زلزالاً صنعه غضب المظلومين في العراق ، وكانت مشروعاً وطنياً أراد الخلاص لكل العراق ، لقد سحق المنتفضون وهم عراقيو الداخل في لحظات الغضب العارم أولئك المجرمين

مراجعات في الفكر والسياسة

الاستشراق الأمريكي والاستثنائية الأمريكية إعادة تفكير نقدي في الهيمنة الأمريكية

ترجمة : د . وضاح الخطيب

باحث في الشؤون الأمريكية - مدرس اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق.

تفكير يتم التمييز فيه ما بين « الشرق » و « الغرب » بما يؤسس لسردية نشوء « أمريكا » . ففي حين يلجأ الفكر الاستشراقي والفكر الاستثنائي إلى فرضيات متشعبة ووجودية ومعرفية متشابهة في توصيفها لـ « الغرب » ولـ « الآخر » غير الغربي ، فإن الفكر الاستثنائي تحديداً يتجذر في الفكر السياسي الأمريكي بشكل يمايزه عن

نطرح في هذا البحث⁽¹⁾ مقولة إنه على الباحثين النقاد في مجال العلاقات الدولية أن يدرسوا الاستشراق الأمريكي بالتوازي مع « الاستثنائية » الأمريكية من أجل الوصول إلى فهم أفضل لهوية الولايات المتحدة الأمريكية ، وصياغة سياساتها الخارجية ، وهيمنتها . نرى أن الاستثنائية الأمريكية هي نوع خاص من أنواع الاستشراق الأمريكي ، هي أسلوب

الإرهاب » ما بدا أنه دليل قطعي على صحة مقولة هنتغتون حول الاختلاف الذي لا يمكن ردمه بين « الغرب » و « الشرق » . وقد رد إدوارد سعيد في « تصادم الجهل » (٢٠٠١) على هنتغتون مهاجماً تصنيفاته المتصلبة حول هذا الاختلاف ، وداعياً إلى تحليل نقدي للعلاقة بين القوة والعدالة . وكانت مقولة سعيد إلى حد كبير صدى لدراسته التأسيسية حول الاستشراق (١٩٧٩) بصفته عقيدة مستندة إلى اختلافات وجودية ومعرفية بين هويتين جمعيتين هما الشرق والغرب (الاستشراق : النسخة الإنكليزية ص ٧ ، ٢ / ١٩٧٩) . لقد استند الكثير من الباحثين في الدراسات الأنثوية ، ودراسات الأعراق ، والدراسات الثقافية ، ونظريات ما بعد الاستعمار ، ومؤخراً حقل العلاقات الدولية إلى تراث سعيد البحثي في دراساتهم النقدية للهوية الأمريكية ، وخاصة في نزعتها إلى تعميم هيمنتها . نقر بمساهمات هؤلاء الباحثين ، ونستجيب إلى دعوة مجلة « الألفية » عام ٢٠٠٧ للباحثين النقيدين في مجال العلاقات الدولية للاستناد إلى

أوروبا . وسنظهر أن هناك أناعاً مختلفة من منطق تصوير الآخر غير الغربي تستعملها القوى الغربية المختلفة . إننا نطلب من الباحثين النقيدين في مجال العلاقات الدولية أن يحققوا في كيفية التماهي والتصادم بين أوروبا والولايات المتحدة لدى ممارستهما للقوة تجاه الآخر غير الغربي . وتمكن أهمية مثل هذا التحقيق والبحث في استكشاف أسباب استمرارية الهيمنة الأمريكية ، وفي فهم تداعيات التحديات الأوروبية للسياسة الخارجية الأمريكية ، خاصة فيما يتعلق بما سمي مؤخراً بـ « الانقسام الأطلسي » .

يجال صموئيل هنتغتون في نظرية حول « تصادم الحضارات » (١٩٩٣) أن الهويتين الثقافة والدينية ستكونان المصدر الأساسي للصراعات في مرحلة ما بعد الحرب الباردة . وقبل ادعاء هنتغتون أن « للإسلام حدوداً مرسومة بالدم » بتقبل صارح لدى العديد من المفكرين وصانعي السياسات الأمريكيين . وبعد ما يقارب من عقد من ذلك الادعاء شكلت أحداث ١١ أيلول والانقسامات الناجمة عن إعلان الولايات المتحدة الأمريكية « الحرب على

(١٩٩٦) . والمشارك بين الاستشراق والاستثنائية هو استخدامهما في ادعاء وجود فروق وجودية ومعرفية تبرر المهمة القدرية في فرض النظام على العالم ، وفي تبرير غزو الدول واحتلالها ، وفي التراتبية العرقية التي تضع العنصر الأنكلوساكسوني في المرتبة الأولى . ولكننا نرى أن الاستثنائية الأمريكية تختلف عن الاستشراق الأمريكي لأنها متجذرة في الفكر السياسي الأمريكي المتعلق بتطور الأمة الأمريكية وتشكلها بشكل مختلف عن أوروبا . وعليه ، وفي حين إن التحليل النقدي للاستشراق من وجهة نظر العلاقات الدولية يساعد في فهم التوضع المتعالي للدول الغربية في تعاملها مع الآخر (داخل دولها أو خارجها) فإن على هذا التحليل أن يطرح أسئلة تساعدنا على فهم التصوير الأمريكي لأوروبا على أنها « الآخر » وعلى توضيح المواجهات التاريخية والمعاصرة بين العناصر المشكلة لما يسمى « العالم الغربي » .

يجب على الفكر النقدي في العلاقات الدولية أن يسلح ذاته بالأدوات التي تساعده على تحدي مقولة تصادم الحضارات ،

مقاربات سعيد في إعادة تحفيز حقل دراسات العلاقات الدولية . ولكننا نرى أن على الباحث النقدي في مجال العلاقات الدولية ، في سعيه لفهم الهيمنة الأمريكية ، وصياغة الهوية ، والسياسة الأمريكية ، أن يدرس الاستشراق الأمريكي بالتوازي مع دراسته للاستثنائية . فبالرغم من وجود مناح مشتركة بين الفكرين ، فإن هناك من الاختلافات بينهما ما يبرر دراستها بشكل معمق .

ندعي أن الاستشراق الأمريكي هو أسلوب تفكير يؤسس لذاته من منبع الاستثنائية الأمريكية ، وهي شكل مميز وخاص من الاستشراق يهدف في الواقع إلى إنتاج فكرة « أمريكا » . فالاستثنائية ، كأساس لسردية الخصوصية الأمريكية ، ترسخ على فكرة أن للولايات المتحدة دوراً فريداً في التاريخ ، متميزاً بشكل جذري ونوعي عن أي بلد آخر . وتشدد هذه الخصوصية على فكرة « القدر الإلهي » للولايات المتحدة في قيادتها لبقية العالم ، وفي فكرة مستشرقية في نظرة الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية نحو بقية العالم . (Lipset

العالمية ، واتفاقات التجارة ومناطقها ، واتفاقات الحد من انتشار الأسلحة النووية . وإضافة على هذه القضية ، اتهم العديد من الباحثين والسياسيين إدارة الرئيس بوش ليس فقط بسبب استخدامهما للعنف ضد الآخر العربي أو المسلم ، ولكن لخلقها لخلافات مع حلفاء الولايات المتحدة الرئيسيين في أوروبا .

تساعد الدراسة النقدية لهذه القضايا والتوتر الناجم عنها في تحدي الرواية التي تدعي وجود حضارة غربية متماسكة . وبعبارة أخرى ، فإننا نتحدى مقولة وجود غرب أحادي متماسك يتموضع في وجه بقية العالم . ففي حين تبدو الولايات المتحدة وأوروبا متشابهتين كثيراً في أشكال استشراقهما ، فإن علينا فهم مقاربتيهما في التعامل مع الآخر في ضوء الخلافات التي ورد ذكرها سابقاً . علينا أن ننظر بعمق إلى كيفية استحضار الولايات المتحدة وأوروبا لفكرهما الاستشراقي ، وتوقيت هذا الاستحضار في سياق الهيمنة الأمريكية . وعلى سبيل المثال ، ما هي تداعيات ارتفاع الصوت الأوروبي المستمر ، خاصة من خلال الاتحاد الأوروبي ، في

ليس لأنها تفوح منها رائحة البلاغة الإشكالية والمقسمة للعالم ، ولكن لأنها تخفي مغازي التصادم بين القوى الغربية المختلفة وتداعياته وتوقيته . نلاحظ بشكل خاص الخلافات بين الولايات المتحدة وأوروبا ، وداخل أوروبا نفسها ، حول العلاقات بين دولها والعلاقات مع الولايات المتحدة . ومن الأمثلة على ذلك الأدوار المختلفة التي تلعبها الولايات المتحدة وقوى أوروبية حول العالم ، والاختلاف حول قضايا مثل تعريف ماهية أوروبا وهويتها ، والتمييز بين سياسات أوروبا « القديمة » وأوروبا « الجديدة » ، وسياسات الهجرة ، والعلمانية ، وقضية قبول تركيا في الاتحاد الأوروبي ، والاستجابة الملائمة للإرهاب ، والمواقف السياسية تجاه دول مثل روسيا ، إيران ، إسرائيل ، فنزويلا ، كوبا ، كوريا الشمالية ، والعلاقات بين القوى الناشئة مثل الصين والهند ، ودور الدولة تجاه الشركات الكبرى والمنظمات الإقليمية ، وكيفية المساهمة في تشجيع فلسفة الحكومة الليبرالية الجديدة من خلال الأمم المتحدة ، والمؤسسات المالية

تقديم صورة كتلة جمعية لا عنفية تختلف عن الممارسات الأمريكية ؟ ونرغب أيضاً في تحدي التصور القائل إن أوروبا ، بينما تواجه أشكال عنف مختلفة على حدودها وضمن أراضيها ، وبينما تختلف مكوناتها في تحديد مستقبل الاتحاد الأوروبي ، فإنها تستطيع ، بل ويتوجب عليها أن تواجه الهيمنة الأمريكية بشكل متماسك .

من أجل مناقشة هذه القضية ، والأسئلة المتعددة التي تستتبعها وتؤثر إليها فإن علينا إعادة التفكير بشكل نقدي بفرضيات الاستشراق الأمريكي ، والاستثنائية الأمريكية والأدبيات التي أنتجها . وفي القسم الأول من هذه الدراسة نتبع القوة التفسيرية للاستشراق الأمريكي كما طرحها إدوارد سعيد ووسعها آخرون من بعده ، وذلك تمهيداً للقسم الثاني الذي يهدف إلى شرح أسباب دراسة الاستشراق والاستثنائية الأمريكيين على التوازي . ونشير هنا إلى أن التصرف الأحادي الأمريكي بعد أحداث ١١ أيلول ، والانقسام الأطلسي الذي تلاه ، ليس بظاهرة مميزة لإدارة بوش ولكنه مؤشر إلى استمرارية الاستثنائية الأمريكية بصفقتها

حجر الأساس في سردية « أمريكا » . ونرى أن التمييز الأساسي بين أمريكا وأوروبا كما تراه الاستثنائية الأمريكية يساعدنا في فهم نقدي أفضل للعلاقات بين طرفي الأطلسي . ونبحث في الاختلاف بين منطق تصوير الآخر غير الغربي ، من خلال الاستشراق ، ومنطق تصوير الآخر الغربي ، من خلال الاستثنائية . ويوضح القسم الثالث من الدراسة تلك العناصر المكونة للاستثنائية التي تتجاوز الاستشراق : مثل المهمة القدريّة الملهمّة من الله ، والتفوق العرقي ، ومذهب « القدر الواضح Manifest Destiny » . وفي الوقت نفسه نظهر كيف أن الاستثنائية تشكل تمييزاً بين الدول « المتحضرة » بالقدر ذاته التي تسعى فيه للتمييز بين العالمين « المتحضر » و« غير المتحضر » . ومن خلال استقصاء نقدي لقصة كينونة « أمريكا » اعتباراً من خطبة جون وينشروب « المدينة التي على التل » التي ألقاها لدى وصول أوائل المهاجرين الأوروبيين من « التطهيريّين Puritans » إلى مذهب « القدر الواضح » ، إلى « مبدأ مونرو »

للعالم النامي . وكان لاحظ أن الدراسة الأوروبية بأبعادها الفكرية والجمالية والآثارية والأدبية ، والادعاءات التي رافقتها حول المناطق التي غزاها الغرب ورسم خرائطها تشكل تبريراً لضرورة وجود الامبراطوريات الاستعمارية الغربية واستمراريتها . وعلاوة على ذلك فإن هناك تماسكاً داخلياً في الخطاب الاستشراقي برغم عدم تطابق مقولاته مع الشرق الحقيقي ، وذلك من أجل إيلاء صبغة موضوعية وبريئة على عملية إنتاج المعرفة التي شجعت على وحشية الامبريالية وعقلنتها (سعيد : ص ٥ - ٧ النسخة الإنكليزية ١٩٧٩) . ولكن ذلك لا يعني أن الاستشراق مجرد تلاعب بالمعاني والأفكار ، فكما يجادل باحثو العلاقات الدولية الإيجابيون ، بقدر تصرفنا تجاه كيان ما كما لو أن له تصويراً محدداً أو معنى محدداً ، فإننا نتصرف بناء على تلك التصورات والمعاني (Doty ١٩٩٦ ، Wendt ١٩٩٢) . فمثلاً كلما زاد تصور الاستعماريين الأوروبيين أن أرضاً مستعمرة غير قادرة على حكم ذاتها ، تعززت نزعتهم على أنها بحاجة إلى أن تُحكم من قبلهم .

ولواحقه ، إلى مقارنة ويلسون العالمية ، إلى الليبرالية العالمية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى الحرب الباردة ، وصولاً إلى ما يسمى بمرحلة ما بعد ١١ أيلول ، نكشف عن الدور المستدام للاستثنائية الأمريكية في ضمان أن الولايات المتحدة تحديداً وليس أوروبا هي من سيمارس سلطته على بقية العالم ، أي على الآخر غير الغربي . ونستخدم في دراستنا تحليلاً متشعباً للخطابات ، والفكر السياسي ، والتعبير المختلفة للممارسات الدبلوماسية الأمريكية لنقارن بين الاستشراق والاستثنائية من أجل فهم السياسة الخارجية الأمريكية ، وهوية الدولة ، وهيمنتها . ونخلص إلى دعوة لاستكشاف قدرة الهيمنة الأمريكية على الاستمرار ، ولفهم تداعيات التحديات الأوروبية للسياسة الخارجية الأمريكية .

الاستشراق الأمريكي : خطاب الغرب والآخرين

كشف إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق عام ١٩٧٩ المسلمات المتعلقة بالمعرفة الاستعمارية وما بعد الاستعمارية

السياسة الدولية ، وللحوار بين الباحثين في اختصاصات مختلفة كالنقد الأدبي ، وعلم الإنسان وفكر ما بعد الاستعمار ، والدراسات الأنثوية ، والجغرافية السياسية ، وغيرها . فتحليل سعيد التضادي contrapuntal للثقافة والخطاب الاستعماري ، والنظريات القومية ، والقوة ، وطرائق التمثيل ، كله فتح الطريق لاستكشاف الخصائص الدقيقة لعملية تصوير الآخر (Chowdhry ٢٠٠٧) . فمن خلال الآخر يتم تصوير الذات على أنها مميزة ومتفوقة ، في حين إن الآخر متدني القيمة ، يخشى منه ، مكروه ، وبشكل ما مرغوب أيضاً . الآخر يقف كتشويش محتمل على عالم الذات ، ولكن كما يوضح المنظر النقدي في العلاقات الدولية كامبل (Campbell ١٩٨٨b) فإن الذات أو الأنا لا تستطيع معالجة قلقها من خلافها مع الآخر ومواجهتها له دون إنتاج هذا القلق ذاته . ودون إنتاج الإحساس بعدم الأمن والخطر لا يوجد للدولة والمحاولة بناء الهوية الوطنية عدو ما ترسخ الهوية ضده . وبالفعل بالنسبة للغرب فإن

إن الاستشراق هو فعلاً « أسلوب غربي للسيطرة على الشرق ، وإعادة هيكلته ، وممارسة السلطة عليه » (إدوارد سعيد ، ص ٣ من النسخة الإنكليزية) وبالتالي فإن الاستشراق يعمل « بشكل دينامي على التوازي مع المنطق التبريري الصرف سياسياً واقتصادياً وعسكرياً » (ص ١٢) ، ويرى سعيد أيضاً أن الاستشراق يتعلق بقدر أقل بالشرق مع تعلقه بخلق صورة لعالمنا الغربي (ص ١٢) . إن ادعاء المعرفة بالآخر (الشرق) هو في الواقع ترسوخ للطريقة التي ترى فيها الذات (أوروبا / الغرب) وتبني نفسها . فالشرق ، ككتلة داكنة ، ومفعمة جنسياً وخطيرة من المسلمين والهندوس واليهود والعرب وسكان شرق آسيا وجنوب شرقها ، صورة عميقة ومتكررة في صياغة الهوية الأوروبية .

كان لأبحاث إدوارد سعيد ، خاصة في كتاب الاستشراق ، أثر ثلاثي الشعب على البحث النقدي في العلاقات الدولية ، فهو أول خلق فضاء للباحثين النقيدين كي يتفحصوا الممارسات المختلفة لتصوير الذات والآخر ، وللهرمية القائمة في

حول الآخر : كياناته ، عاداته ، معتقداته ، مشاعره ، حساسياته السياسية ، وذلك بشكل يبرر التدخل ، وفرض العقوبات ، والقيام بأي عمل داخل الحدود وخارجها (Persaud ٢٠٠٢) .

٣- اعتماد السياسة الخارجية الأمريكية على منهجية « عقلانية » تتكون من إيجاد « الدليل » من خلال التقارير ولجان كشف الحقائق ، علماً بأن نتائج هذه التقارير واللجان مقرر مسبقاً ، وما تحتاجه الولايات المتحدة هو ترسيخ موقفها فقط (Tetreault ٢٠٠٦) .

تطرق البحث الأكاديمي ضمن هذا السياق النقدي في العلاقات الدولية إلى علاقة الولايات المتحدة بالشرق الأوسط منذ أربعينيات القرن المنصرم ، بالإضافة إلى اعتداءات الولايات المتحدة على الآخرين منذ القرن التاسع عشر (١٩٩٣ Sadowski و ٢٠٠٠ Ngai و ٢٠٠٤ Mamdani و ٢٠٠٥ Khalidi) . تجلت مقولة سعيد في الاستشراق ، أو على الأقل الجدل الدائر حولها ، في النقاش الذي تظهر بعد أحداث ١١ أيلول حول

المواجهات مع العبودية والاستعمار والإبادة الجماعية يتم تصويرها على أنها تعامل مع الخطر والتخلف والبربرية التي تهدده دائماً . فمقابل ترسيخ تفوقه ، يقبل الغرب بأي شيء ما عدا « العنف غير الشرعي » .

وثانياً : ألهم الجدل المتشعب حول أعمال إدوارد سعيد نقد ما يسمى بالمنهجية « العقلانية » في الدراسات الدولية ، وأظهر هذا النقد أن « الباحثين العقلانيين » ، من خلال افتراضاتهم عن الكينونات في العالم ، ومن خلال منهج أبحاثهم حول الغرب في علاقته مع بقية العالم ، يصفون الغموض على موضوعهم أكثر من توضيح صورته (٢٠٠٤ Allain و ٢٠٠٧ Chowdhry) .

وثالثاً : تسمح النسخة الأمريكية من الاستشراق بتحليل تلك الت موضعات التي نرى فيها :

- ١- افتراض الولايات المتحدة لوجود تميز في كينونة الذات بينها وبين الآخر ، والعمل على أساس هذا التميز .
- ٢- استعمال الولايات المتحدة لادعاءات وصور ذات صبغة معرفية موثوقة

إقليمية أخرى مثل الصين واليابان والفليبين وهاواي . في حين يشير Campbell إلى فقر التحليل السياسي الغربي للمجتمعات التعددية عرقياً أو دينياً خاصة كما كان الوضع في الاستجابة الدولية للعنف في البوسنة . ويلاحظ بشكل محدد أن أوروبا والولايات المتحدة تدخلتا ليس لحماية البوسنة بل للتعبير عن الخيال الغربي الراغب باحتواء أمثلة التعددية الثقافية والحفاظ عليها . ويعرض Doty عام ٢٠٠٣ كيف استخدمت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا موضوع المهاجرين إليها كنموذج عن الدولة الغربية وعلى النظام والأمن المرتبطين بسياساتها العرقية . ولا يشير هؤلاء الكتاب بشكل مباشر إلى الاستشراق ، ولكن كتاباتهم تتساق مع الأسئلة نفسها التي طرحها سعيد في كتابه « الاستشراق » ووسعها في أعماله اللاحقة .

من هو الآخر؟

كان انتقاد ردة فعل إدارة بوش لأحداث ١١ أيلول ذا نوعين فوصفت بأنها ردة فعل « الاستشراقية » أو أنها عودة

صحة مقولة هنتنغتون المتعلقة بالإسلام (Little ٢٠٠٢ و Khalidi ٢٠٠٥ و Alam ٢٠٠٧) . وقد إقر العديد أن فهم الاستشراق داخل الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول ، خاصة تجاه الأمريكيين من أصول عربية أو مسلمة أو جنوب آسيوية ، أصبح ضرورة ماسة (Hagopian ٢٠٠٤) . وقدم Ling و Agathangelou نقداً لاذعاً للطريقة التي تم فيها تصوير الآخر المسلم في تقرير اللجنة الخاصة بأحداث ١١ أيلول ، ويظهر هذا النقد الأسباب التي توجب علينا فهم أسباب وعواقب بناء صورة مكثفة للآخر العربي أو الشرق أوسطي ، سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها .

ومع تحذير هنتنغتون عام ٢٠٠٤ بأن هناك تهديداً على « أمريكا المسيحية الأنكلوساكسونية » ناجماً عن هجرة المكسيكيين إليها ، يصبح من المجدي أن نعيد النظر في كيفية تشكيل صورة الآخر ، والسياق التاريخي لمثل هذا التشكيل . يرجع بعض الباحثين أصول الاستشراق الأمريكي إلى الحرب الإسبانية - الأمريكية ، أو يشير بعضهم إلى أمثلة

وأعد بوش بعد هذا الخطاب العديد من الكلمات التي تقول إن الإسلام دين « مسالم وجيد » . فبعد بضع سنوات وخلال مؤتمر صحفي في نيسان ٢٠٠٤ حول مستقبل العراق ، قال بوش :

يتركز جدل البعض حول حقيقة أن الناس لا يعتقدون أن العراق من الممكن أن يصبح حراً ، وأنه إن كنت مسلماً أو داكن البشرة ، لا تستطيع أن تحكم نفسك وأن تكون حراً . أنا أختلف بشدة مع هذا الرأي لأنني أعتقد أن الحرية هي أعمق حاجة لكل نفس بشرية ، وإن مُنح العراقيون الفرصة ، فسيتمكنون ليس فقط من حكم أنفسهم ، بل من بناء مجتمع حر مستقل .

إن الحاجة للتأكد المستمر أن المسلمين والعرب و« داكني البشرة » هم في الواقع « أخيار » ولهم الاحتياجات والرغبات « البشرية » نفسها تماماً « مثلنا » تعكس اعتقاد بوش الاستشراقي (المعبر عنه من خلال ادعاءات معرفية) بأنه يعرف ليس فقط ما يريده الآخر ويفكر به ، بل إنه من الممكن تأهيل هذا الآخر

صارخة للاستثنائية الأمريكية . ولكي نفهم فيما إذا كان ينطبق عليها أحد هذين الوصفين أو كلاهما ، فعلينا أن نفهم الفرق بينهما . إن الخطاب الاستشراقي الأمريكي هو حتماً عدسة نفهم من منظورها كلمات جورج بوش وإدارته حول « الحرب على الإرهاب » (٢٠٠٣ Said و ٢٠٠٦ Nayk و ٢٠٠٦ Shepherd) . تطرق جورج بوش في العشرين من أيلول عام ٢٠٠١ إلى موضوع الإسلام وذلك في جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب ، ووجه خطابه إلى الشعب الأمريكي قائلاً : أرغب في أن أوجه كلامي الليلة أيضاً إلى المسلمين في جميع أنحاء العالم . نحن نحترم عقيدتكم التي يمارسها ملايين الأمريكيين بشكل حر ، ويمارسها ملايين آخرون في دول نعدّها صديقة لأمريكا . إن تعاليم الإسلام جيدة ومسالمة ، وأولئك الذين يرتكبون أعمال الشر باسم الله سيئون إليه . إن الإرهابيين خونة لعقيدتهم ، وهم في الواقع يحاولون اختطاف الإسلام نفسه . إن عدو أمريكا ليس هو العديد من أصدقائنا المسلمين ، ولا العديد من أصدقائنا العرب .

الدولي ، من خلال اهتمامهم الجزيل بخلق الأنظمة ، واستمراريتها والحفاظ عليها ، يركزون على أسباب « استثنائية » إدارة بوش من حيث عدم التزامها بمنظومة حقوق الإنسان الدولية (خاصة فيما يتعلق بالغزو العسكري واللجوء إلى التعذيب) ، وهم بالتالي يركزون على تصور الولايات المتحدة المتعلق بدورها الخاص في العالم ، وعلى سمو القوانين الدستورية الأمريكية وضرورات الأمن القومي بشكل يتجاوز كل المجتمع الدولي (Ralph (٢٠٠٦) . ويلحظ Ignatieff عام ٢٠٠٥ أن الاستثنائية الأمريكية تؤثر على منظومة حقوق الإنسان الدولية بثلاث طرق :

١- الاستثنائية : من حيث إن الولايات المتحدة توقع على وثائق حقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي ثم تعفي نفسها من بنوده بالتحفظ عليها أو عدم تصديقها أو عدم الالتزام بها .

٢- المعايير المزدوجة : أي الحكم على « الأعداء » بشكل أكثر قسوة من الحكم على نفسها أو على حلفائها .

٣- الانعزالية الحقوقية : أي رفض

وبالتالي منحه شرعية تشبه شرعيتنا . إن افتراض الاختلافات الوجودية يتطلب تعديلاً مضمونه أن الإسلام ، رغم عدم كونه جزءاً « منا » هو في الواقع « جيد » . ومرة ثانية تحدث بوش باسم المسلمين والعرب في خضم الضجة التي ثارت حول تقرير بترايوس الذي أثار الجدل بسبب تنكره كعرض موضوعي لنجاحات أمريكا وفشلها في العراق ، في حين كان مجرد تأكيد آخر للمبادئ الرئيسية المشكّلة لافتراضات جورج بوش عن العراق ، حتى قبل أحداث ١١ أيلول :

إن التغيرات في الأنبار تُظهر لكل العراقيين ما يمكن تحقيقه عندما يتم دحر المتطرفين . وتُظهر لتنظيم القاعدة أنه لا يمكنه التعويل على الدعم الشعبي حتى في إقليم أعلن وجهأه يوماً أنه مقر للقاعدة . وتظهر للعالم أن الناس العاديين في الشرق الأوسط يريدون لأطفالهم ما نريد لأطفالنا : الحياة الكريمة والمستقبل الآمن .

وفي الوقت ذاته فإن الواقعيين الجدد والليبراليين الجدد واختصاصيي القانون

أو أوروبية أو غربية . إن نشر الحرية من أجل السلام هو قضية بشرية كلها « (٢٠٠٥) . وعبر عن مشاعره في سطاق سلسلة من الكلمات دعا فيها إلى حقبة جديدة من التعاون الأطلسي كنوع من الرد على سخرية عدد من القادة الأوروبيين من سياساته وانتقادهم اللاذع لها ولادعاءاته المتعلقة بعلاقة الدين والعلم ، وبالتغيير المناخي ، وحرب الولايات المتحدة في العراق ، ودور الناتو ، إلخ .

لا شك أن جورج بوش لجأ إلى الخطاب الاستشراقي في مهمته للتفريق ما بين « الخير » و « الشر » وفي تعبيره عمن سيكون له « الخلاص » وفي استخلاصه للرؤية الأمريكية بوصفها رؤية كونية . وفي الوقت ذاته فإن مهمة جورج بوش « الإلهية » ، وتصوره حول « التفردية » الأمريكية ، وخاصة علاقاته التي شابها الغموض مع أوروبا ، نشأت كلها من سردية استثنائية الأمريكية المؤسس لها والمعبر عنها عبر تاريخ الفكر السياسي الأمريكي .

نطرح ثلاثة أسباب لفهم العلاقة بين الاستشراق والاستثنائية الأمريكية .

تطبيق الصلاحيات الدولية لقوانين لحقوق الإنسان على قوانينها الداخلية .

يشير البعض إلى تأويلات جورج بوش السياسية « الإلهية » في شرح سبب الموقف الاستثنائي لإدارته (Mertus ٢٠٠٣) . وكان جورج بوش قال قبل انتخابه رئيساً : « أشعر أن الله يريدني أن أترشح للانتخابات الرئاسية ، لا أستطيع شرح ذلك ، ولكنني أشعر أن بلدي سيحتاج إلي . شيء ما سيحدث ... أعرف أنه لن يكون سهلاً علي أو على عائلتي ، ولكن الله يريدني أن أقوم به » (مقتبس من Klengor ٢٠٠٤ ص ٦٤) . وعززت أحداث ١١ أيلول مخاوف بوش ، وأثرت على التوجهات الاستراتيجية لسياسته الخارجية منذ تلك الأحداث . فمن إدخال عبارة « محور الشر » إلى خطابه إلى الأمة ، إلى تعليقه عشية غزو العراق أنه استشار « أباً أسمى » من والده الرئيس الأسبق ، كان جورج بوش يعبر عن قناعته بما آمن أنه « الواجب الواضح Manifest Duty » عليه . وذكر بوش ذات مرة أن « نشر الأمل والحرية والازدهار كبديل عظيم للإرهاب ، ليس استراتيجية أمريكية

للتعامل الأمريكي مع الآخر الغربي والآخر غير الغربي . وقبل الانتقال إلى القسم التالي ، سنتعمق قليلاً في هذه الأسباب :

السبب الأول : تنسجم آراء القادة

السياسيين الأمريكيين من ألكساندر هاملتون إلى جورج بوش الابن مع رواية التاريخ المتشعب للولايات المتحدة الأمريكية ، وهو تاريخ يقع في الصميم العقائدي للاستثنائية الأمريكية التي لا تتشكل في مرجع معرفي موحد بل تتفرع

في العديد من الحقول الأكاديمية التي استخدمها باحثوها لشرح كل شيء بدءاً من استثنائية الفكر السياسي الأمريكي ، إلى الدوافع الخاصة للسياسة الخارجية الأمريكية . فالباحثون في التاريخ الأمريكي ، والتاريخ الأوروبي ، والدراسات الأمريكية ، والسياسة العامة ، والعلاقات الدولية (وخاصة تاريخ الدبلوماسية) يتفقون مع ما يقول Adas عام ٢٠٠١ إنه « لب » الاستثنائية الأمريكية ألا وهو :

ذلك الاعتقاد الصلب بتفرد الولايات المتحدة والالتزام بالمهمة الإلهية القاضية بإعادة صياغة العالم على الشاكلة الأمريكية (١٩٨٥ Hietala و Lipset

أولاً : تقدم الاستثنائية الأمريكية مقولة الخصوصية الثقافية والتاريخية لكنينة « أمريكا » ، أي لماذا ولدت بالطريقة التي ولدت فيها . وبالتالي فإن نظام جورج بوش لم يكن مختلفاً بالضرورة عن أسلافه ، ولكن كان أكثر وضوحاً في التعبير عن فهم مترسخ حول ماهية « أمريكا » منذ القرن السابع عشر ، وهو فهم تشكل قبل إدارة جورج بوش (Sprio ٢٠٠٠) .

ثانياً : تشرح الاستثنائية الأمريكية الفروقات المعاصرة ، والمواجهات التصادية بين الولايات المتحدة وأوروبا ، في حين أن الاستشراق يستكشف القضايا المتعلقة بإشكالية الهوية بين الغرب من جهة وبقية العالم من جهة أخرى . ولذا فإن على البحث النقدي في العلاقات الدولية أن يدخل على خط النقاش حول ما يسمى بالانقسام الأطلسي من أجل خلق فهم أكثر دقة لأسباب هذه الانقسام وتدايعاته والتوتر الناجم عنه .

ثالثاً : تكشف دراسة الاستشراق والاستثنائية أشكال المنطق المتنوع

على تفوق القيم الأمريكية وعلى عدم قدرة الآخرين على حكم أنفسهم ، وعلى هرمية عرقية يجلس على عرشها العنصر الأنكلوساكسوني (McDougall ١٩٩٧ و Hoff ٢٠٠٧) . وكما ذكرنا في مقدمتنا فإن الاستثنائية الأمريكية تشكل سياقاً خاصاً للمذهب الاستشراقي في علمية « خلق » أمريكا . لكل أمة أسطورتها الخاصة المتعلقة بأصولها أو بداياتها ، ولكن هناك غموضاً خاصاً يلتف بفكرة الأمة ... وهو غموض ينشأ من إدراكنا أنه بالرغم من اليقين الذي يتحدث به المؤرخون عن « أصل » الأمة كمؤشر « لحدث » المجتمع ، فإن الآنية الثقافية للأمة ترسم صورة واقع اجتماعي ذي طبيعة انتقالية (Bhabha ١٩٩٠) .

ولذلك فإن « نشوء » الأمة يستند إلى سرد يجب أن يكون طبيعياً بشكل خلاق ومباشر . تستند « نحن » الأمة على الآخر الذي نتشكل كضد له . والاستثنائية الأمريكية ، بصفتها سرداً تأسيسياً ، لكنونة أمريكا تمثل « رفضاً ، وإزاحة ، وإقصاء ، وتحدياً ثقافياً » يظهر في كل المواجهات الاستعمارية بين أمريكا والآخر

١٩٩٦ و Levy ٢٠٠١ - McEvoy و Streeby ٢٠٠١ و Glaser & Henry ٢٠٠٢ و Wellenreuther ٢٠٠٣ و Ignatieff ٢٠٠٥ . ويعلق Anatol Lieven عام ٢٠٠٦ أنه بمقدور أي كان أن يصبح أمريكا أما « أمريكا » ذاتها فهي صعبة المنال . فمن الممكن أن يتقمص الإنسان تلك الخصائص الأمريكية مدعية التفرد ، بما فيها الحرية ، والدستور والقوانين ، والديمقراطية ومركزية الفرد ، والفصل بين الدولة والمؤسسات الدينية ، وهي الخصائص التي يتمتع بها الأمريكيون ، ولكن « أمريكا » ذاتها يجب أن تكون محددة ومحمية من التعدي عليها ، ومن الخطر والقيم المضادة التي من الممكن أن تدمر نواتها الأنكلوساكسونية . فالولايات المتحدة بسبب قيمها الخاصة متفوقة بشكل جلي ولا يمكن المس به ، وهي في الوقت نفسه مختارة إلهياً لتكون النموذج السياسي والثقافي والاقتصادي الأوحد لبقية العالم .

تظهر الدراسة النقدية لأصول الاستثنائية التداخل بين فكرة المهمة الإلهية وتبرير النزعة التوسعية المستندة

أن تؤسس ذاتها ككيان أكثر إنسانية وحرية من أوروبا وفي الوقت ذاته تُخضع الهنود - الأمريكيين وغيرهم ، وكل ذلك باسم الحضارة الغربية ؟ هناك رغبة قلقه في أن تكون أمريكا في آن واحد المستفيدة من قرون من الحضارة الغربية ، ولكن مع خطها لطريق خاص ومتفرد في العالم ، وهذه الرغبة مستمرة منذ الثورة الأمريكية بشكل يفسر الحاجة الأمريكية إلى تأكيد خطابها الاستشراقي والاستثنائي بشكل دائم كما اتضح خلال ولاية إدارة بوش .

وعليه ، فإن السبب الثاني لدراسة الاستشراق والاستثنائية هو من أجل فهم الفروق والتمايز بين الولايات المتحدة وأوروبا ، وهي فروق أشار إليها القادة والباحثون السياسيون . فعلياً إن التفت الباحثون النقاد في العلاقات الدولية بشكل أكبر إلى الاستثنائية ، سيقومون بإلقاء الضوء على العلاقة بين أوروبا وأمريكا بشكل يستحق التمعن فيه . وهذا من الأهمية بمكان إن أخذنا بعين الاعتبار أن التحليل التقليدي للاستثنائية يلتزم بأجندة سياسية خاصة تؤيد بالمحصلة الهيمنة الأمريكية ، أو على الأقل يفشل في أن

(سواء كان من سكان القارة الأصليين ، أو الفلبينيين أو ذوي الأصول اللاتينية ، أو العرب ، أو العبيد الأفارقة ، إلخ (Bhabha ١٩٩٠)) .

ولكن الفكر السياسي الأمريكي يظهر أيضاً أن أسطورة الأصول الأمريكية هي أيضاً أداة للتمييز بينها وبين الأوروبيين (والبريطانيين بشكل خاص) . قلة هم الباحثون النقاد في مجال العلاقات الدولية الذين درسوا الاستثنائية ، وهذه القلة قدمت خطأ مغايراً في البحث يتم من خلاله ربط دراسات الآخر ، والنظريات القومية ، والإمبريالية بالدراسات التي تفحص الطريقة التي تميز فيها الأمة الأمريكية ذاتها عن أوروبا كخطوة من أجل التفوق عليها (Campbell ١٩٩٨b Cox ٢٠٠٥) . فيشير كامبل إلى مفارقة إصرار عناصر الثورة الأمريكية على أنهم مختلفون عن الأوروبيين ، بالرغم من افتراضهم في الوقت ذاته « أنهم يجسدون خصائص الحضارة الأوروبية النقيضة لبربرية حياة الهنود الحمر » . وهكذا تحققت كينونة « أمريكا » بهشاشة واضحة ، إذ كيف يمكن الولايات المتحدة

مقابل اليورو ، كما تقوع توتراً مرتبطاً بالخطط الأوروبية لزيادة القدرات العسكرية دعماً للأمن الأوروبي مما يشكل تحدياً لمرجعية حلف الناتو ويخلق تنافساً حول التأثير الدبلوماسي في الشرق الأوسط .

حاول الباحثون والمعلقون التقليديون في العلاقات الدولية أن يحيطوا بما يسمى « أزمة » الانقسام الأطلسي (Reid ٢٠٠٤ و McCormick) . هل أوروبا وأمريكا حليفين قوين في تبادل الاستخبارات لمواجهة الإرهاب ، أم هل ترى الدول الأوروبية والرأي العام فيها ، حسبما أظهرته بعض استطلاعات الرأي ، أن الولايات المتحدة هي الخطر الأكبر على السلام العالمي ؟ (Guitta ٢٠٠٦) . هل ما زالت المواقف الأوروبية تجاه الولايات المتحدة مفتحة وودية ، أم أن الغموض والتوجس ، وحتى العدائية ، تعترئها من حين لآخر ، وخاصة فيما يتعلق بادعاءات الولايات المتحدة أنها « تشجع على الديمقراطية » ؟ (Kopstein ٢٠٠٦) . هل وصلت الهيمنة الأمريكية إلى أقصى مداها بعد أن قام الاتحاد الأوروبي بحياكة ثوب جماعي من دولة

يشكل نقداً كافياً للتمادي العسكري الأمريكي قبل أحداث ١١ أيلول وبعدها .

فمثلاً يجادل Kagan عام ٢٠٠٣ أن على الولايات المتحدة أن تشق طريقها الخاص بها ، فبما أن أوروبا تتغير نحو ما تتطلبه منظومة الاتحاد الأوروبي ، تصبح الولايات المتحدة الدولة الوحيدة القادرة على ممارسة القوة العسكرية ، وفرض النظام والاستقرار اللذين يحتاج إليهما العالم . ويقول Kagan محذراً « يجب التوق فعن الادعاء أن للأمريكيين والأوروبيين النظرة نفسها إلى العالم ، أو أن الطرفين موجودان في العالم نفسه » . ويقول Charles Kupchan عام ٢٠٠٢ إن « الصدام القادم بين الحضارات لن يكون بين الغرب وبقية العالم ، بل بين الولايات المتحدة وأوروبا ، ويبدو أن جل الأمريكيين غير مدركين لذلك » . ويتوقع Kupchan منافسة أطلسية قوية بين بنك الاحتياطي الفدرالي الأمريكي والبنك المركزي الأوروبي للسيطرة على منظومة النقد الدولي ، ومنافسة في مجال اتصالات الانترنت والتطور التكنولوجي والشركات متعددة الجنسيات والاستثمار وقوة الدولار

دفاعية وطنية دون التشاور مع أحد . ركزت « استراتيجية الاتحاد الأوروبي لمكافحة الإرهاب » عام ٢٠٠٥ على الاستجابة السياسية التي تشمل المقاربة الوقائية والتفهم والعدالة ، في حين ركزت « استراتيجية البيت الأبيض الوطنية لمحاربة الإرهاب » عام ٢٠٠٣ على هزم الأعداء وعلى المقاربة العسكرية الهجومية .

ويميز بعض الباحثين بين « الإرهاب القديم » في أوروبا ، أو العنف السياسي المنضبط إلى حد ما والحامل لأهداف سياسية واضحة ، والإرهاب « الجديد » الذي تواجهه الولايات المتحدة بشكل أساسي من قبل أعداء ير مرئيين ، ولا إدارة مركزية لهم ، ولا أهداف سياسية واضحة (Stevenson ٢٠٠٣) . ومما يثير الاهتمام ما طرحه Judt عام ٢٠٠٥ من تجربة أوروبا المباشرة مع « الأسوأ » : الحروب الأهلية ، الإبادة الجماعية ، الفوضى ، في حين أن الولايات المتحدة لم تتعرض « لتجربة مباشرة مع أسوأ ما في القرن العشرين ، وهي بسبب ذلك ، للأسف ، محصنة من الدروس والعبر » .

المختلفة من أجل حشد قوة جامعة وموحدة في وجه العصر الرقمي ومن أجل مقاربة قضايا الدمج التجاري المعقدة وقضية الأمن الجماعي (Kupchan ٢٠٠٣) .

هل ما زالت الولايات المتحدة وأوروبا تحتاجان ، أو حتى ترغبان ، بأن تكونا جزءاً من المنظومة الأمنية نفسها ، وذلك في ضوء الاعتماد الأوروبي من الاعتماد الزائد على الولايات المتحدة في كوسوفو ، وفي ضوء الانقسام حول مقاربة الإرهاب بعد أحداث ١١ أيلول ، وممانعة أوروبا للغربة الأمريكية في تقديم العون العسكري لتركيا عشية غزو العراق ، والانتقاد الأوروبي لحروب الولايات المتحدة في العراق وأفغانستان ؟ (Croci Verdun) لله (٢٠٠٦) . أم أن المخاوف من دعم الدول « النامية » للأصوليات الإسلامية ، وانتشار الأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية ، ومنافستها الاقتصادية الحادة ستشكل سبباً كافياً لاستمرار التعاون بين طرفي الأطلسي ؟ وفيما يقال إن الأوروبيين يرون في القانون الدولي أداة أولية للدبلوماسية ، تدافع الولايات المتحدة عن حقها السيادي بوضع استراتيجية

فنحن نقترح أن التوتر بين ما يسمى التحالف الأطلسي لا يتعلق ببساطة بالتغيرات الناجمة عن العولمة أو عن مبدأ جورج بوش ، أو حتى بإعادة التفكير المحتملة باقيم التي يشترك بها طرفا الأطلسي كما قد يقترح بعض الباحثين التقليديين . إن التوتر مؤشر إلى ماهية وأسباب الطرق المتنوعة التي تمارس القوى الغربية المختلفة سيادتها من خلالها . يظهر التحليل النقدي للصدام بين الطرفين كيف أن القوة الأوروبية ليست بالضرورة « أفضل » أو أكثر احتضاناً من الهيمنة الأمريكية ، ولكن من المحتمل أن تحاول الاستفادة من ردود الفعل ضد الاستثنائية الأمريكية بتجسدها المعاصر .

هذا يقودنا إلى السبب الثالث لدراسة الاستثنائية بالتوازي مع دراسة الاستشراق ، وهو نوع المنطق الذي تلجأ إليه السياسة الخارجية الأمريكية وأسلوب خلق الهوية . إن كان فهم الهوية بشكل أساسي يتم من خلال تعارضها مع هويات أخرى ، فمن هم « الآخرون » وما هي أنواعهم ؟ يقول Diez في سياق محاولة فهم ما إذا كان الاتحاد الأوروبي يقدم نموذجاً مختلفاً

فقد قال جورج بوش بعد أحداث ١١ أيلول بقليل :

ارتكب أعداء الحرية في الحادي عشر من أيلول عملاً حربياً ضد بلدنا . لقد عرف الأمريكيون الحروب ، ولكن لمئة وست وثلاثين سنة خلت كانت حروبهم في أراض أجنبية ، باستثناء يوم أحد واحد عام ١٩٤١ . لقد سقط للأمريكيين ضحايا في الحروب ، ولكن ليس في مركز مدينة عظيمة ذات صباح آمن . لقد تعرض الأمريكيون للهجمات المباغته ، ولكن لم يحدث أبداً أن تعرض لها آلاف المدنيين . لقد جلب علينا هذا في يوم واحد ، وهبط ليل ذلك اليوم على عالم تغير ، عالم تعرضت فيه الحرية بحد ذاتها للهجوم .

يتوجب علينا فهم هذه الأسئلة والتناقضات في سياق الاستثنائية الأمريكية التي تفسر المشاعر المختلطة التي تعترى الولايات المتحدة نحو أوروبا . لا يقدم نقد الخطاب الاستشراقي إجابات للتمايز بين الدول الغربية ، ونحن ننشاد الفكر النقدي في العلاقات الدولية بأن يتأمل في تداعيات الأسئلة التي طرحناها .

حتى في لحظات الخلاف الحاد والتنافس (Schick ١٩٩٩) . والعلاقة بين الذات والآخر لا تشير دوماً إلى الاختلاف أو الخوف ، ولكن إلى التمايز أو المنافسة . ويلغي هذا النوع الثاني ضرورة أو احتمالية التداخل العدواني (Rumelili ٢٠٠٤) . فلا يوجد ما هو غير مقروء أو غير مفهوم لدى الآخر الغربي ، ولذلك فإن الفرق هو عملية تمايز وحسب .

تتأمر القوى الغربية في ممارسات الهيمنة ليس فقط بسبب التصوير الإستشراقي للقوى غير الغربية التي ينظر إليها على أنها غير ذات « قدرة » على ممارسة القوة ، ولكن أيضاً لأن القوى الغربية ترى نفسها على أنها متميزة ولكن متشابهة في الوقت ذاته . ولكن التشابه مع غير الغربي يقبح فيما وراء الخيال . إن الخطاب الاستشراقي ، من خلال انتاجه للمعرفة عن الآخر كباعث للخوف ، أو قابل للاستهداف أو حتى للإنقاذ ، يعكس تواطؤ القوى الغربية في حكم العالم غير الغربي . فمن مسلمات الفكر الاستشراقي افتراض أن اقوة الغربية فقط هي وحدها المتحضرة والقادرة على السيطرة على العالم ، في

تشكيل الهوية في العلاقات الدولية : إن هناك أنواعاً من الاختلاف ، ومن الأغراض والتداعيات .

إن تصوير أوروبا بصفتها « آخر » ، وكعنصر أساسي على الدوام في سردية القومية الأمريكية ، يختلف عن تصوير الآخر غير الغربي . وكما ورد سابقاً فإن الآخر غير الغربي يمثل خطراً وجودياً ولكنه أيضاً يصوّر على أنه ذو مرتبة أدنى ويمكن التخلص منه (Buzan ، Waever & ١٩٩٨ deWilde و Campbell ١٩٩٨b) . إن تميز هوية الغرب عن غير الغرب ، أو الشمال عن الجنوب ، أو المتقدم عن النامي ، وهو نتيجة خلق هويتين متميزتين تتقدم إحدهما على الأخرى (Ashley ١٩٨٩) . وكما بين الباحثون النقادون بشكل بليغ ، فإن عملية خلق « الغرب » و« غير الغرب » ذاتها تؤثر إلى صياغة الهوية من خلال التضاد .

الآخر غير الغربي يجسد ما « يمكن الاستغناء عنه » هناك « في البعد » عن الذات الغربية الموجودة « هنا » ولكن الآخر الغربي معروف وواضح للذات الغربية

الولايات المتحدة هي التي تضع « المعايير الجديدة » للعالم الأنكلوساكسوني ، استمر التعبير عن هذه الفكرة في النصف الثاني من القرن العشرين ومطالع القرن الحادي والعشرين وإن كان بشكل أقل وضوحاً من الناحية العرقية .

ومن المثير للاهتمام أن إدوارد سعيد (٢٠٠٢) كان من ضمن من دعا أوروبا إلى لعب دور يعدل ميزان القوى ضد الأحادية الأمريكية . وأضاف سعيد : إن أوروبا ترى الولايات المتحدة على أنها المخلص والحامي السابق ولكنها تحولت باضطراد إلى دولة محبطة وعدائية في تعاملها . والادعاء هنا هو أن أوروبا التي كانت تسعى للسيطرة والتوسع الاستعماريين تحولت نحو مقاربة إنسانية متسلحة بالقانون الدولي ، في حين أن الولايات المتحدة تنبت المقاربة الاستشراقية منذ ١٩٤٥ وهدفت بشكل متزايد وعدواني إلى فرض نظامها على العالم . ولكن هل ما حصل ببساطة هو أن أوروبا والولايات المتحدة تبادلتا المواقع فحسب ؟

حين أن غير الغربي هو « خطر » يبرر الإمبريالية الغربية . يقول إدوارد سعيد إن الشرق هنا يصبح أكثر « شرقية » ، يصبح شيئاً يجب تمثيله والسيطرة عليه ، هو الضد الذي يستطيع من خلاله الغرب أن يفهم ذاته بل أن يخلقها .

تناقش معظم النصوص التقليدية في العلوم السياسية التنافس بين الولايات المتحدة والغرب على أنه منافسة حول توزيع قدرات ممارسة القوة ومواردها ، بالإضافة إلى كونها منافسة حول إمكانية الحكم من خلال التصرفات الأحادية أو متعددة الأطراف ، من خلال سيادة دولة واحدة أو من خلال سيادة جمعية . ولكننا نقول ، وحسبما نراه من الاستثنائية الأمريكية ، إن التنافس حقيقة هو حول الفرق بين من يضع معايير الحضارة وممارسات القوة ، وكيفية القيام بذلك . ما من شك أن كلاً من الولايات المتحدة وأوروبا تعتبران نفسيهما « متحضرتين » في إطار هذا التنافس . فكما نرى في القسم التالي من البحث ، بينما كان القادة السياسيون في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يقولون بشكل علني إن

إن الصورة التي رسمها Kagan عام ٢٠٠٣ لأوروبا بصفتها فردوساً بحاجة إلى القوة الأمريكية الحقيقية هي صورة يتفق القادة الأوروبيون والأمريكيون على أنها مصدر للنزاع بينهم (Diez ٢٠٠٤). ولكن هذا التمايز بين القوى الغربية وهذه الفروقات لا يمنعها من التواطؤ فيما بينهم من أجل استخدام العنف ضد الآخر غير الغربي . ويشير Bowman عام ٢٠٠٣ أن النقاش حول صراع النفوذ بين أوروبا والولايات المتحدة ، يتعلق بشكل أساسي بمحاولة « التعامل » مع الشرق الأوسط ، وتكوين الصورة النمطية الجمعية عن العرب أو اليهود أو الآخرين الذين لا يمثلون أوروبا أو الولايات المتحدة لعدم كونهم من المسيحيين البيض المنتمين للطبقات المتوسطة أو النخبوية . وعلاوة على ذلك فبالرغم من الاختلاف الكبير بين الولايات المتحدة وأوروبا حول مواءمة استخدام التدخل العسكري ، فإن كليهما يلجأ أن إلى استخدام النفوذ كقوة (Diez ٢٠٠٥) .

إن مفهوم قوة أوروبا الجديدة من خلال نفوذها نابع من محاولتها بعد الحرب

العالمية الثانية في أن تتصور ذاتها ليس فقط من خلال معارضتها مع الآخر « الثقافي » ولكن تحديداً مع الآخر « الزماني » المتمثل بماضي أوروبا نفسها . ومما لا شك فيه فإن المفهوم الذي يشكل أوروبا (أو الاتحاد الأوروبي) هو مفهوم يفاوض للوصول إلى صورة متخيلة عن أوروبا . وفي حين نظرت أوروبا تاريخياً إلى ذاتها كنقيض لآخرها الشرقي ، وخاصة في اختلافاتها الداخلية حول التعامل مع تركيا ، فإنها أيضاً تتخيل ذاتها ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، كنقيض « لتاريخها الذي لا يجب أن يسمح له أن يصبح مستقبلها » (Waever ١٩٩٨) . تحاول أوروبا التغلب على « تهديد » ماضيها من خلال القوة الطبيعية أو النفوذ كقوة للسلام وحقوق الإنسان ، عكس الولايات المتحدة التي ترى أن قوتها الطبيعية تأتي من استعمال القوة العسكرية (Manners ٢٠٠٢) . بحسب الباحثين التقليديين هناك فرق حقيقي بين طريقتي استخدام القوة ، ولكن الباحثين النقديين في العلاقات الدولية قد يقترحون أن هذا الفرق دقيق ومعقد وأن استخدام النفوذ كقوة

الاستثنائية الأمريكية : خطاب التميز

يمكن تقسيم العالم سياسياً وجغرافياً إلى أربعة أقسام ، لكل منها ميزاته ، ولسوء حظ ثلاثة منها فإن أوروبا بسلاحها وسياستها ، بالقوة والحيلة ، قد بسطت سلطتها على الأقسام الأخرى ، وإن بدرجات متفاوتة . لقد شعرت أفريقيا وآسيا وأمريكا بالسطوة الأوروبية . إن التفوق الذي حافظت عليه أوروبا لفترة طويلة أغراها أن تتوج نفسها كسيدة العالم ، وأن تعتبر أن بقية البشرية خلقت لتخدمها .. إن علينا أن ندافع عن شرف الجنس البشري ، وأن نعلم ذلك الشقيق الداعي شيئاً من التواضع .. فليحتقر الأمريكيون أدوات العظمة الأوروبية (Alexander Hamilton) .

إن أسطورة الولايات المتحدة كأعظم دولة في العالم تمت صياغتها من خلال تأطير ذاتها في سياساتها ، وأفعالها ، وقيمها بصفاتها أكثر ديمومة وتحضراً وقبولاً كونياً ، وحرية وكمالاً من الحضارة الأوروبية ، رغم كونها جزءاً من تلك الحضارة . وفعلاً ، خلال سعي المهاجرين

ليس بالشيء الجديد . يجب أن نقر أن القوة الطبيعية غير العسكرية من الممكن أن تكون عنفية ، ونشدد هنا على نموذج نفوذ الولايات المتحدة كقوة خاصة عندما نتطرق إلى التاريخ الاستعماري لكل من أوروبا والولايات المتحدة وإلى تاريخ العبودية فيهما وإلى قضايا الهجرة المعاصرة ، وإلى التدخل في شؤون الدول غير الغربية من خلال خطاب حقوق الإنسان . ولكن التمييز بينهما ذو جدوى هنا ، وهو كان دائماً ذا جدوى بالنسبة للطرفين . إن البناء المتشعب للذات « يتم احتواؤه وترسيخه من خلال السرد أو الحكاية » أو القصص التي تعطي للوجود معناه (Schick ١٩٩٩) . فالولايات المتحدة تريد أن تكون أوروبا حليفها ، ولكن شرط أن لا تشوش على سردية وأسطورة وقصة الاستثنائية الأمريكية . نناقش في القسم التالي استمرارية هذه الأسطورة وترسيخها ، مع التطرق إلى الأسباب التي تدفع الولايات المتحدة إلى تشكيل صورة الآخر الغربي وغير الغربي .

أنظار العالم كله مشدودة إليهم ، وإن لم يقوموا بذلك فسيجعلهم الله عبرة لمن يعتبر . ويرى Ruland وBradury (١٩٩٢) أن Winthrop يعرف المدينة الأمريكية الفاضلة من خلال علاقتها بـ : مرجع واحد يرتقي فوق كل المراجع : الكتاب المقدس ، وخاصة في أسفاره الأولى : التكوين والخروج ، وقصة شعب الله المختار وأرض الميعاد . فالقصة بالنسبة للتطهريين كانت ... أساساً قصة دينية تتعلق بالعمل المجد والترحال بتوجيه من الرب من أجل هدف سامٍ وتاريخ يصوغ الألفية .

مع حلول ستينيات القرن الثامن عشر ، ومع تزايد كراهية نخبة المستعمرين الجدد للسياسات البريطانية بدأ هؤلاء المستعمرون يجادلون في أن « سكان المستعمرات » لم يعودوا من الإنكليز ، بل بدؤوا يرون أنهم « شعب له خصائصه » ، شعب مكلف واقعاً بنشر المهمة الإلهية للأنكلوساكسون وهي خلق ألفة بروتستانتية مصممة لهزيمة الاستبداد البابوي . يقول Edmund Morgan (١٩٧٥) إن « العصر الذهبي للنقاء

البيض للحرية الدينية وجدوا أن الله إلى جانبهم ، وهو جانب الحرية . يقول قائد التطهريين الأمريكيين John Winthrop من على متن السفينة التي أقلتهم إلى أمريكا عام ١٦٣٠ منبهاً من معه : « يجب أن نعرف أننا سنكون في المدينة التي على التل ، وأن أعين العالم كله ستتوجه إلينا » . إن غرابة هذا التنبيه تمكن في افتراض قائله أن العالم سيكون - أو يجب أن يكون - مشدود الأنظار ومصغياً لما سوف تقوم به مجموعة صغيرة جداً من التطهريين العابرين للمحيط الأطلسي في طريقهم إلى « العالم الجديد » . والصورة التي يرسمها لا تقل أهمية من ناحية وصفها لمدينة على رأس التل ، فهي منزلة عن بقية العالم ، وفوقه ، وأقرب إلى الله منه . وفي الجملة التالية يقترح لأتباعه أن يعقدوا عهداً مع الله : « فإن خاتلناه في عملنا الذي عاهدناه عليه ، سيهجرنا الله ولن يساعدنا وسنكون أمثلة وقصة يحكيها العالم عنا » . وهنا يعلم أتباعه ، كما يعلم العالم ، أنهم طالما يقومون بعمل الرب ووفق إرادته ، فسابقون مقيمون في تلك المدينة العالية ، وستكون

مفهوم « الحلم الأمريكي » وذلك في « رسائل من مزارع أمريكي » والتي يصف فيها هذا « الإنسان الجديد ، الإنسان الأمريكي » الذي تختلف مفاهيمه وعاداته بشكل كبير عن الأوروبي ، والإنسان الجديد قُدِّر له أن يكون منارة الحرية لبقية العالم . وظهر إجماع في الجمهورية الجديدة التي نشأت مع نهاية الفترة الثورية الأمريكية أن أمريكا حالة استثنائية لدى مقارنتها بمنافساتها الأوروبية . وفي حين أن هذه الاستثنائية تموضعت في البداية ضمن الخطاب التنويري الإنساني المتمحور حول مقولات الحريات الإنسانية والمساواة ، والحقوق الطبيعية ، فإنه ومع مرور سنوات القرن التاسع عشر ، أصبح ينظر إلى هذه الاستثنائية على أنها مستقاة من الشخصية الخاصة لأولئك الذي استوطنوا أمريكا . واستمر جفرسون حتى بعد انتهاء ولايته كرئيس في شرح « أمريكا » للأمريكيين بوصفها الحامل الأول والأخير للمبادئ والمثل الأنكلوساكسونية .

وقد لاحظ المراقبون الأجانب أيضاً تلك الشخصية الخاصة للأمريكيين ، وإن

والحرية الأنكلوساكسونيين « تجسد في رجال عصر الثورة الأمريكية الذين تصرفوا وكأنهم مهيوون بشكل متميز للحرية التي تميزهم كعرق ، وكان هؤلاء الرجال يعتقدون أن الله هو من أمر بذلك ، فيقول John Adams عام ١٧٦٥ إن « الاستيطان في أمريكا هو فاتحة مشهد عظيم خطته الإرادة الإلهية من أجل تنوير الجهالة وتحرير البشرية من رقبة العبودية » .

يقول المؤرخ Gordon Wood (١٩٩٨) : إن الأمريكيين بذلك أصبحوا « أكثر إنكليزية من الإنكليز » . ويظهر اعتقاد توماس جفرسون في كتيبه « نظرة ملخصة إلى حقوق أمريكا البريطانية » عام ١٧٧٤ أن « العصر الذهبي » هو عصر جيله من خلال قوله إن « الآباء الساكسونيين » للمستوطنين منحوهم حق أن يكون لهم حكومة حرة وتجارة حرة . فالثورة الأمريكية ظاهرياً كانت علامة فارقة في بدء حضارة جديدة ونقطة الذروة في التاريخ البشري . ويقدم الكتاب الفرنسي - الأمريكي J . Hector St . John Crevecoeur (١٧٨٠) لأوروبا

٥٠٦ ، من النسخة الإنكليزية المنشورة عام ١٩٤٨) .

وفي الفترة نفسها التي أقر فيها Tocqueville بأن الأساس الاستثنائي للولايات المتحدة يرتكز على التزام غير نقدي بفكرة المساواة ، نشأ خطاب قومي افترض أن للولايات المتحدة مهمة إلهية تتمثل في تشكيل العالم على شاكلتها ، وخاصة تلك الشعوب « غير المتحضرة » التي واجهها الأمريكيون داخل الولايات المتحدة وخارجها . من غير المفاجئ أن تكون بذور هذه الفكرة نشأت مع Winthrop والمتطهرين . فإن كانت صورته للمدينة القائمة على التل تجسد خصوصية المستعمرين الأمريكيين ، فإن الميثاق الجديد الذي يعبر عنه يربط هذا المكون للاستثنائية الأمريكية بعنصر هام آخر وهو « القدر الواضح » .

صاغ عضو الحزب الديمقراطي John Sullivan عبارة القدر الواضح (Manifest Destiny) في أربعينيات القرن التاسع عشر خلال الجدل الذي دار حول ضم تكساس إلى الولايات المتحدة .

كان بتأليه أقل . فقد أعطى Alexis de Tocqueville في كتابه « الديمقراطية في أمريكا » (١٨٣٠) المزيد من المصادقية لهذه النظرة النمطية ، فهو تجول عبر الولايات المتحدة بحثاً عن خصائصها المميزة ، وتركزت آراؤه حول « الديمقراطية » في المجتمع الأمريكي أكثر من كونها شكلاً محدداً من أشكال الحكومات . وبعبارة أخرى ، قدم Tocqueville أطروحة ثقافية اجتماعية حول ما سماه « مساواة الأوضاع الاجتماعية » التي يتمتع بها الأمريكيون والتي لم تكن معروفة في النظم الملكية السائدة في العالم القديم . وفصل في محاسن ومثالب شكل محدد من المساواة الأمريكية ، مصرحاً عن مخاطر « استبداد الأغلبية » التي من الممكن أن تحرف الأمة عن مستقبلها . وقال ، مقارناً عادات القوى الأوروبية مع الولايات المتحدة : إن الشعب الأمريكي « يريد المساواة مع الحرية ، فإن لم يحصلوا عليها ، فهم يريدون المساواة مع العبودية . هم يقبلون بالفقر والاستعباد والبربرية ، ولكنهم لا يتحملون قبول الارستقراطية » . (ص

تجربتنا العظمى في الحرية والحكم الفيدرالي ، وهي تجربة نحن أهل لها » . للأسف فإن التجربة الأمريكية حلت محل البريطانيين بوصفها المولد العظيم للحرية (Haynes & Morris ١٩٩٧) .

استخدم القادة والصحفيون الأمريكيون عبارة « القدر الواضح » من خلال القسم المتبقي من القرن التاسع عشر من أجل تبرير السياسات التوسعية واستمرارها ضد السكان الأصليين وضد المكسيكيين . وشكل مفهوم « القدر الواضح » بالتناغم مع مبدأ مونرو تبريراً قوياً لمنع القوى الأوروبية من التدخل في الشؤون الداخلية للدول الناشئة في القسم الغربي من الكرة الأرضية . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الولايات المتحدة قد استوطنت الأراضي الغربية في القارة وصولاً إلى المحيط الهادئ . وأعلن إحصاء ١٨٩٠ حدود التوسع الأمريكي باتجاه الغرب حدوداً مغلقة ، وفي ١٨٩٣ استخدم Fredrick Jackson Turner حقيقة نتائج الإحصاء ومزيمته ليصوغ نظريته المعروفة بـ « نظرية الحدود » والتي رأت أن نقطة الالتقاء بين الهمجية والحضارة

فاستخدم مصطلحه لينتقد تدخل الدول الأخرى في التمدد « الطبيعي » للولايات المتحدة نحو الغرب ، فكتب قائلاً : إن الآخرين يتدخلون « من أجل إحباط سياستنا وإعاقة قوتنا ، والتقليل من عظمتنا ، وإعاقة تحقيقنا لقدرنا الواضح ، وهو ملء هذه القارة التي وهبنا إياها الإرادة الإلهية من أجل إسكال ملايينا التي تتزايد كل عام . » كانت الولايات المتحدة قد اقتطعت تكساس من المكسيك وكانت كاليفورنيا على وشك اللحاق بها ، بما أن « القدم الأنكلوساكسونية قد وصلت إلى حدود كاليفورنيا ، وقد بدأ تقدم طليعة الهجرة الأنكلوساكسونية التي لا يمكن مقاومتها بالتدفق إلى كاليفورنيا » . واستخدم Sullivan عبارة « القدر الواضح » مرة ثانية ليحث على ضم أراضي أوريغون واقتطاعها من البريطانيين ، فكتب في الجريدة التي يملكها ، New York Marning News عام ١٨٤٥ مطالباً بأوريغون بحكم « حق قدرنا الواضح أن نتشر في كل القارة وأن نمتلكها وهي التي منحنا إياها الإرادة الإلهية من أجل تطوير

للديمقراطية ونبذهم للاستبداد - أي أنهم اعتنقوا « أمريكا » بدلاً من « أوروبا » . وبذلك ، وفي حين حركت فكرة « القدر الواضح » الكينونات الاستشرافية ضد الآخر غير الأوروبي ، فإن معتنقي هذه الفكرة أصروا دوماً على التشديد على هذا القدر بوصفه تضاداً لأوروبا .

أعاد الرئيس ثيودور روزفلت صياغة مبدأ مونرو ووسعه ليقول : إن على الولايات المتحدة أن تتدخل لترسيخ اقتصاديات الدول الصغيرة في منطقة الكاريبي وأمريكا الوسطى إن كانت تلك الدول غير قادرة على دفع ديونها الدولية . لم يكن مقبولاً لروزفلت أن تتدخل الدول الأوروبية الدائنة للدول الصغيرة إن لم تتدخل الولايات المتحدة . وذهب إلى حد طرح مقولة إن للولايات المتحدة دوراً إلهياً في العالم الجديد . كتب روزفلت كتاباً من أربعة أجزاء بعنوان « ربح الغرب » ، نشره بين ١٨٨٩ و١٨٩٦ ، ذكر فيه أن « انتشار الناطقين باللغة الإنكليزية في الأماكن اليباب من العالم خلال القرون الثلاثة المنصرمة لم يكن مجرد أكثر الأحداث أهمية في تاريخ العالم ، بل هو أيضاً الأكثر تأثيراً » . قناة

على القارة الأمريكية نتج عنها ، وتطلبت في الوقت ذاته ، تطوير مفهوم « الشخصية » الأمريكية المتميزة ، ورأى Turner أن الشخصية الأمريكية انصهرت في مرآة تجربة توسيع الحدود ، وحصدت نواة القيم الأمريكية : مركزية الفرد ، المساواة ، الاعتماد على الذات ، الديمقراطية ، والاستقلال .

ليس مفاجئاً أن Tocqueville وCrevecoeur وصفاً هذه الخصائص الأمريكية بعبارات مشابهة . وعلاوة على ذلك يمكن النظر إلى التناقض الصارع بين تعابير Turner المنتصرة وأحوال الدول الأوروبية التي كان العديد من أبنائها يفرون منها . وفي حين ندب Turner إغلاق التوسع الحدودي ، فإن نظريته جاءت في لحظة حاسمة من الهجرة الأوروبية الغزيرة إلى الشواطئ الأمريكية . وشهد وعد الاستثنائية الأمريكية نهضة بصفته استجابة محددة للهجرظ الأوروبية : فكلما ارتحل المستوطنون غرباً (أو كلما غزوا الهمج الذين وجدوهم في طريقهم وارتقوا بهم إلى مستوى « الحضارة ») كانوا يصبحون أقل أوروبيةً من خلال اعتناقهم

الولايات المتحدة الاقتصادية . وذهب السناتور Albert Bereridge إلى أبعد من ذلك مردداً ما كان يؤمن به العديد من السياسيين آنذاك ، فقال من على منبر مجلس الشيوخ عام ١٨٩٩ :

إن الله لم يقض آلاف السنين في تحضير الشعوب الناطقة بالإنكليزية والشعوب الجرمانية من أجل الاعجاب بالذات والغرور . لا ! لقد جعل منا الله أسياد العالم ومنظميه لكي نفرض النظام مكان الفوضى ... جعلنا قادرين على الحكم كي نؤسس حكومات للشعوب الهمجية والخرفة .

مع حلول نهاية القرن التاسع عشر ، كانت حكومة الولايات المتحدة قد فرضت سيطرتها على كل القارة الأمريكية الشمالية ، وحولت أنظارها إلى ما وراء الحدود . فقد أعادت تشكيل الحدود مع المكسيك ، وهجرت سكان القارة الأصليين إلى محميات خاصة . كان السجال مع بريطانيا على رسم حدود كندا وأراضي أوريغون قد انتهى منذ مدة ، وتم لجم القوى الغربية الأخرى عن التدخل في

روزفلت هذه قاداته إلى تشجيع الأمريكيين على الدخول في النزاعات في أماكن مثل كوبا وهاواي والفلبين وبورتوريكو . وركز في كتابه بشك لأكثر علانية ووضوحاً من Turner على غزو الآخرين وإخضاعهم . ولم تكن مصادفة أن لحظة إعلان Turner عن إغلاق حدود التوسع غرباً في القارة الأمريكية كانت أيضاً لحظة فتح الحدود « الدولية » التي عرّفها روزفلت الذي كتب بجرأة في عمله « الحياة الشاقة » عام ١٨٩٩ :

يطل علينا القرون العشرون حاملاً معه مصير العديد من الأمم . إن كنا سلبيين ، إن سعيها لحياة متخمة صبغتها السهولة والراحة المخزية ، إن هربنا من النزاعات الصعبة التي يرحب بها من يضع حياته وكل ما هو غال عليه في الميزان ، فسيتفوق علينا من هن أكثر شجاعة وقوة ، وسيحكمون العالم .

يغير روزفلت هنا تركيزه من منع الاستعمار والتوسعية الأوروبية في الأمريكيين إلى تبرير العدوان الأمريكي خارج الحدود من أجل حماية مصالح

نصف الكرة الغربي . لقد أعادت الولايات المتحدة تعريف ذاتها كقوة عظيمة ، ورسخت سرديّة الاستثنائية الأمريكية .

لكن أحد « أعراض » علل أوروبا « الاشتراكية » تسلل إلى الداخل الأمريكي مع دخول الولايات المتحدة العصر الصناعي متحولة من مجتمع زراعي إلى اقتصادي مدني مرتكز على الصناعة . وفيما كان المزارعون والعمال يحاولون تنظيم صفوفهم للدفاع عن حقوقهم ، رد عليهم الرأسماليون بإيديولوجية أمريكية صرفة . فخرج William Graham Summer بمقولة « الدارونية الاشتراكية » في كتابه الهام « ما الذي تدين به الطبقات بعضها لبعض » ، في حين تغنى Andrew Carnegie في مقالته الهامة « الثروة » بالفوائد الاجتماعية لأرباب الصناعة الأغنياء . وعندما كانت الأيديولوجيا لا تؤدي دورها ، لجأت الطبقة الأرسمالية إلى العنف لقمع العمال الذين كانوا يحاولون تأسيس نقابات أو الإضراب عن العمل .

وفي حين شهد مطلع القرن العشرين

منافسة قاسية بين الولايات المتحدة والقوى الاستعمارية الأوروبية للتدخل في شؤون العالم النامي ، انصرف العديد من القادة والعلمين السياسيين إلى مقارنة الاشتراكية في الولايات المتحدة وأوروبا . وسأل المنظر السياسي الألماني Werner Sombart عام ١٩٠٦ « لماذا لا توجد اشتراكية في الولايات المتحدة » أجاب بعد مقارنتها بألمانيا : « إن كل المدن الفاضلة التي تقترحها الاشتراكية تذبل أمام لحم البقر المشوي وفطيرة التفاح » . وبعبارة أخرى ، رأى Sombart أن العمال الأمريكيين كانوا أكثر امتلاء من الناحية المادية من نظرائهم الألمان ، وبالتالي لم يروا من ضرورة لاقتصاد مبني على الأسس الاشتراكية . وأضاف إن ما يجعل الولايات المتحدة استثناء هو « طبيعتها البرجوازية » . ويمكن تلخيص رأيه بأنه لم يكن هناك « لا إقطاع ولا اشتراكية » لأن العمال الأمريكيين كانوا أكثر اندماجاً في مجتمعهم مع الأوروبيين ، ولم يعانون من عمق اليأس الذي رآه كارل ماركس شرطاً ضرورياً للثورة الاشتراكية . وحصل العمال البيض على حقوق التمثيل بغض النظر

تجربة الاشتراكية . وخلاصة القول وفقاً للسياسيين الأوروبيين ووفقاً لأسطورة الاستثنائية الأمريكية ، فإن تاريخ أوروبا القديم والحديث (الاقطاع ، الثورات الاشتراكية ، الحروب) أضعف قدرة أوروبا على حكم العالم .

بعد مرور أربعة عقود من القرن العشرين بدأنا نسمية « رسمياً » بالقرن الأمريكي وهو ما توقع حدوثه روزفلت وبيفيردج في مطلع القرن . وكان أول من استعمل مصطلح « القرن الأمريكي » Henry Luce رئيس تحرير مجلة Life في مقال نشره عام ١٩٤١ قبل عشرة أشهر من دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية ، وتوقع فيه أن بلاده ستدخل الحرب وتكسبها . ثم اقترح ما يجب أن تقوم به الولايات المتحدة بعد نهاية الحرب : « يجب علينا أن نكون الخيار الصالحين لكل العالم . إن قدر هذا البلد أن يأخذ على عاتقه إطعام العالم كله » . واعتقد Luce أن قدر الولايات المتحدة بعد إعادة فرض النظام عسكرياً والقضاء على الفوضى هو أن ترسل جيشاً إنسانياً يبشر العالم بمثل أمريكا : وثيقة

عن مؤهلاتهم المالية مع حلول منتصف القرن التاسع عشر ، ولذلك كانوا يستطيعون التعبير عن احباطاتهم السياسية والاقتصادية من خلال العملية السياسية لا من خلال محاولة قلبها . لذلك انتهت إلى فشل المحاولات الخمسة للحزب الاشتراكي الأمريكي بالترشح للرئاسة الأمريكية .

وملخص القول هو أن الولايات المتحدة دخلت القرن العشرين كقوة دولية بوجوازية رأسمالية يلهمها مفهوم القدر الواضح ، ويتميز أساسي عن ملكيات أوروبا وثوراتها الاشتراكية . وهذا التمايز كما رآه الأمريكيون لم يكن يعني أن أوروبا كانت غير متحضرة أو « بربرية خرفة » ، والأوروبيون لم يكونوا أناساً يمكن « الاستغناء » عنهم ، كما هي حال العالم غير الغربي . أوروبا كانت ببساطة أقل « عدالة » من الولايات المتحدة وأقل نجاحاً منها في تجربتها مع فكرة الحرية (Lipset ١٩٩٦) . أما من وجهة نظر الاشتراكيين الأوروبيين فإن الولايات المتحدة كانت « استثنائية » بالفعل ولكن بالمعنى السلبي للكلمة لأنها لم تخض

الأصيلة واحتوائها ، وفي حروب الوساطة التي نزعت عن غير الغربيين إنسانيتهم ، فإن الباحثين في الفكر السياسي الأمريكي استمروا في الحديث عن الهوية الاستثنائية للولايات المتحدة مقارنة بنظرائها الأوروبيين . ولعل أهم ما كُتب في تلك الفترة حول هذه الاستثنائية للولايات المتحدة مقارنة بنظرائها الأوروبيين . ولعل أهم ما كُتب في تلك الفترة حول هذه الاستثنائية كان كتاب Louis Hartz « التراث الليبرالي في أمريكا » (١٩٥٥) ، والذي اقترح فيه المؤلف « نظرية الإجماع » ، وذلك بعد استناده إلى مقولات Sombart و Tocqueville وغيرهما ، وتقول هذه النظرية إن الولايات المتحدة مرتبطة بشكل عفوي غريزي بمثل الحرية المشتقة من مقولة Locke حول « الحقوق الطبيعية » . فالأمريكيون لا يستطيعون التفكير من منظور اختلاف الطبقات كما يفعل الأوروبيون ، وذلك ببساطة لأن الولايات المتحدة لم تمر بالمرحلة الاقطاعية . وعلى عكس العالم القديم تملك الولايات المتحدة تراثاً وثورياً هدفه إزالة الهرمية الاجتماعية : « فالبشر

إعلان الاستقلال ، الدستور ، حب الحرية ، وإلى ما في ذلك . الصدمة والرعب يجب أن تتبعهما ما يراه القادة الأمريكيون على أنها جيوش التعاطف الإنسانية .

من المهم أن نذكر أن القرن الأمريكي شهد بروز العالمية الليبرالية سواء تحت قناع خطاب Wilson « بتصدير الديمقراطية » أو النظام العالمي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية والمتمثل بتأسيس منظمة الأمم المتحدة . لقد ساهمت الولايات المتحدة في خلق مؤسسات عالمية دورها هو سياسيات دولية « متحضرة » تتجاهلها هي كيفما تشاء ، وعلى الرغم من النقد الأوروبي المصبوغ برغبة العمل الجماعي . التزمت كل من الولايات المتحدة وأوروبا خلال الحرب الباردة وبعدها بعالم جديد متحرر ، ولكن الولايات المتحدة ميزت نفسها من خلال تعزيز قوتها العسكرية . لقد جلبت الحرب الباردة التحالف الضروري بين الطرفين في مواجهة الاتحاد السوفياتي وأتباعه . ولكن وعلى الرغم من استشراء الخطاب الاستشراقي المتجسد في قهر الثورات

الخطاب ضد الاتحاد السوفياتي والأنظمة الاشتراكية ، عمد الرئيس ريغان ومؤيدوه إلى تقديم الولايات المتحدة بوصفها القائد للديمقراطيات الصناعية الرأسمالية المتقدمة ، وبوصفها المتميزة عنها أيضاً ، وذلك رغم امتعاض المعارضين الأوروبيين على هذا التوصيف . وحملت كلمات ريغان وخطبه المتعلقة بواجبات الولايات المتحدة (وليس أوروبا) الروح العاطفية نفسها التي اعترت مواعظ John Winthrop . وبالفعل ، وحدها الولايات المتحدة ظلت محصنة من الفكر الشمولي الذي اجتاحت أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين ، واجتاحت الاتحاد السوفياتي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وبعد انتهاء الحرب الباردة في تسعينيات القرن المنصرم ، ومع قرب انتهاء القرن الأمريكي ، كانت الولايات المتحدة في ذروة قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية . وفي تلك اللحظة تماماً جادل هنتنغتون بأن الصدمات الأيديولوجية التي صبغت نصف القرن المنصرم انتهت ليحل محلها صدام الحضارات . وتحضيراً لهذه « الحرب »

(في أمريكا) بدؤوا يتربطون لا من خلال معرفتهم أنهم أجزاء من ترانزية شاملة ، بل من خلال معرفتهم بأنهم مشاركون متشابهون في طريقة واحدة للحياة » (Hartz) .

وفي حين كان خوف Tocqueville هو من « استبداد الأغلبية » في الولايات المتحدة ، قال Hartz : إن الخوف الحقيقي هو من « استبداد الإجماع » . وكان قلقه الأعظم هو من نتائج الاستثنائية الأمريكية على الساحتين الداخلية والدولية . فداخلياً يصبح التراث الليبرالي متصلاً في مواجهة التحديات العقائدية ، كمثال الطبيعة التدميرية للمكارثية التي كتب Hartz بشكل رئيسي كرد فعل عليها . ودولياً يفشل التراث الليبرالي في فرض قيم في كل مكان بسبب ما يسميه « محدودية نمطة الثقافي » .

ومع استمرار الحرب الباردة ، استمر القادة السياسيون ووسائل الإعلام بوصف تلك الحرب على أنها حماية « للطريقة الأمريكية في الحياة » والمتراس للخطر الشيوعي . وعلى الرغم من توجه هذا

السردية الأمريكية . يقول Kristol و Kagan في مقالتهما « نحو سياسة خارجية ريغانية جديدة » :

إن الهيمنة الأمريكية هي الدفاع الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة انهيار السلم والنظام العالميين . لذلك فإن الهدف الأكثر مواءمة للسياسة الأمريكية الخارجية لأبعد مستقبل ممكن هو الحفاظ على هذه الهيمنة . ولتحقيق هذا الهدف ، تحتاج الولايات المتحدة إلى سياسة خارجية ريغانية جديدة تقوم على التفوق العسكري والثقة الأخلاقية بالنفس (١٩٩٦) .

نلاحظ أن الكاتبين يهجران اللغة التي استعملت قبل قرن في وصف « الشعوب الهمجية والخرفة » . ولكن الأثر هو ذاته : هناك فوضى في العالم وعلى الولايات المتحدة أن تفرض نظاماً أخلاقياً عليه . الاستثنائية الأمريكية تعمل إذاً من خلال آليتين : الغزو والقوة العسكرية بالإضافة إلى القيم والمعتقدات الأمريكية التي تساعد في « حكم الشعوب الهمجية والخرفة » . وهنا نرى أصل مصطلحي

جمع عدد من المحافظين أنفسهم في صيف ١٩٩٧ لتعزيز تأثيرهم على السياسة الخارجية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ، وأطلقوا على مشروعهم اسم « مشروع من أجل قرن أمريكي جديد » . ومن الجدير ذكره أن موقعهم على الإنترنت يعج بالمقالات التي تظهر كيف أن أوروبا جزء من « المؤسسات القديمة » وهي غير قادرة على فهم العبء الذي تتحمله الولايات المتحدة كقوة مهيمنة تواجه الإرهاب والدول الفاسدة ، على الرغم من أن أوروبا تستفيد من النظام والأمن الذي تقدمه لها الولايات المتحدة .

موقف هؤلاء المحافظين الجدد الذي كان أبرز دعائيه الكاتبين الشريكين Bill Kristol و Robert Kagan كان ببساطة الرغبة في نشر منافع الديمقراطية في العالم من خلال ما سموه « الهيمنة الخيرة » وهو مفهوم يبدو حميداً خاصة لدى الباحثين التقليديين في مجال العلاقات الدولية . والتشابه صارخ بين مهندسي القرن الأمريكي الجديد وأولئك الداعين إلى التفوق الأمريكي في نهاية القرن التاسع عشر ، مما يؤشر إلى ديمومة

الباحثون ، وحتى المواطنون الأمريكيون أكثر انتقاداً لحركة المحافظين الجدد في مرحلة ما بعد أحداث ١١ أيلول ، وخاصة بسبب التزامها المطلق بالاستثنائية الأمريكية (Fukuyama ٢٠٠٦) .

هل ستستمر الولايات المتحدة باستعمال أسطورة الاستثنائية الأمريكية لتمييز نفسها عن أوروبا ؟ وما هي تداعيات هذه الاستمرارية ؟ وهل سيستمر التعاون الأمريكي الأوروبي استناداً إلى الخطاب الاستشراقي ، خاصة في التعامل مع قضية الإرهاب ؟

خلاصات

تعلمنا من ١١ أيلول أن الإرهاب ضد المصالح الأمريكية « هناك » يجب أن يُنظر إليه بالطريقة نفسها التي يُنظر فيها إلى الإرهاب ضد أمريكا « هنا » . وبهذا المعنى ، فإن الوطن الأمريكي هو الكوكب كله .

تقرير لجنة أيلول

نخلص إلى أن تحليل الخطاب الاستشراقي والاستثنائي يقودنا إلى ضرورة

« القوة الخشنة » و « القوة الناعمة » وللذين صاغهما Joseph Nye عام ٢٠٠٤ بوصفه مساهماً مرموقاً في التراث النظري الليبرالية الجديدة في العلاقات الدولية . يشير Nye إلى شيء ممنحوت بشكل عميق جداً في الوعي الأمريكي ، إلى شيء تأسيسي . فالتدخل العسكري الأمريكي في شؤون العالم ، سواء كان عسكرياً أم إنسانياً ، فهو مرتبط بواجب أخلاقي مشتق من مهمة إلهية . وهذا يشرح لماذا استخدم Luce على سبيل المثال عبارة « الأخيار الصالحين » الإنجيلية في مقالته عام ١٩٤١ . ويسارع مؤيدو نظرية الهيمنة الخيرة إلى الإشارة إلى دور الولايات المتحدة في ضمان استقرار أوروبا وأمنها ، والحد الذي يدعون أن « مصدر القلق الأساسي لدى حلفاء أمريكا (الأوروبيين واليابانيين) في هذه الأيام هو من سحب دور أمريكا وليس من ازدياد سطوته » (Kristol & Kagan ١٩٩٦) .

ومنذ زمن كتابة هذا المقال أصبح الأوروبيون أقل ثقة بشكل واضح بدور الولايات المتحدة في العالم . وأصبح

لقد قدم تقرير لجنة أحداث ١١ أيلول نموذجاً واضحاً للمنطق الحاكم للسردية الأمريكية التأسيسية . ففي ختام ٤٠٠ صفحة من ذلك التقرير تُقدم اللجنة العشرات من التوصيات لمحاربة الخطر الجديد المائل في الإرهاب الدولي . ويتم فيها الخلط بين التحالفات الاستراتيجية ومصادر التهديد المحتملة ، فالعالم مقسوم إلى قسمين « هنا » و « هناك » . وفي رسم الاستجابة الأمريكية نرى تداخلاً مذهلاً ، فكل العالم أصبح « الآخر » بما في ذلك أوروبا ، ولكن في الوقت ذاته فالكوكب الأرضي بأكمله هو الوطن الأمريكي . وما تقوم به وتقلبه الولايات المتحدة بعد أحداث ١١ أيلول مثال « استثنائي » لكل من هو « هناك » ، فهي تطلب انتباه العالم كله لكي يقلدها .

وما نقوله هو أن هذا الموقف ليس جديداً ، فالولايات المتحدة بعد ١١ أيلول أظهرت استمرارية مع ماضيها بشكل أكثر التصاقاً به من أية لحظة حرجة أخرى مرت بها . وفي تقرير اللجنة صدى لكلمات Alexander Hamilton في « الأوراق الفيدرالية : ١١ » التي يخبرنا فيها عن

إعادة التفكير بشكل نقدي بالهوية الأمريكية والسياسة الناجمة عنها ، وهذا يولد أجندتين بحثيتين رئيسيتين : الأولى هي أننا نستطيع فهم استمرارية الهيمنة الأمريكية وديمومتها . والثانية هي أننا نستطيع أن نحلل بشكل أفضل تداعيات التحديات الأوروبية للهيمنة الأمريكية .

بالنسبة للنقطة الأولى ، حاولنا أن نظهر أن تحليل الاستشراق ، رغم فائدته في تعريف تخيلات هنتنغتون وتحليلها ، وفهم العلاقة بين المعرفة والقوة ، واكتشاف آليات تصوير الآخر غير الغربي ، وربط البحث النقدي في العلاقات الدولية بمباحث من حقول معرفية أخرى ، إلا أنه لا ينجح في شرح التنافس بين الولايات المتحدة وأوروبا والذي استمر على مدى قرنين أو يزيد من الزمن . لقد تواطأ الطرفان حتماً في التعامل مع الآخر غير الغربي . لكننا نعتقد أن التنافس التاريخي بينهما ، ومحاولة الولايات المتحدة لتمييز نفسها لا يمكن غض النظر عنه إن أردنا أن نفهم السياسة الأمريكية في مرحلة ما بعد ١١ أيلول .

لا يمكن معه مقاومتها . لقد حاولنا أن نشير إلى أن الحاجة الأمريكية الدائمة الدائمة لاستحضار استثنائيتها واستشراقها خلال الأزمات سببها أن هذه الهيمنة في الواقع هشة جداً .

نقطننا الثانية تتعلق بتداعيات ردود أفعال أوروبا ، بصفتها الآخر الغربي . ففي حين يعتقد دعاة الهيمنة الخيرة أو أوروبا والقوى الناشئة في العالم راضون بالهيمنة الأمريكية ، فإن هناك أعضاء في الاتحاد الأوروبي يرون ضرورة ابتعاد أوروبا عن القبول بالأحادية التي ترى فيها الولايات المتحدة حقاً فريداً لها . وفي مواجهة هذه المواقف الأوروبية تجد الولايات المتحدة نفسها في صراع ، ليس فقط مع حلفائها أو الآخرين ، ولكن أيضاً مع نتائج كينونتها ، أي مع ذاتها كأمة (Ruggie ٢٠٠٦) . إن الولايات المتحدة فعلاً على مفترق طرق لأنها وبشكل مضطرب تعفي نفسها من الالتزام بذات مؤسسات الحوكمة العالمية التي يفترض أنها تستعملها كي تصوغ العالم ، بما فيه أوروبا ، على شاكلتها . يؤمن Ruggie ومعه كثيرون بالقدرة التحويلية للسياسة المدنية والحوكمة

حلمه بأمريكا التي تعطي المعنى للجنس البشري كله ، غريباً كان أو غير غربي . وعد الثوريون الأمريكيون عند تأسيس الولايات المتحدة أنه لن يفسدها العنف الناجم عن صراع الطبقات ، والنزاعات الحدودية ، والانحلال الاجتماعي الذي تعاني منه أوروبا . وبعد قرن من ذلك الوعد ، يقظ القادة الأمريكيون عناصر من استثنائية بلدهم وجعلوا منها مؤسسات تسمح لهم بلعب دور « الأخيار الصالحين » الذي ينقذون العالم من الشمولية بعد الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة . والآن تستطيع أمريكا أن تدعي أنها تخلص العالم من الإرهاب . ولكي نفهم القوة الحقيقية للخطاب الاستثنائي الأمريكي وديمومته ، نقترح أن تكون هناك دراسة مقارنة بين السرديات الماضية والمعاصرة ، وخاصة في المجالات المتعلقة بالخطاب الديني ، والرأسمالية العالمية ، والقدرات العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية الأمريكية التي تساعد على القيام « بمهمتها الإلهية » . ولكن هذا كله لا يعني أن الهيمنة الأمريكية مستمرة وغير مستسلمة بشكل

العالمية في وضع حد لمبادئ الولايات المتحدة الأحادية ، لكننا نعتقد أن الإشكالية المحتملة تكمن في افتراض أن أوروبا ستكون القوة الموازية التي تقوم بذلك .

إذا كانت بقية العالم ، بما فيه أوروبا ، هي الآخر بالنسبة لأمريكا ، وفي الوقت ذاته هي جزء من الوطن الأمريكي ، وبالتالي فمصيرها مرتبط بالوجود الأمريكي ، عندها تكون الهيمنة الأمريكية دائماً في دائرة الخطر . إن الخطاب الاستشراقي ممارسة في تصوير الآخر ككمن يهدد دوماً بتدمير الولايات المتحدة (لا كدولة ولكن بصفته الكوكب كله) ، ولذلك يقوم الخطاب الاستثنائي بتقديم الولايات المتحدة بصفته القوة الغربية الوحيدة التي تستطيع إيجاد هذا الخطر الكامن وتدميره . فإن كان الاتحاد الأوروبي سيحاول بشكل جدي اكتساب المزيد من القوة ، وإن استمر الباحثون والمعلقون النافذون في التباكي على احتمال انتهاء العصر الأمريكي ، عندها قد تسعى الولايات المتحدة للقيام بما قامت به دائماً في الماضي ، وهو الاستعمال

المتشعب للخطابين الاستشراقي والاستثنائي لضمان بقائها على رأس هرم القوة ولحماية هشاشة هيمنتها . لعل أوروبا تستطيع الإشارة إلى القانون الدولي ، والأمن الجماعي ، والتعددية ، وعناصر أخرى من الحوكمة العالمية ، لكن ذلك لا يعني أن نزعة الولايات المتحدة إلى الاصرار على ضرورة الحاجة إلى الهيمنة ستتوقف .

ونتساءل أيضاً عن نوع العنف المعرفي الذي يتم اللجوء إليه ، وعن من سيتم اغتصاب حقوقه ، عندما تمارس كل من الولايات المتحدة وأوروبا نفوذهما كقوتين طبيعيتين ، وإن كان بطرق مختلفة . هناك بالتأكيد بدائل للسيطرة الأوروبية - الأمريكية ، ولوصفه الحوكمة العالمية . والسؤال هو كيف سينعامل هذان القطبان العالميان مع القوى الناشئة في العالم ، ومع قضايا الأمن الإقليمي ؟ وما هو الدور الواضح المحتمل للاستراق الأمريكي والاستثنائية الأمريكية في عالم متعدد الأقطاب ؟ إن هدفنا هو أن نقول إن الإشارة إلى العلاقة بين الاستشراق والاستثنائية تهدف إلى لفت الانتباه النقدي

إلى مغازي الصراع الأمريكي الأوروبي في
سياق الهرمية الدولية ، والعلاقات المبنية
على أسس القوة ، وتعدد أنواع منطق
تصوير الآخر .

الهوامش

(١) American Orientalism and American Exceptionalism: A critical Rethinking of
US Hegemony

Meghana V. Nayak and Christopher Malone – Pace University International
Relation Review (٢٠٠٩) ١١: ٢٥٣ – ٢٦٧

حقيقة الصراع بين الإسلام والغرب إطالة على أطروحة هنتجتون

الأستاذ : حفيظ الرحمن الأعظمي

باحث أكاديمي، وناشط سياسي باكستاني

الكرهية ضدها ، وضرورة فرض الديمقراطية وحقوق الإنسان وتغيير مناهج التعليم في العالم العربي ، حيث إنها - كما يقولون - تغذي الإرهاب والعنف عند العرب والمسلمين .

ويرون أنه ما لم يتم تطبيق هذه المضامين ، فإن ما طرحه هنتجتون يعدّ طرحاً صحيحاً في إشكالية الصراع بين

لا تزال بعض الأوساط السياسية المقربة من مراكز صناعة القرار في الولايات المتحدة تطلق مقولة صراع الحضارات وصدامها ، التي أطلقها صامويل هنتجتون في القرن الماضي ، وأنّ الإسلام هو العدو الحقيقي للغرب ... إلخ . مستفيدة من أجواء النقد لسياسة الولايات المتحدة في العالم العربي بسبب انحيازها المطلق لإسرائيل ، وإصرار هذه الأوساط على ما تسمّيه بحملة

القائم ؛ لأنّ ما قيل في هذا الكتاب يعد خطراً بكلّ المقاييس ، سواء وافقناه فيما طرحه من آراء وتحليلات أن اختلفنا معه .. فالأهمّ أنّ كتاب البروفيسور (هنتنجتون) يسهم في تأجيج الصّراع المقترض ، وإعادة طرح العداوات القديمة المدفونة بمفاهيم ونظريات جديدة وافتراضات قد لا تكون صحيحة في الواقع ، لكنّها ربما تجد من يصغي لها في ظلّ التوتّر والتنافس في وقت تحتاج الإنسانية إلى التعاون والتعايش والتماسك والوئام .

ومن الافتراضات والاستنتاجات التي تدور حولها أطروحة البروفيسور (صموئيل هنتنجتون) : المخاطر المتوقعة على الغرب من التحالف الإسلامي الكونفوشي المقبل ، وتهديده لمصالح الغربية وقيمها وسلطتها ، وأنّ نهضة الصّين الاقتصادية ستكون أكبر حدث مهدّد للاستقرار بعد انتهاء الحرب الباردة ..

لماذا ؟ !

يقول هنتنجتون : أظهر التاريخ أنّه كلّما تطورت الدّول من النّاحية الصّناعية أصبحت أكثر قوةً ونفاذاً ، وأحياناً تصبح

الإسلام والغرب ، في ظلّ غياب القيم الغربية في الديمقراطية والليبرالية وغيرها من مضامين التّسامح والانفتاح السياسي والفكري .

وعندما أصدر البروفيسور (صموئيل هنتنجتون) ، أستاذ العلوم السياسية ورئيس أكاديمية هارفرد للدراسات الدّولية والإقليمية ، كتابه الجديد : (الصراع الحضارات وإعادة وضع النّظام الدولي) ، توقّعت الأوساط السياسة والأكاديمية أن يعيد البروفيسور النظر في أفكاره من خلال أطروحته التي كتبها في مجلة (فورين أفيرز) ١٩٩٣ (الصدام بين الحضارات) ، والتي كانت - بحق - الشرارة الأولى لفتح هذا الملف ، وربما الصعوبة في إغلاقه أيضاً ؛ والسبب الأقوى : أنّ ما طرحه يعدّ أخطر ما أثير بعد انتهاء الحرب الباردة في هذا القرن .

وكان من المفترض أن تتمّ المراجعة بطريقة عقلانية وواقعية ، بغضّ النظر عن حاجة بعض المؤسّسات في الغرب لمثل هذه الأطروحات وترويجها ، والأسباب متعددة ومتوافرة وفق المنظور الاستراتيجي

هو إعادة (شحن بطارية) الغرب الرّوحية التي بدأت في النفاد كما يعتقد البعض ، ولذلك فإنّ مقولات (الصدام المقبل) قد تعني أنّ شيئاً ما ينتظره ، وما إذا كان باستطاعة الغرب أن يقود الحضارة في القرن القادم أم لا ؟ وهذا أيضاً يقود إلى افتراضين :

- أنّ مراكز القرار فوجئت بصدور الكتاب الذي أصدره فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ وخاتمة البشر) ، الذي قال فيه ما خلاصته : إنّ النظام الليبرالي هو أقصى ما يمكن أن يبلغه المجتمع السياسي .. فالديمقراطية الليبرالية انتصرت ، ولن ننتظر الجديد بعد الآن ، فهذا القول وإن كان يدعو إلى الفخر والزهو ببلوغ النظام الرأسمالي الحرّ انتصاره في الحرب الباردة بعد انهيار الماركسية ، إلا أنّ هذا الطرح قد لا يُفرح مؤسسات صناعة القرار في الغرب ، التي يهّمها افتعال الصّراع وافتراض الصّدام القادم ، وهذا ما أتت به أطروحة (صدام الحضارات) للبروفيسور (هنتنجتون) في عام ١٩٩٣ م .

لهذه الدّول أطماعٌ توسّعية وامبريالية .. ويبدو من المحتمل (لي) أن ترغب الصّين في تأكيد نفسها في هذا المجال ، فخلال ألفي عام ظلت الصّين قوة مهيمنة في شرق آسيا ، ولكن منذ عام ١٨٥٠ م تفوّقت عليها اليابان ودول الغرب ؛ ولذلك يشعر الصينيون بالذّل والهوان ، ومن الطبيعي أنّهم يريدون استئناف ما يرون أنّه مكانهم الطّبيعيّ في العالم ، وأنّ الحضارات الكونفوشية والإسلامية تتحدّث عن الغرب باعتباره الخصم الرئيس لها .

وعلى الرّغم من عدم تماسك هذه الاستنتاجات فإنّ (هنتنجتون) يودّ من خلالها أن ينبّه الغرب ومراكز التّفوذ ومؤسسات صناعة القرار ، إلى أنّ هناك قوى صاعدة تحمل مخزوناً حضارياً وتاريخياً عريقاً ، وإذا ما توطّدت أركانها اقتصادياً واستقرّت سياسياً ، فإنّ هذا هو الخطر المحدق بالغرب وثقافته (الكونية) . فالغرب لا يريد أن يتنازل عن مكانته وتفوّقه وريادته ، وبالتالي : فإنّ الافتراضات التي وضعها (هنتنجتون) ليست صحيحة من الناحية التحليلية الاستقرائية للواقع والتاريخ ، بل إنّ ما قاله

يقابله شعور آخر مما قد تفعله هذه الحضارات في حالة صعودها أو تفوقها أو نديتها مع الغرب ، وهو اعتقاد لا مبرر له على الإطلاق ، أو على الأصح اعتقاد وهمي تبريري لكوامن نفسية ذاتية في طبيعة الغرب الذي يؤمن بقضية (الصراع) حتى مع نفسه ؛ حيث ظل يعاني عقدة (الصراع) ، بين مثاليته التي يؤمن بها ومركزية حضارته ، وبين الواقع الذي يعيشه ..

والأخطر في أطروحة (هنتنجتون) كما نعتقد ، هي تلك الرؤية الأحادية للاختلاف ، حيث يرى أنَّ الاختلاف الثقافي دليل الانقسام والتصارع ، وهذه - للأسف - نظرة شمولية يفترض أن لا تصدر من الغرب الديمقراطي العقلاني ، بحكم أنَّ الطرح الذي يرفعه يؤكد أهمية التعددية والاختلاف والتنوع بين الحضارات الإنسانية ، وإذا ما نظرنا نظرة فاحصة إلى تاريخ الحضارات ونشأتها ، فسنجد أنَّ التعدد والاختلاف سمة عامة في أغلب الحضارات الإنسانية ، عدا محطات قليلة في فترات الانحطاط والتراجع .

- أن يكون التَّخَوُّف الغربي في محله ؛ والسبب أنَّ تصاعد بعض الحضارات تقنياً وثقافياً ربما يعني أنَّ الغرب سيتراجع عن الصِّدَارَة والمكانة الدولية ، وهذا نذير غير سارٍّ للحضارة الغربية التي تعاني في الأساس من التراجع الروحي والأخلاقي ، وهذا ما قاله بعض المفكرين والسياسيين ، بينهم الأمير تشارلز في محاضراته في (ويلتون بارك) بلندن ، والتي دعا فيها إلى استمداد العون من تراث الإسلام في هذا الخصوص .

والإشكال القائم الآن هو التَّخَوُّف من الانتقام ممَّا فعلته الحضارة الغربية بالحضارات والثقافات التي أخضعها لهيمنتها ، وهو ما اعترف به (هنتنجتون) عندما قال : « ابتداء من من سنة ١٥٠٠ م بدأ التوسع الضخم للغرب مع جميع الحضارات الأخرى ، وقد تمكَّن الغرب في أثناء ذلك من الهيمنة على أغلب الحضارات وإخضاعها لسلطته الاستعمارية ، وفي بعض الحالات دمَّر الغرب تلك الحضارات .

إذن هناك شعور بالذنب في الغرب ،

المستقبلي ، واستنتاج هذه الفرضية الشمولية لصدام الحضارات والهويات واختلافها الفارق وانقسام الثقافات وتقاطعها .

ولا شك أنَّ الحضارات كيانات ثقافية ضمن عناصر أخرى تدخل في تركيبها الفكرية والثقافية ، لكّ التمايز الحضاري والاختلاف الثقافي والديني واللغوي ، لا يعني بالضرورة الصدام والصراع ، وإنما العناصر الأهم للصراع والتصادم هي المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية التي تسهم في توظيف هذه التمايزات والاختلافات المصلحية ، لكن ما قيل في هذا الصدد عن الصدام الحضاري والثقافي مجرد لافتة أو غطاء لستر المصلحة أو الحاجة الأخرى غير المعلنة ، بما يستتبعها من هيمنة وسيطرة ، وإن وضع تحت شعار الخطر القادم من الهويات والثقافات المعادية للغرب وحضاراته ... إلخ .

صحيح أنَّ صناع لقرار في الغرب يقولون : إنَّ الإسلام دين التسامح والسلام ، لكن هذا القول لا يستقيم

لكن عندما جاء الاستعمار إلى الكثير من بقاع العالم استعمل ورقته الراحبة عند الاحتلال ، من خلال سياسة (فرق تسد) ، حيث عمل على وتر الاختلاف وتناقضاته ، والتمايز بين الشعوب لتأليب الإثنيات والمذاهب ، وحتى الديانات بعضها على بعض ؛ بهدف استمرار احتلاله البغيض ، وهذا في إطار الحضارة الواحدة . أمّا بالنسبة للحضارات المختلفة ، فإنَّ صراعها كان لأسباب اقتصادية أو سياسية ، ولم يكن الاختلاف الثقافي المبعث الأول للصراع ، حتى الحروب الصليبية ، لم يكن أساسها الاختلاف الديني كما يعتقد البعض ، وإن كانت حملت اللافتة الدينية ، بل إنَّ الدافع الأول لتلك الحروب كان سياسياً واقتصادياً بغضّ النظر عن الكلام الكثير في هذا الجانب الدقيق ، والذي يجب أن يوضع في إطاره التاريخي الصحيح .

لكن (هنتجتون) كما نرى ، لا ينظر هذه النظرة الواسعة للحضارات والثقافات الإنسانية ، بحكم رؤيته الأحادية وأحكامه المسبقة أو المدفونة ، وإن كان قد أعطاهما البعد الاستراتيجي والتخطيط

خلق عدوً وهميٍّ أو فعليٍّ يكون بمثابة (كبش فداء) تتحدّد مهمّته في تبرير المتاعب الداخلية لتلك الدول والتمويه على تناقضاتها الفعلية ، فقد لعبت في هذا الإطار مقولات « التهديد السوفييتي » و « الحرب الباردة » و « إمبراطورية الشر » و « مواجهة الشيوعية » دوراً مهماً في تبرير المتاعب الاقتصادية والاجتماعية التي تنخبط فيها الولايات المتحدة وأوروبا . لكن ، ومع تفكّك الاتحاد السوفييتي وبروز عهد العولمة والشمولية صار من اللازم البحث عن عدوٍّ خارجي آخر ، وما لبث « مرتزقة المجموعات الصناعية والمالية الغربية » أن عيّنوا هذا العدو : « إنه الشرق عموماً ، والإسلام على وجه الخصوص » .

إنّ التخوّفات الكامنة في هذا الصّد ترى أنّ السّبب الدافع للصّدام هو نموّ الحضارة المعاصر نتيجة للدّور المزدوج للغرب ، فرغم أنّ الغرب في أوج قوّته ، فهو يواجه حضارات ليست غربية ، وترغب في تشكيل العالم بطرائق غير غربية في مجال التكنولوجيا الحديثة ، فهذه الرّؤية التي لا تطيق الآخر ، أو تقبل الاختلاف

ودرجة العداء في وسائل الإعلام والمؤسسات الاستراتيجية في الغرب ، على الرّغم من أنّ بعض هؤلاء الذين يتّهمون بالإرهاب الآن ، لا يمثلون الغالبية في المجتمعات العربية المسلمة ، إلا أنّ بعض الدوائر المؤثرة في الغرب ، ومنذ عقود عدّة ، أعطتهم دعاية أكثر مما ينبغي ، وسلطت عليهم الأضواء بطريقة تبعث على الاستغراب ، وهذا ربما يؤكّد ما تطرحه بعض القوى في الغرب في إطار البحث عن عدوٍّ وإخراجه إلى السطح ؛ لتثبت بالتالي نظرية العدو المفترض كما جاء في أطروحة : « الصّدام الحضارات » ، ثمّ يأتي بعد ذلك الحديث عن الخطر الإسلامي والتهديد المقبل للحضارة الغربية ، وهذا ما تبرزه الأحداث المتلاحقة والمتتابعة منذ وقوع الزلزال السوفييتي وتدايعاته في القرن الماضي ، حتى وقت التفجيرات في نيويورك وواشنطن .

وقد أكّد هذا المنظور الاستراتيجي في قضية البحث عن عدوٍّ مفترض العميد السّابق لجامعة نيس الفرنسية « روبير شارفان » عندما قال : إنّ رؤية صدام الحضارات تفترض حاجة بعض الدول إلى

نحن ؟ ومن هم ؟ وبغض النظر عن المبالغة غير الدقيقة في تصوير هتنتجتون للتّحالفات على أساس الفروقات والخصائص والتأثيرات الثقافية ، التي لا نشكّ في دورها في تشكيل الوعي الإنساني ، إلاّ أنّه من استقراء الواقع ، نجد أنّ هذا التصنيف لم يتحقّق في الحرب العالمية الأولى ، فقد تحالفت البروتستانتية في برلين مع الكاثوليكية في فيينا والإسلام في إسطنبول ، وتحالفت الأرثوذكسية في روسيا مع الكاثوليكية في فرنسا ، والبروتستانتية السّائدة في بريطانيا ، وفي الحرب العالمية الثانية تحالف الألمان واليابانيون على الرغم من اختلاف أصولهم العرقية وعقيدتهم الدينية .

وما يدحض نظرية (هتنتجتون) في قضية التّحالفات على الأسس الثقافية : التحالف الجديد القويّ بين الولايات المتحدة وباكستان في الحرب القائمة في أفغانستان ، وهذا ما يجعل الافتراضات التي طرحها (هتنتجتون) غير متماسكة ، لكنّها في الواقع تبرر للغرب ما يفعلُه بعيداً عن الدّقة والمصداقية ، كما أنّ مقولة تضامن البلد المماثل لا يستقيم مع

معه ، رؤية أحادية في العقلية الأكاديمية في الغرب ؛ حيث تضع الخطط والاستراتيجيات للسياسيين والقادة في الغرب ، بطريقة غير عادلة ، لكنّها تضع ما ينبغي أن يكون عليه الغرب من الكانة وفق تلك المصالح والرغبات ، حتى ولو تمّ التّعسف والقمع والهيمنة في هذه الاستراتيجية . وإلاّ ، فماذا تعني الإشارة إلى أنّ الغرب سيواجه حضارات ترغب في تشكيل العالم ، وعلى الغرب ألا ينام قرير العين على طرح « نهاية التاريخ وخاتمة البشر » حيث إنّ تلك النظرة تستعدي الآخر ، وتضع التصادم قبل الحوار ، وتقدّم اختلال الموازين في تعاملها مع الحضارات والهويات الأخرى .

أمّا الرّؤية الأخرى لهتنتجتون ، فتقول : إنّ الخصائص والفروقات أقلّ قابلية للتبديل وغير قابلة للحلول الوسط ، وكذلك إنّ الحضارات تتميز بالواحدة عن الأخرى في التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والدين ، وإنّ هذه الاختلافات أكبر بكثير من الاختلافات الايديولوجية السياسيّة ؛ إذ كان السّؤال أيام الحرب الباردة أين تقف ؟ ومع من نكون ؟ أمّا السّؤال الآن فهو من

الرأسمالي والاشتراكي آنذاك ، عندما تمّ تهيمش الكثير من الشعوب والأقليات التي حكمت بعد انتهاء الحربين الكونيتين ، إلى جانب غياب العدل والمساواة عندما تمّ التعاطي مع مطالبها ، حرمانها الكثير من حقوقها الذاتية والإنسانية . وما حصل بعد انهيار المعسكر الشرقي من تمرّق وفوضى سياسة كان جزءاً من هذه الإشكالية . إلى جانب أنّ الكثير من اتّفاقات الحدود التي رسمت في العالم ، كانت نتيجة من نتائج الحرب واتّفاقات الإذعان لا التوافق والتّفاوض العادل .

ولعلّ ما حصل في فلسطين في ١٩٤٨ كان إحدى تلك المظالم الكبرى التي اشتركت فيها الدول العظمى ، وهو قيام إسرائيل على حساب الشعب العربي الفلسطيني ، في معايير لم تستند إلى القانون الدولي أو العدل الإنساني ، وطرد شعب من أرضه وسلب حقوقه منذ أكثر من خمسين عاماً ، وحجب القرارات الدولية بحق النقص « الفيتو » من قبل بعض هذه الدّول لتمرير الاحتلال وتسويق مظالمه .

فالأطروحة أيضاً ، من جانب آخر ، تخفي الواقع السياسي والاستراتيجي

التّحالفات التي جاءت بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر .

ومن القضايا التي أشار إليها صاحب الأطروحة الأنفة الذكر إشكالية العودة للهوية أو البحث عنها في كثير من بقاع العالم بعد انتهاء الحرب الباردة ممّا أدّى إلى نشوب أزمات وحروب عرقية كثيرة في العديد من القارات لم تألفها الإنسانية فترة ما قبل انتهاء الحرب الاردة ، ولم يسأل (هنتنجتون) نفسه لماذا هذه الفروقات الثقافية ؟ وما هي أسبابها الحقيقية الدينية ؟ فقضية العودة إلى الهوية الثقافية صحيحة ، لكنّه لم يناقش أبعادها وكوامنها الداخلية المستعصية ، لماذا اختلفت الأسئلة بهذه الحدة .. من نحن ؟ ومن هم ؟ ولماذا صاحبته نزاعات دموية كثيرة ، ولا تزال نارها تحت الرماد ؟ لقد طرح (هنتنجتون) الوصفة دون أن يشخّص الحالة ومسبباتها أو كيفية علاجها .

فالشعور بالهوية والاعتزاز بالثقافة الذاتية عند الكثير من الشعوب العالم بعد انتهاء الحرب الباردة ، هما مشاعر دنيئة وكامنة في الذاكرة الإنسانية ، لكنّها محبوسة بسبب القمع والتهيمش ، ومعظم مفاصل هذه الإشكالية كان سببها الغرب نفسه بشقيه :

وقت آخر ، يكون زوال ذلك الظرف فرصة لانطلاقها ، بمعنى : أن نضال الشعوب لنيل حقوقها المشروعة سيظل قائماً مهما كانت تحولات موازين القوى في العالم ، وهذا ما تمّ تجاهله من قبل (هنتنجتون) وبعض الاستراتيجيين في الغرب بعد انتهاء الحرب الباردة ، وركزوا فقط على قضية الصراع بين الغرب والإسلام وبعض القوى الصاعدة في القرن الحادي والعشرين .

فالحضارات تقابلت وتعايشت وتصارعت ، لكنّها ظلّت أقرب للتعايش والتسامح ، وبقي الصراع والتنافس محدوداً بظروفٍ معينة ، فالأهمّ هو الاستعداد للتعايش والتّدية في التعامل ، ويجب على الإنسانية أن تفهم بشكل أفضل لغة الحوار مع الأمم الأخرى ، ولهذا نحتاج إلى سياسة ثقافية تقوم على فهم طبائع الشعوب بحيث نصبح قادرين على التعامل مع خصائصها المتميزة في التفكير ، بدلاً من الحديث عن أن خطوط التماس بين الحضارات ستكون خطوط الحروب في المستقبل .. وأنّ الحرب العالمية القادمة - إن نشبت - ستكون حرباً بين الحضارات ، وأنّ للإسلام حدوداً دموية .

والاقتصادي الذي يعانيه الغرب في داخله ، وتبرز فقط ما تسميه بالصّراع والصدام ، على الرّغم من أنّ كثيراً من هذه الصراعات الموجودة أو التي وجدت في الحرب الباردة ، لا ترجع إلى الاختلاف الديني أو الثقافي أو الحضاري أو حتى اختلاف المرجعيات العقائدية . فهذا الرّفص للآخر وثقافته يرجع إلى عقلية التمرکز الغربي والإقصاء .

إلى جانب أنّ فكرة الصراع كامنة في عقلطة الغرب حتى مع نفسه وعلى قاعدة « الأنا والآخر » و« الغرب ضدّ الباقي » وهي عقدة - للأسف - لم يتخلّص منها الغرب حتى الآن .

والشّيء الذي ربما نسيه (هنتنجتون) أو تناساه وبعض الاستراتيجيين في مؤسّسات صناعة القرار في الغرب ، فهو أنّ التاريخ أثبت أنّ الإرادات الإنسانية لا يمكن إلغاؤها أو كبّحها بصورة نهائية ، وأنّ الخوف أو التراجع في زمن أو مرحلة من المراحل قد يؤجّل أو يخمد الرّغبة في إبقاء هذه الإرادة حبيسة في الذهن لحين تحريكها ، إلى

له من المبررات المقبولة ما يعني أنَّ ثمة حاجة ماسةً لوضع أسس واضحة لنجاح هذا الحوار وتقوية منطلقاته الهامة . والحوار مبدأ أصيل في الإسلام وفي الديانات السماوية ، ولكنَّ الأهم أن يكون الحوار مجدياً وناجحاً ، ولا أعتقد أنَّ أحداً سيقول إنني أرفض الحوار .. لكن من الواضح أنَّ الحوار الذي يحقق أهدافه في تعايش ووثام الأمم والحضارات ، يجب أن لا يقوَّض بالافتراض المتعارف عليه في عصرنا الحالي ، الذي يجعل القوي يفرض ما يراه منسجماً مع نزعاته وقناعاته غير العادلة ، فإنَّ هذا الحوار يصعب بلوغه النجاح المؤمل منه .

أمَّا إن تحققت النزاهة والموضوعية في القضايا الخلافية ، وفي إطار التعدُّد الثقافي والتمايز الحضاري والنظرة العادلة التي (تعطي كُلَّ ذي حقَّ حقه) ، فإنَّ هذا الحوار سيعزِّز مستقبل الإنسانية بالوثام والتعايش بدلاً من التنافس والصدام وتكريس الكراهية .

وهذا ربما ما تبتغيه أطروحة (الصدام بين الحضارات) ؛ لأنَّه لا يمكن أخذ هذا الاستنتاج إلا في هذا الإطار ، بحيث أصبحت المقولة واضحة المعنى بكُلِّ إفرازاتها السلبية : (المناطحة .. وتأجيج العداوة .. وصراع الهويات) . والحقُّ : أنَّه لا الإسلام ولا المسيحية في تاريخهما الطويل يأخذان الصدام أيديولوجية مضادة للآخر ، إنَّما الذي أجبَّج الصدام عوامل أخرى ، يجب أن توضَّح في إطارها التاريخي ، وهذه قضية لها تقويمها لدى أهل الاختصاص ، لكنَّ اللفتة الجديدة للصدام ليس لها مبررٌ على الإطلاق ، وإنَّما هي تقدِّم الهيكل النظري الذي يجعل كلاً من الإسلام والمسيحية يرى في الآخر شيطاناً ، وهو بذلك ، إنَّما يعلن نبوءة ذاتية التَّحقق .

ويتساءل البعض من المفكرين والمثقفين عن جدية الحوار بين الحضارات ، وضرورة تعايشها في ظلِّ هذه المقولات ، والإصرار على دورها في تعزيز الهويات وتهميش صعود وبروز بعضها مستقبلاً ، في ظلِّ غياب معايير الندية والتكافؤ .. وقد لا نغالي إذا قلنا : إنَّ جزءاً كبيراً من هذا السُّؤال

ظاهرة الشيعة - فوبيا أخطرداء يصيب الوعي العربي

الأستاذ : ناصر البخيتي

ناشط سياسي وحقوقى يعنى مقيم في كندا

السَّنين - بدون أن ينكشف أمرهم بسبب استخدامهم مبدأ التَّقِيَّة . فهم يتظاهرون بالإسلام ، ويظهرون الاعتراف بالقرآن ، ويحرصون على حيازته ودراسته بهدف التَّمويه ، إلَّا أنَّ لديهم قرأناً آخر يُسمَّى بمصحف فاطمة ، ولكنَّهم لا يظهرونه لأحدٍ من غير ملَّتهم حتَّى لا ينكشف أمرهم .

فالشيعة هم سبب بلاء هذه الأمة ، نتيجةً لأحقادهم الدَّفينة ومؤمراتهم

المحور الأول :

من خلال متابعتي المستمرة لوسائل الإعلام المحليَّة والعربية ، لاحظت أنَّها تتعمَّد تغييب العقل والواقع في مقابل استحضار العاطفة والأسطورة عند مناقشة أيِّ موضوع له علاقة بالشيعة .

حتَّى أصبح الشيعة في أذهان الكثيرين كائناتٍ غريبةٍ تختلف طبائعها عن طبيعة بقيَّة البشر . فهم يتميَّزون بالقدرة الفائقة على التَّأمر الجماعي - وعبر مئات

المشروع الصهيوني . وعليه : فإنَّ الأولوية أصبحت في مواجهة الصَّفوية حتَّى ولو تطلَّب الأمر التعاون مع الصهيونية .

إنَّ هذه المفاهيم عن الشيعة وإيران أصبحت حقائق راسخة في وعي الكثير من العرب ، وأصبحت هي الهاجس الرئيسي الذي يشغل الوعي العربي ويحرِّكه ؛ لذلك لم يعد مستغرباً ولا مستهجناً أن يعبر الكثير من المسؤولين والمتقنين العرب عن تخوُّفهم من تنامي نفوذ إيراني في العراق وفلسطين ، وكأنَّ المشكلة لم تعد في الاحتلال الأجنبي ، وإنَّما في تنامي نفوذ إيران في البلدان العربيَّة المحتلَّة . وقد لاقت تحذيرات سعود الفيصل من تدخلات إيران وتزايد نفوذها في العراق قبولاً وتأييداً واسعاً . وهكذا أصبحنا أمام وضع عربيٍّ شاذٍّ يقبل باستخدام أراضيهِ لاحتلال دولة عربيَّة ، ويتقبَّل التعايش مع هذا الاحتلال ، كما هو الحال في فلسطين والعراق والصُّومال ، بينما يتحسَّس من وجد أيِّ نفوذٍ لإيران في هذه الدُّول . حتَّى أصبح دعم إيران لصمود الشَّعب الفلسطيني أمام إسرائيل جريمة وتهمة تحاسب عليها إيران بدعوى أنَّها تتلاعب

الخبیثة ، فهم سبب كُلِّ الفتن التي آلمت بالمسلمين من زمن مؤسس مذهبهم : عبدالله بن سبأ إلى يومنا الحاضر ، وهم أيضاً سبب سقوط بغداد في أيدي المغول ، وهم من تعاون من الصليبيين ضدَّ صلاح الدِّين ، وهم سبب سقوط بغداد بيد الأمريكان .

أمَّا ما يُقال عن مقاومة حزب الله الشَّيعي لإسرائيل ، فإنَّ ذلك لا يعدو كونه تمثيلية تمَّ الاتفاق عليها بين الشيعة واليهود من أجل خداع عامَّة أهل السُّنة والجماعة ، عبر إظهار الشيعة بمظهر المدافعين عن الإسلام من أجل أن يتسنَّى لهم هدم الإسلام من الدَّاخل ، ونشر مذهبهم الضَّال . وعلى فرض صحَّة مقاومة حزب الله لإسرائيل ، فإنَّ الهدف من ذلك ليس تحرير لبنان أو فلسطين ، وإنَّما بهدف خدمة المشروع الصَّفوي . والأمر لا يتعدَّى كونه تنافساً بين الصَّفوية والصَّهيويَّة لفرض سيطرتهم على العرب من أهل السُّنة والجماعة . وبما أنَّ الصَّهيانية قد تخلَّوا عن فكرة دولة إسرائيل الكبرى من النِّيل إلى الفرات ، فإنَّ المشروع الصَّفوي أصبح الآن أخطر من

الإسرائيلية في مؤتمر الدوحة تعبر عن هذا الواقع الجديد ؛ حيث قالت : « نحن المعتدلون في المنطقة كُلُّنا أعضاء في المعسكر نفسه لمواجهة التحدي نفسه الذي يرفعه أماننا المتطرفون » . والملفت أنَّها استخدمت كلمة (نحن) للتعبير عن إسرائيل والعرب ، أمَّا (الآخر) الذي يجب مواجهته ، فتقصد به إيران وحلفاءها ؛ حيث قالت : « من المصلحة المشتركة للمنطقة العمل معاً ضدَّ التطلعات التَّوويَّة لإيران » ، وقالت أيضاً : « إيران تحاول تفويض أنظمة أخرى ، وتعمل مع عناصر شيعية مثل حزب الله ، كما تدعم حماس » .

ورغم التعارض الصَّارخ بين مشهد تصريحات ليفني في مؤتمر الدوحة وهي تلقن المسؤولين العرب الدُّروس ، وبين مشهد الحصار والقصف الوحشي الذي تتعرَّض له غزَّة ، إلَّا أنَّ هذا الواقع الشاذ أصبح مقبولاً في الوعي العربي المرعوب من إيران والشَّيعة .

وهذا يؤكِّد أنَّ مشروع الشَّرق الأوسط الجديد الذي أعلن عنه بوش قبل غزو

بعواطف الشُّعوب العربية لخدمة مشروعها ومصالحها ، فيا ترى ! كيف يكون الموقف من إيران لو أنَّها هي من احتلت العراق أو أفغانستان أو الصومال ؟ !

ونتيجةً لإصابة الوعي العربي بمرض الشَّيعة - فوبيا ، بمعنى الخوف المرضي من الشَّيعة ، بدأت دول الخليج والدُّول العربيَّة المعتدلة بعقد صفقات أصلحة بمليارات الدُّولارات بالتزامن مع الإعلان عن مساعدات عسكرية لإسرائيل ، وبمليارات الدُّولارات أيضاً ؛ بهدف إعداد الدُّول العربية وإسرائيل لمواجهة إيران وحلفائها في المنطقة .

يتصح لنا ممَّا تقدَّم : أنَّ أمريكا قد نجحت في تغييب خطر المشروع الصَّهيوأمريكي عن الوعي العربي ، ونجحت في غرس ما يُسمَّى بخطر المشروع الصَّفوي مكانه . بل إنَّ الأمر وصل حدَّ خلق صورة إيجابية للمشروع الصَّهيوأمريكي في وعي العرب ، بكونه أصبح الوسيلة الوحيدة لحمايتهم من المشروع الصَّفوي .

ولعلَّ تصريحات وزيرة الخارجية

تحمل المسؤولية ، وللحفاظ على شعور - ولو زائف - بالكرامة والكبرياء . فمثلاً : علق معظم المواطنين العرب آمالاً كبيرة على انتصار العراق في حرب الخليج الأولى والثانية بدافع العاطفة القومية والدينية . ولأنّ المواطن العربي كان يجهل أو يتجاهل انعدام مقومات النصر ، فقد كان وقع الهزيمة مؤلماً ؛ لذلك تقبل المواطن العربي بسهولة دعوى تحميل الشيعة مسؤولية الهزيمة بسبب خيانتهم رغم أنّ انتفاضة الشيعة في جنوب العراق عام ١٩٩٢ بدأت بعد أيام من توقيع اتفاق وقف إطلاق النار ، ورغم أنّ احتلال أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣ قد انطلق من البلدان العربية التي تحكمها حكومات سنيّة .

العامل الثاني : الحسد

نتيجة للهزائم العربية المتكررة ، ونتيجة لاستمرار اختلال موازين القوى لصالح إسرائيل ، بدأت تنتشر ثقافة العجز الداعية للخضوع وتقبل الأمر الواقع بحجة استحالة القدرة على المواجهة . وفي ذروة ازدهار الخطاب الاستسلامي أو الانبطاحي - كما يحلو للبعض تسميته - برزت على

العراق قد تحقّق ، ولم يفشل كما يعتقد الكثيرون .

وقد عبّر الدكتور أبو بكر السّفاف بشكل دقيق عن نجاح المشروع الأمريكي حين قال : « لقد نجحت أمريكا في تعريب وأسلمة صراعها مع إيران » .

المحور الثاني :

في المحور السابق من هذا المقال ، سعت لإبراز وتحديد ظاهرة الشيعة - فوبيا ؛ ليتمكّن القارئ من رصدها ، وفي هذا المحور سوف أحاول رصد العوامل التي ساهمت في تضخيم هذه الظاهرة .

ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ثلاث مجموعات : عوامل نفسية مرضية ، وعوامل نفسية طبيعية ، بالإضافة إلى الخلل المعرفي حول الشيعة .

العوامل النفسية المرضية :

العامل الأول : التبرير

عندما تتعرّض أي جماعة إنسانية للهزيمة ، وتعمّق لديها مشاعر العجز عن المواجهة فإنّها تبحث عن مبرّرات لتبرير هزيمتها وعجزها ، في محاولة للهروب من

طبيعية إذا لم تتجاوز حدوداً معينة ،
ويمكن تقسيمها إلى عاملين :

١- نتيجةً لدخول العديد من التقنيات الحديثة في صميم حياتنا ، من مواصلات واتصالات وإنترنت وتلفاز وصحف ومجلات وكتب وغيرها ، فإنها قد ساهت في زيادة مساحة التماس والاحتكاك المذهبي بين السُّنة والشَّيعة . وهذا ساهم بدوره في زيادة نسبة التحوُّل المذهبي ، سواء من التشيع إلى التسنن أم من التسنن إلى التشيع . ونتيجة لاختلال ميزان التحوُّل المذهبي لصالح الشَّيعة ، وبشكل ملفتٍ ، ولأسباب عديدة لسنا في مجال ذكرها ، فإنَّ هذا قد ولَّد مشاعر عدم الرِّضا لذي السُّنة . وهذه المشاعر طبيعيَّة حيث إنَّها تختلج نفوس أتباع أيِّ مذهبٍ أو ديانة . وما يُخرج هذه المشاعر عن حدودها الطَّبيعية إلى حدودها غير الطَّبيعية ، هو تحوُّلها إلى تصرِّفات هستيرية . وأبرز مثالٍ على ذلك هو : تلك التصريحات والدِّراسات التي حذَّر من انتشار المذهب الشَّيعي ، وتدعو إلى فرض حظر على الفكر الشَّيعي ، وتشديد الحصار والرِّقابة على أتباعه حتى لا ينتشر مذهبهم . وهذه التَّحذيرات تصدر أحياناً

السَّاحة قوَّةً جديدةً ممثلةً بإيران الثَّورة ، استطاعت بإمكاناتها المحدودة وتخطيطها الجيِّد أن تثبت إمكانية القدرة على الصُّمود المواجهة ، بل إنَّها تحولت إلى كابوسٍ مرعبٍ يقضُّ مضاجع إسرائيل التي طالما أرعبت العرب ، وإلى تحدٍّ قويٍّ يهدد المشروع الإمبراطوري الأمريكي برمته ، والقائم على السَّيطرة على الشرق الأوسط ومنابع النِّفط . لقد تسبَّب هذا البروز المفاجئ والنَّاجح في إثارة نوعين متناقضين من المشاعر في وعن المواطن العربي . فقسمٌ منهم : تغلَّبت عليه مشاعر الأمل فأصبح من المؤيدين لإيران ومن الدَّاعين لتقليد نموذجها ، والقسم الآخر : تغلَّبت عليه مشاعر الغيرة والحسد ، فأصبح من المعاندين لها ، ومن الدَّاعين إلى مواجهتها بحجَّة أنَّها تمثِّل خطراً أكبر ممَّا تمثَّله إسرائيل . ولعلَّ أبرز مثالٍ على مشاعر الغيرة والحسد : ظهور فتاوى تحرِّم مجرد الدَّعاء لحزب الله في أثناء حربه مع إسرائيل بحجَّة أنَّه حزبٌ شيعيٌّ مدعومٌ من إيران !!

العوامل التنسيّية المرضيّة :

وهي عوامل ذات أبعادٍ نفسيَّةٍ ولكنَّها

ذلك من مقتضيات المساواة والعدالة .
لذلك نلاحظ معارضةً شيعيةً لنيل الشيعة حقوقهم ، ومساواتهم بغيرهم من المذاهب ، سواء في الدول التي يمثل الشيعة فيها الأقلية أم الأغلبية . وهذه الممانعة هي نتيجة لمشاعر طيعية ، ويمكن تجاوزها بمنح الشيعة حقوقهم بصورة تدريجية . وما يُخرج هذه الممانعة عن حدودها الطبيعية إلى حدودها المرضية ، هو تحويلها إلى عقدة نفسية ترفض تقبل إعطاء الآخر أي حقوق ، حتى في أضيق الحدود . وأبرز مثال على ذلك هو : امتناع البعض من وقف حرب صعدة نتيجة لعقد نفسية ترفض وجود الآخر .

المحور الثالث :

من الأسباب المهمة التي ساعدت على انتشار ظاهرة التشيع - فوبيا هو :
الخلل المعرفي في ثقافة المواطن العربي حول الشيعة وإيران . والخلل المعرفي هو نتيجة لندرة المعلومات الصحيحة حول الشيعة ، في مقابل انتشار الكثير من المغالطات حولهم ، والتي أصبحت من

بصيغ صريحة ، مثل التحذير من الاختراق الشيعي لمناطق أهل السنة والجماعة ، من تمدد الأخطبوط الشيعي ، من الهلال الشيعي ، من تمدد نفوذ إيران في المنطقة ، وأحياناً أخرى تصدر بصيغ مشفرة غاية في الإبهام ؛ بحيث يصعب على المنصفين رصدها ، في الوقت الذي يسهل على المتعصبين فهمها من أجل العمل على تنفيذها ، وأبرز مثال على ذلك : هو ما أعلن عنه مجلس الوزراء السعودي ، برئاسة الملك عبد الله ، قبل أيام : من تصدي المملكة للأخطار المحدقة ببعض الأقطار العربية ، والتي تهدد وحدتها الوطنية ، وتعرضها للهيمنة الخارجية والإقليمية ، وتستهدف بغير تركيبها الاجتماعية . والمقصود بالهيمنة الخارجية والإقليمية هي إيران ، أما التهديد الذي يستهدف تغيير التركيبة الاجتماعية لهذه الدول فهو انتشار التشيع .

٢- عندما تتعود أمة جماعة إنسانية على امتيازات معينة على حساب جماعة إنسانية أخرى تشاركها العيش في نفس المحيط ، فإنه يصعب على تلك الجماعة قبول التنازل عن تلك الامتيازات فجأة ، حتى ولو كان

مكة عندئذٍ سوف يُسمح لهم ببناء مسجدٍ في طهران » .

وكلّ هذه الادعاءات لا أساس لها من الصّحة ؛ لأنّه يوجد في طهران عشرات الجوامع السنيّة ، كما يوجد فيها العديد من المدارس الدّينية السّنيّة . ومن الطّريف ، أنّ هذه التّهمة تصحّ على البلدان العربيّة التي ترفض السّماح ببناء مساجد شيعة سواء في عواصمها أم في القرى الصّغيرة ، في الوقت الذي تسمح فيه ببناء الكنائس ، كما هو الحال عندنا في اليمن .

٢- أصبح ما يُسمّى بالمشروع الصّفوي من المسلّمات في أذهان الكثيرين ، رغم دعم توفّر أيّ دليلٍ ماديٍّ أو نظريٍّ يثبت وجوده . فنحن عندما نتحدّث عن الصّهيونية - مثلاً - فإننا نتحدّث عن تنظيمٍ له مقرّراتٌ ومؤسسون وأعضاء وبرامج ومنظّرون ، والشّيء نفسه ينطبق على الماسوتية ، رغم أنّها تنظيم يشوبه الكثير من الغموض ، كما أنّنا لم نسمع إلّا حدّ الآن عن أيّ تنظيمٍ أو أيّة شخصيّة تبني الصّفوية ، في الوقت الذي بدأنا نسمع فيه عن تبني الكثير من التّنظيمات

المسلّمات في أذهان الغالبية السّاحقة من العرب ، ويتمّ تداولها وكأنّها حقائق غير قابلة للتّقص ، بالإضافة إلى شيوع منهج انتقائيٍّ في تقييم الشّيعيّة . وسوف اقتصر هنا على تناول المغالطات السّياسيّة والحقوقيّة ، وتجنّب مناقشة المغالطات العقائديّة ؛ لأنّها تحتاج إلى إطالة .

بعض المغالطات حول الشّيعيّة وإيران :

١- الادعاء بأنّ طهران هي العاصمة الوحيدة في العالم التي لا يوجد فيها جامعٌ واحدٌ لأهل السّنة . وقد حيكت حول هذا الموضوع الكثير من القصص الخياليّة ، والتي يتمّ تداولها كمسلّمات ، كالقول بأنّ أهل السّنة لا يجدون مكاناً في طهران لصلاة الجمعة إلّا السّفارة السّعوديّة والباكستانيّة إلى أن منعتهم الحكومة الإيرانيّة من ذلك . أو القول بأنّ العالم الشّيعي المعروف : الشّيخ مصباح اليزدي ، وفي معرض ردّه على سؤالٍ حول سبب امتناع الحكومة الإيرانيّة عن السّماح ببناء مسجد لأهل السّنة في طهران أجاب قائلاً : « متى ما سُمح لنا ببناء حسينيّة في

خلال سياسة حكومة إيران الداخلية والخارجية ، بدون الحاجة إلى استحضار ومصطلحات ومفاهيم أسطورية ؟ !

كما أتساءل عن القيمة المعرفية التي نحصل عليها بمجرد الاكتفاء بإطلاق مصطلح (الصفوية) على مشروع الثورة الإسلامية ، وكأنه يفسر كل جوانبها وأبعادها ؟ ! واعتقد أن سبب تهرّب مناهضي الثورة الإسلامية من مناقشتها بمنهج علمي واقعي يعود لقوّة منهج الثورة في مقابل ضعف حجّتهم . ولإيضاح ذلك ، سوف أقدم دراسة نقدية مختصرة حول المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في إيران .

يمكن تلخيص المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في ثلاثة مبادئ :

المبدأ الأول :

تحقيق الوحدة الإسلامية على أساس القواسم المشتركة ، وفي إطار الوحدة السياسية والاقتصادية والثقافية ، لا في إطار وحدة المذهب . تقول المادة الحادية عشرة من الدستور الإيراني : « بحكم الآية الكريمة ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا

والشخصيات المتطرّفة قضية مواجهة الصفوية .

يضاف إلى ذلك : أن مدّعي وجود الصفوية لا يملك تعريفاً محدّداً لمصطلح الصفوية . ومن طرائف هذه الفوضى : هو ترويج البعض لمفهوم جديد يقسم الشيعة إلى قسمين متصارعين : شيعة صفوية ، وأبرز ممثليه الخامنئي والسيستاني ، وشيعة عرب ، وأبرز ممثليه : محمد حسين فضل الله . وقد سئل فضل الله عن هذا فأجاب بأن الصفوية لا وجود لها في الواقع .

قد يقول البعض بأن الصفوية مصطلح يعبر عن المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في إيران .

أقول : إن المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في إيران موجود ، وبشكل واضح ، في أدبيات قادة الثورة ودستورها ، وهو يتحكّم في سياسة إيران الداخلية والخارجية ، وهذا ما لا تنكره الحكومة الإيرانية أو تخفيه . ولكنّي أتساءل : لماذا لا يتم دراسة ونقد المشروع الإيراني من خلال أدبيات الثورة ودستورها ، ومن

فرع لجامعة الأزهر في إيران للتقريب بين المذهب السني والشيعي ، وكذلك السماح للطلبة الشيعة بالدراسة في جامعة الأزهر ، وكذلك بالسماح لعدد من أساتذة الأزهر بالتدريس في جامعات إيران ، والسماح لأساتذة الجامعات الإيرانية بالتدريس في جامعة الأزهر .

إنَّ هذا الانفتاح المذهبي لإيران لا نجد له مثيلاً في بقية الدول الإسلامية . فنحن لا نتوقع أن تسمح الحكومة اليمنية - مثلاً - بإنشاء مدرسة لتدريس المذهب الشيعي ، أو أن تسمح جامعة الإيمان السلفية لأساتذة شيعة بالتدريس فيها .

المبدأ الثاني :

إنَّ مشروع إيران الخارجي ، هو نصره المستضعفين في الأرض ضدَّ المستكبرين ، بغضَّ النظر عن قوميتهم أو ديانتهم . تقول المادة رقم (١٥٤) : « تعتبر الجمهورية الإسلامية الإيرانية سعادة الإنسان في المجمع البشري كُله قضية مقدسة لها ، وتعتبر الاستقلال والحرية ، وإقامة حكومة الحق والعدل حقاً لجميع الناس في أرجاء العالم كافة ،

رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ ﴿ [الأنبياء : ٩٢] ، يعتبر المسلمون أمةً واحدةً ، وعلى حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية إقامة كُله سياستها العامة على أساس تضامن الشعوب الإسلامية ووحدةها ، وأن تواصل سعيها من أجل تحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية والثقافية في العالم الإسلامي » .

وفي سبيل تحقيقها الهدف ، أسست إيران المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، وفي نفس السياق : تمَّ تأسيس جامعة المذاهب في إيران وهي تدرّس العلوم الإسلامية حسب آراء كافة المذاهب الإسلامية ، ويدرس فيها أساتذة من مختلف الطوائف الإسلامية ، وتستقبل طلابها من مختلف دول العالم الإسلامي ، ومن مختلف المذاهب ، وتميّز خريجوها بالمأمهم الكامل بآراء كافة المذاهب الإسلامية ، رغم احتفاظ كُله طالب بمذهبه . وهذه الجامعة فريدة من نوعها ؛ إذ لا يوجد لها مثل في العالم الإسلامي كُله . وفي نفس السياق تقدّمت الحكومة الإيرانية في يونيو ٢٠٠٧ ، عبر سفارتها في مصر ، بطلب رسميٍّ لشيخ الأزهر بإنشاء

ويمكنوا من تشويهه . ولهذا الغرض ، اخترعوا ما يُسمى بالصفوية ، رغم أنَّ هذا المفهوم ليس له وجود في أدبيات الثورة الإسلامية .

٣- الادّعاء بأنّ الدستور الإيراني قد أقصى أهل السنّة ؛ حيث يتمّ تداول الجزء الأول من المادة (١٢) منه ، التي تقول : « الدّين الرسمي لإيران هو الإسلام ، والمذهب هو المذهب الجعفري الإثنى عشري ، وهذا المادة تبقى إلى الأبد غير قابلة للتّغيير » . ويتمّ تجاهل بقيّة فقرات نفس المادة القائلة : « وأمّا المذاهب الإسلامية الأخرى ، والتي تضمّ المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي الزّيدي فإنّها تتمتع باحترام كامل ، وأتباع هذه المذاهب أحرار في أداء مراسمهم المذهبية حسب فقههم ، ولهذه المذاهب الاعتبار الرّسمي في مسائل التّعليم والتّربية الدّينية والأحوال الشّخصية وما يتعلّق بها من دعاوى في المحاكم . وفي كلّ منطقة يتمّ أتباع أحد المذاهب بأكثرية ، فإنّ الأحكام المحليّة لتلك المنطقة - في حدود صلاحيّات مجالس الشّورى المحليّة - تكون وفق ذلك المذهب ، هذا مع الحفاظ

وعليه : فإنّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية تقوم بدعم النّضال المشروع للمستضعفين ضدّ المستكبرين في أيّة نقطة من العالم ، وفي الوقت نفسه لا تتدخل في الشّؤون الدّاخلية للشّعوب الأخرى » .

وانطلاقاً من هذا الالتزام الأخلاقي لنصرة المستضعفين : كانت إيران في مقدمة الدّاعمين لنضال السّود في جنوب أفريقيا ضدّ نظام التّفريق العنصرية .

المبدأ الثالث :

إنّ مشروع إيران الخارجي هو تحرير فلسطين ، وهذا يقع ضمن أهداف الثورة الإسلامية في إيران .

مما تقدّم ، نستكشف أنّ مشروع إيران الخارجي يتمثّل في تحقيق الوحدة الإسلامية في إطار وحدة الموقف ، لا في إطار وحدة المذهب ، وفي نصرة المستضعفين ضدّ المستكبرين ، وفي تحرير فلسطين . ولأنّ المعادين لإيران لا يستطيعون النّيل من هذا المشروع الأخلاقي ؛ لذا يلجؤون إلى اختراع أسماء ومفاهيم أسطورية بعيدة عن الواقع ، ويحاكمون مشروعها من خلاله حتّى

على حقوق أتباع المذاهب الأخرى » .

٤- الادّعاء بعدم وجود ممثل واحد لأهل السّنة في مجلس الشورى في إيران ، بينما يوجد ممثلين لليهود والمسيحيين والزرادشتيين . وهذا الادّعاء عار عن الصّحة ؛ فإنّ متوسّط عدد النّواب السّنة في مجلس الشورى يصل إلى عشرين نائباً ، وذلك حسب نتائج كلّ دورة انتخابيّة .

٥- الادّعاء بأنّ القوميّة الفارسيّة تضطهد بقيّة القوميات في إيران ، ويستدل على ذلك بذكر الجزء الأوّل من المادة رقم (١٥) من الدستور الإيراني ، والتي تعتبر أنّ اللّغة الفارسيّة هي اللّغة الرّسمية للدولة ، ويتمّ تجاهل بقيّة المادة . ونصّ المادة كاملة هو : « لغة الكتابة الرّسمية والمشاركة هي الفارسية لشعب إيران ، فيجب أن تكون الوثائق والمراسلات والنّصوص الرّسمية والكتب الدّراسيّة بهذه اللّغة والكتابة ، ولكن يجوز استعمال اللّغات المحليّة والقوميّة الأخرى في مجال الصحافة ووسائل الإعلام العامّة ، وتدرس أدابها في المدارس إلى جانب اللّغة

الفارسيّة » . وبخصوص اللّغة العربيّة فإنّ الدستور ينص على وجوب تدريسها ، كما يلاحظ ذلك في المادة رقم (١٦) : « بما أنّ لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلاميّة العربيّة ، وأنّ الأدب الفارسي ممتزجٌ معها بشكلٍ كاملٍ ؛ لذا يجب تدريس هذه اللّغة بعد المرحلة الابتدائيّة حتّى نهاية المرحلة الثانويّة في جميع الصّفوف والاختصاصات الدّراسيّة » .

٦- الادّعاء بتعمّد المسؤولين الإيرانيين ومراجع الشيعة الإساءة لرموز أهل السّنة وخصوصاً الخلفاء الثلاثة وعائشة زوجة الرسول ﷺ بدافع إذلال أهل السّنة في إيران . وقد حيكت الكثير من القصص الخياليّة حول تلك المزاعم ، وهي تتداول كمسلّمات . مثل الادّعاء بأنّ الرفسنجاني عند زيارته لمقام الرسول ﷺ بالمدينة المنورة بصق على قبر أبي بكر وعمر !! ومثل هذه الادّعاءات لا أساس لها من الصّحة ؛ حيث إنّ الحكومة الإيرانيّة تتعامل بحزم مع مثل هذه القضايا نظراً لحساسيتها . وعلى سبيل المثال : حصل خطأ مطبعيّ في الأوّل من فبراير ٢٠٠٧ في صحيفة « سياست روز » الإيرانيّة ؛ حيث

والصورة . وهذه الأخطاء المنتقاة ، مضافاً إليها المغالطات التي أشرنا إليها سابقاً ، أصبحت هي المصدر المعرفي الرئيسي حول الشيعة في ظل الحصار المفروض على الكتب الشيعية في معظم البلدان العربية .

خاتمة :

لقد ركزتُ في هذه الدراسة على الجوانب السياسية والنفسية والحقوقية في دراسة ظاهرة الشيعة - فوبيا . ومن أجل إثراء هذه الدراسة سوف أتناول لاحقاً عدداً من المواضيع التاريخية التالية : سقوط بغداد بيد المغول ، عبدالله بن سبأ ، صلاح الدين والفاطميون ، تحريف القرآن ، موقف المدرستين من الصحابة ، وأتمنى أن تفتح هذه الدراسة الباب لنقاش موضوعي حول الشيعة ، بعيداً عن العصبية والأحكام السابقة .

والله من وراء القصد ...

ورد اسم عمر بن الخطاب خطأ في موضوع يتحدث عن شخصية أخرى ، ورغم أن الصحيفة اعتذرت في اليوم الثاني عن هذا الخطأ المطبعي ، إلا أن مجلس الرقابة قرّر حظر الصحيفة وإحالتها إلى المحكمة . وعلى أثر ذلك أصدر خمسة أعضاء من البرلمانين السنة بياناً يقول : ما كان ينبغي حظر الصحيفة ؛ لأنها أوضحت خطأها على الفور .

اعتماد أسلوب معرفي انتقائي في دراسة وتقييم الشيعة :

انتشرت في الآونة الأخيرة ظاهرة تصيد أخطاء بعض المنتمين للمذهب الشيعي ، الأحياء منهم والأموات ، وذلك في إطار ما يمكن تسميته بتسجيل الثقاط . ومصادر هذه الأخطاء : إما اجتهدات شاذة لبعض مشايخ الشيعة ، أو زلات لسان ، أو خطأ في التعبير عن المعنى المراد ، أو أقوال صادرة من شخصيات مغرضة ، أو من شخصيات جاهلة غير مسؤولة . وبسبب التطور التكنولوجي أصبح من السهل الترويج لهذه الأخطاء في كل مكان ، وبالصوت

ملف العدد :

المجتمع الإسلامي

المقومات، المطارحات، المعالجات

المجتمع الإسلامي

فرادة الخصائص المكوّنة

آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي

مرجع ديني بارز من طلبة الإمام الصدر، له العديد من المؤلفات والتقارير العلمية الرصينة. تبوّأ العديد من المناصب الرفيعة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. مثل رئيس السلطة القضائية، ومجلس تشخيص النظام وغير ذلك.

في الواقع وحقيقة الأمر العناصر الأساس التي يتشكّل منها المجتمع الإسلاميّ المثاليّ . ولعلّها وردت في سياق الآيات التي تتحدّث عن الحرب في مواجهة المشركين وأعداء الإسلام . وهي توصي المجاهدين والمسلمين بالثبات في مواجهة المشركين والأعداء وتدعوهم إلى أن لا يضعفوا وأن لا يسمحوا للحزن والغمّ بأن يسيطرا على قلوبهم مهما قست الظروف ؛

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا وخاتم المرسلين حبيبنا وحبیب إله العالمين أبي القاسم محمد ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، قال الله العظيم في محكم كتابه الكريم : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩)

عناصر المجتمع الإسلامي

إنّ الآية التي افتتحت بها كلمتي تبين

كله . وهذه الآية على الرغم من أن لسان سياقها يشي بالارتباط بالمقاتلين فإن مفهومها أوسع من هذا السياق ودلالاتها أشمل ، ما يسمح لنا بتطبيقها على المؤمنين الصادقين جميعاً .

تنهى هذه الآية عن الهوان والضعف ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ ، وعدم الهوان والضعف أمرٌ يبلغ الغاية في الأهمية في ساحة القتال ؛ ولكنه في الوقت عينه ليس محصوراً بحالة القتال والجهاد . فالهوان والإحساس بالضعف يؤدي إلى انهزام الجيش والقوى المسلحة ، وهذا أمرٌ مؤكد . ومن هنا ورد النهي عنه في الآية الشريفة . ولكن في المقابل لا مخصص لهذا النهي بالقوى المسلحة ؛ بل على المجتمع الإسلامي كله أن لا يسمح للضعف والهوان بالتسلل إليه . وهكذا على كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي أن يعيش حالة عدم الوهن وحالة الإحساس بالقوة .

﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أي لا تقلقوا ولا تخافوا من المستقبل ولا تخشوا ما يحمله لكم في أحشائه ، تماسكوا ولا تسمحوا للخوف بأن ينفذ إلى قلوبكم . ومهما كانت

وذلك لأنهم الأعلون . وعلة هذا علوً وشرطه هو الإيمان الذي يتحللون به . ولا يبدو أن ثمة ما يدعو إلى حصر هذه الآية بالمجاهدين المرابطين في جبهات القتال ، بل يمكن تعميم دلالتها لتشمل غيرهم من المؤمنين والمجاهدين حتى لو لم يكونوا متلبسين بحالة القتال .

ومفهوم الجهاد في الإسلام والثقافة القرآنية أوسع من مفهوم القتال بالمعنى العسكري . فليس المجاهد هو المقاتل الذي يمتشق السلاح في مواجهة الأعداء فقط . فالقتال نوع من الجهاد ليس إلا وثمة أنواع أخرى من بذل الجهد هي جهادٌ بحسب الثقافة الإسلامية ومنظومة المصطلحات القرآنية . وكل مسلم مكلف بالجهاد وكل مقاتل إسلامي مجاهد ؛ ولكن لا ينحصر مفهوم المجاهد في المقاتل الذي يحمل السلاح ويشغل بالحرب والمواجهة . والتعاليم الواردة في هذا المجال أي التعاليم التي وردت للمجاهدين أو المقاتلين على نوعين . بعض هذه التعاليم والأوامر والنواهي مرتبط بالمقاتل وآداب القتال في الإسلام ، وبعضها الآخر مرتبط بالمجتمع الإسلامي

الواقعية العملية بالله تناسب طردئي فكلما ارتقى مستوى العلاقة به عزّ وجلّ ، كلما نال الإنسان ما يستحقّ من علوّ الشأن ورفعة المقام . وهذا ما يُستفاد من جعل الإيمان في المقطع الثاني من الآية شرطاً في تحقّق المشروط وهو علوّ المذكور في المقطع الأوّل منها . وتتضمّن آيات القرآن مجموعة من المطالب وتذكر عدداً من العلامات والسمات التي ينبغي أن يتّصف بها المجتمع المسلم ، وبخاصّة جماعة المجاهدين في هذا المجتمع .

وكثيرة هي الآيات التي تتحدّث عن تفوّق المجتمع الإسلاميّ ، وعن قدرته وعزّته وقوّته ، وعن قدرة المجاهدين المسلمين ، وكذلك الآيات التي تتحدّث عن مشخّصات المجتمع الإسلاميّ النموذجيّ وخصاله المكوّنة لهويّته وماهيّته ، وحيثما أجلنا النظر في هذه الآيات وجدنا أنّها تشير إلى : الإيمان ، والالتزام ، والثبات . فالقرآن يبيّن أنّ العزّة الحقيقيّة هي العزّة المستمدّة من الإيمان ، وليست تلك المستمدّة من أمور أخرى كالسلطة أو غيرها من المصادر . نعم لا ينكر القرآن ولا ينفي تأثير سائر العناصر غير

حيل أعداء الإسلام وخدعهم ومهما عظمت دعايتهم واشتدّت قدرتهم على الدعاية لمغرضة والتضليل ، فلا تضعفّ هممكم في مقابل الأفكار المضادّة لما تحملونه من فكر . فأعداء الإسلام حاولوا عبر التاريخ أن يثيروا أجواء الخوف والحزن في نفوس المؤمنين والمجاهدين ليشعروهم بالحزن ، ويثيروا في نفوسهم وأذهانهم احتمال انقلاب الأوضاع لمصلحة العدو ومواجهة المؤمنين بالمشكلات والمعوقات . ومثل هذه الأمور قد تصيب المؤمنين بفتور الهمة والإحساس بالحزن .

﴿ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ : يفيد هذا المقطع من الآية الكريمة أنّ جماعة من الناس لهم اليد العليا ؛ ولكنّ هذا العلوّ ليس مطلقاً وبالمجان ؛ بل هو مقيّد بقيد يُستفاد من الشرط المذكور في الآية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . إذاً هذا التفوّق وهذه الرفعة مشروطان بالإيمان والثبات على القيم الإسلاميّة ، والالتزام العمليّ بالإسلام وتعاليمه ، وتجسيد الثقافة الإسلامية في واقع الحياة ، وبكلمة عامّة بين العلوّ والرفعة بحسب هذه الآية وبين العلاقة

تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَعْنُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانًا سَيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ
ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿ الفتح : ٢٩ ﴾

وقد تأسس هذا المجتمع النموذجي
على يد قائدٍ نموذجيٍّ هو رسول الله ﷺ ،
وعلى الرغم من أنه كان مجتمعًا صغيرًا من
حيث العدد في ذلك الزمان ، فإنه استطاع
التأسيس لتحولٍ عظيم في تاريخ البشرية
جمعاء . كانت مدينة النبي ﷺ صغيرة في
حسابات الجغرافيا المكانية والبشرية ؛
ولكن الصورة التي يعطيها الله عز وجل
لهذا المجتمع توحى مذكاة التاريخ بأنه
نواة لتحولٍ عظيم في تاريخ الإنسانية ،
وتكشف عن أن هذه الجماعة القليلة العدد
سوف تفتح صفحة جديدة من تاريخ
الإنسان .

خصائص المجتمع الإسلامي في القرآن

يذكر القرآن الكريم في هذه الآية وفي

الإيمان في تحقيق العزة للمسلمين
وللمجتمع المسلم ، ولكن الأساس بحسب
الذكر الحكيم هو ذلك العنصر الجوهرى
وأما سائر العناصر والمؤثرات فهي تقع في
المرتبة الثانية .

وثمة آيات أخرى تشير إلى أهم
العناصر المؤثرة في إعزاز المجتمع
الإسلامي ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾
(الأنفال : ٦٠) فلا شك في تأثير الإعداد
والتجهيز من القوة ورباط الخيل وغير ذلك
من الأمور التي تتغير بتغير الزمان ؛ ولكن
العنصر الأول والأهم والذي يولد سائر
العناصر هو الإيمان .

ويذكر الله سبحانه في آخر سورة الفتح
السمات الأساس للمجتمع الملكوتي
التوحيدي الذي كان يقوده رسول الله ﷺ
بتفصيل أكبر ويصور التجسيد الإنساني
للمجتمع الإلهي أو الصورة التي ينبغي أن
يكون عليها المجتمع المسلم في كل عصر
وزمان ، فيقول عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

لها معنى أكبر من مجرد القتال والغلبة . ولا يحتاج استنباط هذا المعنى إلى تصنع بل من يعرف اللغة العربية يكتشف بسهولة أنّ كلمة (أشداء) تدلّ على ما هو أوسع من القتال والحرب ، وتشتمل على مضامين أخرى إلى جانب القتال والمواجهة العسكرية .

ففي حالة المواجهة العسكرية مع الكفر لا بدّ من أن تأخذ هذه الشدّة شكل الحرب والقتال . ولكن في بعض الحالات قد لا تكون الحالة حالة مواجهة عسكرية ، ففي مثل هذه الحالات لا بدّ من تجلّي الشدّة بطريقة أخرى ، فعلى المستوى الثقافي والفكريّ تعني الشدّة صلابة الموقف الفكريّ للمجتمع الإسلاميّ بحيث لا يُسمح لثقافة الكفر بالتسلّل والنفوذ إلى الوعي الإسلاميّ . وتعني الشدّة أيضاً عدم التفاعل العاطفيّ مع الكفر والكافرين وعدم الانبهار بهم والركون إليهم . هذه المعاني وغيرها تُستفاد من وصف المسلمين بأنّهم ﴿ أَشِدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ .

بلى ، هذه العناصر والسمات يجب أن تبقى ثابتة وينبغي أن تسم المجتمع

غيرها من الآيات مجموعة من الخصائص والسمات للمجتمع المثاليّ نحاول تفحص أهمّها في ما يأتي :

أولاً: مواجهة العدو

﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ ، الخاصيّة الأولى للمجتمع المثالي القرآني هي طبيعة النظرة إلى العدو والموقف منه وطريقة التعامل معه ، ويمكن القول إنّ هذه السمة هي من السمات السليبيّة التي ترسم صورة هذا المجتمع . إذ تقول هذه الآية إنّ المؤمنين المحيطين برسول الله ﷺ والذين يشكّلون معه جماعة ممتازة يتسمون بسمة الشدّة تجاه العدو المعبر عنه في الآية بـ الكفار .

وعبارة ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ عبارة عميقة المعنى . فالمسألة ليست مسألة شدّة وغلظة على العدو فحسب ، بل تعني في ما تعنيه الثبات والصلابة في مقابل الكفر والكافرين . فلا تقصد الآية وسم المجتمع النبويّ بأنّه يقاتل ويواجه الكافرين ويتغلّب عليهم . هذا المعنى الأخير ربّما تؤدّيه عبارة "يقاتلون الكفّار" ، ولكن الله لم يقل يقاتلون بل قال (أَشِدَّاءُ) وهذه الصفة

يقتصر ذكر هذه الخاصية من خصائص المجتمع الإسلامي على هذه الآية بل ثمة آيات أخرى تؤكد أن الأصل الأصيل والقاعدة في التعامل بين المسلمين يجب أن تكون الرحمة . وحذا لو يسمح الوقت باستعراضها ولكن هيهات .

ثالثاً : العبادة والاهتمام بالمعنويات

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ : يشير هذا المقطع من الآية إلى سمة أخرى من سمات المجتمع الإسلامي المثالي وهي أنه مجتمع مقيم للصلاة ، مجتمع هو في حالة ركوع وسجود لله تعالى . وهنا أيضاً الصلاة خصوصاً والعبادة على وجه العموم هي الأصل ، مع التأكيد على الصلاة التي هي أهم العبادات وهي ركن من أركان الإسلام . إذاً بناءً على هذا المقطع لن يتحقق وجود المجتمع الإسلامي إلا إذا أتقن إقامة الصلة مع الله من خلال الصلاة ، وأتقن الركوع والسجود .

رابعاً : التوجه السلوكي نحو الله

﴿ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ما

الإسلامي في جميع العصور والأزمنة . ولا ينبغي أن تقتصر الشدة على زمن الحرب والقتال . والنقطة الأخرى هي أن هذه السمة من سمات المجتمع الإسلامي في مقابل الكفر والكفار هي السمة الأهم والأكثر حساسية ؛ ولأجل ذلك قدّمت وذكرت مطلع الآية . ولو رجعنا إلى تاريخ الإسلام والمسلمين لوجدنا أن كثيراً من الضربات التي تلقّتها المجتمعات الإسلامية ، كانت ناجمة عن عدم اتّصاف تلك المجتمعات بالشدة ، والوقائع والأمثلة على هذا الأمر كثيرة ولكن لا مجال لذكرها ، وأحسب أن هذا الأمر يبلغ من الوضوح حدّاً يغني عن ذكر الأمثلة والنماذج .

ثانياً : التراحم الداخلي

السمة المقابلة للشدة على الكفار والصلابة في مواجهة الكفر هي الرحمة واللين في التعامل مع المسلمين . وتؤكد الآية على أهمية الرحمة في التعامل ما بين المسلمين وأن يكون قلب أحدهم على قلب الآخر . وهذه الرحمة هي التي تعطي المجتمع الإسلامي وحدته وتضامنه . ولا

بالصبغة الإلهية . وحكم المجتمع تابع لحكم الأفراد في هذا المجال ، فكلما بُدّت نية الأفراد عن السلامة والاصطباغ بصبغة الله ، كلما ابتعد المجتمع عن تصنيفه في دائرة المجتمع الإسلامي المثالي .

خامساً : الخشوع والتواضع

السمة الخامسة من سمات المجتمع الإسلامي بحسب هذه الآية الشريفة هي الخشوع لله والتواضع لله تعالى ، وهو ما يُستفاد من قوله عز وجل : ﴿ سَيَأْتِيهِمْ مِنْ أُنْثَرِ السُّجُودِ ﴾ ، إذ تحدّثنا هذه الآية عن تأثير التراب الذي يسجد عليه المسلمون في جباههم وبالتالي تقول هذه الآية هؤلاء ترايئون . وعليه التواضع والخشوع والإخبات لله من سمات الفرد المسلم وبالتالي من سمات المجتمع الإسلامي كله .

ثم تكمل الآية وتخبّرنا أنّ مثل هؤلاء موجود في التوراة والإنجيل . وذلك أنّ الكتب السماوية لم تخل من إشارة إلى النبي ﷺ وأصحابه وبخاصة العهدين القديم والجديد ؛ أي التوراة والإنجيل .

المراد من هذه العبارة في الآية الشريفة ؟ تشير هذه الآية في هذا المقطع منها إلى الوجهة التي ينبغي أن تتخذها أعمال المسلمين عموماً والمجاهدين على نحو الخصوص ، وتبين البغية والجهة التي توجه الأعمال ، أو فنقل الغاية التي يتغيها المسلمون من أعمالهم كلّها هي بالدرجة الأولى الوصول إلى رضوان الله تعالى ونيل فضله . وهذا ما يُعبّر عنه في الفكر الإسلامي بخلوص النية ، فعلى المسلم أن لا يقصد سوى الله من كلّ فعل يؤديه أو واجب أو مهمة ينجزها . فبعض الأعمال قد يؤديها الإنسان لغرض دنيوي ومثل هذه الأعمال غير منظورة ولا ملحوظة في الآية الشريفة . فالخصلة الرابعة من خصال المجتمع الإسلامي التي تسم سلوك المسلمين أو يجب أن تسم سلوكهم ، هي النية وقصد الله من الأعمال . فما لم تصف نية الإنسان وما لم تكن نيته إلهية لن يكون مجتمعه مجتمعاً إلهياً . وهذه خاصية جدية من خصائص المجتمع المسلم لا مجال فيها للتساهل والتسامح . فثمة تناسب طردي بين فساد النية وبين اصطباغ الأعمال التي تصدر عن الفرد

المشابهة التي يتّصف بها المجتمع الإسلامي يجب أن تكون بحسب هذه الآية نابعة من داخل المجتمع بحسب قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ﴾ ، فالقوة المستمدة من الخارج لا تدوم ولا تحقق العزة التي يبتغيها الله للمجتمع الإلهي . فالقوة الإسلامية ينبغي أن تكون مطابقة لمقاييس الثقافة الإسلامية ومنسجمة مع معاييرها .

وقد شهد تاريخ المجتمع الإسلامي تحقق هذه السمة في زمان النبي ﷺ . ونحن ولله الحمد جرّبنا شيئاً من هذا في المجتمع الإسلامي في إيران بعد الثورة . فالعزة التي نعيم بها في إيران في هذه الأيام هي عزة مستجدةً لنناها بعد الثورة الإسلامية بقيادة إمام الأمة وتحت ظلّه الشريف . وربما لا يشعر بعضنا بهذا التطور النوعي ، وأمّا الذين ينظرون إلى إيران من الخارج فيدركون هذا الأمر بشكل أكثر وضوحاً . وهذا أمرٌ طبيعيٌّ فإنّ من يرفل في النعمة لا يدركها بشكل كامل . ولأجل هذا نرى أنّ عيون العالم كلّها موجهة إلى النظام الإسلامي . والمستضعفون في العالم والمسلمون جميعاً أمالهم معلقة على

ومثل هذه الإشارات العهديّة إلى النبي الخاتم (ص) وأمتّه تدلّ على حاكميّة هذه الأمة على تاريخ البشريّة واكتمال المشروع الإلهي بظهور الإسلام .

وعلى أيّ حال تحدّثنا الآية فتقول : ﴿ سَيَأْتِيهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ . ومضافاً إلى الإخبار عن أصل ظهور الإسلام في الكتب السماويّة السابقة فإنّ هذه الإشارة تكشف عن سمة جديدة من سمات المجتمع الإسلامي ، وهي أنّ هذا المجتمع لا ينبثق من العدم فجأة بل ينشأ بالتدرّج شيئاً فشيئاً ويتحوّل من حالة الضعف إلى حالة القوة ، ومن التعرّض للتهديد والمخاطر إلى الاستقرار والثبات . وتشبّه المجتمع الإسلامي بالبذرة التي توضع في الأرض ثمّ يظهر منها البرعم الضعيف ثمّ يقوى تدريجاً إلى أن يقف على قدميه ويتحوّل إلى نبتة مقتدرة . وهذه القدرة المستجدة بحسب هذه الآية هي قدرة ذاتية نابعة من الداخل وليست مستوردة من الخارج ولا مصطنعة . بلى القدرة والشوكة والثبات وغيرها من الصفات

في العالم . ولأجل هذه الفريدة تنال الجمهورية الإسلامية الحظّ الأوفر من اهتمام وسائل الإعلام العالمية ؛ إذ تظهر وكالات الأنباء والمؤسسات الخبريّة حساسيّة واهتمامًا خاصّين بكلّ ما له صلة بإيران .

والسؤال هنا هو ما الذي يبرّر هذا الاهتمام الزائد بشؤون إيران والجمهورية الإسلامية ؟ يبدو لي أنّ سبب الاهتمام الزائد هو موقع إيران ودورها في العالم سواء للصديق أم العدو . أمّا الأعداء فلأنّهم يرون أنّ مشروعهم الاستعماريّ قد تعرّض للتهديد والخطر بعد الثورة الإسلامية المباركة . وأمّا الأصدقاء والمحبّون فإنّهم يرون في النظام الإسلاميّ بقعة ضوء للأمة الإسلامية كلّها . لقد سمع الناس جميعاً كلام الإمام الخميني وطروحاته ورأوا ما يحصل في إيران في مقام العمل ، وهم يقارنون بين هذه الطروحات وهذه الأعمال وبين ما يحصل في بلادٍ أخرى ، فيدركون عظمة الثورة الإسلامية وصحّة خياراتها .

﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾

هذا المقطع من الآية المباركة يشير إلى

الثورة الإسلاميّة ، وليس لهذا الاهتمام سببٌ سوى الماهيّة الإسلامية والهويّة الذاتيّة لنظامنا الإسلاميّ . وثمة أنظمة أخرى تتخذ من الإسلام شعاراً وعنواناً إلا أنّها لا تتحلّى بالعزّة التي يتحلّى بها المجتمع الإسلاميّ ، وأمّا الثورة الإسلاميّة فإنّها كانت تهدف من الأساس إلى إقامة الإسلام وتشيد أركانه وتطبيقه في ساحة المجتمع الإيرانيّ ، ولم يكن الإسلام مجرد شعارٍ يُستثمر للوصول إلى السلطة . ومن ينظر بعين الإنصاف إلى تاريخ الثورة الإسلاميّة يكتشف أنّ الذين قامت الثورة على أكتافهم قضاوا رداً من أعمارهم زهّاداً لا يحلمون بالسلطة ولا يسعون للوصول إليها .

إنّ ثورتنا من الأساس كانت ثورة إسلاميّة وحركة دينيّة ، ثمّ أثبتت التجربة ذلك في مقام العمل والتطبيق . وطوال السنوات التي مضت من عمر الثورة شهدنا سعيّاً حثيثاً لتطبيق الإسلام وتعاليمه في مجالات شتّى ، وبخاصّة في مجال مواجهة الأعداء ، حسب ما يشير إليه أوّل الآية . وهذا الالتزام الفكريّ والعملّي للثورة الإسلاميّة جعل هذه التجربة تجربة فريدة

يخاف ويحسد . ولأجل هذا تحدّثنا الآية عن النجاح الذي يغيظ الكفّار ومثل هؤلاء الذين يعجب نجاحهم جماعةً من الناس ويزعج جماعةً أخرى وعدّهم الله تعالى بالثواب والأجر العظيم على ما حقّقوا وأنجزوا .

حسد الأعداء وسبب اهتمامهم الذي أشرنا إليه فهم يضمرون الحسد ويتمّون في قلوبهم لو أنّ الأوضاع كانت على غير ما هي عليه . وهذا أمرٌ طبيعيّ ومتوقّع ، عندما ينظر العدوّ فيدرك عظمة النظام الإسلاميّ وأهميّة هذه التجربة ومدى تأثير نجاحها على مستقبل سلطته في العالم الإسلاميّ يخشى على نفسه فيعتمل الحسد والغیظ في قلبه ومن الطبيعيّ أن

العلاقات الاجتماعية في الإسلام

الشيخ جميل الربيعي

باحث وأستاذ في الحوزة العلمية / النجف الأشرف

الناس ، ولا تألفه القلوب ، أي يكون نافراً من المجتمع منفراً له ، ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ... خير المؤمنين من كان مألوفة للمؤمنين ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ^(٢) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ^(٣) .

لقد أولى الإسلام العلاقات الاجتماعية أهمية خاصة ، وجعل لها مواقع متقدمة في تعاليمه الرسالية ، وحَمَلَ جميع معتنقيه مسؤولية بنائها على أسس إيمانية وأخلاقية ، ووصف العاجز عن بنائها ، أو هادئها بأنه من أعجز الناس ، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الأخوان ، وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم » ^(١) .

ونفى الخير عن كل شخص لا يألف

الأرحام ، إكرام الضيف ، قضاء حاجات المؤمنين ، حسن البشر ، السلام ، ردّ التحية بأحسن منها ، الهدية ، أداء الأمانة ، حسن الجوار ، المخاطبة بأحبّ الأسماء أو الألقاب ... الخ .

كلّ تلك المفردات عدّها الإسلام من مكارم الأخلاق ، ومن محاسن الأفعال ، وهي مفردات يتعامل بها المؤمن مع الناس ، وقد حثّ القرآن والسنة الشريفة المؤمنين عليها ، وأمرهم بالتخلّق بها ، ومعاملة الناس على أساسها ؛ لأنّها تجسّد أخلاق الإسلام ، ومبادئه بشكل عملي ، ولها تأثير كبير على النفس الإنسانية حيث إنّها تفتح الطريق إلى القلوب ، وتوثّق الروابط بين الناس ، واهتمام الإسلام بها دليل على اهتمامه بالعلاقات الاجتماعية ؛ ليكون المؤمنون قوّة جذب للآخرين ، يَنشُدُون إليهم ، ويستأنسون بهم ، وليكونوا دعاة إلى الله بسيرتهم قبل ألسنتهم .

وهذا أفضل أسلوب للتأثير في الناس ، وهدايتهم إلى سبيل النجاة ، وقد ثبت بالتجربة أنّ الناس يتأثرون سلباً أو

والروايات التي تحثّ على اكتساب الأخوان ، والتألف الاجتماعي أكثر من أن تحصى ، وهذا دليل على اهتمام الإسلام في بناء العلاقات الاجتماعية بين الناس .

إنّنا لو تتبعنا مفردات الأخلاق الإسلاميّة ، والتي عدّها الإسلام أثقل شيء في الميزان يوم القيامة ، نجدها جميعاً ذات أبعاد اجتماعيّة مختلفة ، ولها آثار مهمّة في توثيق الروابط بين المؤمنين أنفسهم ، أو بينهم وبين غيرهم ، فالتواضع ، والمدارة ، وخفض الجناح ، والتألف ، والتأخي ، والتواضع ، والحلم ، والعفو ، والصفح ، وكظم الغيظ ، وحسن الظن ، والعفة ، والشكر ، والرفق ، والصدق ، والكرم ، والعدل ، والتراحم ، والتعاطف ، والحياء كلّ هذه المفردات والتي صبغها الإسلام بصبغة أخلاقيّة لها أبعاد وآثار عظيمة في تمتين العلاقات الاجتماعية مع الناس بصورة عامّة ، ومع المؤمنين بصورة خاصّة .

كذلك هناك مفردات عمليّة أخرى لها مردودات اجتماعية مهمة أگد عليها الإسلام ، كما في : برّ الوالدين ، صلة

الاجتماعيّة ، وعلى بنائها على أسس إنسانيّة وأخلاقيّة .

ومن ناحية ثالثة فإنّ الإسلام عمل على تذويب جميع الفوارق الاجتماعيّة ، ونبذ التعصب القوميّ أو الإقليميّ ، أو أيّ نوع يبعد الإنسان عن أخيه الإنسان ، فوضع قانون الأخوة الإيمانيّة والإنسانيّة ، وأرسى دعائم التضامن ، والتكافل الاجتماعيّ ، يقول السيد الشهيد الصدر رحمته الله : « فالأساس الأول للضمان الاجتماعي : هو التكافل العامّ ، والتكافل العامّ هو المبدأ الذي يفرض فيه الإسلام على المسلمين كفاية كفالة بعضهم لبعض ، ويجعل من هذه الكفالة فريضة على المسلم في حدود ظروفه وإمكاناته يجب عليه أن يؤدّيها على أيّ حال كما يؤدّي سائر فرائضه » ^(٥) .

وبذلك حمل مسؤولية الإصلاح الاجتماعيّ على الجميع ؛ فعن ابن عمر يقول : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كلّكم راعٍ ، وكلّكم مسؤول عن رعيّته ، الإمام راعٍ ، ومسؤول عن رعيّته ، والرجل راعٍ في أهله ، وهو مسؤول عن رعيّته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، ومسؤولة

إيجاباً بالمواقف السلوكيّة أكثر مما يتأثرون بعرض المبادئ المجردة ، ومن هنا ينبغي للعامل في التغيير الاجتماعيّ أن يعرض مبادئه من خلال المواقف الرساليّة ، أي أن يكون الموقف معبراً عن المبدأ السليم ، وأدقّ تعبير لهذه الحقيقة ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّ الوعظ الذي لا يمّجه سمع ، ولا يعدله نفع ما سكت عنه لسان القول ، ونطق به لسان الفعل » ^(٦) .

ومن ناحية أخرى نجد أنّ الإسلام نهى عن ذمائم الأخلاق ، وسوء الأفعال ؛ لأنّها تعطي صورة معكوسة عن مبادئه السليمة من خلال سلوك المتّصف بها ، فنهى عن التكبر ، والحسد ، والغيبة ، والنميمة ، والعجب ، والبذاءة ، والفخر ، والمماراة ، والقسوة ، والمكر ، والخديعة ، والكذب ، والهجران ، وتتبع العورات ، والشماتة ، والسباب ، وسوء الظن ، وقطيعة الرحم ، كلّ هذه المفردات نهى الإسلام عنها ، وحذّر منها بقوة ، وأوعد عليها سوء المآل ، ووخامة العاقبة ؛ لأنّها تؤدي إلى التمزّق الاجتماعيّ ، وتحدث تنافراً بين النفوس ، وهذا دليل آخر على حرص الإسلام على سلامة العلاقات

العبد إلى بارئه فإن لها أثراً اجتماعية مهمة ، فمثلاً صلاة الجماعة لها دور فعال في تمتين الروابط بين المؤمنين ، فعندما يقف المسلمون بصفوف مترصة من دون فارق بين غني وفقير ، وحاكم ومحكوم ، تزول كل الفوارق الاجتماعية في أسمى وأشرف موقف يقفه العبد في محضر القدس الأعظم ، ورد في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام : « فَلِمَ جعل الجماعة ؟ قيل : لئلا يكون الإخلاص ، والتوحيد ، والإسلام ، والعبادة لله إلا ظاهراً مكشوفاً مشهوراً ؛ لأن في إظهاره حجة على أهل الشرق والغرب لله وحده عز وجل ، وليكون المنافق والمستخف مؤدياً لما أقر به بظاهر الإسلام والمراقبة ، وليكون شهادات الناس بالإسلام بعضهم لبعض جائزة ممكنة مع ما فيه من المساعدة على البر والتقوى » ^(٨) .

وخلاصة القول : الصلاة في المساجد ، وصلاة الجماعة مظهر اجتماعي أولاه الإسلام أهمية كبرى ، فهو إضافة إلى كونه عملاً عبادياً فهو يعطي في نتائجه بعداً اجتماعياً ، فعن الأصمعي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : « من اختلف

عن رعيته ، والخادم راعٍ في مال سيده ، ومسؤول عن رعيته » ، قال : « وحسبت أن قد قال : والرجل راعٍ في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته » ^(٩) .

كما أنه وضع لكل علاقة اجتماعية قانوناً أطره بإطار أخلاقي وإنساني بدءاً بالعائلة ، فنظم العلاقة بين الزوجين ، وحدد لكل منهما ما له من الحقوق ^(١٠) ، وما عليه من الواجبات ، وحدد مسؤولية الأب عن أبنائه ، وواجبات الأبناء إزاء آبائهم ، ومروراً بعلاقة الجوار ، والصدقة ، والأخوة ... وانتهاءً بالعلاقات العامة في المجتمع سواء كانت بين أفراد الرعية ، أو بين الحاكم والمحكوم ، وحتى بين المسلمين وغيرهم ، وهكذا لم يترك جانباً من الجوانب الاجتماعية إلا وضع له دستوراً ونظاماً حدد فيه الحقوق والواجبات .

ولكل من الفرائض العبادية التي فرضها الإسلام على معتنقيه أبعاد اجتماعية عظيمة في تمتين الروابط بين المسلمين ؛ فالصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مع كونها أعمالاً عبادية يتقرب بها

شؤون دينهم ودنياهم ، وبذلك تتوثق الروابط بينهما في كل بقاع الأرض .

والزكاة كذلك مع كونها فريضة ذات صبغة اقتصادية فإنها كذلك ذات بعد اجتماعي مهم .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إصلاحية اجتماعية حيث يتوجه الأمر ، أو الناهي إلى المجتمع لِيُمتَنَ فيه روابط الخير والصالح ، يقول الإمام الخميني عليه السلام : « ينبغي أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أمره ونهيه ومراتب إنكاره كالطبيب المعالج المشفق ، والأب الشفيق المراعي مصلحة المرتكب ، وأن يكون إنكاره لطفاً ورحمة عليه خاصة ، وعلى الأمة عامة » ^(١١) .

فهنا في هذه الفتوى وصف دقيق في عملية الأمر والنهي ، وهي أن يكون الأمر طبيياً معالجاً لأمراض المجتمع بروح أبوية تتسم بالعطف ، والرحمة ، والشفقة على المأمور ، وعلى جميع الأمة .

فالعبادات المفروضة إذن مع روحها العبادية لها آثار اجتماعية على الفرد والمجتمع ، وخلاصة القول : إن الإسلام

إلى المسجد أصاب إحدى الثمان : أخاً مستفاداً في الله ، أو علماً مستطرفاً ، أو آية محكمة ، أو يسمع كلمة تدل على هدى ، أو رحمة منتظرة ، أو كلمة تردّه عن ردى ، أو يترك ذنباً خشية أو حياء » ^(٩) .

وواضح أنّ معظم هذه الثمان تتم عن طريق التفاعل الاجتماعي مع الآخرين .

والصوم ليس عملاً فردياً مجرداً ، وإنّما له دور كبير في خلق الروابط القوية بين المؤمنين حيث يواسي أحدهم الآخر ، ويشعر الغني بالأم الفقير ، يقول الإمام الصادق عليه السلام : « إنّما فرض الله الصيام ؛ ليستوي به الغني والفقير ، وذلك أنّ الغني لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير ؛ لأنّ الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه ، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه ، وأن يذيق الغني مسّ الجوع والألم ؛ ليرقّ على الضعيف ، ويرحم الجائع » ^(١٠) .

هذا مضافاً إلى ما فيه من المستحبات المؤكدة كتحسين الخلق ، والرحمة للأيتام والفقراء .

والحجّ كذلك دورة تربية اجتماعية يلتقي فيها المسلمون كلّ عام ؛ ليتدارسوا

والبغض ، والقبول والرفض ، والرضا والإعراض ^(١٤) .

أسس العلاقة الاجتماعية في الإسلام :

لقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً في بناء مجتمع وأمة متعاونة متكافئة تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١٥) .

ومن الواضح أنَّ تكوين الأمة لا يتم إلا من خلال الاهتمام بالعلاقات التي تربط بين أبنائها المنضوين تحت لوائها ، وبين الجماعات الأخرى التي تدعوهم إلى الخير ، ولذا فإنَّ الإسلام في عقيدته ، وشريعته يهدف إلى بناء المجتمع الإسلامي بصورة سليمة ؛ لينال الإنسان فيها سعادته ورفاهيته ، فعلى المستوى العقائدي دعا إلى اجتماع الناس على توحيد الله تعالى ، ولا شك أنَّ التوحيد العقائدي أعظم رابطة في توحيد الأمة ، لا تفوقها رابطة أخرى ، فإنَّ الوحدة العقائدية تجمع قلوب الناس على مبدأ واحد ، وتدفعها في اتجاه واحد ، وتذوّب جميع الفوارق الأخرى

دين اجتماعي يأبى لحاملي رسالته العزلة والانحسار عن المجتمع ، بل أوجب عليهم التحرك فيه ، والعمل على تغييره ، يقول الإمام الصادق عليه السلام : « أكثرُوا من الأصدقاء في الدنيا ؛ فإنَّهم ينفعون في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فحوائج يقومون بها ، وأما في الآخرة فإنَّ أهل جهنم قالوا : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » ^(١٦) .

ويقول رسول الله ﷺ : « أقربكم مني مجلساً في الجنة ، أحسنكم أخلاقاً في الدنيا المؤطَّون أكنافهم ، الذين يألفون ويؤلفون » ^(١٧) .

ولم يكن هذا الحثّ على الترابط والتواصل الاجتماعي لغايات ذاتية محدودة ، بل شرط الإسلام فيها النزاهة عن المصالح الخاصة ، والالتزام بالمبدئية الهادفة ، (ومن هنا فإنَّ المعيار الذي يعتمد عليه أهل الإيمان بشكل عام في طبيعة الروابط بينهم وبين الآخرين هي المتبنيات الفكرية ... إنَّ ما يميز الإنسان المؤمن في ارتباطاته وعلاقاته مع الآخرين هو ما تمليه عليه فكرته ، وما تفرزه متبنياته العقيدية ، فهي الأساس والمقياس في الحب

المؤمن للمؤمن فرع ولاية الرسول ﷺ ، وولاية الرسول فرع ولاية الله عز وجل ؛ لأنّ الولاية بالأصل لله تعالى ، وغيرها تنفرع منها وترجع إليها ، وعلى هذا الأساس جعل المؤمنون في ترابطهم كمثل الجسد الواحد يحسّ كل عضو بالأم الأعضاء الأخرى ، يقول الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٢١) .

يقول الإمام الصادق عليه السلام : « لا والله لا يكون المؤمن مؤمناً أبداً حتى يكون لأخيه مثل الجسد ، إذا ضرب عليه عرق واحد تداعت له سائر عروقه » (٢٢) .

وقوام الولاية هو التحابب في الله ، والتناصر في الله ، والتبذل في الله ، وتلك هي ثمرة رابطة الإيمان الاجتماعية ، « من أوثق عرى الإيمان أن تحبّ في الله ، وتبغض في الله » (٢٣) ، ومن هنا وصل المتوالون في الله إلى أسمى منازل القرب من الله ، فهم « جيران الله في دار رحمته » (٢٤) ، وهو تعبير دقيق عن المنزلة الرفيعة التي منحها الله لأوليائه .

سواء كانت اقتصادية ، أو قومية ، أو وطنية ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٢٦) .

فالأمة هي جماعة من الناس ترتبط برابط عقائدي واحد ، (يتخيرون العلم والعمل الصالح ، يكونون أسوة لغيرهم) (٢٧) .

يقول تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢٨) فبالتوحيد العقائدي يتحقق التوحيد الاجتماعي كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام في دعائه ، وهو يرفع قواعد البيت العتيق : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (٢٩) .

فالأساس الأول في العلاقات الاجتماعية هو الرابط العقائدي السليم ، وهو التوحيد الإلهي .

وأما الأساس الثاني فهو الولاية بين المؤمنين يقول عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٣٠) ، وهي بمعناها تشمل : النصرة ، والتعاون على البر والتقوى ، وهذه الرابطة هي فرع لرابطة التوحيد ، فإنّ المؤمن يتولّى المؤمن ؛ لأنّهما يرتبطان برابط التوحيد لا غير ، فولاية

النسبية بين أبناء البشر بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢٨) .

فالشعوب والقبايل تتعارف على أساس الإنسانية ؛ ولهذا حرّمت الشريعة الإسلامية المقدّسة على المسلم أن يظلم ، أو يغدر ، أو يخدع ، أو يقتل إنساناً مهما كان بلا حق ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمالك الأشتر : « وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكوننّ عليهم سبّعاً ضارياً تغتم أكْلَهُمْ ؛ فإنّهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق » (٢٩) .

ومن هذا المنطق سبق الإسلام جميع الحضارات ، (وأعطى الإنسان قيمته الحضارية ، ودوره الريادي ، وكان التأكيد على حقوقه واضحاً جلياً ، جسده دستور الإسلام الخالد القرآن الكريم والسنة الشريفة) (٣٠) .

العوامل المؤثرة في بناء العلاقات الاجتماعية :

كما أنّ للإنسان جنبه عقلانية ، فإنّ

وقد ورد عن الثمالي ، عن أبي جعفر ، عن آبائه ، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « ... ثم ينادي منادٍ من الله عز وجل يُسمِعُ آخرهم كما يُسمِعُ أولهم ، فيقول : أين جيران الله جل جلاله في داره ؟ فيقوم عنقُ من الناس ، فتستقبلهم زمرة من الملائكة ، فيقولون لهم : ما [ذا] كان عملكم في دار الدنيا فصرتم به اليوم جيران الله في داره ؟ فيقولون : كنّا نتحابّ في الله عزّ وجلّ ، ونتبادل في الله ، ونتزاور في الله (٣٥) . فينادي منادٍ من عند الله : صدق عبادي خلّوا سبيلهم لينطلقوا إلى جوار الله في الجنة بغير حساب . قال : فينطلقون إلى الجنة بغير حساب » ، ثمّ قال أبو جعفر (عليه السلام) : « فهؤلاء جيران الله في داره ، يخاف الناس ولا يخافون ، ويحاسب الناس ولا يحاسبون » (٣٦) .

والأساس الثالث الذي تبتني عليه الروابط الاجتماعية في الإسلام هو الرابطة الإنسانية ، فالبشر أبناء طينة واحدة ، مصدرهم واحد ، ومآلهم واحد ، منه يصدرون ، وإليه يرجعون ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، « كلّكم لآدم وآدم من تراب » (٣٧) ، هكذا أقرّ الإسلام الرابطة

من صدر غيرك بقلعه من صدرك « (٣١) .

وهذا هو المنطلق الأساس في التغيير الاجتماعي؛ فإنَّ الإنسان مهما بلغ من قوَّة في وعظه وإرشاده إذا لم يركِّ ذاته من جميع الخبائث لا يمكن أن يؤثِّر في الآخرين أو يكون تأثيره محدوداً ، ثم يأتي بعد ذلك دور الأسلوب الأمثل والطريق الأسلم لزراعة الخير في نفوس النَّاس ، ولا بد أن تعرف أنَّ الإنسان لا يندفع إلى فعل شيء ، ويبعد فيه إلا إذا كان ذلك الشيء يعود عليه بفائدة مادية أو معنوية ؛ فإنَّه ﴿لُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٣٢) .

وبعبارة أخرى : إنَّ كل شيء لا يحقق للإنسان إشباع ذاته ، وتحقيق أناته لا يندفع إليه إلا مكرهاً ، وحينئذٍ لا يمكن أن يبعد فيه ، ويعطي نتيجة مرضية ، فلا (يمكن تكليف الإنسان أن يتحمَّل مختاراً مرارة الألم دون شيء من اللذة في سبيل أن يلتذَّ الآخرون ، ويتنعموا ، إلا إذا سلبت منه إنسانيَّته ، وأعطيت طبيعة جديدة لا تتعشَّق اللذة ، ولا تكره الألم .

وحتى الألوان الرائعة من الإيثار التي نشاهدها في الإنسان ونسمع بها عن

له جنبه عاطفية ، ولا شك أنَّ العواطف النبيلة لها دور كبير في التقارب بين الناس ، فهي تفتح القلوب ، وتشرح الصدور أمام الإنسان ، وبالعكس فإنَّ التعامل الجافَّ له مردودات سلبية على تلك الروابط .

ويمكننا تقسيم العوامل في بناء العلاقات الاجتماعية على قسمين : قسم منها له تأثير إيجابي ، والآخر له تأثير سلبي .

أما القسم الأول : فهو الذي يجذب إليه مشاعر الإنسان ، ويثير إحساس الخير في الآخرين ، ولهذا على العامل في تغيير المجتمع أن يعمل على خلق دوافع الخير في الآخرين ، وتقصد بدوافع الخير : يقظة الروح ، واندفاعها إلى كلِّ عمل يعود عليها وعلى المجتمع بالفائدة مع التجرد عن الدوافع المادية ، ولا شكَّ أنَّه متى وجد دافع الخير عند الإنسان تشوَّق إلى فعله ، وتحرك نحو إيجاده ، وإذا أردنا أن نوجد ذلك في نفوس الناس فلا بد أن نوجده أولاً في نفوسنا ، فإنَّ فاقد الشيء لا يعطيه ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : « احصد الشرَّ

ويفرض عليه نظرة أعمق إلى مصالحه ومنافعه ، ويجعل من الخسارة العاجلة ربحاً حقيقياً في هذه النظرة العميقة ، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف (٣٥) .

﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٣٦) .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣٧) .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٣٨) .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ ثِقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٤٠) .

وبهذا التأكيد على عودة كل ما يقدمه الإنسان إليه ﴿ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (٤١) استطاع أن يخلق الدافع في نفس الإنسان لفعل الخير .

والسر في هذا التأكيد أن النفس

تأريخه تخضع في الحقيقة - أيضاً - لتلك القوة المحركة الرئيسية : (غزيرة حب الذات) . فالإنسان قد يؤثر ولده أو صديقه على نفسه ، وقد يضحّي في سبيل بعض المثل والقيم ، ولكنه لن يقدم على شيء من هذه البطولات ما لم يحس فيها بلذة خاصة ، ومنفعة تفوق الخسارة التي تنجم عن إثارة لولده وصديقه ، أو تضحيته في سبيل مثل من المثل التي يؤمن بها (٣٣) .

وقد عالج الإسلام هذه المسألة حيث فسر الحياة الدنيا تفسيراً واقعياً ، وإنها (كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية ، يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه) (٣٤) .

وقد استعمل القرآن الكريم الترغيب كوسيلة دفع إلى فعل الخير ، وعده ضماناً لمستقبله الأخروي ، وبذلك حقق للإنسان إشباع دوافعه الذاتية من خلال تطمينه بعودة كلما يفعله من خير إليه ، واستعمل أسلوب التهيب كوسيلة زجر عن كل فعل يتنافى مع المصالح الإنسانية ، وقيمها الأخلاقية والاجتماعية .

وبذلك (يوسع من ميدان الإنسان ،

الإنسانية شحيحة ؛ فلا تعطي حتى تأخذ ، وبذلك حلّ التعارض بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة ، وسخر المصلحة الشخصية لأجل المصلحة العامة من خلال ربط العقيدة بالنظام ، وبها عالج أعظم المشاكل الاجتماعية .

ولا بدّ أن نشير أنّ الذي يحرك الإنسان لفعل الخير ليست الدوافع المادية فقط كما ذهب إلى المذاهب المادية ، وإنّما الذي يحركه أيضاً الدوافع المعنوية ، فهي أكثر قوّة ، وأبقى أثراً في النفس من الدوافع المادية ؛ ولهذا فهناك كثير من الجوانب المعنوية تخلق دوافع الخير في نفوس الناس .

وبعد هذا يمكننا أن نذكر أهمّ العوامل المؤثرة في تقوية الروابط الاجتماعية ، والتي تدفع الآخرين إلى الخير والإحسان ، وهي :

أ- شكر الآخرين على أعمالهم ومواقفهم :

إنّ الإنسان بطبعه يحب أن يكون لعمله قيمةً واعتباراً وأثرٌ طيّبٌ في نفوس الآخرين حتى لو لم يعد عليه بنفع ماديّ ،

فعندما يحسّ بامتنان الناس ورضاهم عن أعماله ؛ فإنّ ذلك يدفعه إلى مواصلة عمله والإبداع فيه ، وهذا أثرٌ مهمٌّ من آثار الشكر في نفوس الآخرين ، أما عندما يحدث العكس فإنّه سيكون عامل تثبيط للعزائم ، وتعطيل للهمم ، ف (إنّ روحية عدم الشكر من الآخرين يورث الإنسان خسارة لا تعوّض ، ذلك أنّ الإنسان إن كان يخل عن شكر خدمات الآخرين ، وتودّدهم ، وعجز عن الثناء عليهم ، والتمجيد بهم حتى مع علمه بأهمية أعمالهم وأتعايبهم التي تحمّلوها ، لم يُبدِ أولئك للمرة الأخرى أيّة رغبة في خدمته وحلّ مشكلته)^(٤٢) .

(إنّ الإنسان إذا لم يسمع كلمة شكر على ما يتحمّله من جهد وتعب أصبحت الحياة عليه صعبة جداً)^(٤٣) .

ومن هذا المنطلق وردت روايات كثيرة توجي بوجوب شكر المحسن على إحسانه ، وربطت بين شكر الخالق وشكر المخلوقين ؛ فعن الإمام الرضا عليه السلام : « من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ »^(٤٤) .

وعن عمار الدهني قال : « سمعت

الآخرين في مشاعرهم ، ونشعرهم بالروح الأخوية التي تربطنا بهم ، وقد مثل رسول الله ﷺ التآلف والتناغم في المشاعر بين المؤمنين بالجسد الواحد الذي إذا تألم منه عضو تألمت سائر الأعضاء ، وهذا من أدق وأعظم الأوصاف في الترابط الروحي بين المؤمنين ، يقول ﷺ : « مَثُلَ المؤمن في توأدهم ، وتراحيمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٤٧) .

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : « المؤمنون في تبارهم ، وتراحيمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائرهُ بالسهر والحمى » (٤٨) .

إنَّ مشاركة الآخرين بآلامهم يخفف من وطأة الألم عندهم ، ومشاركتهم في أفراحهم يوسع من دائرة السرور ، ويجعله عاماً ، ولعلَّه من هذا المنطلق أكَّد الإسلام على استحباب إدخال السرور على قلوب المؤمنين ، وجعله من أحبِّ الأعمال إلى الله ، يقول رسول الله ﷺ : « من سرَّ مؤمناً فقد سرَّني ، ومن سرَّني فقد سرَّ الله » (٤٩) .

علي بن الحسين عليه السلام يقول : إنَّ الله يحبُّ كلَّ قلب حزين ، ويحبُّ كلَّ عبد شكور ، يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبده يوم القيامة : أشكرت فلاناً ؟ فيقول : بل شكرتُك يا ربِّ ، فيقول : لم تشكرني إذ لم تشكره ، ثم قال : أشكركم لله أشكركم للناس » (٤٥) .

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : « من لم يشكر الإنعام فليعدَّ من الأنعام » (٤٦) .

إنَّ شكر المحسن على إحسانه اعتراف له بالجميل على أعماله ، وهذا دافع مهمُّ من الدوافع التي تدفع الإنسان إلى عمل المزيد من الإحسان ، وأساس مهمُّ من أسس تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس ؛ لأنَّ الشكر يشدُّ الإنسان إلى أخيه ويربط بين قلوبهما .

ب- المشاركة الوجدانية :

قلنا : إنَّ الجنبه العاطفية في الإنسان واسعة جداً ، وتمتدُّ إلى مختلف المجالات ، ولذا فإنَّ مشاركة الآخرين بأفراحهم وأتراحهم يشعروهم بمكانتهم عند المشارك لهم ، ومن هنا فإنَّ من العوامل المؤثرة في التجاذب الاجتماعي أن نشارك

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : « لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط ، بل والله علينا ، بل والله على رسول الله ﷺ » (٥٠) .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحبُّ الأعمال إلى الله سرور [الذي] تدخله على المؤمن ، تطرد عنه جوعته ، أو تكشف عنه كربه » (٥١) .

وهكذا مشاركتهم في آلامهم وأحزانهم وتفريج الشدائد عنهم له الدور نفسه ، وهذه المشاركة قد تتحقق بكلمة أو موقف ، أو معونة ، أو دعة ، كل ذلك له دور كبير في تخفيف حدة اللوعة والألم ؛ لأنَّ المصاب عندما يجد من يشاركه في مصابه تخفّ مصيبته .

والمشاركة الوجدانية حالة إنسانية يتجاوز فيها المرء ذاته ، ويعبر إلى المحيط الاجتماعي الرحب ، فيُذَوِّبُ (الأنا) ويبرز ضمير (نحن) ، يقول العاليلي : « فهذا الشعور في حدوده تستوي عليه الإنسانية في حدودها . فإنّه لولا المشاركة الوجدانية التي تخفّف من حدة أنانيّته الجارفة ، لكان الإنسان أسوأ أثراً من أيّ حيوان ، وهو بين

الأنانيّة والغيريّة في متجاذب شديد من الشرّ والخير ، والباطل والحقّ ، إذا انتصر أحد الشعورين تبعه لازمه بدون تخلف أو انفكاك . ولن تجد رجلاً فاضلاً أو مدلاً بخليفة إلا وعنده أوفى قسط من هذا الشعور السامي .

وأنا لا أفهم فرقاً بين الإنسانية والغيريّة - مشاركة الناس في شعورهم - ولعلّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي أقام كلّ تعاليمه الروحيّة والزميّة على أساس من هذا الشعور ، وزاد مبالغة في اعتداده أنّه جعله قاعدة الإيمان » (٥٢) .

إذن فالمشاركة الوجدانية تقارب النفوس ، وتمازج القلوب ، وبها تتناغم الأرواح من خلال الشعور المشترك بين الإنسان والإنسان ، فهي إذن عامل مهمّ ووسيلة فعّالة في توثيق العلاقات الاجتماعيّة .

ج- الاهتمام بالناس :

الاهتمام بالناس كلمة جامعة لكلّ أنواع الرعاية الإنسانية تشمل : الاحترام والتقدير ، والعون ، والتعاون ، وقضاء الحاجات ، وهذا العامل من أهمّ العوامل

عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه (٥٥) .

وهذه الأخلاق العظيمة كانت على حدّ سواء مع كل الناس : الفقير ، والغني ، والقوي ، والضعيف ، والشريف ، والوضيع ، ومن هنا كانت قريش تُحذّر من الالتقاء به خوفاً من تأثيره ، وأما في مجالسه فقد كان يقسم لحظاته بين جلسائه حتى لا يحسب أحداً أنّ أحداً أكرم منه عليه .

تلك هي أخلاق الرسالة في الاهتمام بالناس ؛ ذلك لأنّ الاهتمام بهم يفتح قلوبهم إلى من يهتم بهم ، ومن حقائق الطبيعة البشرية السليمة أنّ الإنسان دائماً يفتش عن يجد نفسه في قلبه ووجدانه .

بقي علينا أن نشير أنّ الاهتمام المؤثر بالناس هو ما كان مجرداً عن المصالح الذاتية ، والمطالب الشخصية ، فالخدمة التي تقدّمها ، والاحترام الذي تبديه ، والخلق الفاضل الذي تتعامل به لا يكون مؤثراً إذا كان يخفي وراءه مصلحة ، أو مطلباً ذاتياً ، وإنّما المؤثر ما كان نابعاً عن صدق ، وإخلاص ، وسلامة طوية ، مجرداً

التي تجذب القلوب ، وتسحر النفوس ، يقول ديل كارنيجي : « وقد وجدت بالتجربة أن في وسع المرء أن يفوز باهتمام أرفع الناس قدراً ، وأعظمهم درجة لو أنّه أبدى بهم اهتماماً » (٥٦) .

وليس الاهتمام بالمرء عامل جذب له وحسب ، وإنّما هو عامل دفع كبير لتقديم الخدمات الاجتماعية بطيب نفس وارتياح ، يقول الكاتب الإسلامي السيد مجتبي اللاري : « وإنّ للتقدير من الأثر والفعالية العجيبة ما يمكنه أن يمنح المجتمع الذي يغطّ في سبات : حياةً جديدةً ، وأن يحرك عجلاته لنشاطات حيوية حديثة أخرى ، مع أنّ التقدير يعدّ أبسط دواء لأدواء الفرد والمجتمع » (٥٧) .

وأفضل دليل على أهمية هذا العامل هو أخلاق الرسالة الإسلامية التي برزت بشكل واضح لجميع الناس في سيرة رسول الله ﷺ ؛ فقد كان يبدي الاحترام والتقدير لكلّ من يجالسه ويلتقيه ، فقد روى لنا التاريخ أنّه ﷺ كان (إذا استقبله الرجل ، فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع ، ولا يصرف وجهه

فردين ، أو جماعتين تتأثر تأثراً سلبياً أو إيجابياً بمستوى القرب ، أو البعد عن تلك المفردات ، وبعبارة أخرى : إنَّ تكوين العلاقات يتأثر بمدى المساس والاستهانة بها ، أو بمدى المداواة والرعاية لها ؛ لأنَّ كلَّ إنسان يريد المحافظة والاحترام لأفكاره ، وعقائده ، وعاداته ، وتقاليده ، وهذا ما تقتقر إليه العلاقة مع الأشياء ؛ ولهذا فمن الحكمة إذا أراد الإنسان أن يبنى علاقاته مع الآخرين فعليه أن يراعي تلك الأمور ، ويتحاشى المساس بها ، وحتى عملية التغيير للفاسد منها يجب أن يتم وفق برنامج تدريجيّ مدروس ؛ لئلا يصطدم بها بصورة مفاجئة ، ويغلق القلوب بوجهه لأوّل وهلة .

وقد نبّه إلى ذلك الإمام السجاد عليه السلام في حديثه مع الزهري بقوله : « وإياك أن تتكلّم بما يسبق إلى القلوب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره ، فليس كلّ من تُسمعه شراً يمكنك أن توسعه عذراً » ^(٥٩) .

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : « خالطوا الناس بما يعرفون ، ودعوهم مما ينكرون ، ولا تُحمّلوهم على أنفسهم وعلينا ؛ فإنَّ

لله وفي سبيل الله تعالى ، وما أجمل ما يقوله الخبير الاجتماعيّ دل كارنيجي : « إذا نحن أردنا أن نكتسب أصدقاء ، فلنضع أنفسنا في خدمة غيرنا من الناس ، ولنمدّ لهم يداً مخلصة نافعة ، مجردة عن الأنانية والمصلحة الذاتية » ^(٥٦) .

والخلاصة :

إنَّ من اهتمَّ بالناس كسب محبّتهم ، ومن احترمهم احترمهم ، ومن أكرمهم أكرمهم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « من استهان بالرجال قلَّ » ^(٥٧) و « من اهتمَّ بك فهو صديقك » ^(٥٨) .

الآداب الإسلامية في العلاقات الاجتماعية :

إنَّ التعامل مع الإنسان يختلف اختلافاً كبيراً عن التعامل مع الأشياء ؛ فالنفس الإنسانية خزين واسع من الإدراكات ، والعواطف ، والأحاسيس ، والمشاعر ، والأمزجة ... إضافة إلى ما اعتادت عليه من العقائد ، والأفكار والعادات ، والتقاليد ، والأعراف ... فكلُّ واحدة من هذه المفردات تأثير على التعامل ؛ ولذا فإنَّ الروابط الاجتماعية بين

أمرنا صعب مستصعب» (٦٠).

بالقوة ، فإنَّ التحديَّ والإكراه ، يغلق القلوب ، ويخلق الأعداء ، ولتحاشي ذلك فقد وضع الإسلام آداباً وسنناً ، ورسم لها طرقاً أو أساليب توافق الفطرة ، وتجذب الإنسان ، راعى فيها جميع الجوانب العاطفية ، والفكرية ، والسلوكية ، كما راعى فيها مداراة الناس بدقة ؛ لتكون خطوات تمهيدية لعملية التغيير الاجتماعي .

ومن هذه الآداب والسنن :

أ- الإحسان :

قال الراغب الأصفهاني : « الحُسْنُ عبارة عن كلِّ مُبْهَجٍ مرغوب فيه ، وذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ، ومستحسن من جهة الهوى ، ومستحسن من جهة الحس . والحسنة يُعَبَّرُ بها عن كلِّ ما يسرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه ، وبدنه ، وأحواله ، والسَّيِّئَةُ تضادُّها » (٦١) .

إحدى المعالم الإسلامية في بناء العلاقات الاجتماعية هو مَعْلَمُ الإحسان ؛ لأنَّ الإحسان مطلوب لنفسه ، ومحبوب لذاته ، يقول رسول الله ﷺ : « جُبِلَتْ

ويقول الإمام الرضا عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن : « يا يونس ، حدث الناس بما يعرفون ، واتركهم مما لا يعرفون » (٦١) .

وليس معنى هذا أن يسكت الإنسان عن كلِّ أمرٍ قبيح يخالف الدين ، والعقل ، والمنطق لأجل أن تكون علاقته طيبة مع المرتكب لها ، ولكن المقصود من ذلك : إنَّ أسلوب التغيير ينبغي أن يكون حكيماً وسليماً ؛ ليقع موقع القبول ، ولهذا ينبغي أن لا يتسرَّع الإنسان بطرح مفاهيم تصطدم بما اعتاد الناس عليه ، فتواجه إعراضاً وصدوداً ومقاومة ، ومن أجل ذلك وجدنا أنَّ سيرَ الحركة الرسالية على عهد رسول الله ﷺ كانت تتبَّع الأسلوب التدريجي والمرحلي في تغيير العادات ، والمفاهيم ، والعقائد ، فلم تُحرِّم الخمر للوهلة الأولى ، وإنما مرَّ التحريم بمراحل جعلت الحكم مقبولاً .

إنَّ الطبيعة البشرية لا تقبل التغيير حتى تقتنع بجذواه ؛ ولذلك لا بدَّ أن يتجنَّب المُغيِّرُ الرسالي أسلوب التحدي والإكراه ، وفرض الرأي على الآخرين

المَعْلَم حتى في الهجران الذي يوحى
بالقطيعة ، فحتّى المقاطعة للآخرين
وهجرانهم ينبغي أن يكون جميلاً :
﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾^(٦٧) .

إذن الإسلام دين الإحسان ؛ لأنّه دين
الفطرة ، ولأنّ القلوب تحبّ المحسنين ،
وتقبل عليهم كما تقدّم في الأحاديث
السابقة ، وإضافة إلى ما تقدّم من أحاديث
فقد وردت أحاديث أخرى تؤكّد ما تقدّم ،
وتحتّ على بذل الإحسان إلى كلّ الناس ؛
لأنّه أدعى وأكّد على ترابط القلوب
وتآلفها ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام :
« وأحسن إلى جميع الناس كما تحب أن
يُحسنَ إليك »^(٦٨) .

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : « وأحسن
فإنّي لم أر شيئاً أشدّ طلباً ، ولا أسرع دركاً
من حسنة لذنّب قديم ، إنّ الله عزّ وجلّ
يقول : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ
ذُكِّرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾^(٦٩) »^(٧٠) .

وأصرح من ذلك كلّ الأمر الصريح في
قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾^(٧١) .

وقد فسّر أمير المؤمنين عليه السلام الإحسان

القلوب على حبّ من أحسن إليها ، وبغض
من أساء إليها »^(٦٣) .

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام :

« بالإحسانِ تُمَلِّكُ القلوبُ » .

« بالإحسانِ يُمَلِّكُ الأحرارُ » .

« عنوانُ التَّبَلُّ الإحسانُ إلى
النَّاسِ » .

« سببُ المحبَّةِ الإحسانُ » .

« من كثر إحسانه أحبّه إخوانه »^(٦٤) .

« من حسن كلامه كان النُّجْحُ
أَمَامَهُ »^(٦٥) .

والإحسان معنى جامع لجميع معالم
الخير ، فلا ينحصر في جانب واحد من
العطاء الماديّ أو المعنويّ ، وإنّما كلّ ما
يدخل السّرور إلى القلب من أفعال الخير
فهو إحسان ، فعن أمير المؤمنين عليه السلام :
« كُلُّ مَعْرُوفٍ إِحْسَانٌ »^(٦٦) كلمة طيّبة ،
ابتسامة هادئة صادقة ، معونة كريمة ، ربتّه
على الكتف حانية ، إرشاد ونصيحة
شفيقة ، كلّ ذلك إحسان لا يستهان به ،
وهو طريق الإنسان إلى القلوب ، فالإسلام
أراد لأتباعه أن يكونوا محسنين في القول ،
والفعل ، ولا يحقّ لمسلم أن يتجاوز هذا

من قطعك ، والإحسان إلى من أساء إليك ، وإعطاء من حرمك » (٧٤) .

إِنَّ الإِقْبَالَ وَالانْفِتَاحَ عَلَى اللَّهِ يَفْتَحُ قُلُوبَ الْآخَرِينَ ، وَيَجْعَلُهَا مَنَاقِدَ لِلدَّاعِي إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٧٥) .

نعم يجعل للصادقين مع الله : الودّ ، والرحمة في قلوب عباد الله الصالحين ؛ لِأَنَّهُمْ يَجَسَّدُونَ الْأَخْلَاقَ الرِّسَالِيَّةَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَفَرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ الْعِبَادِ مَنَاقِدَ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ أَسْرَعَ » (٧٦) .

ثُمَّ إِنَّ الْإِحْسَانَ سَبِيلٌ عَظِيمٌ مِنْ سَبِيلِ الْإِصْلَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِهِ ؛ مَعَ الْمَوَافِقِ وَالْمُخَالَفِ ، وَمَعَ الصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ ، فَعَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنِّي لِأَسْرَعَ إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ أَعْدَائِي مَخَافَةَ أَنْ أَرُدَّهُمْ فَيَسْتَغْنَوْا عَنِّي » (٧٧) .

وَيَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ : « أَصْلَحَ الْمَسِيءُ بِخُسْنِ فِعَالِكَ ، وَدُلَّ عَلَى الْخَيْرِ

بِالتَّفَضُّلِ ، وَالْإِحْسَانِ الْاجْتِمَاعِيِّ فَرَعَ الْإِحْسَانُ مَعَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَمَنْ حَسَّنَ عِلَاقَتَهُ مَعَ اللَّهِ ، وَأَصْلَحَهَا ، حَسَّنَ اللَّهُ عِلَاقَتَهُ مَعَ النَّاسِ ، يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ : « وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ » (٧٨) ، وَ« مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ » (٧٩) .

وَتَحْسِينُ الْعِلَاقَةِ مَعَ اللَّهِ أَوْ إِصْلَاحُهَا يَعْنِي الْإِلْتِمَازَ الْجَدِّيَّ الصَّادِقَ بِأَوَامِرِهِ ، وَالِاتِّهَاءَ عَنْ نَوَاهِيهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَكُونُ مُطَبَّقًا لِأَحْكَامِ اللَّهِ ، وَمُمْتَثِلًا لِأَوَامِرِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَقُودُهُ لَا مُحَالَ إِلَى حَسَنِ الْعِلَاقَةِ مَعَ النَّاسِ ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ نَفْسُهُ شَفَافَةً رَقِيقَةً تَتَلَقَّى النُّورَ وَتَشَعُّهُ ، وَتَلْكَ هِيَ سِمَاتُ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالتِّي هِيَ مِنْ خَلَائِقِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَادَتِهِ الْإِحْسَانُ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ الْمُحْسِنِ وَالْمَسِيءِ .

وَهَكَذَا فَلْتَكُنْ أَخْلَاقُ دُعَاةِ اللَّهِ تَعَالَى ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَأَنْ تَصِلَ

بجميل مقالك «^(٧٨)» .

« أشعر قلبك الرحمة لجميع الناس ،
والإحسان إليهم ، ولا تُنلهم حيفاً ، ولا
تكن عليهم سيفاً »^(٧٩) .

ومن العجيب أن الإحسان له تأثير
كبير في نفوس الأعداء فضلاً عن
الأخلاء ؛ فإنه يقلب العداء محبة ﴿ اذْفَعُ
بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ
كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٨٠) .

هكذا يدخل الإحسان عامل جذب
وتغيير نفسي ، وقوة مواجهة للأحداث
الصعبة ، والمواقف الحرجة ، (وتصدق
هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من
الحالات ، وينقلب الهياج إلى وداعة ،
والغضب إلى سكينه ، والتبجح إلى حياء ؛
على كلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة
حانية في وجه هائج غاضب ، متبجح
مفلوت الزمام !)^(٨١) .

وما أروع وأجمل ما يصوره أمير البلاغة
والحكمة الإمام علي عليه السلام حيث يقول :
« الاستصلاح للأعداء بحسن المقال ،
وجميل الأفعال أهون من ملاقاتهم
ومغالبتهم بمضيض القتال »^(٨٢) .

إن المؤمن لا يعادي لينتقم ، ولا
يتمادي في الخصومة ، وإنما هدفه وديده
العمل على إصلاح الآخرين ، بل حتى
عدوه ، وهذا هو أدب الإسلام كما ورد عن
أمير المؤمنين عليه السلام عندما سمع أهل العراق
يسبون أهل الشام : « إنني أكره لكم أن
تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم
أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في
القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان
سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا
ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ،
واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق
من جهله ، ويرعوي عن الغي والعدوان من
لهج به »^(٨٣) .

وبما أن العلاقات الاجتماعية في
بعض الأحيان يصيبها الكدر ، والخلل ،
والفتور ، ويتبع ذلك العتاب والحساب هنا
يأتي دور الإحسان ؛ ليكون عامل ربط بعد
قطيعة ، وعامل تصفية بعد كدورة ، يقول
أمير المؤمنين عليه السلام : « عاتب أخاك
بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنعام
عليه »^(٨٤) .

وبهذا السلوك كان أهل بيت العصمة

والغضب ، والتوازن الذي يعرف متى تكون
السماحة ، ومتى يكون الدفع بالحسنى ..
درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان ، فهي
في حاجة إلى الصبر ، وهي كذلك حظ
موهوب يتفضل به الله على عباده الذين
يحاولون فيستحقون : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ ﴾ (٨٦) .. (٨٧) .

ولعظمة هذه الصفة ترى الإمام
السجاد عليه السلام يتضرع إلى الله أن يعينه على
اكتسابها ، ويتوسل إليه تعالى بكلمات
تفيض صدقاً ، وخشوعاً ، وضراعةً ،
فيقول : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ،
وَسَدِّدْنِي لِأَنْ أَعَارِضَ مِنْ غَشْنِي بِالنَّصْحِ ،
وَأَجْزِي مِنْ هَجْرَنِي بِالْبَرِّ ، وَأُثِيبَ مِنْ
حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ ، وَأُكَافِيَ مِنْ قَطْعَنِي
بِالصَّلَةِ ، وَأُخَالَفَ مِنْ اغْتَابَنِي إِلَى حَسَنِ
الذِّكْرِ ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ ، وَأَغْضِي عَنْ
السَّيِّئَةِ » (٨٨) .

إذن ردُّ السيئة بالحسنة تحتاج إلى
توفيق ، وتسديد من الله تعالى ، ثم إنَّ
للإحسان أثراً طيبة في القلوب الطاهرة
والفطر السليمة كأثر الماء في الأرض

يقلبون عداوة المناوئين محبة لهم ، فقد
حدَّثنا المؤرخون أنَّ رجلاً من أهل الشام
قال : « دخلت المدينة ، فرأيت رجلاً
راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ، ولا
ثوباً ، ولا سمياً ، ولا دابةً منه ، فمال قلبي
إليه ، فسألت عنه ، ف قيل : هذا الحسن
بن الحسن بن علي ، فامتلاً قلبي له
بغضاً ، وحسدتُ عليه أن يكون له ابن
مثله ، فصرتُ إليه ، وقلت له : أنت ابن
أبي طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت :
فبك وبأبيك ! فلما انقضى كلامي قال :
أحسبك غريباً ؟ قلت : أجل ، قال : فمِلْ
بنا ، فإن احتجت إلى منزل أنزلناك ، أو
إلى مال واسيناك ، أو إلى حاجة عاوناك .
فانصرف عنه وما على الأرض أحد أحبُّ
إليَّ منه » (٨٩) .

إنَّ السلوك المتسامي على الصغائر
وسفاسف الأمور لا بدَّ له من قلب طافح
بالإيمان ، وأفقٍ واسع ينظر الأمور من
جميع جوانبها ، ويحسب لكل كلمة ، أو
خطوة ، أو موقف ألف حساب ، متوكلاً
على الله ، طالباً رضاه لا غير ، (وهذه
الدرجة ، درجة دفع السيئة بالحسنة ،
والسماحة التي تستعلي على دفعات الغيظ

والميزان في القول الحسن هو ميزان
الفطرة السليمة فالإنسان بفطرته يحب أن
يسمع الكلمة الحسنة الجميلة ، من هذا
المنطلق يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « ولا
تقل ما لا تحب أن يقال لك » ^(٩٢) .

ويقول الإمام الباقر عليه السلام : « قولوا
للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم ،
فإن الله عز وجل يبغض اللعان السباب
الطعان على المؤمنين الفاحش
المتفحش ، السائل الملحف ، ويحب
الحيي الحليم ، العفيف المتعفف » ^(٩٣) .

إنَّ الكلمة الطيبة دواء القلوب ،
ومفتاح مغاليقها ، ولذلك على من أراد أن
يبنى علاقاته مع الناس أن يتأمل في كل
كلمة يريد أن يقولها ، ويختار كلماته بعناية
ودقة مراعيًا فيها المقام ، والمشاعر ،
والأمزجة ؛ لتكون موضع قبول ، وأجمل
وأحكم ما قيل في هذا الجانب ما قاله
الإمام السجاد عليه السلام للزهري : « احفظ
عليك لسانك تملك به إخوانك » ^(٩٤) .

وهكذا تبقى الكلمة الطيبة ﴿ كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ * تُؤْتِي
أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿ ^(٩٥) .

الخصبة حيث يخرج الأزهار والأوراد ،
ويعطي الأرض رونقاً جميلاً تسر الناظرين ،
وهكذا الإحسان يترك أثراً طيباً في وجدان
الإنسان لا يمحي ولا يزول ، يقول أمير
المؤمنين عليه السلام : « خالطوا الناس مخالطة
إن متّم معها بكوا عليكم ، وإن غبتهم حنّوا
إليكم » ^(٨٩) .

ومن الإحسان الكلمة الطيبة ، وهي
التي تؤدّي بصدق ، ودفع ، وإخلاص ،
ومرونة ، وبلاغة تهزّ المشاعر ، وتثير
العواطف النبيلة ، وتجذب القلوب ، وتؤلف
بينها ؛ ولهذا أمر الله تعالى عباده ألا يقولوا
إلا الحسن ؛ ولا يتلفظوا إلا بالطيب من
القول : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ ﴾ ^(٩٠) * (على وجه الإطلاق
وفي كل مجال . فيختاروا أحسن ما يقال ؛
ليقولوه .. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان
ما بينهم من مودة . فالشيطان ينزغ بين
الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت ، وبالزّد
السيئ يتلوها ، فإذا جوّ الودّ ، والمحبة ،
والوفاق مشوب بالخلاف ، ثم بالجفوة ، ثم
بالعداء . والكلمة الطيبة تأسو جراح
القلوب ، وتندّي جفافها ، وتجمعها على
الودّ الكريم) ^(٩١) .

وعلاقات القلوب هي أقوى وأمتن العلاقات الإنسانية ، فالجماعة المؤتلفة قلوبها على حبّ الله تعالى لا يمكن أن تختلف أو تتفرّق ، أو يقع بينهما التنافر على مصالح معيّنة ، بل كلّ المصالح تذوب عندما يكون الحبّ صادقاً ، وتزول كلّ الفوارق العرقية ، أو الوطنية ، أو الاقتصادية ، وتلك هي سمة الجماعة المؤمنة المعتمنة بحبل الله المجتمعة على حبّ الله تعالى ، ومن هنا رأينا أنّ هذا الحبّ هو الذي أزال كلّ الأحقاد والفوارق في عصر انبثاق الرسالة ، وآلف بين أبناء أمة كانت تتقاذفها أعاصير الجاهلية : فوارق طبقية ، وعرقية ، وعشائرية ، وفكرية ، فصهرها الحبّ الإلهي ، وأخرج منها خير أمة عرفها التاريخ البشري جمعت بين بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، وعلي بن أبي طالب القرشي ، وبهذا منّ الله على تلك الأمة التي وصفها بأنّها على شفير الهاوية ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ (٩٧) .

ولا يعني ذلك أنّ المحسن يكفي بالكلمة الطيبة كشعار مجرّد ، وإنّما الكلمة المؤثرة هي التي تسيل من فيض القلوب نبعا صافيا ، فمهما كانت الكلمة بليغة وليّنة لا تؤدّي دورها إذا لم تكن نابعة من قلب صادق حنون ، وأخيراً الإحسان ليس شعاراً تلوكه الألسن إنّما يشمل جلب المنافع ودفع المضار ، والإعانة بالنفس والمال ، بل بكلّ شيء قدر إمكان المحسن ، يقول المحدث الشيخ حسين النوري : « إنّ الإحسان إلى المؤمن إما بسوق نفع إليه ، أو بدفع ضرر عنه ، وكلّ واحد منهما إما أن يتعلق بدينه ، أو بعقله ، أو بجسده ، أو بعرضه ، أو بماله ، ولإصلاح هذه الخمسة بعثت الرّسل ، وشرّع الدين ، وقرّرت الحدود والموازن » (٩٦) .

ب. التودّد إلى الناس :

إنّ أفضل رابط يؤلّف بين القلوب ، ويجمعها على أمر واحد ، ويحرّكها نحو هدف واحد هو (الحبّ) ، وهو حالة نفسية ، وروحية ، ووجدانية ، تمزج نفسيين في قالب واحد ، وتصهرهما حتى تعودا ، وكأنّهما كيان واحد .

فإذا كان لفظ (الودود) من أسمائه تعالى ، ومن صفاته ، والله يتودّد إلى عباده بالنعم والإحسان ، ويغفر ذلّاتهم ، ويتوب عليهم ، ويتجاوز عن معاصيهم ، ويحبّ طاعتهم ، وهو غنيّ عنهم كما ورد في دعاء أبي حمزة عن السجّاد عليه السلام : « والحمد لله الذي تحبّب إليّ ، وهو غنيّ عنيّ ، والحمد لله الذي يحلم عنيّ حتّى كأنّي لا ذنب لي » (١٠٢) .

إنّ التحبّب والتودّد مع القدرة على البطش والتعذيب بل الإهلاك من أخلاق الله تعالى وسماته ، وهذا له دلالة رسالية عظيمة تدلّ على أنّ الله تعالى عندما يتحبّب إلى عباده بالنعم والإحسان والغفران مع أنّه غنيّ عن طاعتهم ، وأمنّ من شرور معاصيهم ، يريد بذلك إصلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك يشير تعالى أنّه يحبّ : التّوايين ، والمتطهّرين ، والصّابرين ، والشّاكرين والمحسنين ... الخ ، وكلّ ذلك دفع وتشويق للناس ؛ لتحقيق هذه الملكات ؛ لأنّها تنقي القلب ، وتجعله شفافاً لطيفاً يتقبّل النور ويشعّه ، فحينئذٍ يصبح مصباحاً منيراً يمزّق ظلام التّفوس ، ويفتح مغاليق القلوب ،

وهنا إشارة إلى (ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وبها كانوا يؤثرون بعضهم بعضاً بالشّيء على نفسه ، وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشّيء بعد ما كان بينهم في الجاهليّة من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته للجماهير ، وفي تفاصيله الغريبة للمطلّعين على أخبارهم المرويّة والمدوّنة) (٩٨) .

ويمكننا أن نتعرّف على قيمة الحبّ والودّ إذا عرفنا أنّ الله تعالى وصف نفسه به ، فسمّى نفسه بـ (الودود) فهو اسم من أسمائه الحسنی ، ولكلّ منها دلالة كبيرة ، وبعد اجتماعي رساليّ ، يقول تعالى :

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٩٩) .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (١٠٠) .

(فالله تعالى مودودٌ : أي محبوب في قلوب أوليائه ، أو هو فعول بمعنى فاعل : أي أنّه يحبّ عباده الصّالحين ، بمعنى أنّه يرضى عنهم) (١٠١) .

وليس به ، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله ، وتوالي أولياء الله ، والتبري من أعداء الله « (١٠٥) .

تلك قيمة الحب الصادق ، ومما لا ريب فيه : لا يكون الحب صادقاً بين أي جماعة أو أفراد ما لم يكن مجرداً عن المصالح الذاتية ، وهذا معنى كونه لله تعالى ، فعندما يكون الحب مجرداً عن أي هدف مادي أو معنوي ذاتي فإنه سيكون لله تعالى .

إنَّ المؤمن عندما يتحبَّب إلى النَّاس ، لا يعني أن ينطلق من جبهة ضعف ، أو هوان ، أو مَلَقٍ لأجل التقرب لئيل مطلب نفسي دنيوي ، وإنما ينطلق من روح إلهية تهدف إصلاح الناس لأجل سعادتهم ونجاتهم .

إذن التودد إلى الناس هو سبيل من سبل التغيير والإصلاح الاجتماعي ، وهو حركة واعية وهادفة لمد الجسور النفسية مع الناس ، وفتح قنوات الاتصال النفسية والفكرية معهم لغرض تثقيفهم وتوعيتهم بتوجيه أنظارهم إلى أسرار الكون والحياة ؛ لتغيير أوضاعهم النفسية ، والفكرية ،

ويعبَّد الطريق إلى الله أمام الخلق ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

وكما أنَّ الحب يربط العبد بربه ، ويقربه إليه - بل هو أسمى حالات القرب - كذلك يربط بين أبناء المجتمع ، ويشد بعضهم لبعضهم الآخر بأقوى وأسمى الروابط ، ومن هنا جعل الحب في بعض الروايات هو الإيمان أو الدين ؛ فعن الفضيل بن يسار قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحب والبغض ، أمِنَ الإيمان هو ؟ فقال : وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا هذه الآية ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (١٠٣) » (١٠٤) .

وفي رواية أخرى بأنه أعظم شعب الإيمان ، وأوثق عُراه ؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أيُّ عرى الإيمان أوثق ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، وقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ، وقال بعضهم : الحج والعمرة ، وقال بعضهم : الجهاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل ما قلتم فضل ،

مَشَبَّاتُ المودَّة:

للحبِّ درجات متفاوتة قد ترتفع وقد تنخفض حسب المؤثرات الخارجيّة ، أو المشاعر الداخليّة ، وقد يثبت الحب في القلب ويرسخ ، فحينئذ لا تزعزعه العواصف مهما عتت ، وقد يكون متزلزلاً يزول بأدنى مؤثر ، وهنا نريد أن نتحدث عما يُثَبَّتُ المودّة ، ويرسَخ أواصرها بين الأفراد أو بين الجماعات ؛ لتكون الروابط متينة قويّة ، وتكون الجماعة متألّفة ، متراحمة ، ومتعاطفة حتى تعود وكأنّها جسد واحد .

فما هي تلك العوامل والمؤثرات التي تؤدّي إلى ترسيخ شجرة المودّة في العلاقات الاجتماعيّة ؟

والجواب عن ذلك : إنّنا عندما نستقري الروايات والأحاديث الشريفة نجد أنّها أوضحت أهمّ المؤثرات والعوامل في ذلك كما أنّ الدراسات النفسيّة والاجتماعيّة أيضاً توصّلت بعد دراسات تجريبيّة كثيرة إلى بعض ما بيّنه أعظم خبراء النفس الإنسانيّة ، وهم أهل بيت العصمة ، ومن تلك العوامل :

والأخلاقيّة ، ويعتمد ذلك على الانفتاح النفسي والفكريّ على الناس بصورة عامة مع مراعاة الأولويّات الأهمّ ثم المهمّ ، وهذا هدف إسلاميّ مهمّ ، وما لم يصل الإنسان إلى القلب ، وبهزّ أوتاره لا يمكن أن يحدث فيه تغييراً أبداً ، وما لم توجد الروابط القليبيّة لا يمكن أن تتماسك الجماعة تماسكاً صحيحاً ؛ فإنّ الأفكار لا تزرع في قلوب قاحلة من الحبّ والوداد .

ومن أجل هذا الهدف السامي نجد أنّ أحاديث أهل بيت العصمة تؤكّد على التودّد إلى الناس ، وعدّته نصف العقل ، يقول رسول الله ﷺ : « التودّد إلى الناس نصف العقل » ^(١٠٦) .

وعن أحد الصادقين قال : « إنّ أعرابياً من بني تميم أتى النبي ﷺ فقال له : أوصني ، فكان مما أوصاه : تحبّب إلى الناس يحبّوك » ^(١٠٧) .

وعن الإمام الحسن عليه السلام : « القريب من قريته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من بعدته المودة وإن قرب نسبه » ^(١٠٨) .

وعن الإمام علي عليه السلام : « المودّة قرابة مستفادة » ^(١٠٩) .

أ. اللقاء الطيب الجميل :

وهكذا كانت سيرة أبنائه المعصومين ،
وبهذا أوصوا شيعتهم ، عن الإمام
الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ :
ثلاث يصفين ودَّ المرء لأخيه المسلم :
يلقاه بالبشر إذا لقيه ، ويوسع له في
المجلس إذا جلس إليه ، ويدعوه بأحب
الأسماء إليه » (١١٢) .

وهذه الأمور كلّها تتم في اللقاء ،
وكّلها توحى بالاحترام ، والتقدير والاعتبار
عند أغلب الناس ، كان أرسطو يرى (أن
التصرّف بطريقة ودّية أمر ضروريّ لتحقيق
الاتصال الجيد بين الناس ، كما كان يرى
أنّ الناس لا يستطيعون أن يتعايشوا معاً إلا
إذا احترم كلّ منهم مصالح الآخر) (١١٣) ،
والأصحّ من ذلك لا يمكن أن يتعايشوا إلا
إذا احترم كلّ منهم مشاعر الآخر .

ب. الإخبار عن الحب :

عندما يخبرك شخص بصدق أنّه
يحبّك فهو ينبئ عن حقيقة نفسه ويكشف
مكنوناتها ، وهذا الأمر من دواعي زيادة
المودة وتثبيتها .

فقد (مرّ رجل في المسجد وأبو
جعفر عليه السلام جالس وأبو عبد الله عليه السلام ، فقال له

اللقاء الأول مع أيّ شخص له دور
كبير في تمتين العلاقة معه ، فقد تلتقي
إنساناً يهتمّ بك ، ويحترمك ، ويفيض
عليك من مشاعر الودّ والعطف بدون تكلف
ولا تصنع ما تعجز عن وصفه ، وقد تلتقي
آخر على العكس من ذلك ، فبالوجدان
ندرك الفرق الشاسع بين اللقائين ، فكم
يترك الأول من أثر إيجابيّ طيب في قلبك
قد لا تتساه مدى العمر ، وتأكيذاً لهذه
الحقيقة يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « حسن
اللقاء يزيد في تأكيد الإخاء » (١١٤) .

وأما اللقاء الآخر المتسم بالجفاف
والإهمال فمعلوم كم يترك من أثر سيّء في
النفس يقبضها ، ويكدر صفوها ، ومن هنا
يحدّثنا التاريخ عن القادة الرساليين أنّهم
كانوا يلاقون الناس بالبشر ، والرعاية ،
والاهتمام حتى أصبح هذا السلوك منهجاً
ثابتاً في سيرة الرسول ﷺ ، (إنّ هذا
السلوك المفضل كان من أهمّ عوامل
تقدّمه ونجاحه ، كان الرسول الأعظم ﷺ
يهتمّ بجميع الدقائق النفسيّة للناس في
سبيل احترامهم ، ولم يكن ليتخلّى عن
أبسط الوظائف) (١١٥) .

تناكر منها اختلف كما ورد في الحديث ،
فعن رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَسْكُنُ
إِلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا يَسْكُنُ قَلْبُ الظَّمَانِ إِلَى
الْمَاءِ الْبَارِدِ » (١١٨) .

وفي حديث آخر عن الإمام
الصادق عليه السلام : « إِنَّ سُرْعَةَ ائْتِلَافِ قُلُوبِ
الْأَبْرَارِ إِذَا اتَّقَوْا ، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرُوا التَّوَدُّدَ
بِالْمُسْتَهْتَمِ ، كَسُرْعَةِ اخْتِلَاطِ مَاءِ السَّمَاءِ
بِمَاءِ الْأَنْهَارِ ، وَإِنْ بُعِدَ ائْتِلَافُ قُلُوبِ الْفَجَّارِ
إِذَا اتَّقَوْا ، وَإِنْ أَظْهَرُوا التَّوَدُّدَ بِالْمُسْتَهْتَمِ ،
كَبُعْدِ الْبِهَائِمِ مِنَ التَّعَاطُفِ وَإِنْ طَالَ
اعْتِلَافُهَا عَلَى مِدْوَدٍ وَاحِدٍ » (١١٩) .

ج. التفاهم المتبادل :

كلّ إنسان يحاول أن يفهم الناس ،
ويحب أن تفهمه الناس فهماً إيجابياً ؛
ولهذا من الأمور التي تثبت المودة ، وتنقي
الأجواء ، وتشدّ بعضهم لبعضهم الآخر أن
تشعر المقابل أنّك تفهمه على حقيقته ، ولا
تسيء الظن به ؛ لأنّه (إذا لم يكن هناك
تفاهم متبادل ، ومشاركة في المعاناة لن
تقوم مودة ، وإخلاص ، وثقة متبادلة بين
أفراد هذه المجموعات) (١٢٠) .

من هنا فإنّ الإنسان بفطرته إذا شعر أنّ

بعض جلسائه : والله إنّني لأحبّ هذا
الرجل ، قال له أبو جعفر عليه السلام : ألا فأعلمه
فإنّه أبقى للمودة وخير في الإلفة) (١١٤) .

وقال الصادق عليه السلام : « إِذَا أَحْبَبْتَ رَجُلًا
فَأَخْبِرْهُ » (١١٥) .

وعن رسول الله ﷺ : « إِذَا أَحْبَبَّ
أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُعَلِّمْهُ فَإِنَّهُ أَصْلَحَ لِدَاتِ
الْبَيْنِ » (١١٦) .

يقول الفيض الكاشاني : « وَإِنَّمَا أُمِرَ
بِالْأَخْبَارِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ زِيَادَةَ حُبِّ ، فَإِنْ
عَرَفَ أَنَّكَ تَحِبُّهُ أَحَبَّكَ بِالطَّبْعِ لَا مُحَالَةً ،
فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّهُ أَيْضًا يُحِبُّكَ زَادَ حُبُّكَ لَا
مُحَالَةً ، فَلَا يَزَالُ الْحُبُّ يَتَزَايَدُ مِنَ
الْجَانِبَيْنِ وَيَتَضَاعَفُ ، وَالتَّحَابُّ بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ مَطْلُوبٌ فِي الشَّرْعِ ، وَمَحْبُوبٌ
فِي الدِّينِ » (١١٧) .

وهذه حقيقة نفسية ؛ فإنّ النفوس
تتناغم فيما بينها ، فإذا أحسّ بوجوده في
قلب صاحبه دخل هو في قلبه ، وهذه
القاعدة غير مطّردة في كلّ الحالات ، فقد
ترى شخصاً ، وتميل إليه ، وتحبّه من دون
معرفة به ، وهذا من خصائص الأرواح ؛
فإنّها جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما

يديه من مال أو عقار أو أشياء ، ولا يحب أن يزاحمه فيها أحد أو يشاركه فيها مشارك فهو ﴿ حُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾^(١٢٢) ، ويحب المال حباً جماً ، وعلى كل حال فالنفس الإنسانية شحيحة بما تملك ، وأبغض شيء إليها سلب تلك الملكية منها بلا عوض مادي ولا معنوي إلا نفوس زكت وتعالى عن عالم الماديات ، وأصبحت متعلقة بعالم القدس والرضوان لا تبغي عنه بدلاً ، وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر .

وبناء على تلك الطبيعة على من أراد أن يبنى علاقات سليمة مع الناس ، ويكون مرغوباً فيه أن يترفع عن مدّ عينيه إلى ما يملكون فضلاً من مدّ يديه إليها ، وقد ورد النهي صريحاً في القرآن الكريم عن مدّ العين إلى ما في حوزة الناس من مال ، أو أزواج ، أو أشياء ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَمْدَنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَىٰ ﴾^(١٢٣) .

ومن الحقائق النفسية الثابتة أن التطلع إلى ما في أيدي الناس لا يزيد المتطلع إلا همماً ، وحسرة ، ويعكّر صفوة حياته ، يقول

الناس تفهم تصرفاته على أحسن وجه ، وتحسن الظنّ به ؛ فإنّ انشداده وتألفه إليهم سيزداد ، وإبداعه في خدمتهم سيتوسّع فلنبد للناس حسن الظنّ بهم ؛ فإنّ ذلك داعية لدفعهم إلى الإصلاح والخير ، يقول هنري فورد : « إذا كان هناك سرٌّ واحدٌ للنجاح ، فذلك هو المقدرة على إدراك وجهة نظر الشخص الآخر ، والنظر إلى الأشياء بالمنظار الذي ينظر به إليها »^(١٢٤) .

ولفهم وجهة نظر الشخص فوائده الجمة منها : أنّها تكشف عن مكان نفسه ومقاصدها ، ومعلوم إذا فهم الإنسان مكان نفسه صاحبه عرف من أين يدخل إليه ؛ فمن فهم المقصد فقد قطع نصف الطريق ، فإنّ الطبيب لا يستطيع أن يعطي الدواء إذا لم يشخص الداء ، إذن من الضروري جداً أننا يجب أن نفهم وجهة نظر الشخص بالاستماع والإصغاء الجيد إليه قبل أن نحكم عليه أو نبدي وجهة نظر إليه ؛ لنعرف كيف نضعه على جادة الحق والصواب .

د- الاستغناء عما في أيدي الناس :

الإنسان بطبيعته الأوليّة يحب ما في

الماديّة ، وهذا هو منتهى العزّة والشرف للإنسان عند الله ، وعند الناس ، أما عند الله فإنّ الله يحبّ من يدعوه ، ويتوسّل إليه بضراعة طمعاً بما عنده من الخيرات ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : « أَوَّلُ الإِخْلَاصِ الْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » (١٢٦) .

وأما عند النَّاسِ فإنَّهم يحبون من يستغني عنهم ، ولا يمدّ يده إليهم ، يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) : « واعلم أنّ أكرم النَّاسِ على النَّاسِ من كان خيره فائضاً عليهم ، وكان عنهم مستغنياً متعقفاً ، وأكرم النَّاسِ بعده عليهم من كان عنهم متعقفاً ، وإن كان إليهم محتاجاً ، فإنَّما أهل الدُّنيا يعشقون الأموال ، فمن لم يزاحمهم فيما يعشقونه كرم عليهم ، ومن لم يزاحمهم فيها ، ومكّنهم منها ، أو من بعضها كان أعزّ وأكرم » (١٢٧) .

والإسلام يأبى للمؤمن أن يذلّ نفسه ، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : « طلب الحوائج إلى النَّاسِ استلاب للعزّ ، ومذهبة للحياء ، واليأس ممّا في أيدي النَّاسِ عزٌّ للمؤمن في دينه ، والطمع هو الفقر الحاضر » (١٢٨) .

ولا يعني الاستغناء هو الاستعلاء ، وإنَّما

رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « من لم يتعزّ بعزاء الله تقطّعت نفسه حشرات على الدنيا ، ومن أتبع بصره ما في أيدي النَّاسِ كثر همّه ، ولم يشفِ غيظه ، ومن لم يرَ لله عزّ وجلّ عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، أو ملبس فقد قصر عمله ، ودنا عذابه » (١٢٩) .

إذن التطلّع إلى ما في أيدي النَّاسِ ضرر نفسيّ على الإنسان ؛ لأنّه يزيد من همومه وقلقه ، ويجعله في غضب دائم على النَّاسِ بلا ذنب جَنَوْهُ تجاهه ، وهذا يزيد من عزلته النفسيّة عن النَّاسِ ، وأما عندما يزهد وترفع عن النظر إلى ما في أيدي النَّاسِ من حطام ، أو ينظر إليهم بعين الرضا والغبطة والارتياح فإنّ ذلك يكون سبباً إلى هدوئه النفسيّ ، هذا من جانب ومن جانب آخر يكون له في قلوب النَّاسِ ودٌّ ، وأروع لوحة رسمها أمير المؤمنين (عليه السلام) لهذه الحقيقة قوله : « الحُظوة عند الخالق بالرّغبة فيما لديه ، [و] الحُظوة عند المخلوق بالرّغبة عمّا في يديه » (١٣٥) .

فالعلاقات الاجتماعيّة تكون سليمة ، وناجحة بمقدار ما تكون مجرّدة عن المصالح الذاتية ، ومتّسمة بالنزاهة ، والعفة ، والتسامي عن طلب الأغراض

ليفتح قلب السامع لحديثه ، فكم من فرق واسع بين البشر وبين العبوس ، فإنَّ الأول يقرب الإنسان إلى الله وإلى الناس ، والثاني لا يزيده إلا مقتاً ، ومن هنا جعلت الابتسامة في ميزان الإسلام ، صدقة حسنة ، وقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد على ذلك وبيّنت عطاءها الاجتماعيَّ الثرّ ، وبمختلف التعبيرات منها : « حباله المودة » ، و « قربة من الله » ، و « موقع القبول » ، و « مظنة لنار المعاندة » ، و « دلالة كرم النفس » ، و « أول العطاء » ، و « أفضل السخاء » ، و « شيمة كلّ حرّ » ، وهي علامة من « علائم النّجاح » ، و « مذهبة للسّخيمة »^(١٣٢) ، و « أحد البشارتين »^(١٣٣) .

فكلّ هذه الأوصاف معبرة عن قيمة نفسيّة كبيرة للبشاشة وطلاقة الوجه وما تتركه من أثر طيّب في نفس الإنسان الذي تلقاه ، ولما كان الإسلام يؤكد على توسيع دائرة المسلم الاجتماعيّة من خلال فتح قنوات الاتّصال بين الأفراد والجماعات ، فقد أكّد عليها أهل بيت العصمة ، وعدّوها أساساً من أسس النّجاح الاجتماعيّ ، وأحد الآداب الاجتماعيّة المهمّة .

بل روي عن رسول الله ﷺ أنّ الابتسامة

المقصود به كما فسّرتّه الأحاديث باليأس عما في أيدي النّاس ، وهو أدقّ تعبير عن الاستغناء ، وفسّرتّه رواية أخرى بقطع الطمع الكلّي عن ممتلكات النّاس ، إذن معنى الاستغناء هو العفّة ، والنّزاهة ، والعزّة النفسيّة ، والحفاظ على الكرامة الإيمانيّة مع التواضع واللين في العلاقات معهم ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : « ليجتمع في قلبك الافتقار إلى النّاس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك ، وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك ، وبقاء عزّك »^(١٣٤) .

هـ - حسن البشر وطلاقة الوجه :

الابتسامة الصّادقة ، الهادئة الدافئة تسرّ القلب ، وتشرح الصدور ، ولا تكلف الإنسان شيئاً ، بل تربحه خيراً كثيراً حيث تدخله تحت شغاف القلوب بلا جواز مرور ، بل هي أجمل هديّة يقدّمها الأخ لأخيه ، وهي صدقة عظيمة لا يستهان بها عند ذوي القلوب السليمة ، يقول الرسول الأعظم (عليه السلام) : « تبسّمك في وجه أخيك صدقة »^(١٣٥) ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ « إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه »^(١٣٦) ؛

ويدخلان النار» ^(١٣٦).

وعن أبي جعفر عليه السلام : « البشر الحسن ، وطلاقة الوجه مكسبة للمحبة ، وقربة من الله عز وجل ، وعبوس الوجه ، وسوء البشر مكسبة للمقت ، وبُعد من الله » ^(١٣٧).

وعنه عليه السلام : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ، فقال : يا رسول الله ، أوصني ، فكان فيما أوصاه أن قال : الق أخاك بوجه منبسط » ^(١٣٨).

ونؤكد مرة أخرى أن الابتسامة المؤثرة هي النابعة من قلب طاهر ، ونفس زكية ، بعيدة عن التكلف ، والتصنع ، والتملق ، طبيعية هادئة ، وإلا ستكون ابتسامة ذئب .

وهناك كثير من مثبتات المودة الأخرى نذكرها على سبيل الإشارة بإيجاز :
أولاً : التزاور : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من زار أخاه في بيته قال الله عز وجل له : أنت ضيفي وزائري ، علي قراك ، وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه » ^(١٣٩).

ثانياً : المصافحة : عن أبي عبد الله عليه السلام : « تصافحوا فإنها تذهب بالسخيمة » ^(١٤٠) ، وعنه عليه السلام قال : « ما

كانت لا تفارقه أبداً ، وحتى في حالة طرح مفاهيم السماء كما تقدّم الحديث ، والسر في ذلك أن التبسم كما أسلفنا يدخل السرور إلى القلب ، وإذا كان القلب منشرحاً فسيكون مهياً لتلقي المفاهيم .

وخلاصة القول : إن الابتشار دعامة من دعائم تكوين العلائق الاجتماعية ، ومثبتة لمودة الأخ في قلب أخيه ، ورد في كتاب فقه الرضا عليه السلام : « واجتهد أن لا تلقى أخاً من إخوانك ، إلا تبسّمت في وجهه ، وضحكت معه في مرضاة الله ، فإنه نروي عن أبي عبد الله عليه السلام ، أنه قال : "من ضحك في وجه أخيه المؤمن ، تواضعاً لله عز وجل ، أدخله الجنة" » ^(١٤١).

وفي هذا المعنى وردت أحاديث كثيرة نذكر منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بني عبد المطلب ، إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر » ^(١٤٢).

وعن الفضيل فيما يرويه عن الباقر أو الصادق عليه السلام : « صنائع المعروف ، وحسن البشر يكسبان المحبة ، ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله

الاعتذار : قال الإمام الصادق عليه السلام : « إذا بلغك عن أخيك شيء فقال : لم أقله ، فاقبل منه ؛ فإن ذلك توبة له » ^(١٤٩) .

وعن محمد بن الفضيل ، عن أبي الحسن موسى عليه السلام ، قال : « قلت له : جُعِلْتُ فداك ، الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه ، فأساله عن ذلك فينكر ذلك ، وقد أخبرني عنه قوم ثقات ، فقال لي : يا محمد ، كَذَّبَ سمعك وبصرك عن أخيك ، فإن شهد عندك خمسون قسامة ، وقال لك قولاً فصدِّقه وكذبهم ، ولا تزيعنَّ عليه شيئاً تشينه به ، وتهدم به مروءته فتكون من الذين قال الله في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ يُشِيعَ الْفَاحِشَةَ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(١٥٠) » ^(١٥١) .

سادساً : ترك المعاتبة : يقول الإمام الهادي عليه السلام : « العتاب مفتاح الثقال ، والعتاب خير من الحقد » ^(١٥٢) .

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : « احمل أخاك على ما فيه ، ولا تكثر العتاب ؛ فإنه يورث الضغينة ، ويجرَّ إلى البغيضة » ^(١٥٣) .

وإذا أراد الإنسان أن يعاتب ، فليجعل

صافح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً قطاً ، فنزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه » ^(١٤١) .

ثالثاً : التهادي أي تقديم الهدية إلى الأخ : ورد في الأحاديث الشريفة : « تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر » ^(١٤٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الهدية تورث المودة ، وتجدد الأخوة ، وتذهب الضغينة » ، « تهادوا تحابوا » ، « نعم الشيء الهدية أمام الحاجة » ^(١٤٣) .

« تهادوا ؛ فإن الهدية تسلِّ السخائم » ^(١٤٤) ، وتجلي ضغائن العداوة والأحقاد » ^(١٤٥) .

« تهادوا تزدادوا حباً » ^(١٤٦) .

« تهادوا ؛ فإن الهدية تذهب السخيمة » ^(١٤٧) .

رابعاً : السعي في قضاء الحاجة للأخ : قال أبو عبد الله عليه السلام : « لأن أمشي في حاجة أخ لي مسلم أحب إليَّ من أن اعتق ألف نسمة وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مسرجة ملجمة » ^(١٤٨) .

خامساً : تصديق الأخوان ، وقبول

عتابه إحساناً ، فهو أفضل أنواع العتاب ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردة شرّه بالإنعام عليه » ^(١٥٤) .

القدرة على الإصغاء :

قيل : إنّ الله خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين ؛ ليسمع أكثر مما يتكلم ، وكما يقول الشاعر صفيّ الدين الحلّي ^(١٥٥) :
[من الكامل]

اسمع مخاطبة الجليس ، ولا تكن

عَجْلاً بنطقك قبلما تتفهّم

لم تعطَ مع أذنيك نطقاً واحداً ،

إلا لتسمع ضعف ما تتكلم

من الآداب الاجتماعية المهمة حسن الاستماع ، وهي خصلة حميدة محبوبة عند جميع العقلاء ، ونعني بحسن الإصغاء : التوجّه الإيجابي إلى ما يُلقى على المرء من كلام دون مقاطعة ، أو تعليق ، أو التفات ، وإمهال المتكلم حتّى ينتهي من كلامه من دون إظهار تعجّب ، ولا طلب إعادة إلا في مواضعهما .

والسرُّ في محبوبيّة هذه السّمة هو :

أنّ كلّ إنسان يمتلك عواطفاً ، وأفكاراً ، ومشاكل ، وأخباراً ، وأهدافاً ... يحب أن يجد من يستمع إليها ، ويشاركه فيها ، ويساعده على حلّ مشاكله ، وتحقيق أهدافه فإذا ما وجد من يستمع إليه بتوجّه سليم ارتاحت نفسه ، وانشرح صدره ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إنّ حسن الإصغاء يدل على أخلاق عالية ، وأدب رفيع ، وهذا أمر جميل ، والجمال محبوب لذاته عند جميع النّاس إلا من سَقَمَ ذوقه .

فوائد حسن الاستماع :

لهذه الصفة الحميدة فوائد نفسيّة ، وفكريّة ، واجتماعيّة ...

أما الفوائد النفسيّة ، فإنّ المتحدث عندما يجد من يصغي له بجّد ، ويشاركه في أفكاره ، أو مشاكله فإنّ ذلك يحقّق له راحة نفسيّة كبيرة ، وأمّا بالنسبة للمستمع فإنّه يُكفَى مؤونة الكلام .

وأما الفوائد الفكريّة ، فإنّ المستمع الجيّد يضيف إلى علمه علماً جديداً ، وأفكاراً جديدة قد يحصل عليها ممن هو أقلّ منه فضلاً عن هو أفضل منه علماً ومعرفة .

وأفعل ما تَجَلَّ قيمتهُ » (١٦٠) .

فإذن يمكن للمستمع أن يفهم المتحدث ، وما تنطوي عليه نفسه من أفكار ، وأهداف ، ومفاهيم ، وفي فهم الشخص المقابل فوائد جمّة لا تعدّ ولا تحصى .

يقول العلامة الطباطبائي : « فالكلام من غير جهة الدلالة اللفظية الوضعية حامل لطبيعة نفس المتكلم من إيمان أو كفر أو غير ذلك » (١٦١) .

ومن الفوائد الاجتماعية أنّ المصغي الجيد يكتسب احتراماً وتقديراً لدى المتكلم ، وبذلك يترك في نفسه أثراً طيباً ، وهذه من أهمّ معطيات حسن الإصغاء .

أذن خير لكم :

برزت هذه الصفة في شخصية رسول الله ﷺ بشكل عُرفَ عند جميع الناس ؛ فقد كان ﷺ (لا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام) (١٦٢) ، وكان ينهي عن مقاطعة المتحدث ، ويقول : « من عرض لأخيه المسلم [المتكلم] في حديثه فكأنما خدش وجهه » (١٦٣) .

وأما الفوائد الاجتماعية ، فإنّ المستمع الواعي يستطيع أن يكتشف شخصية المتحدث من خلال حديثه ، وقسمات وجهه وحركاته ، وما في تلك الشخصية من قوّة ، أو ضعف ، وما تحمل من أفكار وعقائد ، وما تضرر في داخلها من أهداف ، وبذلك يجد مفاتيح الدخول إليها ، فكلام الإنسان يفصح عن باطنه ، وهو كاشف عن مكنونات نفسه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه » (١٥٦) .

وقيل : « العين والوجه واللسان أصحاب أخبار على القلب » (١٥٧) .

وأبلغ كلمة قيلت في هذا الباب ، ونالت إعجاب العلماء ، والأدباء ، والحكماء ، حتى قال فيها ابن أبي الحديد : « هذه إحدى كلماته عليه السلام التي لا قيمة لها ، ولا يقدر قدرها » (١٥٨) ، ما قاله سيد البلغاء وإمام الحكماء علي عليه السلام : « تكلموا تُعرفوا ، فإنّ المرء مخبوءٌ تحت لسانه » (١٥٩) .

ويقول عليه السلام : « المرءُ يوزنُ بقوله ، ويُقوّمُ بفعله ، فقل ما ترجّح زنته (زينته) ،

ويقول ﷺ : « من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه » (١٦٤) .

ولأهمية هذه الخلّة المباركة وخطورتها على المشركين حاولوا أن يجعلوها مثلبة يعيبوا بها رسول الله ﷺ - حتى وصفوه بأنه كله أذن ؛ لأنه كان يقبل على محدّثه بكلّه - لخوفهم من تأثيره العظيم على محدّثه ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أٌذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ (١٦٥) .

وهكذا كانت أخلاق أهل بيته وتعاليمهم لشيعتهم في الحثّ على الاتّصاف بتلك الصفة الحميدة ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا جلست إلى العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلّم حسن الاستماع كما تعلّم حسن القول ، ولا تقطع على حديثه » (١٦٦) .

كما أنّهم جعلوا الاتّصاف بتلك الخليقة دلالة على راحة العقل ، وسموّ الأدب ، وصحّة الرأْي كما سخّص ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١٦٧) .

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : « ثلاثة يستدلّ بها على إصابة الرأْي : حسن اللقاء ، وحسن الاستماع ، وحسن الجواب » (١٦٨) .

وقد تنبّه لهذه الخلطة الحميدة علماء النفس والسياسة والاجتماع ، وقاموا بدراسات تدريبيّة لأتباعهم ، ووضعوا لها أسساً ، وتعاليم ، يقول ديل كارنيجي :

« صرّح "إيزاك ماركسون" بطل العالم في مقابلة مشاهير الناس أنّ : "معظم النّاس يفشلون في طبع أثر طيّب في نفس من يقابلونهم لأول مرة ؛ لأنّهم يهملون الإصغاء باهتمام ! إنّهم يحصرون همّهم في الكلام الذي سيقولونه ، ومن ثم يصمون أذانهم عن الاستماع .. وقد قال لي عظماء النّاس : إنّهم يفضّلون المستمعين الطّيبين على المتكلّمين الطّيبين ، ولكن يبدو أنّ المقدرة على الاستماع أندر من أي صفة طيّبة أخرى !" » (١٦٩) .

كيف تطرد النّاس من حولك :

يعطي كارنيجي « وصفة » يسخر بها

مثلك ، ولا أريباً ، فلماذا تضيع وقتك في الاستماع إلى حديثه السخيف ؟ ! اقتحم عليه الحديث ، واعترضه في منتصف كلامه ! » ^(١٧٠) .

وروي عن النبي ﷺ : « إنَّ موسى عليه السلام لقي الخضر عليه السلام ، فقال : أوصني ، فقال الخضر : يا طالب العلم ، إنَّ القائل أقلُّ ملالة من المستمع ، فلا تُملَّ جلساءك إذا حدَّثتهم » ^(١٧١) .

من الشَّخص المَهذار الذي يتكلَّم بلا رويَّة ، ولا تقدير لأحاسيس الناس ، ومشاعرهم ، يقول : « إذا كنت تريد أن ينفضَّ النَّاس من حولك ، ويسخروا منك عندما توليهم ظهرك ، فهناك » الوصفة : « لا تعطِ أحداً فرصة الحديث ... تكلم بغير انقطاع عن نفسك ، وإذا خطرت لك فكرة بينما غيرك يتحدَّث فلا تنتظر حتَّى يتمَّ حديثه : إنَّه ليس ذكياً

الهوامش:

- (١) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ٤٠٨/٨.
- (٢) المصدر نفسه.
- (٣) ثقة الإسلام الكليني، الأصول من الكافي: ١٠٢/٢.
- (٤) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٥، ح/٤٥٦٠.
- (٥) اقتصادنا: ٧٧٤.
- (٦) صحيح البخاري: ٢١٥/١.
- (٧) () راجع ما تقدَّم في الفصل الأول.
- (٨) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ×: ١١٦/٢.
- (٩) وسائل الشيعة: ٤٨٠/٣.
- (١٠) المصدر نفسه: ٣/٧.
- (١١) الإمام الحميني، تحرير الوسيلة: ٤٨١/١.
- (١٢) وسائل الشيعة: ٤٠٧/٨-٤٠٨.
- (١٣) الميرزا التوري، مستدرک الوسائل: ٤٥٠/٨.
- (١٤) الأستاذ المجاهد عبد اللطيف الرازي، المنهج الحرکي في القرآن الكريم: ١٤٦-١٤٧.
- (١٥) آل عمران: ١٠٤.
- (١٦) المؤمنون: ٥٢.

- (١٧) مفردات ألفاظ القرآن: ٣٩.
- (١٨) آل عمران: ١٠٤.
- (١٩) البقرة: ١٢٨.
- (٢٠) التوبة: ٧١.
- (٢١) المتقي الهندي، كنز العمال: ١/١٤٩، ح/ ٧٣٧.
- (٢٢) الشيخ هادي النجفي، ألف حديث في المؤمن: ٧٥.
- (٢٣) الأصول من الكافي: ٢/١٢٥.
- (٢٤) الشيخ علي النمازي، مستدرك سفينة البحار: ٢/١٢٩.
- (٢٥) ورد في بعض النسخ: «تتوازر في الله».
- (٢٦) الشيخ الطوسي، كتاب الأمالي: ١٦٧-١٦٨.
- (٢٧) ابن شعبة الحراني، تحف العقول: ٣٤.
- (٢٨) المحجرات: ١٣.
- (٢٩) نهج البلاغة: ٤٥٠، كتاب: ٥٣.
- (٣٠) العلامة التسخيري، حقوق الإنسان بين الإعلانين الإسلامي والعالمي: ٧.
- (٣١) نهج البلاغة: ٥١٦، الكلمات القصار: ١٦٨.
- (٣٢) العاديات: ٨.
- (٣٣) السيد الشهيد الصدر، فلسفتنا: ٤٦.
- (٣٤) المصدر نفسه: ٥٥.
- (٣٥) المصدر نفسه: ٤٧.
- (٣٦) الأنفال: ٦٠.
- (٣٧) سبأ: ٣٩.
- (٣٨) فصلت: ٤٦.
- (٣٩) غافر: ٤٠.
- (٤٠) الزلزلة: ٦-٨.
- (٤١) الإسراء: ٧.
- (٤٢) السيد مجتبي اللاري، رسالة للأخلاق: ١٩٩.
- (٤٣) المصدر نفسه: ٢٠٠.
- (٤٤) عيون أخبار الرضا ×: ٢/٢٧.
- (٤٥) الأصول من الكافي: ٢/٩٩.

- (٤٦) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٨٠، ح/٦٢٠٦.
- (٤٧) كنز العمال: ١٤٩/١، ح/٧٣٧.
- (٤٨) ألف حديث في المؤمن: ٧٦، ح/١٨٩.
- (٤٩) الأصول من الكافي: ١٨٨/٢.
- (٥٠) الأصول من الكافي: ١٨٩/٢.
- (٥١) المصدر نفسه: ١٩١.
- (٥٢) عبد الله العلي، الإمام الحسين: ١٢٧.
- (٥٣) ديل كارنيجي، كيف تختار الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٥٦.
- (٥٤) رسالة الأخلاق: ١٨٦.
- (٥٥) ابن منظور، مختصر تأريخ دمشق لابن عساكر: ٢٢٠/٢.
- (٥٦) كيف تختار الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٥٨.
- (٥٧) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٣٦، ح/٩٩٩٦.
- (٥٨) المصدر نفسه: ٤١٥، ح/٩٤٨٨.
- (٥٩) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج: ٥٢/٢.
- (٦٠) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٣٧، ح/١٠٠٢٦.
- (٦١) بحار الأنوار: ٦٦/٢.
- (٦٢) مفردات ألفاظ القرآن: ١٦٦-١٦٧.
- (٦٣) تحف العقول: ٣٧.
- (٦٤) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٨٤-٣٨٦، ح/٨٧٨٢-٨٧٨٣-٨٧٥٢-٨٨١٠-٨٨١٢.
- (٦٥) المصدر نفسه: ٢١٠، ح/٤٠٥٨.
- (٦٦) المصدر نفسه: ٣٨٣، ح/٨٧١٨.
- (٦٧) المزمّل: ١٠.
- (٦٨) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ٣٨٧/٤.
- (٦٩) هود: ١١٤.
- (٧٠) الشيخ المفيد، الاختصاص: ٢٣١.
- (٧١) التحل: ٩٠.
- (٧٢) نهج البلاغة: ٥٥٦، الكلمات القصار: ٤١١.
- (٧٣) المصدر نفسه: ٤٩٩، الكلمات القصار: ٨٤.
- (٧٤) الميرزا التوري، مستدرك الوسائل: ٩/٩.

- (٧٥) مريم: ٦٩.
- (٧٦) بحار الأنوار: ١٦٦/٧٧.
- (٧٧) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء: ٣٢١/٣.
- (٧٨) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٥٥، ح/ ٥٣٧١.
- (٧٩) المصدر نفسه: ٦٧، ح/ ٨٩٦.
- (٨٠) فصلت: ٣٤.
- (٨١) في ظلال القرآن: ٢٤١/٧.
- (٨٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٣٤، ح/ ٧٦٨١.
- (٨٣) نهج البلاغة: ٣٥١، الخطب: ٢٠٦.
- (٨٤) المصدر نفسه: ٥١٤، الكلمات القصار: ١٤٨.
- (٨٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٣٧٨/١٨.
- (٨٦) فصلت: ٣٥.
- (٨٧) في ظلال القرآن: ٢٤١/٧.
- (٨٨) الصحيفة السجادية: دعاء ٢٠، دعاء مكارم الأخلاق.
- (٨٩) وسائل الشيعة: ٤٠٤/٨.
- (٩٠) الإسراء: ٥٣.
- (٩١) في ظلال القرآن: ٣٣٦/٥.
- (٩٢) نهج البلاغة: ٤٢٢، كتاب: ٣١.
- (٩٣) الشيخ الصدوق، الأمالي: ٣٢٦.
- (٩٤) الاحتجاج: ٥٢/٢.
- (٩٥) إبراهيم: ٢٤-٢٥.
- (٩٦) الميرزا حسين التوري الطبرسي، دار السلام: ٣٣٨/٣.
- (٩٧) آل عمران: ١٠٣.
- (٩٨) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٢١/٤-٢٢.
- (٩٩) هود: ٩٠.
- (١٠٠) بروج: ١٣-١٤.
- (١٠١) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٦٥/٥.
- (١٠٢) الشيخ الطوسي، مصباح المنهجد وسلاح المتعبد: ٥٨٢.
- (١٠٣) الحجرات: ٧.

- (١٠٤) الأصول من الكافي: ١٢٥/٢.
- (١٠٥) المصدر نفسه: ١٢٥-١٢٦.
- (١٠٦) الأصول من الكافي: ٦٤٣/٢.
- (١٠٧) المصدر نفسه: ٦٤٢/٢.
- (١٠٨) وسائل الشيعة: ٤٣٣/٨.
- (١٠٩) نهج البلاغة: ٥٢١، قصار الحكم: ٢٠١.
- (١١٠) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٣٥، ح/٩٩٥٥.
- (١١١) محمد تقي الفلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية: ٥٤/٢.
- (١١٢) وسائل الشيعة: ٤٣٤/٨.
- (١١٣) الدكتور محمد عبد القادر حاتم، الإعلام والدعاية: ٣٥.
- (١١٤) بحار الأنوار: ١٨١/٧٤.
- (١١٥) المصدر نفسه.
- (١١٦) المصدر نفسه: ١٨٢/٧٤.
- (١١٧) المحجة البيضاء: ٣٣١/٣.
- (١١٨) بحار الأنوار: ٢٨٠/٧٤.
- (١١٩) المصدر نفسه: ٢٥٨-٢٥٧/٧٨.
- (١٢٠) في عالم المراهق لعدد من المؤلفين: ٢٦٠.
- (١٢١) كيف تختار الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٣٩.
- (١٢٢) العاديات: ٨.
- (١٢٣) طه: ١٣١.
- (١٢٤) الأصول من الكافي: ٣١٦-٣١٥/٢.
- (١٢٥) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ١٩٣، ح/٣٧٧٠.
- (١٢٦) المصدر نفسه: ١٩٨، ح/٣٩١٨.
- (١٢٧) بحار الأنوار: ٢٣٠/٧١.
- (١٢٨) الأصول من الكافي: ١٤٨-١٤٩/٢.
- (١٢٩) المصدر نفسه: ١٤٩.
- (١٣٠) كنز العمال: ٤١٠/٦، ح/١٦٣٠٥.
- (١٣١) الشيخ الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٢١.
- (١٣٢) السخيمة: الحقد.

- (١٣٣) يراجع تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٤٣٤.
- (١٣٤) علي بن بابويه، فقه الرضا: ٣٩٨.
- (١٣٥) الأصول من الكافي: ١٠٣/٢.
- (١٣٦) المصدر نفسه.
- (١٣٧) مستدرک الوسائل: ٤٥٣/٨.
- (١٣٨) الأصول من الكافي: ١٠٣/٢.
- (١٣٩) المصدر نفسه: ١٧٧/٢.
- (١٤٠) المصدر نفسه: ١٨٣/٢.
- (١٤١) المصدر نفسه: ١٨٢/٢.
- (١٤٢) جلال الدين السيوطي، تنوير الحوالك: ٦٥٦.
- (١٤٣) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللثالي: ٢٩٤/١، ح/١٨٣-١٨٤-١٨٥.
- (١٤٤) السخيمة: الحقد في النفس.
- (١٤٥) الفروع من الكافي: ١٤٣/٥.
- (١٤٦) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير: ٥١٨/١، ح/٣٣٧٥.
- (١٤٧) ابن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق: ١١٠.
- (١٤٨) الأصول من الكافي: ١٩٧/٢.
- (١٤٩) الشيخ الصدوق، مصادقة الأخوان: ٨٢.
- (١٥٠) النور: ١٩.
- (١٥١) الروضة من الكافي: ١٤٧/٨.
- (١٥٢) بحار الأنوار: ٣٦٩/٧٨.
- (١٥٣) الزرندي الحنفي، نظم درر السمطين: ١٦٨.
- (١٥٤) المصدر نفسه: ٥١٤، الكلمات القصار: ١٤٨.
- (١٥٥) ديوان صفي الدين الحلبي: ٦٥٥.
- (١٥٦) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٢.
- (١٥٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٧/١٨.
- (١٥٨) المصدر نفسه: ٣٤٠/١٩.
- (١٥٩) نهج البلاغة: ٥٥١ و ٥١٢، قصار الحكم: ٣٨١ و ١٣٨.
- (١٦٠) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٠٩، ح/٤٠٢٣.
- (١٦١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٦٠/٦.

- (١٦٢) العلامة الطباطبائي، سنن النبي: ١٨.
- (١٦٣) الأصول من الكافي: ٢/٦٦٠.
- (١٦٤) كنز العمال: ٣/٤٠٨، ح/٧١٧٧.
- (١٦٥) التوبة: ٦١.
- (١٦٦) بحار الأنوار: ٢/٤٣.
- (١٦٧) الزمر: ١٧-١٨.
- (١٦٨) بحار الأنوار: ٧٨/٢٣٧.
- (١٦٩) كيف تختار الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٩٥.
- (١٧٠) كيف تختار الأصدقاء وتؤثر في الناس: ٩٧.
- (١٧١) الشهيد الثاني، منية المريد: ١٤٠.

العوامل الاجتماعية والسياسية المساهمة في نشوء التطرف الديني

الدكتور عبد الغني عماد

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية

لنشوئها وصعودها وتفاقمها . هذا ، فضلاً
عن المقاربات التعسفية التي سادت
وانتشرت لمكافحتها والتعامل معها .

ومن الطبيعي أن هذه المهمة ليست
سهلة على الإطلاق ، وسط طوفان من
الكتابات السجالية المؤدلجة والمصاغة
بعناية للترويج والإشادة والدعاية ، أو
بالعكس للنقد والتشكيك والتجريح ، وهي
في كلتا الحالتين ، تقدّم مدخلاً انتقائياً ،

لا شك في أن المتتبع لما كتب حول
الحركات الإسلامية عموماً ، وحول
الحركات المتشددة بالخصوص ، سوف
يلاحظ أنه على الرغم من ضخامة ما كتب
عنها وحولها من أعمال فكرية وتاريخية ،
وما استقطبته من اهتمام ، إلا أنه لم تصدر
سوى أعمال قليلة ونادرة ، تميّزت
بالموضوعية العلمية الهادفة إلى فهم
وتفهم جذور الظاهرة ، والأسباب الحقيقية

عن سياقها الاجتماعي والموضوعي ، ويجعل من أي مقارنة تحليلية جدية عقيمة الجدوى أو فقيرة الدلالة .

وبناءً على ذلك ، يمكن القول إن « الأفكار » ، وإن كانت من أكثر المنتجات القابلة للانتشار ، إلا أنها لا يمكن ، بطبيعة الحال ، إلا أن تكون تعبيراً عن حاجات وأزمات سياسية وثقافية ومعرفية ، وبالتالي هي لا تأتي بالمطلق من خارج المجتمع ، أو من خارج التاريخ ، فهي لا تهبط من كوكب آخر ، ولا تأت من خارج الزمن . ومن الصعب فهم هذه الأفكار من خلال « تميّطها » تحت مسميات معينة ، فمثل هذا التميّط عدا عن طبيعته المؤدلجة ، لا يؤدي إلى فهم وظيفتها ودورها من جهة ، كما إنه يفصل هذه الأفكار عن سياق تطورها التاريخي وتجلياتها في الواقع السياسي الاجتماعي من جهة أخرى . كذلك إن قراءة هذه الأفكار وتحليلها ، بمعزل عن حاملها كفاعلين اجتماعيين ، يحولها إلى نصوص ميتة لا حياة فيها .

بناءً على ذلك ، يصبح من الضرورة

يخدم المقاربة الوظيفية لأصحابه ومنتجيه أكثر مما يقدم مادة تحليلية معرفية ، تفتح مداخل جديدة لفهم جذور المشكلة ومغذيات الظاهرة .

وحتى لا نقع في فخ التعميم ، يمكن القول إنه لا يمكن تشخيص صعود التشدد والعنف الإسلامي إلا بتحقيق أمرين : الأول تغليب المقاربة الدينامية للظاهرة ودراستها في حركتها التاريخية والسياسية والمعرفية ، بحيث يمكن لهذه المقاربة أن تقدّم فهماً أعمق للمسارات والتطورات والتحوّلات التي تعرّضت لها كتعبيرات سياسية - دينية في علاقتها مع مختلف مكونات الاجتماع السياسي العربي ومحيطه .

والثاني يتمثل بتحرير المقاربة التحليلية من التميّط المسبق الذي أدّى إلى تناولها كظاهرة مفصولة عن سياقات التطور الاجتماعي والإنساني والسياسي ؛ ذلك أن اعتماد النظرية المؤامراتية أو المقاربة الأمنية كأساس لتحليل هذه الظاهرة ، عدا عن أنه يفرّغ هذه الظاهرة من مضمونها السياسي والفكري ، يخرجها

مرضى أو مجانين ، حيث تشيع مثل هذه القراءات في هذه الأيام لتحليل معنى ودلالات قطع الرؤوس في ضوء إخراج إعلامي مبهر وصادم وغير مسبوق ، فضلاً عن العمليات الانتحارية والانغماسية المرعبة التي لا تفرّق بين المدنيين والمقاتلين . كل هذه التحليلات تتكامل في مكان ما مع المقاربة الليبرالية الجديدة للإسلام ، والتي تضيف نظرة بنيوية وجوهرانية على « الإسلام » كعقيدة ودين بوصفه رديفاً للشر والعنف ، ومولداً للانقسام النفسي ، وللإغتراب عن الثقافة والحضارة الحديثة والعقلانية المعاصرة .

يبدأ نعيم تشومسكي كتابه الذي أثار له المتاعب ، والمعنون بـ « قراصنة وأباطرة » بقصة صغيرة معبرة ، يقول فيها : وقع أحد القراصنة في أسر الإسكندر الكبير ، الذي سأله « كيف تجرؤ على إزعاج البحر ، كيف تجرؤ على إزعاج العالم بأسره أيها اللص ؟ » . فأجاب القرصان : « لأننى أفعّل ذلك بسفينة صغيرة فحسب أدعى لصاً ، وأنت ، الذي يفعل ذلك بأسطول ضخم ، تدعى إمبراطوراً » . بهذه القصة التي تلتقط بدقة معينة إشكالية العلاقة

الاجتهاد لتقديم مقاربات مركبة لظاهرة التشدد والتطرّف والعنف السياسي الطائفي والمذهبي الآخذة في التمدد تارة ، والتركيز تارة أخرى ، باعتبارها إحدى تعبيرات الحراك السياسي والديني لمواجهة التحديات المعاصرة في عالمنا ، سواء كنا معارضين له أو متفقين معه ، وفي كلتا الحالتين نحن مدعوون لفهمه ، أو تفهمه في إطار ما يعرف بالسوسيولوجيا الفهمية التي كتب عنها ماكس فيبر ، أحد كبار رواد علم الاجتماع بداية القرن الماضي ^(١) .

أزمة القراءات والمقاربة البنيوية للإسلام

أتحدث هنا عن أزمة القراءات ؛ ذلك أن الظاهرة (الجهادية) عموماً منذ نشوئها تم دمجها ووصمها بالإرهاب والعنف ، وخضعت لتفسيرات وتحليلات شتى ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، منها من أخضعها لمقاربة اقتصادية بحتة ، ومنها من اعتبر العنف مكوناً بنيوياً أصيلاً في منظومة القيم المرجعية التي تنطلق منها ، وبعضها ذهب إلى تحليلات سيكولوجية للمنتسبين لهذه الجماعات باعتبارهم

إلى إرساء أساس نظري لا يقل رسوخاً لعملية الفصل والعزل العنصريين^(٤). وهذا ما يجعل ، على سبيل المثال جدار الفصل العنصري الذي تبنته إسرائيل لعزل الفلسطينيين وفصلهم ، مفهوماً ومقبولاً في أميركا ، ذلك أن العنصرية الجديدة « الهوياتية » والثقافية هي نظرية عزل وفصل بقدر ما هي نظرية ترتيب أو تسلسل . إنها تعتمد على الإقصاء ، وتعتمد دوماً إلى لباس ثوب « الآخر » لشخص أو جماعة معينة . العنصرية التفاضلية الجديدة لا تبادر إلى طرح التباينات العرقية كاختلاف في الطبيعة ؛ بل تسوقها دائماً على أنها تعبير عن اختلاف في درجة التطور والاندماج في منظومة القيم المعولمة^(٥).

عبرت عن هذه الرؤية بوضوح مقولة « صدام الحضارات » أواخر القرن الماضي : « إن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقية فحسب ، بل هي فروق أساسية أيضاً » . يتنبأ هنتنغتون « نبي القرن » كما في بعض الأدبيات الأميركية ، صاحب هذه النظرية ، بأن صراعات جديدة ستتشب على « خط

الراهنة بين اللاعبين الكبار واللاعبين الصغار على مسرح السياسة والعنف الدولتين ، يفتح تشومسكي مناقشته لقضية الإرهاب ليبين ومعه عدد كبير من الباحثين اليوم في الغرب كيف أصبحت هذه القضية صناعة وإيديولوجيا بكل معنى الكلمة^(٦).

والواقع أن أحد الباحثين قد أحصى مئة وثمانية تعريفات متداولة للإرهاب^(٧) ، حيث استخدم هذا المفهوم بانحيازات قيمة وإيديولوجية وسياسية ، جعلته جزءاً من الترسانة الإيديولوجية للأنظمة التسلطية ، فضلاً عن أنه أصبح مسوّغاً دائماً وجاهزاً للتدخل الأجنبي .

يطلق إيتيان باليبار على عنصرية القرن الحادي والعشرين الجديدة اسم « العنصرية التفاضلية » ، عنصرية دونما عنصر أو عرق ، بحيث يجري تمكين « الثقافة » مع الاضطلاع بالدور الذي كانت البنية الحيوية (البيولوجيا) تضطلع به . ليس الموقف (الثقافي) كنظرية تباين اجتماعي أقل « جوهرية » من نظيره الحيوي (البيولوجي) ، وهو يؤدي عملياً

والحضارة . التمييز والتعصب في عصر العولمة قد يتقنّع ويتجمل ويخادع في مكان ، ويبدو بشعاً متوحشاً في مكان آخر ، هو يتخذ صوراً شتى ؛ لذلك ، لا ينبغي أن يُنظر إلى إشكالية التعصب والتطرف والتوحش في عالم اليوم بشكل تجزيئي ؛ لأن الترابطات المغذية للفاعلين واللاعبين على مسرحه (دولياً ومحلياً) متاقربة ، فتمة منطق واحد يسري في منظومة القيم المؤلدة للتعصب والتطرف والتوحش وآليات اشتغاله ، وكل طرف منه ، يتغذى من الطرف الآخر .

المشكلة أن المقاربة المنهجية التي قدّمها الغرب لدراسة التطرف والتعصب والتوحش في عالم اليوم بقيت في هذا الإطار ، ولم يكن منتظراً على أي حال أن يقدم غيرها ، وهي تركزت تحت عنوان « مكافحة الإرهاب والتيارات الإسلامية المتطرفة » ، وقد عانت هذه المقاربة منذ إطلاقها مطلع القرن الحالي من إخفاق منهجي بالأساس ، انعكس على كل الاستراتيجيات المحلية والدولية التي تبنتها ؛ ذلك أن الوعي بالمشكلة لا يتمثل بالمقاومة المباشرة لمظاهرها ، وإنما

الصدع الجديد « وسيكون التقسيم بين (شرق وغرب) أساساً لحروب المستقبل بين المجتمعات الغربية والآخرين . ولا يتردد في تصنيف الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية بأنهما حضارتان « متحديتان » للغرب ، فهما ترفضان الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان .

في هذا الخطاب يجري إلباس ثياب « الآخر » للإسلام بوصفه « دين السيف » الذي يثمن القيم والفضائل العسكرية ويطرح الحرب والجهاد ضد الكفار ، ، حيث يتحدث باستفاضة عن « الحدود الدائمة للإسلام » حيثما حلّ وتوطّن . المشكلة إذاً ليست بتلك « الحفنة » من الحركات الأصولية ، بل في الإسلام نفسه^(٦) .

إذن ، العنصرية بصورتها القديمة المتوحشة على مستوى العالم ، كأبرز صورة من صور التعصب ، تراجعت لصالح صيغة أخرى ناعمة مع العولمة ، والفارق أن آليات إنتاج العنصرية والتعصب في عام اليوم تغيّرت ، ومحور ارتكازها انتقل من « العرق » واللون إلى « الثقافة »

أشكال الصراع والعنف الذي يصبح عنفاً سياسياً عندما تكون الأهداف والدوافع سياسية ، حتى ولو اتخذ صوراً أو مظاهر طائفية أو مذهبية أو عرقية في بعض أبعاده .

متى يصبح العنف السياسي شرعياً ، وما هي معايير شرعيته وحدودها ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يجب التفرقة بين مفهوم الشرعية (Legitimacy) الذي يدور حول الأسس التي يتقبل فيها أفراد المجتمع النظام السياسي ويخضعون له طواعية ، ومفهوم المشروعية (Legality) بمعنى خضوع نشاط السلطات ونشاط المواطنين للقانون الوضعي ، وبالتالي فقد تكون السلطة مشروعة ، أي مطابقة لأحكام القوانين ولكونها غير شرعية برفض الجماعة ، أي الشعب ، لها بسبب عدم تلاؤمها مع قيمها وتوقعاتها . فالشرعية فكرة ، أو معتقداً ، تتعلق بأساس السلطة وكيفية ممارستها ، بالتالي فهي مفهوم مصدره الدين ، أو الكاريزما ، أو التقاليد ، بينما المشروعية مصدرها القانون

باستقراء هذه المظاهر واعتبارها « مؤشرات » ينبغي تحليلها للوصول إلى جذورها ، إلى أصل الداء وأسبابه ، وآليات اشتغاله وتغذيته لاستنباط العلاج الصحيح والملائم . إن الإخفاق في طرح المشكلة ودراستها علمياً واختزالها في شعار « مكافحة الإرهاب » ليس إلا وصفة سريعة للمزيد من التطرف والتعصب والتوحش في عالم اليوم .

إشكالية التوصيف: الآخر بصفته « العدو »

يكنم الفارق الجوهرى بين مفهومي الصراع والعنف في أن مفهوم الصراع أوسع من مفهوم العنف ؛ إذ تعدد صور الصراع وآلياته ، ويعدُّ العنف إحدى الآليات في إدارة الصراع وحسمه ، وتتوقف شدة الصراع على كم وكيف العنف المستخدم فيه . ومن هنا ، فإن السلوك الصراعى من الممكن أن يكون عنيفاً أو غير عنيف . فالعنف هو أحد مظاهر التعبير عن الصراع ، وبالتالي فإن « الإرهاب » الذي كثر الحديث عنه في الأونة الأخيرة هو مفهوم يُستخدم للدلالة على شكل من

الوضعي^(٧) .

وانطلاقاً من هذا التمييز اعتبر بعض أن العنف الذي تمارسه الدولة ضد فئات معينة في المجتمع يكون مشروعاً طالما استند إلى نص قانوني يبرره ويحدده . فالدولة تحتكر حق الاستخدام للعنف المشروع ، وفق المفهوم الفيبري ، لحفظ الأمن والقانون وحماية الاستقرار الاجتماعي والسياسي من المخاطر الداخلية والخارجية ، ولكن الإشكالية الأخلاقية تتمثل في أن هذا العنف الرسمي لا يكتسب « الشرعية » إلا عندما تقرّه الجماعة أو غالبية أفرادها ، وتعتبره بالتالي ضرورياً لحماية النظام العام .

وهكذا قد يصبح هذا العنف مشروعاً ، غير شرعي ، أي ترفضه الجماعة وتستعجنه ؛ لأنها ترى فيه تعدياً على حقوقها وحرياتنا ، وترى أن سنده القانوني لا يقوم على رضاها ؛ لأنها هي مصدر القانون والحق ؛ لذا ، تحتج أو تتمرد وتثور ومن ثم قد تلجأ للعنف المضاد الذي تعتبره « شرعياً » . هنا يكمن جذر العنف السلطوي « التخويني » ، وبذور العنف

المضاد « التكفيري » أو « التغيير » ، حيث يجري تنميط « الآخر » بصفته « عدواً » في ذروة الصراع ، وتتم شيطنته بصفته تمثيلاً للشّر المطلق .

النظام الدولي بكل مؤسساته ، يقترن ويتعامل مع الدول وليس مع الشعوب ، إلا في حالات استثنائية يقدرها على ضوء مصلحته ، وهي مصلحة لا تضبطها معايير واضحة في القانون الدولي ، وهو ما أدى إلى ازدواجية في الموقف من قضايا التحرر الوطني وتقرير المصير وحقوق الإنسان ، ازدواجية أدت إلى إفلاس سياسي وأخلاقي لكل المؤسسات الدولية ، تجسّد في خضوعها لسياسات الدول الكبرى وهيمنة الولايات المتحدة الأميركية ، حصداً آثاره المدمرة في فلسطين واجتياح العراق وفي أكثر من مكان في هذا العالم . ازدواجية حصداً آثارها في تحالف هذه الدول مع الأنظمة الاستبدادية ، ودعمها لها على الرغم من كل الشعارات البرّاقة عن حقوق الإنسان والحرية والمساواة التي يتغنى بها الغرب .

لا شك في أن كل النظم والقوى التي

السياسية والمجتمعية والسيميولوجية الرمزية والثقافية ، من أبسط مظاهره إلى أشدها ، بعد أن كانت أشكاله محصورة في الدولة العربية التسلطية لأكثر من نصف قرن ، حيث احتكرت كل أنواعه وفنونه ، وأبدعت فيها إبداعاً قلّ نظيره ، في حين يبدو اليوم وكأنّه تقلّت وتمدّد خارج أيّ انتظام أو ضبط ، ليصل إلى حدود الجرائم الوحشية والإبادة والتهجير والقتل الهوياتي .

لقد أصبح من المسلّم به في الدراسات السوسيولوجية أن التيارات المتطرفة ، وخاصة الدينية منها وذات الطابع الهوياتي في العالم ، لا تهبط علينا من كوكب آخر ؛ بل هي نبت موضوعي لوقائع ومتغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ، يتزامن صعودها وظهورها مع تحديات تهدّد منظومة القيم وثوابت الموروث الثقافي ، والتي غالباً ما ينتج عنها « أزمة هوية » واختلالات تطال مجمل البنى ومنظومة قيمها . وغالباً ما يتم التعبير عنها بصيغ متعددة ، منها الخوف من المستقبل ، ورفض الحاضر ولهروب للماضي طلباً للنجاة .

تمارس العنف تتجه إلى تبريره باعتبارات قيمية وأخلاقية ، فالنظام السياسي يبرر ممارسته للعنف ضد المواطنين ، أو ضد فئات معينة استناداً إلى دعاوى المحافظة على الأمن والنظام والقانون والمصلحة العامة ، وحمايتها من عناصر تُرمى عادة بأنها عميلة وخائنة ، حيث تعمل كأدوات لقوة أجنبية ، وكذلك فالكثير من النظم تمارس العنف تحت شعارات براقّة ، مثل : محاربة الإرهاب والحفاظ على الوحدة الوطنية . أما القوى غير الرسمية فتبرر العنف بمنطق الدفاع عن النفس وبحمالية الحقوق والحريات والأقليات وعدم وجود قنوات لتوصيل المطالب ، أو عدم فاعليتها إن وجدت ، كذلك تلعب الاعتبارات الإيديولوجية دوراً رئيسياً في تبرير العنف .

تحيلنا هذه المقاربة إلى تحليل مسارات إعادة إنتاج القيم التي تغذي منظومة العنف والتوحش بمختلف أشكالها في ما يمكن وصفه بثقافة تبرير العنف وتسويغه ، ليس فقط على المستوى الدولي المعولم ؛ بل على المستوى المحلي والوطني ، حيث يتمثّل في الاندلاع عنف مركب وبنوي طال مختلف الأشكال

يحدث التفاعل مع الواقع ويفاعل الأفراد مع الأفكار التي تمثل أجوبة على تحديات واقعية . يمكن لهذه الأجوبة أن تكون طوباوية ، أو متطرفة أو إصلاحية أو ثورية ، لكن بالإجمال ثمة أكثر من جواب واحد ، وأكثر من صيغة للتعبير عن « الهوية » .

وتعدد الإجابات ، إنما يعبر عن دينامية الأفكار وعلاقتها بحركة الواقع . واجهت التيارات الإصلاحية الدينية في جوابها المنفتح والمعتدل في بدايات القرن العشرين تحديات الهوية والتغريب والحدثة في مرحلة كانت الدولة الوطنية الناشئة لا تزال طرية ، حيث كان ثمة أمل في الإصلاح والنهوض . أما التنظيمات الدينية في الربع الأخير من القرن العشرين ، فواجهت تحديات الهوية والتغريب والحدثة في ذروة تضخمه وتوحشه مع العولمة والأمركة ، وفي دول وطنية تغوّلت فاحتكمت في الغالب إلى منطق الاستيلاء على السلطة بقوة العسكر والقبائل والطوائف ، لتكرّس زعامات وحكاماً أشبه بالآلهة ، فتكرست معهم حياة سياسية فارغة من أي مضمون سياسي أو أخلاقي ، وفاشلة إلى حد الإفلاس على المستوى

تحيلنا هذه المقاربة إلى فهم للتيارات الدينية السياسية المعاصرة بوصفها تعريفاً للذات وتوصيفاً للهوية ، ولكن بصفتها آلية دفاعية في مواجهة العولمة وتحديات الحدثة والتغريب ، بما يعنيه ذلك من منظومة قيم وسلوكيات تقتحم المجتمعات التقليدية ؛ لذلك ، يبدو من السذاجة التعامل معها « أمنيّاً » باعتبارها ظواهر إرهابية « محضة » ، أو باعتبارها قتل عنف وإرهاب مسلّح « صماء » ، بدون أي تمييز بين حركات مقاومة مشروعة وتيارات دعوية وسياسية سلمية ، واتجاهات جهادية عنيفة .

كما يبدو كذلك أكثر سذاجة النظر إليها بوصفها ظاهرة « ثقافية » خالصة ، على الرغم من الخلفية « الهوياتية » كفاعل ومحرك موضوعي لمثل هذه التيارات . المسألة بالأساس تتعلق بالأطر الاجتماعية التي تتحرك فيها مثل هذه التيارات وبالأفكار التي تطرحها من جهة ، ثم بمضمون هذه الأفكار والأساليب المعتمدة والتحديات التي تواجهها من جهة ثانية ؛ لهذا السبب يكتسب تحليل السياق التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي لأي جماعة أهمية خاصة ، فعلى أساسه

الكونية . في هذا السياق ، ينبغي أن تدرس ظاهرة صعود تيارات التطرف والتعصب في علاقتها بالآخر ، دون أن يعني ذلك التسليم بأطروحاتها أو رؤيتها بعيداً عن النقد والتفكيك والمراجعة .

أحد أبرز تجليات التعصب « الهوياتي » الطائفي والمذهبي وخطاب الكراهية يتكوّن في النظر إلى « الآخر » ثقافياً وسياسياً واجتماعياً بوصفه عدوّاً أو خصماً أو مجال « تهديد » ، وليس بوصفه مثيلاً أو تنوعاً يمكن أن يثري ويغني ويضيف على الذات قيماً وأبعاداً تجعلها ذات مرجعية تركيبية غير أحادية ، أكثر تفهماً وتسامحاً وعقلانية . وبقدر ما تمثّل هذه الإشكالية المحرك الرئيسي للتيارات الدينية المتطرفة ، وهي أيضاً تمثّل الإشكالية معكوسة نفسها ، حيث يختزل الخطاب المعولم الحياة بالمنفعة والريح والمصالح ، ويسجن الإنسان في بعده الاقتصادي ، ويحوّل الجماعة إلى قطع استهلاكي ، وفي لحظة توحشه قسّم العالم إلى محور للشر حيث « الآخر » ، ومحور للخير حيث قيمة هي المرجع الأول والأخير ، في مشهدة مروّعة للدم والقتل

التنموي والاجتماعي ، ومدمّرة إلى حد سحق كرامة الإنسان العربي على مستوى الحريات . وهذا فارق في القيمة والنوع لطبيعة التحديات ، والتي ينتج عنها بطبيعة الحال تفاوت في الممارسات والإجابات .

ويختزل شعار مكافحة الإرهاب تلك الرؤية المنبثقة من خلفية ثقافة الهيمنة الغربية ، وهي أيضاً رؤية ذات بعد واحد متمركزة حول الذات ، تحاول وتسعى إلى فرض نموذجها بوسائل شتى ، فالمسألة في هذا السياق لا تعود فقط إلى جدلية الإرهاب والأمن العالميين ، بقدر ما أصبحت أداة من أدوات الصراع ؛ لذلك ، ترتبط بمعنى الإرهاب ومضمونه وتعريفه ، والتي تتخذ معايير مزدوجة وانتقائية عندما يتعلق الأمر بمصالح الغرب وحلفائه وفي مقدمتهم إسرائيل .

القضية إذن تتعلق بالمقاربة المنهجية لظاهرة انفجار الهويات التقليدية وعودة الدين إلى المجال العام والمظاهر التي يتخذها ، والتي اعتبرها « داريوش شايفان » غطاءً إيديولوجياً ارتكاسياً تعتمد المجتمعات الضعيفة في ظل التحولات والتحديات الدولة ، وذلك كبديل للحدثة

تجسّدت في غزو العراق واحتلال بغداد ،
ولا نزال نحصد أثارها حتى الآن .

وهكذا تحوّل شعار مكافحة الإرهاب
إلى إيديولوجيا ، أصبح معها تعريف الإرهاب
محاولة عبثية ؛ بل أصبح التعريف بحد ذاته
متحرّكاً ونسبياً ، يعكس توازنات اللاعبين
الكبار على المسرح العالمي ، ولم يعد بالتالي
محصلة تحليلية تعكس قراءة جادة
وموضوعية للعناصر المؤلّدة للعنف السياسي
والعنف المضاد بشكل عام . وهكذا يمكن
ببساطة أن يفرض القوي سياسته على
الضعيف ، ويسود منطق الجلال ، وتحوّل
الضحية إلى عبء ، ويصبح الشعب
الفلسطيني إرهابياً إذا قاوم الاحتلال
والاستيطان ، ويصبح الإسلام بالتالي ثقافة
منتجة للإرهاب ؛ لأنّه يتضمّن موقفاً
ومخزوناً تاريخياً يحض على المقاومة
والجهاد وعدم الاستكانة للظلم . وتصبح
معها مقاومة الاحتلال الأميركي للعراق منذ
٢٠٠٣ إرهاباً موصوفاً .

نحو قراءة سوسيولوجية لظاهرة العنف والتطرف

ما الذي يدفع جماعات أو أفراداً إلى أن

يصبحوا متطرفين وعنيفين ، ومن ثم
متوحشين في تعاملهم مع الخصوم
والأعداء ؟ كيف يصبح المرء ، ومن ثم
الجماعة مستعدّة للتضحية بأغلى ما تلك
في سبيل ما تعتقد ؟ ما الذي يدفع الأفراد
إلى الإيمان بمعتقد والانخراط بجماعة بلا
قيد ولا شرط والالتقياد لها بما يمكن أن
يؤدي إلى التضحية بالنفس والآخرين ؟ ثم
ما الذي يجعل جماعة (اثنية أو طائفية أو
عقدية ..) تتمسك بأفكار تبدو غير
عقلانية ، وتمارس سلوكاً يتّسم بالكراهية
تجاه الآخر ، ويتّجه صعوداً نحو إقصائه
وإفناؤه حتى ولو أدى ذلك إلى تخريب
حياتها ومجتمعها ؟

قدّم بعض إجابات على شكل
نظريات ، ولا نعتقد أن المحاولات التي
جرت ناجحي إلا بقدر تعبيرها عن حالات
بعينها ، فالعوامل الخاصة التي تتحكم
بحركة الناس والشعوب يصعب حصرها
ونمذجتها ، مع أنه يمكن تحليل بنية كل
مجتمع واستخلاص استنتاجات نظرية
تمكّن من ترجيح احتمال صعود ظواهر
ونشوء حالات ومؤشرات عنف في بلد من
البلدان ، ولكن كاحتمال فقط ، علماً أن

المشروع القومي العربي إنما تعود إلى قصور فكري في المقام الأول ، فهو أسقط في بناء تجربة السلطة والدولة مبدأ الديمقراطية ، ولم يُعر قضية الشراكة والمساءلة والمحاسبة أي اهتمام .

والواقع أن فكرة « الدولة » بحد ذاتها قد تمّ تهميشها ، وعانت من فقر في التنظير لها لصالح مفهوم « الأمة » ، وهذه مسألة يشترك فيها الفكر الإسلامي والفكر القومي معاً ، بغض النظر عن المضمون الإيديولوجي الذي يضيفه كل منهما على المفهومين .

فكلاهما يفترض أن الدولة هي الترجمة السياسية للأمة كما يراها ويتصورها ، وبالتالي للأمة في النص الإسلامي والقومي كامل الحق في أن تتبلور وفق مكوّناتها التاريخية والثقافية أو الدينية في « دولة » ، وحيث إن هذا لم يحصل إلا بفعل فاعل ، يتفق الاثنان على أنه « خارجي - استعماري » ، هذا الفاعل الذي أنشأ دولاً لا مشروعية لها ، أو في أحسن الحالات كانت شرعيتها منقوصة أو مؤقتة . أما من يتمتع بالشرعية الكاملة ، فيقع خارج حدود الدولة الواقعية القائمة ،

بلدناً كثيرة عانت من العنف الديني والسياسي حيث لم يتوقع أحد ؛ لذلك ، كانت تلك النظريات أقرب إلى الاستقراء القابل للدحض أو الترجيح .

انفصال الإيديولوجيا عن السياسة

في واقعنا العربي والإسلامي ليس الأمر وليد اللحظة السياسية الراهنة ؛ بل هو نتاج مسار ومحضلة مسيرة بدأت ، فقد شهدنا خلال القرن العشرين تحوّل العروبة من فكرة إلى انتماء راسخ ، ومنها ولدت الحركة القومية ، وتحوّلت إلى دولة أو سلطة . ولا يملك أي مؤرخ نزيه إلا أن يعترف بأنها خلّفت تراثاً فكرياً وسياسياً غنياً ، وهو تراث لا يغيّر من قيمته إخفاق الحركة القومية في إنجاز أهدافها ، وإن كان من الواجب تقييم تجربة الإخفاق تلك .

ليس في قولنا محاولة لرد أسباب الإخفاق إلى التجربة السياسية للأنظمة القطرية العربية فقط ، وبالتالي تنزيه الفكر القومي العربي عن المساهمة في إنتاج بعض شروط ذلك الإخفاق ؛ ذلك ، أننا نعتقد أن جوانب هامّة من العطب في

لقد نتج عن ذلك دول وطنية هشة وهجينة ، والأهم أن الترجية أثبتت أن حب السلطة كان على الدوام أقوى من الإيديولوجيا بالنسبة الى القوميين وغيرهم سواء بسواء . فتاريخ الدولة الوطنية العربية يكاد يختزل الصراع على السلطة فيها ، والصراع على السلطة بطبيعته لا يتوقف إلا بالاستحواذ على المزيد منها . وفي مجتمع الدول اليوم التوسع السلطوي الوحيد الممكن هو التوسع الرأسي لا الأفقي . وبمعنى آخر ، إن قانون تراكم السلطة هنا يبقى بالضرورة أسير حدود الدولة ، يمارس مفعوله عمودياً ، الأمر الذي أدى ويؤدي عملياً إلى توطيد دعائم أنظمة سلطوية استبدادية تقوم على مبدأ الحزب الواحد ، والسلطة المخبرائية ، وإلغاء الحريات لعامة ، وإحلال أنظمة الطوارئ ، وقمع التعددية السياسية ، ومنع أي حديث عن تداول السلطة ، واعتبار الشرعية الثورطة بديلاً للشرعية الشعبية ، وتوسع دائرة المستفيدين التي تسبّح بحمد الحاكم وبأمره ، وهذا الأمر كان أحد المصادر الرئيسية المغذية لعمل قانون الفساد ونظامه المنتج لكل أنواع التفاوت والتخلف

سواء أكان نصابه الشرعي الكامل في « الأمة » ومشروع « الدولة القومية » ، أم « الإسلامية » المتخيّل الذي لا يعترف بالحدود والكيانات القانونية للدول والأوطان التي صنعها المستعمر .

لذلك ، لم يتم التركيز على بناء نظرية في الدولة والمواطنة والمؤسسات وفصل السلطات ، بقدر ما تمّ الاهتمام بالتنظير لكل ما له علاقة بالهوية والانتماء والأمة والوحدة والشرعية والأصالة والتراث ، ولم يتم التعامل مع الدولة القائمة إلا باعتبار أنها وليد غير شرعي ، « لقيط » ومؤقت ، وباعتبارها مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية الأبعد وهي « وحدة الأمة » . فالدولة التي يعيش فيها حاملو هذا الفكر لا تمثل الغاية النهائية لحلمهم القومي أو الإسلامي « الشرعي » . هكذا كان الفكر القومي والفكر الإسلامي ، كل منهما بأصالته يقدّم مشروعاً ضد الدولة كمفهوم سياسي وككيان موضوعي قائم عملياً ، مما عطل إمكانية بناء وطنيات أصيلة وحقيقية ، ولذلك نرى اليوم نذر تفكك ما بقي منها إلى ولايات وهويات ما قبل وطنية ، طائفية ومذهبية مع انهيار هذه الدول .

التي تعرّضت لها الديمقراطية تارة من بعض الإسلاميين بحجة أنها منتج كفري ضلالي لا يجوز الأخذ به ، وتارة أخرى من بعض أجنحة التيار الماركسي الذي لم يرَ فيها سوى الوسيلة الخادعة والمضللة التي تتيح للبورجوازية الاستغلال ، والتسلّط على الطبقة الكادحة . كل هذه الاعتبارات ساهمت في إفقار الديمقراطية في الوعي الشعبي في الخمسينات والستينات ، بل وحتى السبعينات ، والتي استفاد منها النظام التسلطي العربي إلى أبعد الحدود .

تغيّر الحال اليوم ، فقد أثبتت الديمقراطية كتجربة إنسانية جدارتها ونجاحها على أكثر من صعيد . فالبدائل أثقلت كاهل العرب بالدم والظلم والطغيان . فقد جرت العديد من المراجعات الفكرية ، وتساعد اهتمام النخب الثقافية العربية بالمسألة الديمقراطية . ومنذ ثمانينات القرن الماضي بدأنا نشهد حراكاً لافتاً تجاوز الأطر الحزبية القديمة ليطال مؤسسات ثقافية وأطراً جديدة في المجتمع المدني والأهلي ، حيث أخذت تلعب دوراً متزايداً في تفعيل المشروع الديمقراطي . وعلى الرغم من الصخب والسجال الذي أثاره

والإقصاء الاجتماعي والسياسي ، والذي أفضى إلى « العنف البنيوي » في المجتمعات العربية بوصفه أحد مخرجات هذه الأنظمة وانعكاساً مقابلاً للعنف المتجذّر في سلوكها ، سواء على الصعيد الرمزي أو المادي .

جدلية المظلومية والظلامية

لقد تمّ إهمال المطلب الديمقراطي في المرحلة التبشيرية ، ثم في المرحلة التأسيسية والتحريرية التي نشأ فيها الخطاب القومي تم تأجيله وتغييبه ، وقد ساهمت في ذلك عوامل عدّة ، منها الالتباس التاريخي الذي حكم نشأ الديمقراطية ، كتجربة معاصرة في الغرب ، والذي تجلّى في عالمنّا مع ظاهرة الاستعمار والرأسمالية . كانت ذريعة أولوية الصراع مع العدو الصهيوني مبرّراً للبعض في تأجيل المطلب الديمقراطي ، كما كان فشل الأحزاب الليبرالية العربية التي ارتبطت ممارستها بالفساد من جهة ، وبالعجز عن تحقيق أي إنجاز اجتماعي أو تنموي مبرّراً لبعضها الآخر من جهة ثانية . هذا مضافاً إلى حملة التسفيه المبرمجة

استدخال هذا المفهوم في بنية الخطاب العربي حينها ، لم يجد هذا مساره العملي لإصلاح حال الأنظمة العربية التي تآكلت شرعيتها إلى أبعد الحدود .

العلاقة بين الاستبداد والتطرف الديني من جهة والديموقراطية من جهة أخرى ذات طابع جدلي ؛ ذلك أن الديمقراطية لا تحارب التطرف ، بل تزيل أسباب وجوده ، حتى لا يجد التربة الصالحة لظهوره . أما الاستبداد السياسي ، فإنه الوصفة المناسبة للتطرف ؛ إذ يهيئ له المناخ والبيئة المناسبة التي تسمح له بالازدهار ، فهو في قمعه واضطهاده له يدخل معه في علاقة ذات بُعدين : إذ ينفعه ويضره كما ينفع نفسه ويضرها في آن معاً ؛ ففي صراعه ينعشه ، ثم يخنقه في حركة جدلية مأساوية لا مفرّ منها ، مؤفراً له بذلك قضية « المظلومية » كدافع ذاتي للتضحية والاستمرارية ، ومبرراً لنفسه محاربة « الظلامية » تحت شعار الحداثة الزائفة .

والواقع أنه ساد لفترة طويلة رأي بين بعض الباحثين يعتبر أن الحركات الإسلامية عاجزة لأسباب بنيوية ومعرفية عن التكيف مع المنظومة الديمقراطية ،

وبالتالي عن إنتاج هيكلية حزبية مرئية أو ملموسة ، إلا أن باحثين آخرين يرون خلاف ذلك ؛ إذ استطاعت بعض الحركات الإسلامية أن تتكيف عملياً مع النظام الديموقراطي ، وأن تتحوّل إلى قوة ديموقراطية معارضة في بلدان مختلفة ، وهو أمر يشبه المسار الذي دخلت فيه الأحزاب الشيوعية ، الشمولية واليمينية المؤدلجة في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية^(٨) .

تستند هذه القراءة إلى فرضية تقول : إن الدمج السياسي للقوى المحافظة والمتشددة دينياً وإيديولوجياً ، قد يؤوّل إلى « إخراجها » عن سياقها الإيديولوجي وترشيد سلوكها السياسي ؛ ومرد ذلك إلى أنه ثمة ميل لدى الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين إلى إبداء قدر من المرونة في خطابهم وممارستهم ، ولو تكتيكياً في البداية ، من أجل تعظيم مكاسبهم وحماية مصالحهم وزيادة تأثيرهم في « المجال العام » . وقد جرى اختبار هذه الفرضية إمبيريقياً في الكثير من الحالات ، في الدراسات السوسيوبوليتيكية ، في ما بات يعرف اليوم بجدلية : « الدمج والاعتدال

الأزمات والظروف السياسية والاقتصادية أقل حدة ، لجأت هذه الحركات إلى الانخراط في الحياة السياسية العلنية ، وأنشأت بالتالي هيكليات تنظيمية مرئية ، ومارست وظائف سياسية محددة ، معتمدة ما يسمى في لغتها السياسية « فقه المرحلة » أو « الضرورة » ، والذي يرتب عليها انتهاج الواقعية والمرونة السياسية ، بدلاً من الطرح العقدي والجذري ، بهدف الوصول إلى أسلمة المجتمع والدولة ، والتي هي أهداف قصوى صعبة المنال .

لذلك ، يمكن القول إن الثورات الشعبية العربية لم تولد من فراغ ، وهي بالتأكيد ليست نبأً شيطانياً ، أو مؤامرة كما تدعي الأنظمة السلطوية . إنها الانفجار النوعي المترتب على الفشل الكمي المتراكم بفعل سياسات الأنظمة على المستوى التنموي والتربوي والسياسي . فسياسات الاستبداد والإقصاء لم ينتج عنها إلا التهميش والفساد ، ولم تؤدّ إلا إلى تمديد قوانين الطوارئ ، وانتهاك الحريات والكرامات والعنف الأمني المفرط ، فضلاً عن التلاعب بوحدة المجتمعات والتمييز بين طوائفه ومذاهبه بعيداً عن دولة

مقابل الإقصاء والتشدد » ، وثبت أنها تتمتع بدرجة عالية من الاحتمالية^(٩) .

وبعيداً عن التصنيفات الجاهزة والمعلّبة ؛ بل وربما المؤدلجة للحركات الإسلامية ، فإنه من الثابت ومن خلال تقنية « دراسة الحالة » على أي مكوّن سياسي علماني ، وجود علاقة موضوعية بين الفاعلين السياسيين ومجمل الشروط المتوافرة في الحقل الاجتماعي والسياسي المحيط به ، فالإقصاء أو التهميش الذي يتعرّض له أي فريق أو مكوّن سياسي ينعكس تشدداً في خطابه ، في حين أن أولى مخرجات الانداج والمشاركة في العملية السياسية تتمثل بانخفاض وتيرة خطاب الكراهية وبولادة مسيرة الاعتدال (دمع = اعتدال) ، وبالتالي نخلص إلى أنه كلما كانت الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية حادة ومترافقة مع شعور هذه الحركات بأنها مستهدفة بالقمع ، لجأت إلى السرية وإلى الطرح الإيديولوجي الجذري ، وإلى العنف .

وعلى العكس ، كلما كان القمع والاضطهاد أقل ضراوة ، وكلما كانت

المواطنة والعدالة ، وهذه كلها مجتمعة ولد في رحمها جنين الربيع العربي .

نموذج لم يكتمل

قدّمت الثورات العربية نموذجاً جديداً ، لم يكتمل بعد ، وهي حيث أسقطت الرؤساء ، وبدأت رحلة التغيير بانتخابات ديموقراطية ، برز فيها بوضوح أن قوى الثورة المضادة لا تزال قوية ومتجذرة في « الدولة العميقة » ، وقادرة على استعادة أنفاسها بأشكال جديدة ، حتى أصبحنا أمام مشهد ينذر بتفكك الدولة في بعض الحالات ، حيث وضع تعنت حكام الاستبداد ، وتغول أجهزتهم السلطوية البلاد والعباد أمام خيارات الحرب الأهلية أو التدخل الخارجي ، فأنكشفت المكونات السلطوية الأولية لهذه الأنظمة ، فظهرت قبلية ومذهبية وطائفية أو عرقية وجهوية ، معطوفة على فشل تنموي ذريع أمام فجوة متنامية بين الأرياف والمدن وبين الضواحي المهمّشة على أطراف المدن التي يتكدّس فيها الفقر والإهمال والحرمان .

مكوناتها الأولية ، القبلية والطائفية والمذهبية ؛ بل عزّزتها وعمدت إلى توظيفها كأدوات في صراعها لاستحواذ على نصاب السلطة ، فظهر الصراع واضحاً على مساحة العراق ، وعمدت الحكومة المالكية إلى إغراقه بالفساد والدم والمذهبية ، والمشهد مغرق في طائفية ومذهبية في لبنان . وفي مصر عادت المؤسسة العسكرية والدولة العميقة لتمسك بكل الخيوط ، والمحاولات جارية لاستنساخ تجارب مشابهة في كل من تونس وليبيا ، وفي اليمن استخدم التحشيد الحوثي في حرب بائسة ويائسة ، حيث القبيلة والسياسة حاضرة هناك لتطحن الكثير من الأوهام المؤدلجة كما هي في ليبيا^(١٠) ، ويبقى جرحنا الدامي في سوريا ، حيث استنفذ النظام تكوينها السوسيولوجي والطائفي والمذهبي والعرقي ، وأغلق أبواب الإصلاح السياسي حتى انفجرت الأمور ، وانكشفت على واقع دموي مدمر .

يمكن القول إن الدولة العربية الإقليمية فشلت تماماً ، ليس فقط في بناء نماذجها « القومية » ، بل في بناء

والأنكى من ذلك ، أن الدولة العربية القطرية لم تكتفِ بفشلها في إدماج

المذاهب كلها ، دون أن يلغي هذا الهيمنة العليا للشريحة الأكثر نفوذاً حول الحاكم وحاشيته .

يبقى السؤال عن الكيفيات والآليات والأدوات التي استخدمها النظام العربي السلطوي للإمساك باقتصاد بلاده وتعامله مع الثروة الوطني ، والتي قادت إلى كوارث اجتماعية وإلى تهميش قلّ نظيره ؟ يتبعه تساؤل عن تشابه هذه الآليات والأدوات وعلاقة ذلك بانفجار الواقع العربي وتفككه ؟ وهل إنّ التشابه في الآليات والأدوات يعني تشابهاً في النتائج ؟

ابتعت معظم حكومات الدول العربية برنامجاً اقتصادياً استند في غالبه إلى وصفات برنامج الإصلاح الاقتصادي والتكليف الهيكلي لصندوق النقد الدولي ؛ فعلى سبيل المثال أقدمت الحكومة المصرية على إصدار قانون الشركات القابضة عام ١٩٩٣ ، وبموجبه أقدمت على بيع شركات القطاع العام المملوكة للشعب ، وكفّت يدها عن التدخل في العملية الإنتاجية ، وفتحت الباب على مصراعيه أمام رأس المال الأجنبي ، مضافاً إلى

« الدولة » كمؤسسات وإطار للمواطنة ، ومرجعية للحكم والفصل في المنازعات بين الناس ، الذي عادوا وقت الشدة نحو المكوّنات التي سبقتها ، أي عادوا إلى أصولهم ، تماماً كما فعل أهل السلطة حين انكشفوا فتحولوا إلى قبيلة سياسية تحتشد حول عصبوية ما .

الوعي العصبوي في التحليل السوسيولوجي

في التحليل السوسيولوجي لا يمكن للوعي والسلوك الطائفي أو القبلي أو الجهوي وغيره أن يتحرّك إلا ضمن الشبكة المصلحية الاجتماعية التي ترسم حدود الصراع على السياسة والاقتصاد في البلاد . وعلى هذا الأساس ، تصبح المصالح الاقتصادية وشبكات الفساد والمحسوبية والزبائنية ، قوى مهيمنة ، تحتاج إلى الأمن والاستقرار كي تقيّد سياسة الدولة الإقليمية والدولية ، بما يؤمّن ديمومة المنافع والمكتسبات ، بعيداً عن حسابات المنطق الفئوي ، الطائفي أو المذهبي أو القبلي أو غيره ، حيث تجمع شبكات المصالح أطيافاً وشرائح من

الاقتصاد بين القبيلة والعائلة والحرب ، وفي تونس حدث أمر مشابه .

تحجيم الطبقة الوسطى

في المجمل ، أنتج هذا النهج النيو ليبرالي التسلطي تحكّم فئة قليلة جداً من رجال الأعمال في اقتصادات الدول العربية ، على الرغم من أن تجارب عدّة في العالم الثالث أثبتت فشل هذا النهج في تحقيق التنمية الشاملة ، حيث قد ينجح في تحقيق نمو اقتصادي ، لكنّه يخفق في توزيع الثروة ، الأمر الذي يخلق طبقة تزداد ثراءً ، فيما الشعب يزداد فقراً . وهو ما حدث في الدول العربية ، وأدى إلى تقليص الطبقة الوسطى وتحجيمها وإفقارها^(١٣) .

والواقع أن الطبقة الوسطى لم تندثر ؛ بل حدث فيها تغيّر بنيوي ، طال أصولها القديمة « العائلية والعريقة » من « ذوي الياقات البيض » وأصلاّب الأفندية والبورجوازية ، لصالح انبثاق شرائح وسطى جديدة من أبناء الأرياف و« ذوي الياقات الزرق » ، الذين تلقّوا أقساطاً متفاوتة من التعليم ، وتدرّجوا على مراقي الحراك الاجتماعي بأشكال مختلفة ، وزحفوا من

إجراءات تقضي إلى تحرير الاقتصاد المصري وخصخصته . لكن الخصخصة المباشرة ، أو غير المباشرة أفرزت طبقة من رجال الأعمال الجدد احتكرت ثمار النمو الاقتصادي^(١٤) ، فبرزت أسماء شهيرة في مصر كأحمد عز ، وحسين سالم وآخرين ، باحتكارها لقطاعات واسعة من الاقتصاد المصري . أما في سوريا ، فقد احتكر مئة من رجال الأعمال الجزء الأكبر من النشاط الاقتصادي السوري ، وبرز الأقرباء ومن بينهم الأكثر شهرة رامي مخلوف .

ومن المفارقات اللافتة أن الإمارات العربية المتحدة المتحررة اقتصادياً حصرت تشغيل قطاع الهاتف الخليوي ، ذي الربح السريع بالجهات الحكومية ، بينما سوريا والجزائر الحريصتان بشدّة على القطاع العام ، اعتبرت هذا المجال من أولى التلزيّمات للقطاع الخاص في إطار الخصخصة ، وحصرت التشغيل في إطار شركة أو شركتين من الشركات الخاصة المحظوظة ، مما أضاع فرص المنافسة ، وأكّدت الخلفية الربحية والسلطوية لهذه التلزيّمات . وفي ليبيا ، دارت الثروة بين الأبناء والعشيرة ، وفي اليمن ضاع

الرافعة التي نهضت بالتغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مراحل معينة ، وأسست القواعد الحقيقية للثقافة والتغير الديمقراطي .

ما حدث عملياً أن الدولة العربية الحديثة ، إلى جانب الفشل النموي والاقتصادي ، أنتجت تهميشاً سياسياً إلى أبعد الحدود ، يتمثل في عدم تمكين المواطنين من المطالبة بحقوقهم السياسية وحاجاتهم الاقتصادية ، في ظل هيمنة سلطوية ، مترافقة مع تدني الكفاءة الداخلية والخارجية لمؤسسات الدولة ، وتحولها إلى أدوات بيد البيروقراطيات السياسية ، وتحول السلطات التشريعية إلى ملحق بالسلطات التنفيذية ومن يقبع خلفها من تحالف العسكر ورجال الأعمال وأباطرة السياسة ، فضلاً ، عن تفشي الفساد في السلطة القضائية وهشاشة استقلالها .

ولعل أبرز مثال على تعطيل عمل البرلمانات العربية عن القيام بدورها ، تلك النزعة البائسة لتوريث السلطة من جهة ، وتغيب المعارضة من جهة أخرى ، حيث لم يرَ مجلس الشعب المصري في بيع الغاز

القرى النائية والبوادي القصية ، البعيدة عن المركز المدني التقليدي - المتروبول ، وعملوا في أي نشاط وجدوه ، وسكنوا في أي ركن أُتيح لهم ، مما سمي في ما بعد « الأحياء القصديرية » أو « الأحياء الشعبية » ، أو « العشوائية » ، أو « السكن الفوضوي » . هذه الشرائح الوسطى الجديدة اشتغلت في جهاز الدولة ، وتغلغت في النسيج الاقتصادي المتحوّل حضرياً ، وأصبحت عماد المجتمع الجديد . وهو ما أظهرته الحالة التونسية في التفاوت بين الفئات الاجتماعية والمناطق الجغرافية^(١٣) ، وهو أمر مشابه ، حصل في الحالة السورية والعراقية والمصرية ، كما تشير العديد من الدراسات ، حيث شكّل الزحف إلى « المركز » - العاصمة ممّن تم إقصاؤهم بفعل تمركز السلطة - فعل حسم نهائي في انهيار الطبقة الوسطى .

وكلنا يعلم الدور الوطني والتنويري للطبقة الوسطى في فترتها الذهبية ، فهي أدّت دوراً أساسياً في مواجهة الاستعمار ، ثم بعد ذلك في بناء الدولة الوطنية بسبب انتشار التعليم بين أوساطها ، فكانت بمثابة

عدّة إلى النفي الذاتي ، أو التمرد والاحتجاج ، أو الهجرة ، أو إنشاء طرق تعبيرية من الاحتجاج الصامت أو الرمزي أو الخفي ، أو العمل عبر الجمعيات الأهلية والخيرية والتربوية المسموحة ، أو تأسيس جمعيات دينية تعتزل المجتمع أو تنظيمات سرية متطرفة ، وهو الأمر الذي تولد فيه الثقافة التي تسوّغ العنف ، وتكفر السلطات والحكام ومن يدور بفلكهم .

والأخطر من كل ذلك أن بعض هذه الأنظمة لجأ إلى سياسات تستند في ممارستها القمعية إلى عصبية أو تحالف عصبية أهلية طائفية أو مذهبية ، مستخدماً خطاباً مزدوجاً للاستقواء والحفاظ على النظام ، وهو ما أدى إلى إنشاء ميليشيات تابعة له خارج إطار المؤسسات الرسمية ، تمارس العنف المباشر والعملي خارج إطار القانون . هكذا حمت الأنظمة السلطوية نفسها ، لكنها كانت تميّع الحدود بين جهاز السلطة والدولة ، وتغذي « العنف الهوياتي » داخل مجتمعاتها ، الذي هو أحد أبرز مظاهر « العنف البنيوي » السائدة في الأنظمة السلطوية ، والذي تتجلى أبعاده في

الطبيعي وتصديره لإسرائيل بأسعار لا نظير لها في العالم ما يستدعي اعتراضه ، كما فعل نظيره مجلس الشعب السوري الذي لم يثر قضية دفن النفايات السامة إلا عند خروج عبد الحليم خدام من السلطة بعد سكوته طيلة الفترة السابقة عن هذا الأمر ، فضلاً عن مسألة رفع الدعم عن المحروقات التي لم تلقَ اعتراضاً على الرغم من آثارها السلبية على الطبقات الفقيرة على الرغم أن نصف أعضاء المجلس يجب أن يكونوا من العمال والفلاحين وفقاً للدستور السوري .

مضافاً إلى كل ذلك ، مارست النظم السياسية السلطوية العربية سياسات التحكم بمفاتيح الانتظام العام الاجتماعي والسياسي للاحتفاظ بسياساتها وتأجيل مطلب الإصلاح ، وبنت سياساتها هذه على أساس العف وليس القانون ، فتضخمت مؤسساتها القمعية ، وقوانين الطوارئ والمحاكم الاستثنائية ، وجرى أيضاً استخدام العنف خارج هذه الآليات للتنكيل بالمعارضين وإذلالهم ، حتى انتشرت فضائح وفضائح التعذيب في السجون ، واضطرت معها نخب وشرائح

الاجتماعي ، والفوضى وانتشار الجرائم والمخدرات والعشوائيات ، والعجز الكامل أمام تنامي الضغوط السكانية والاقتصادية .

هذا ، فضلاً عن الارتهان الكامل للسياسات الأميركية والغربية ؛ بل وحتى الصهيونية التي أصبحت سفاراتها وأعلامها في بعض العواصم العربية التي « تكافح الإرهاب ! » .

بين شقوق وخطوط الواقع المتردّي دخلت مجتمعاتنا في مشهد مأزوم ، وأصابها الهزيمة من الداخل قبل أن تواجه ضغط الخارج ، وليس عسيراً على أي باحث منصف أن يكشف تلك العلاقة الجدلية بين ثالث البؤس والشقاء العربي المتمثّل بـ « الاستبداد والتخلف والتبعية » وما بينهما من ترابط عضوي وتبادل وتلاحم في الوظيفة والنتائج . فهذا الثالث الشقي تتغذى عناصره بعضها من بعضها الآخر ، وتستقوي إحداها بالأخرى لتشكّل حائط السد « المانع » لأي تغيير نحو نقيضها ، ولو بالإصلاح التدريجي ؛ لذلك ، كان جنين « الربيع العربي » بارقة أمل تم إجهاضه بتواطؤ دولي وعربي ، وهو

المدرسة والأسرة كما في مؤسسات العمل والإنتاج والحياة العامة .

متلازمة الفساد والاستبداد كمنتج موضوعي للتطرف والعنف

لقد أفرز المعطى السوسيولوجي على المستوى السياسي والاجتماعي العربي ، تحالفاً واضحاً بين الاستبداد والفساد ، بين التسلّط والتخلف ، الأمر الذي أشاع أجواءً من عدم الاستقرار السياسي الداخلي في ظل غياب كامل للديموقراطية . في مثل هذه الظروف من الطبيعي أن تنامي الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية ، خصوصاً في ظل غياب المؤسسات المدنية القادرة على إدماج المواطنين وحمايتهم من تعوّل الأجهزة السلطوية الأمنية والاقتصادية .

لقد كان من أبرز منجزات الأنظمة السلطوية ومخرجاتها بعد عقود من تراكم الأخطاء والخطايا ، هزائم عسكرية ، وأمراض ثقافية وانهيار شامل لمنظومة القيم الوطنية الجامعة ، فضلاً عن تفكك القيم الأخلاقية والثقافية ، وتراجع مستويات التعليم ، وتزايد مظاهر العنف

الجميع في فخ ثقافة القطيع ، تلك هي إشكالية الهوية والمغايرة التي يتغذى في فضائها الخطاب الديني والمذهبي المسيّس بكل تياراته .

التطرف الديني والمذهبي بكل أشكاله الذي انفجر حولنا بشكل وحشي ، حيث الكل يكفر الكل ، إنما هو ثمرة للنظام التسلطي العربي الذي لم يتردد لسنوات عن تخوين مخالفيه أو معارضيه ، وبالتالي من أن يجعل مصيرهم بين القبور أو السجون أو المنافي . والأخطر أنه وعلى الرغم من العنف غير المسبوق في تاريخنا المعاصر ندخل مرحلة جديدة من محاولة إعادة إنتاج ، أو تجميل للأنظمة التسلطية بذريعة صدّ الإرهاب والعنف التكفيري العابر للحدود ، وإعطاء الأولوية للحلول الأمنية ، وكأن العقل المأزوم لم يكتشف بعد أن محاربة التشدد المذهبي والطائفي لا تتم بتشدد يقابله .

إن هذا العقل المأزوم لم يكتشف بعد أن التكفير والتخوين ، والإقصاء والتهميش لا ينتج إلا وعياً شقيّاً يدور حول مثلث الموت ومخرجاته المتمثل بـ « الطغاة والغلاة والغزاة » . تلكهي

ما شكّل الفرصة الذهبية الجديدة لصعود جديد لتيار التطرف والعنف حولنا .

ثالوث البؤس والشقاء هذا أنتج « وعياً شقيّاً » جديداً لا يرى مانعاً من التحالف مع « الشيطان » لمواجهة منظومة التطرف الصاعدة ، أو الانخراط في دوامة التطرف والتوحش القاتلة لمواجهة « الطغاة والغزاة » الجدد على وقع عصبيات انفجرت ، هويات تضخّمت ، حتى بدأت بالتشطي ، واستحالت إلى سياج لا يسمح للعقل بأن يخترقه ، ولا لـ « الجماعة » بأن تخرج عن طوقه .

الهويات المتشظية اليوم في العالم العربي أطاحت بالهوية الجامعة ، وأصبحت هي محرك العقل الجمعي ، وهي ما تجعله ذا نزعة أقلوية تتوجس من المختلف ، تخوّنه وتشيطنه حيناً ، وتكفره حيناً آخر . وهذا ما يجعل من الصعوبة بمكان تصوّر الهوية الفرعية كمحدد للخصوصية ومصدر غنى للمجتمع ، بقدر ما تجعلها آلية لتأكيد الذات ونفي الآخر ، وأداة لشد العصب والحشد الشعبي الطائفي والمذهبي والاثني . تلك هي الإشكالية التي يتأسس في مناخها « الوعي الشقي » ، حيث يقع

« تنبيه الأمة وتنزيه الملة في وجوب المشروطة » والذي يعتبر وثيقة فكرية راديكالية نادرة وراقية تعبّر عن مدى نضج الخطاب الإصلاحي الإسلامي في المجال الشيعي ، حيث اعتبر أنه لا فرق بين السجود للفراعة والطواغيت وبين الانقياد الأعلمي للإكليروس الشيعي الذي يمّوه سلطته الاستبدادية بوظيفته الدينية ، مقارناً ذلك بالإكليروس المسيحي في القرون الوسطى^(١٤) ، مؤسساً بذلك لنظرية ولاية الأمة على نفسها .

القارئ والمدقق في « طبائع الاستبداد » و« تنبيه الأمة » والمقارن بينهما ، يجد أشكال التناس ووضحة الدلالة بينهما ، وحاضرة على المستوى الدلالي ؛ بل على المستوى الغوي^(١٥) ؛ بل في تصديده لمن يسميهم بعض المتعممين ولصوص الدين وعبدية الظالمين « أنصار المستبدة » وفي تعريفه للاستبداد ، الذي يقول فيه الكواكبي : الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : « أنا الشرُّ ، وأبي الظلم ، وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، وأختي المسكنة ، وعمي الضّر ، وخالي الذلّ ، وابني الفقر ، وابنتي البطالة ، وعشيرتي

المتتالية التي عشنا في دؤامتها سنوات القلق والدم والهزيمة ، ونعيش اليوم ذروة صعودها مع مشاهد لرؤوس تقطع ، وأجساد تحرق ، وبراميل متفجرة تمحو أحياء وأسواقاً ومدناً بكاملها ، وميليشيات هنا وهناك ترفع الرايات الطائفية والمذهبية الصافية على أنقاض من بقي من إنسان عربي لا يزال يقاوم حاملاً الراية والهوية العربية الصافية .

رحم الله عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥ - ١٩٠٢) في سفره الرائع « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » حينما حذّر من مخاطر الاستبداد السياسي والديني في مقاربة تعبّر بدقة عن حالنا : « ... إن لم يكن يوجد تولياً بينهما ، فهما أخوان ، أبوهما التغلب ، وأمهما الرئاسة ، أو هما صنوان قويان ، بينهما رابطة الحاجة إلى التعاون لتذليل الإنسان ... هذا التشاكل بين القوتين ينجّر بعوام البشر ، وهم السواد الأعظم ، إلى نقطة أن يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر ... » . وهو ما ذهب إليه وتكامل معه منظر « المشروطة » الإمام النائيني (١٨٦٠ - ١٩٣٦) في كتابه :

والسياسية والتي أفقرت « الفقه العقلاني » إلى أبعد الحدود وجعلته أسيراً للنقول والشروح والمتون والحواشي .

في الخلاصة ، كل هذا صحيح ، لكن يبقى العامل السوسيولوجي يتقدّم على العامل الإيديولوجي أو على الأقل يتلازم معه في أيّ مقارنة جادة وموضوعية لمواجهة وحش التطرف والتشدد الطائفي والمذهبي ؛ ذلك أن التعامل مع البيئة الحاضنة ومع المدخلات والمسببات ، يتقدّم على التعامل مع المخرجات والمحصلات . فالمواجهة فكرية وثقافية ، كما هي أيضاً سياسية وتنموية ، قبل أن تكون أمنية فقط ، وتتمثل في ترسيخ قيم الديمقراطية وثقافة التعددية والمساءلة والمحاسبة ، وقيم المواطنة ودولة القانون والمؤسسات . أما الدولة التسلطية ، فهي الحاضنة والمولدة للفساد والتخلف والتطرف ، وجالبة لكل أنواع التدخلات الأجنبية .

الجهالة ، ووطني الخراب ، أما ديني وشرفي فالمال المال المال .

لا تقلل هذه المقاربة من أهمية التغذية الفكرية والإيديولوجية ، ذلك أن تراثنا الديني في مباحثة المحورية ينهض على تقديس النصوص وسيطرة الإطلاقيات ، ونبذ الاجتهاد العقلي ، وهو ما أدى إلى التعصب المذهبي وسد المنافذ أمام المحاولات الإصلاحية خشية المساس بالمقدّس ، والخروج على الثوابت غير القابلة للتأويل . لقد أنتج كل ذلك أوهاماً تاريخية ألصقت بالدين ، تدّعي كل منها امتلاك الأحقية التاريخية والحقيقة الدينية ، وترفض التفسيرات والتأويلات الأخرى ؛ بل إن بعض الغلاة في كل فرقة ومذهب يفسّقون ويكفّرون من يخرج على ما يمكن تسميته بـ « فقه اليقينيّات » الشائعة ، والتي تلامس الأساطير والأوهام ، والتي لم تنفصل يوماً عن « فقه الطغيان السلطاني » بكل أبعاده التاريخية

الهوامش:

- (١) جوليان فروند، سوسيولوجيا ماكس فيبر، مركز الإنماء القومي، بيروت لا تا، ص ٤٨.
- (٢) لمزيد من التوسع انظر كتابنا: صناعة الإرهاب، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٣٦.

(٣) حسنين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٨.

(٤) مايكل هاردي وأنطونيو نيغري، الإمبراطورية: إمبراطورية العولمة الجديدة، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢، ص ٢٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(٦) صوئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، ترجمة: مالك عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٩٩٩، ص ٨٧.

(٧) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص ٥٠.

(٨) John Voll and John Esposito, «Islam democratic essence» Middle east quarterly, September ١٩٩٤, p ٣-١١.

(٩) عبد الغني عماد، الإسلاميون بين الثورة والدولة: إشكالية إنتاج النموذج وبناء الخطاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٤، ص ١١٨.

(١٠) انظر: الدراسة المهمة للدكتور محمد نجيب بو طالب، الأبعاد السياسية للظاهرة القبلية في المجتمعات العربية: مقارنة سوسيولوجية للثورتين التونسية والليبية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١١.

(١١) انظر دراسة: خالد كاظم أبو دوح، «قراءات في الحركات الاحتجاجية العربية»، ملف المستقبل العربي، العدد ٣٨٧، أيار / مايو ٢٠٠٠، ص ١١٣ - ١٣٠.

(١٢) انظر في هذا المجال: تحليل جاك قبانجي، الربيع العربي إلى أين؟ أفق جديد للتغيير الديمقراطي (عمل جماعي)، صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١١، ص ١١٩.

(١٣) انظر في هذا المجال: محمد عبد الشفيق عيسى، «فروض نظرية على محك الخبرة الثورية في تونس ومصر»، ملف المستقبل العربي، العدد ٣٨٦، نيسان / أبريل ٢٠٠٠، ص ١٣٣ - ١٣٨.

(١٤) محمد حسين النائيني، تنبيه الأمة وتنزيه الملة في وجوب المشروطة، القسم الثاني، ص ١٢٨: انظر أيضاً: تحليلاً أوسع لأفكاره في كتابنا: حاكمية الله وسلطان الفقيه: قراءة في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ص ١٣٢ - ١٤٢.

(١٥) انظر: الدراسة المهمة لمحمد جمال باروت، الكواكبي والنائيني: جوانب غير مكتشفة على الرابط:

www.daralameer.com/newsdetails.php?id=٢١٦&cid=٣٥

منظومة القرآن الكريم في علاج المفسد الإجتماعية

السيد محمد الموسوي الغريفي

المجتمعات وكل الدول وتعالى النداءات
إلى إدانتها والحد من انتشارها ووضع
الصيغ الملائمة لذلك .

(المفسد) هي من الظواهر
الإجتماعية التي لا يكاد يخلو مجتمع منها
قديماً وحديثاً ، بما فيها المجتمع الإسلامي
على الرغم من الطهر والعفاف والنقاء التي
ميزت الفكر الإسلامي على مر العصور
والأزمنة . فهي ظاهرة عالمية تشكو منها
كل المجتمعات ، لما لها من خطر على
الأمن الاجتماعي وجميع جوانب الحياة ،
ومن هنا حازت هذه الظاهرة على اهتمام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على نبيه ورسوله الهادي المبعود
ليتمم مكارم الأخلاق ، وعلى أهل بيته
الطيبين الطاهرين ، وبعد :

إن الحديث عن الفساد لا يخص
مجتمعا بعينه أو دولة بذاتها ، وإنما هو
ظاهرة عالمية تشكو منها كل الدول ، لما
له من خطر على الأمن الاجتماعي والنمو
الاقتصادي والأداء الإداري ، ومن هنا
حازت هذه الظاهرة على اهتمام كل

المتناسبة مع هذا التحقيق المختصر ،
ونسأل من الله التوفيق والسداد .

المفاصد في اللغة والإصطلاح :

المفاصد في اللغة جمع (فاسد) وهو
بمعنى (نقيض الصلاح)^(١) ، ومصدره
(المفسدة) بمعنى (خلاف
المصلحة)^(٢) ، ومشتق من الفعل الثلاثي
(فسد) الذي هو : (ضد صلح)^(٣) ،
وقولنا : (فسد الشيء) بمعنى بطل أو
أضحل أو تغير^(٤) .

وأما المفاصد في الإصطلاح فهو نفس
معناها اللغوي من الأبطال والتخريب
والاضمحلال وما شابه ذلك من المعاني
التي بمعنى التغيير في طبيعة الأمور لا
على وجه الإصلاح . ومصاديق هذه الأمور
تختلف باختلاف الأشياء ، مثلاً قوله
تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾^(٥)
فسر الفساد بالقحط وقلة الربيع في الزراعات
والبیوع ومحقق البركات من كل شئ^(٦) .

المفاصد الإجتماعية في الإصطلاح :

البحث عن المفاصد التي يوجد

كل المجتمعات وكل الدول وتعالى
النداءات إلى إدارتها والحد من انتشارها
ووضع الصيغ الملائمة لذلك .

وكان الأنبياء والرسل والكتب السماوية
أول من وقف بوجه المفاصد الإجتماعية
ووضع العلاجات المناسبة لحلها ، وكان
خاتمها القرآن الكريم المنزل على الرسول
الأمي محمد بن عبد الله ﷺ .

السؤال المهم الذي يطرح نفسه :
(ما هو علاج المفاصد الإجتماعية الذي
طرحه القرآن الكريم ؟) .

وقبل الجواب عن هذا السؤال يلزم أن
نبحث الأمور التالية :

١- ما هو المراد من المفاصد
الإجتماعية في اللغة والإصطلاح
وأوانعها ؟ .

٢- ما هي أسباب المفاصد الإجتماعية
من وجهة نظر القرآن الكريم ؟

وبعد الإجابة على هذين السؤالين في
مقدمة البحث يمكننا الشروع بعد ذلك في
بيان أطروحة القرآن الكريم لعلاج المفاصد
الإجتماعية بجميع تفاصيلها وتوضيحاتها

الإنسان لا تخلو عن حالتين :

أنواع المفسد الاجتماعية :

المفسد الاجتماعية لها مصاديق عديدة في المجتمعات البشرية ، ولكنها تنقسم إلى سبعة أقسام أساسية وهي كالتالي :

١- المفسد الشخصية : وهيا لأفعال السيئة التي قد يوجد بها بعض الأشخاص وليس لها تأثير على المجتمع .

٢- المفسد الاجتماعية : هي الممارسات والتصرفات والعادات السيئة في بعض المجتمعات التي تنشأ من الانحراف في طبيعة العلاقات الاجتماعية ، لتؤثر سلباً على مسيرة المجتمع وحركته نحو الأهداف السامية التي حددها البارئ عز وجل وجعلها غاية لخلق البشر . كانتشار ظاهرة القتل أو السرقة أو شرب الخمر أو الزنا أو غير ذلك من الظواهر السيئة المنتشرة في بعض المجتمعات .

١- المفسد الإجرامية : وهي الاعتداء على الناس جسدياً بالضرب وإزهاق الأرواح وسفك الدماء بغير الحق . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ^(٧) .

٢- المفسد الاقتصادية : وهي التصرف في الأموال الباطل والاعتداء على أموال الناس وبغير رضا أصحابها . كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ ^(٨) .

وحقيقة المفسد الاجتماعية هي أمراض سلوكية معدية تسري بين أفراد المجتمع وتسبب لهم حالة من الإدمان النفسي ، وتوجد عادات وأخلاق اجتماعية خاطئة تهدد بإهلاك النسل والحرث وفقدان الأمن في هذه المجتمعات . وهي لا تقل خطورة عن الأمراض الجسدية والفايروسية كالطاعون والإيدز وما شابههما .

٣- المفسد الجنسية : وهي الاعتداء على الأعراض وإشاعة الفحشاء والمنكرات في الغريزة الجنسية . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٩) .

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسَدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾ .

أسباب المفساد الإجتماعية

من أجل إيجاد العلاج المناسب للمفساد الإجتماعية لابد من معرفة أسبابها الرئيسية التي أوجدتها ، وبدون معرفة الأسباب لا يكون العلاج ناجح ومفيد . وقد ذكر القرآن الكريم سببين رئيسيين للمفساد الإجتماعية وهي كالتالي :

السبب الأول : طبيعة خلق الإنسان

أن الطبيعة التي خلق الله تعالى الإنسان عليها لها قابلية الفساد في الأرض ، كما لها قابلية التقوى وخلافة الله في الأرض ، والأسباب التي أوجدت قابلية الفساد في طبيعة خلق الإنسان عديدة ، نذكر منها الأسباب التالية من وجهة نظر القرآن الكريم :

١- حب الإنسان للشهوات : قال الله

تعالى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ

٤- المفساد المعنوية : وهي الاعتداء

عليها الكرامة والحريات والأموال الشخصية . كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكْتَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٠) .

٥- المفساد الفكرية : وهي الاعتداء

على العقول بالقاء الشبهات وأفكار الضلال والأكاذيب . كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴾ (١١) .

٦- المفساد السياسية : وهي غصب

حق الأولياء الشرعيين والخروج عليهم وإثارة الفتن والخلافات والصراعات بين الناس . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (١٢) .

٧- المفساد الشرعية : وهي فعل

المحرمات وترك الواجبات التي أمرنا الله بها . كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

هذه العداوة هي التي تؤدي الى سفك الدماء والقتل .

٥ _ أملاك الإنسان للاختيار والإرادة :

كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(١٨) وقوله تعالى : ﴿ فَالْهُمْهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(١٩) . فهذه القدرة على الاختيار والإرادة تجعل من الإنسان غير مجبور على الطاعة بل هو مخير بين الطاعة والعصيان .

٦ - الجهل بحقائق الأمور : كما في

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢٠)

٧ - أمكانية الطغيان عند الإنسان : كما

في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾^(٢١) .

هذه أهم الأسباب وهناك أسباب أخرى كثيرة أمثال : ضعف الإيمان ، عدم اطلاع الإنسان على الملكوت وما وراء الغيب ، طول الأمل ، نسيان الموت ، تأثير المادة والحواس على فكر الإنسان ، ... الخ .

لذلك نجد بأن الملائكة قد تبادر لهم

مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ^(١٤) . خلق الله تعالى الإنسان من عقل وشهوة ، بينما خلق الملائكة من عقل دون شهوة ، وخلق الحيوان من شهوة دون عقل . والإنسان إذا تغلب عقله على شهوته كان أفضل من الملائكة ، وإذا تغلبت شهوته على عقله كان أضل من الحيوان ، وهذه الشهوات الموجودة عند الإنسان هي التي تدفعه لمخالفة العقل وعصيان الله تعالى والفساد في الأرض .

٢ - أملاكه للنفس الأمارة : كما في

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي - إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾^(١٥) فهذه النفس هي التي تأمر الإنسان بالفساد والظلم .

٣ - أصابة القلوب بالأمراض الروحية :

كما في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١٦) كانوا يَكْذِبُونَ^(١٦) فمن يقوم بالمفاسد الاجتماعية هم أصحاب القلوب المريضة .

٤ - وجود العداوة بين أبناء آدم : قال الله

تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(١٧)

الجن منعه الحسد والتكبر من السجود والطاعة لأمر الله تعالى ، فأمر الله تعالى بطرده من ملكوت السماء وأهباطه الى الأرض ، ولكن إبليس الرجيم أزداد حقه على آدم ﷺ وذريته وأراد الإنتقام منهم ، فطلب من الله تعالى أن يمهله ليوم القيامة لأغواء بني آدم وأيقاعهم في المفساد والمعاصي ، فاستجاب له ليكون اختبار وفتنة لبني آدم وليعلم المؤمنين والمخلصين منهم . وقد نقل لنا القرآن الكريم هذا الحوار في آيات متعددة من القرآن الكريم ، وحاصله كالتالي :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٢٥) .

قَالَ إِبْلِيسُ : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٢٦) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٢٧) .

قَالَ إِبْلِيسُ : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢٨) .

الاستغراب حينما خلق الله تعالى آدم ﷺ ، وأخبرهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢٩) كان استفهاماً استغرابياً عن إنشاء هذا المخلوق الجديد ، وذلك بقولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (٣٠) . ومعنى ذلك بأن الأرض كانت مكاناً يسوده الإطمئنان والسلام والهدوء لا فساد فيها ولا خراب ولا تجاوز ولا تعدٍ حتى كان هذا المخلوق الذي هو مبدأ الفساد وسفك الدماء ، وكان الرد الرباني على هذا الاستغراب الملائكي : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣١) ، إشارة إلى سر في هذا المخلوق وحكمه في وجوده على الأرض وطبيعته ومسيرته وتكامله فيها ، ولعل في الجواب الإلهي للملائكة إقراراً بهذا الجانب في الظاهرة الإنسانية وكأن الفساد وسفك الدماء ملازمان لطبيعة الإنسان .

السبب الثاني : وسوسة الشيطان

عندما خلق الله تعالى آدم ﷺ أمر أهل السماء بالسجود له ، فسجد جميع الملائكة لآدم ﷺ إلا إبليس الذي كان من

ومن أساليب الشيطان الرجيم التي ذكرها القرآن الكريم في الوسوسة لبني آدم

مايلي :

١- التدرج في إيقاع فرائسه بالمعاصي :

كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٢٨) .

٢- أمره بالسوء والفحشاء : كما في قوله

تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩) .

٣- الوعود والأمانى الكاذبة : كما في

قوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٤٠) .

٤- امتلاكه للجنود : كما في قوله

تعالى : ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (٤١) وهم من الأنس والجن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٤٢) .

٥- امتلاك قابلية الوسوسة والإيحاء :

كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ (٤٣) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (٤٤) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (٢٩) .

قَالَ إِبْلِيسُ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٠) . ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٣١) . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٣٢) . ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣٣) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ (٣٤) . ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (٣٥) . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٦) . ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٣٧) .

وفي النتيجة إن الشيطان الرجيم بسبب عداوته لآدم عليه السلام أخذ على عاتقه أن يوسوس لأبناء آدم ليبعدهم عن طريق الهداية والصراط المستقيم عبر وسوساته التي يزرعها في قلوبهم ، حيث أن الوسوسة من أهم مناشئ الفساد وفعل المعاصي فتزني للإنسان الانحرافات وتجعله عبد الشهوة واللذة والرذيلة .

الإجتماعية) على أساس المبانى المادية أو على أساس مباني الأديان السابقة على الإسلام ، وجميع هذه المحاولات لم تنتج لأنها استندت على مباني محرفة أو خاطئة في تشخيصها للرؤية الكونية أو لطبيعة خلق الإنسان أو لحقيقة المفاصل أو غير ذلك .

بينما القرآن الكريم معجزة الله الخالدة الذي بين أيدينا ، وكلامه المعصوم الخالي من التحريف والأخطاء والأشتباه ، والعالم بحقائق الأمور وخفاياها من لدن بارئ الخلائق وقوامهم . قال الله عنه : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٩) .

يشتمل القرآن الكريم على منظومة عملية متكاملة لعلاج المفاصل الاجتماعية تبدأ من الإيمان بالله تعالى والمبدأ والميعاد والرسول وإقامة الشرائع السماوية ومحاربة الكفر والظلم والفساد من على وجه الأرض . قال الله في محكم كتابه العزيز :

١- ﴿ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٥٠) .

٢- ﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (٥١) .

٦- مجادلة أهل الحق : كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٥٥) .

٧- منع المؤمنين من طريق الحق : قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٤٦) .

٨- تعدد الأساليب والطرق : كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لِمَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٤٧) .

٩- الاستفادة من الخمر والقمار والأصنام : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ - وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٤٨) .

وهناك أساليب أخرى كثيرة نعرض عن ذكرها للإختصار .

علاج القرآن الكريم للمفاصل الاجتماعية

بحث الكثير موضوع (علاج المفاصل

ينقسم الى صنفين (إيجابي وسلبي) :

الأول : العلاج السلبي :

الذي يعتمد على أدوات الردع ووسائل العقاب القضائية التي يلجأ إليها عادة لمعاقبة المجرمين والمفسدين وللحيلولة دون انتشار المفاصد في المجتمع .

الثاني : العلاج الإيجابي :

الذي يعتمد على الأساليب التربوية التي تكسب الإنسان منعة ذاتية وارتداداً إرادياً ، حتى لا تصل النوبة معها الى وسائل العقاب القضائية المعتمدة في الشريعة الإسلامية .

في عالم التربية يُقدّم هذا النوع من العلاجات على النوع الأول في الأهمية ، ورغم ذلك يسرع المربّون عادةً إلى استخدام النوع الأول لأنه أسهل تناولاً ، ولأن أساليبه تحدث ردعاً فورياً مما يوهم أنها أوصلت إلى الهدف بيسر وفعالية ، لكنّ الدقة والتأمل يكشفان أن الارتداد الآتي نتيجة الخوف من العقاب سرعان ما يرتفع عند ارتفاع أسبابه ، فيستمر الارتداد باستمرار الرادع وعند بقاء الخوف ، فإذا غاب الرادع وزال الخوف أو

٣- ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥٢) .

٤- ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٥٣) .

أقسام العلاج للمفاصد الاجتماعية

ويمكن تقسيم هذه العلاجات للمفاصد الاجتماعية في المنظومة القرآنية الى نوعين :

الأول : العلاج الإيماني العقائدي :

يعتمد على الأسلوب الإيماني والفكري للإنسان ، ليكون الإيمان بالغيب هو المانع عن فعل الفساد والظلم في المجتمع ، أي من خلال الإيمان بأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء وأنه يعاقب المفسدين في يوم الحساب .

الثاني : العلاج التشريعي القانوني :

يعتمد على تشريع القوانين والأحكام لتنظيم حياة المجتمع ومنع الفساد والظلم ، ومجازات المخالفين والمقصرين .
كما أن كل واحد من هذين النوعين

والميعاد ؛ لأن تقوية الإيمان والمعرفة بصفات الله تعالى وقدرته تكسب الإنسان الرؤية الكونية الصحيحة والهدف وروح شكر المنعم وتجنبه الضلال والضياع والتهيه وتعطيه منعة ذاتية وارْتداعاً إرادياً من إرتكاب المفاصد والمعاصي التي تغضب رب الجلالة .

فلا بدّ من بناء القاعدة الفكرية والعقائدية للمجتمع ، وربط الحياة الدنيوية التي يعيشها الإنسان بالمبدأ من جهة والمعاد من جهة أخرى لتكون مرحلة في سياق متّصل بما قبلها وبما بعدها ، وعندئذٍ يجد العاقل أنه لا محيص عن التعاطي مع تفاصيل الحياة الدنيا وما فيها من متع وشهوات ونعم وملذّات وما يشوبها من بلاءات ومصائب وغموم ومصاعب باعتبارها حالة برزخية مؤقتة ومرحلة عابرة تؤسس لما بعدها ، مما يفرض عدم الاستغراق في لذّاتها بما يضرّ بحياته الأخرى ، وعدم الجزع لهماومها وبلاءاتها ، بل يؤخذ منها بالقدر الذي لا يتعارض مع ما بعدها من مراحل وما ينتظر من مصير ، وفي المقابل يجب الصبر والتحمّل لأن الفرج آتٍ لا محالة .

ضعف تأثيره أو تمكن المستهدف من التهرب منه والتمرّد عليه عاد من حيث بدأ ، على خلاف الوسائل الإيجابية التي تستهدف إكساب الإنسان ملكة الصلاح والفضيلة ، والامتناع عن المفاصد الاجتماعية ذاتياً حتى في غياب الرقيب والأمن من العقاب . لذا ، نجد الإسلام يعمل في تشريعاته على الخطّين معاً ويولي الوسائل التربوية الإيجابية الاهتمام الأكبر ، ويقنّن في الوقت ذاته الحدود والتعزيرات لردع الحالات التي لا تستجيب للعلاجات الإيجابية .

وبالجمع بين هذين التقسيمين يكون في القرآن الكريم أربعة محاور من العلاجات للمفاصد الاجتماعية :

الأول : العلاج الإيماني الإيجابي

الثاني : العلاج الإيماني السلبي

الثالث : العلاج التشريعي الإيجابي

الرابع : العلاج التشريعي السلبي

وتفصيل الكلام في هذه المحاور كالتالي :

الأول : العلاج الإيماني الإيجابي

العلاج الذي يعتمد في تربية الإنسان على تقوية الإيمان بالله تعالى وبالمبدأ

ملازمة للتبري من أعداء الله : كما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ ﴾ (٥٨) .

٣- الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر مصاحب للأمر بالمعروف ومحاربة الفساد : كما في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ ﴾ (٥٩) .

٤- الإيمان برسالة الأنبياء ودورهم في التزكية والتعليم وإيصال الرسالة : كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ۖ ﴾ (٦٠) .

٥- الإيمان والعمل الصالح ثوابه الجنة : كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُّزِقُوا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ﴾ (٦١) .

الثاني : العلاج الإيماني السلبى

العلاج الذي يعتمد في تربية الإنسان على الخوف من الله تعالى والوعيد الإلهي

هذا المحور هو الأساس في العلاج الإيجابي للمفاسد من وجهة نظر الدين الإسلامي ، وهو أساس التغيير الجذري ، وعلى ضوئه يتميز الناس في أدائهم وسلوكهم ، فأهل الدنيا يعملون من أجلها ويحرصون على استنفاد كل ما بوسعهم للفوز بلذاتها ولا يحسبون لآخرتهم حساباً ، بينما في المقابل أهل الإيمان بالآخرة يتعاملون معها بطريقة أخرى .

الآيات القرآنية التي في هذا المحور كثيرة جداً ، نذكر منها على سبيل المثال مايلي :

١- الإيمان بأن الله ولي الذين آمنوا : كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ ﴾ (٥٤) . الولي بمعنى أن الله هو قائد المؤمنين وهاديهم (٥٥) ، وقيل أنه نصيرهم ومعينهم (٥٦) ، وقيل أنه محبهم ومتولي أمورهم (٥٧) ، وأي واحد من هذه الأقوال يحقق المطلوب بأن الإيمان يبعد من ولاية الشيطان وفعل المفاسد والمعاصي .

٢- الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر

ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٦٥﴾ .
وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا
بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بِئْسَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٦٦) .

٥- الاعتقاد بالبلاء الديني للمجرمين :
كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴾ (٦٧) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ
أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
العَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٦٨) .

٦- لزوم الحذر من مكر الله تعالى : كما
في قوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٦٩) . وكذلك قوله تعالى :
﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْحَاسِرُونَ ﴾ (٧٠) .

٧- لزوم التقوى والخشية من الله تعالى :
كما في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي
نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا
يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٧١) .
وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٧٢) .

بالعقاب والعذاب بنار جهنم في الآخرة ، أو
بتعجيل العذاب على الكافرين في الدنيا
لينتج من ذلك حالة التقوى التي تجنب
الإنسان من فعل المعاصي وأقتراف
المفاصد الاجتماعية . وفي هذا المحور
يوجد المئات من آيات الذكر الحكيم ، نذكر
على سبيل المثال مايلي :

١- الاعتقاد بأن الله شديد العقاب : كما
في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ
العَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
العَذَابِ ﴾ (٦٢) .

٢- الاعتقاد بأحباط أعمال المفسدين :
كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٦٣) .

٣- الاعتقاد بأن لا خشية إلا من الله :
كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٦٤) .

٤- الاعتقاد بتعجيل العقاب في الدنيا :
كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

الثالث : العلاج التشريعي الإيجابي

العلاج الذي يعتمد في التربية على أسلوب تشريع القوانين والأحكام التي تكسب الإنسان منعة ذاتية وارتداعاً إرادياً من فعل الفساد والظلم والمعاصي ، وحتى لا تصل النوبة معها الى وسائل العقاب القضائية المعتمدة في الشريعة الإسلامية . وأغلب التشريعات الإسلامية تقع في هذا المحور أي التشريعات الإيجابية ، مثل التشريعات العبادية ، والعائلية ، والمالية ، والسياسية ، والتربوية ، و... الخ . وحاصل الكلام فيها كالتالي :

أ- التشريعات العبادية

وهي التشريعات التي شرعها الله تعالى لعبادته ، كالصلاة والصيام والحج . فإنها خير رادع إيجابي عن المفاسد الاجتماعية ، لما فيها من تهذيب للنفوس وتقوية للإرتباط مع الله تعالى .

والآيات التي تذكر العبادات كثيرة جداً اخترنا منها مايلي :

١- العبادة هي غاية الخلق : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٧٣) غاية الخلق هي العبادة لله

تعالى وهي على نقيض مع معصية الله تعالى والفساد الإجتماعي .

٢- لزوم العبادة المخلصة لله تعالى : كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾^(٧٤) الإخلاص في الدين يتناقض مع المعصية والفساد والظلم .

٣- الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر : كما في قوله تعالى : ﴿ وَاقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(٧٥) .

٤- الصيام طريق إلى التقوى : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٧٦) فالصيام هو عبادة لتربية الإنسان على التقوى وإبعاده عن المعاصي والمفاسد .

٥- الحج هو لزيادة التقوى : كما في قوله تعالى : ﴿ الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٧٧) فالحج هو عبادة للإستزادة

الكثير الكثير من حالات الخلاف المالية والتجارية وما يحصل بين الشركاء سببه عدم الوضوح في تفاصيل العقود والاتفاقات أو عدم توثيق ما اتفق عليه ، مما يفتح الباب أمام الشيطان وما تسوّل به النفس الأمّارة بالسوء .

ويوجد في القرآن الكريم الكثير من الآيات ترتبط بالأحكام العائلية ، نذكر على سبيل المثال مايلي :

١- أباحة الزواج : كما في قوله تعالى :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٨) .

٢- أباحة تعدد الزوجات : كما في قوله

تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (٧٩) .

٣- أباحة الزواج المؤقت : كما في قوله

تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٨٠) .

من التقوى وترويض النفس على ترك المحلات تفضلاً عن المعاصي والمفاصد .

ب- التشريعات العائلية

وهي التشريعات التي شرعها الله تعالى لصيانة كيان الأسرة وحفظ الأنساب والسيطرة على الغريزة الجنسية ، مثل تحليل الزواج وتحريم السفاح والواط والفواحش .

يعتمد الإسلام بعض الإجراءات الوقائية ، التي تحول دون حصول المشكلة ، وهي إجراءات تنطلق من ضرورة توخي الحذر عندما يكون هناك أي خطر محتمل ، من قبيل الحد من الاختلاط ، والفصل بين الأطفال في المضاجع عند عمر العشر سنوات فصاعداً ، وإزالة عوامل الإثارة الجنسية ، واعتماد وسائل أمينة للحيلولة دون قيام من تسول له نفسه بما يريد من تعدي على الحقوق ، كما في الحث على كتابة العقود والديون والإشهاد وأخذ الرهان وغير ذلك من إجراءات تقلّل من فرص التجاوز . فالمثل السائد يقول : " المال السائب يعلم الناس على السرقة " ، وهذا باب واسع جداً ، فلعل

٤- تحريم الزواج من المحارم : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٨١) .

٥- تحريم الزنا : كما في قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٢) .

٦- تحريم اللواط : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (٨٣) .

٧- وجوب الحجاب على المرأة : كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ

مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَخْفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨٤) .

٨- حرمة اتهام الآخرين بالفاحشة : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٨٥) .

٩- حرمة النظر بشهوة لغير ما أحله الله : كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَخْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٨٦) .

١٠- وجوب العفة على العزاب : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٨٧) .

١١- إدارة الأسرة بيد الزوج : كما في

١- وجوب إقامة الدين (الحكومة الإسلامية) : كما في قوله تعالى : ﴿ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ (٨٩) .

٢- مشروعية الحكم لله تعالى : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٠) بمعنى أن لله تعالى ولاية الحكم أولاً وبالذات ، ثم ثانياً وبالعرض قد يمنح هذه الولاية لمن يشاء .

٣- مشروعية حكومة الأنبياء والأوصياء والفقهاء : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ (٩١) بمعنى الذي يحكم بالكتب السماوية ثلاثة أصناف : (النَّبِيُّونَ) وهم الأنبياء ، (الرَّبَّانِيُّونَ) وهم الأوصياء ، و (الْأَحْبَارُ) هم علماء الشريعة .

٤- تنصيب الأنبياء للحكم : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ (٩٢) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا

قوله تعالى : ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لَلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ (٨٨) .

ت- التشريعات السياسية

وهي التشريعات التي شرعها الله تعالى بتنصيب أولياء الأمر لإدارة شؤون الأمة الداخلية وعلاقاتها بالأمم الخارجية . ولها دور كبير في محاربة المفساد الإجتماعية ، والإشراف على تطبيق جميع التشريعات السماوية ، ولذلك أي انحراف أو خطأ في تطبيق التشريعات السياسية سوف يؤثر على المنظومة القرآنية في محاربة الفساد الإجتماعي . وهذا الخلط الذي حصل بالفعل بعد رحلة الرسول الأكرم ﷺ وأغتصاب الخلافة منوالة الأمر الشرعيين وعدم تطبيق القرآن الكريم بشكله الصحيح .

والآيات القرآنية في هذا المجال كثيرة جداً نذكر منها على سبيل المثال مايلي :

أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴿٩٣﴾ .

٥- وجوب الطاعة لأولي الأمر : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٩٤) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخُوفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ (٩٥) ، المراد من أولي الأمر هم مراجع الأمة في جميع شؤونها الإدارية والاجتماعية من أجل إحلال العدل والتكامل الإنساني ، ولا ينحصرون بالأئمة المعصومين (عليه السلام) في عصر حضورهم ، بل لابد من وجود أشخاص في زمن الغيبة الكبرى يقومون مقامهم في أداء وظائفهم ، ولا نجد أولي الأمر شرعيين غير صنف الفقهاء الأكفاء العدول (٩٦) .

٦- حرمة اتخاذ الكافرين للحكومة على

المسلمين : كما في الآيات الشريفة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (٩٧) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي

شَيْءٍ ﴾ (٩٨) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٩٩) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ﴾ (١٠٠) وكذلك قوله تعالى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٠١) . والولاية في هذه الآيات بمعنى الحكومة والنصرة والحلف والعهد (١٠٢) .

٧- حرمة التنازع والاختلاف بين

المسلمين : كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٠٣) .

٨- وجوب الحكم بما أنزل الله : كما في

الآيات الشريفة : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١٠٤) . ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٠٥) . ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٠٦) .

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ^(١١٠) .

٣- وجوب الوفاء بالميزان : كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ^(١١١) .

٤- وجوب الزكاة : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(١١٢) .

٥- وجوب الخمس : كما في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِیَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ^(١١٣) .

٦- حرمة الربا : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(١١٤) .

٧- حرمة الأسراف والتبذير : كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

٩- تشكيل حزب الله على أساس الولاية : كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ^(١٠٧) . بينما حزب الشيطان تشكل على أساس نسيان ذكر الله تعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١٠٨) .

ث. التشريعات الاقتصادية

وهي التشريعات التي شرعها الله تعالى لتنظيم التعاملات المالية في المجتمع وتحقيق العدالة الاجتماعية ومنع الظلم والتعدي على حقوق الآخرين والأسراف وأكل المال بالباطل . وفي هذا المجال ذكر القرآن الكريم تشريعات كثيرة جداً ، نذكر على سبيل المثال الآيات التالية :

١- أباحة التجارة وتحريم أكل الأموال بالباطل : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ ^(١٠٩) .

٢- وجوب الوفاء بالعقود : كما في قوله

كذلك شرع الله تعالى العكس عبر تحريم
المفاسد الإجتماعية والأخلاقية وعلله
ومسبباته ، أمثال : تحريم الخمر والقمار
وأشاعة الفاحشة والجهر بالمعاصي ...

كما أن ترسيخ القيم في النفوس
تحدث منعة ذاتية في مواجهة المفاسد ،
فعندما تهفو النفس لممارسة رذيلة أو
الحصول على لذة رخيصة ، تعمل قيم
الفضيلة على ردع النفس وتمسك بزمامها ،
وعندما يهم الإنسان بتجاوز حدود الآخرين
والتعدي على حقوقهم ، تتحرك قيمة
العدالة في النفس إذا كانت قوية لتقف في
وجهه وتحول دونه وما يريد .

لكن العبرة في السبل والبرامج التي
من شأنها أن تساعد على ترسيخ القيم
وتجذيرها ، وهنا بيت القصيد ، فنحن
ندعو الآخرين إلى الالتزام بالفضيلة ، وقد
لا نلتزم بها مما يفقد سعيها التأثير المطلوب
والمرتجى ، القيم لا تنشر بالتعليم ولا
بالمحاضرات ، وإنما تحتاج إلى عمل
دؤوب وتربية مبكرة ومتواصلة ومستمرة .

وما ينبغي التأكيد عليه أن عملية
التغيير تبدأ بالفرد ، وعليه ، فليس مبرراً

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١١٦﴾ . وكذلك قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ﴿١١٧﴾ .

٨- حرمة البخل : كما في قوله تعالى :
﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ﴿١١٨﴾ .

٩- حرمة أكل مال اليتيم : كما في قوله
تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ﴿١١٩﴾ .

١٠- حرمة أكل مال الحرام : كما في
قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ
فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لِبَسِّ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ
لَبَسَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿١٢٠﴾ والسحت هو
أشد أنواع مال الحرام .

ج- تشريعات الاجتماعية والتربوية

وهي التشريعات التي شرعها الله
تعالى من أجل زرع القيم الأخلاقية
وتجذيرها في المجتمع والأمر بها ، مثل :
وجوب حسن الأخلاق والعدالة الخ .

تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ (١٢٤) .

٣- وجوب العدل والأحسان : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٢٥) . كذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُكُمْ عَلَى آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٦) .

٤- وجوب مساعدة الأغنياء للفقراء : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١٢٧) .

٥- لزوم التحلي بالعفو والصفح : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١٢٨) .

٦- حرمة الجهر بالمعاصي : كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجُهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (١٢٩) .

٧- حرمة إشاعة الفاحشة : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ

على الإطلاق أن ينتظر الشخص غيره ، فلو توقف الإصلاح والتغيير على توفر جماعة تلتزم بذلك لما أمكن الإنطلاق به على الإطلاق ، لكن إذا بادر البعض أمكن توفير الجماعة وازداد بهم التأثير وتسارعت وتيرة الإصلاح والتغيير .

والآيات القرآن الكريم التي تتحدث عن التشريعات الاجتماعية التربوية كثيرة جداً ، نذكر على سبيل المثال مايلي :

١- وجوب حسن الأخلاق : كما في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (١٣١) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٣٣) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١٣٣) .

٢- وجوب رد السلام : كما في قوله

الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١٣٠﴾ .

٨- حرمة دخول بيوت الآخرين من دون

أُستأذن : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٣١) .

٩- حرمة فعل المعاصي والمفاسد والظلم :

كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٢) .

١٠- حرمة الخمر والقمار :

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ﴾ (١٣٣) .

١١- فتح باب التوبة من المعاصي :

في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ (١٣٤) فأن الله تعالى يريد من

خلال التوبة أرجاع الفاسدين الى الصراط المستقيم ولكن الشياطين يريدونهم أن ينحرفوا عنه . ويشترط في التوبة مايلي :

أ- عمل السوء بجهالة : كما في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٣٥) .

ب- عدم الإصرار على المعصية : كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (١٣٦) .

ت - الأقلاع عن المعصية والأيمان : كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٣٧) .

ث- التوبة القربية وعدم التسويف فيها : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٣٨) .

ج- أن تكون التوبة قبل مجيء الموت :

المعروف ، وجعل المؤمنين كلهم مسؤولين على مجتمعهم في حفظه من الفساد والرديلة والفواحش . ولا يحتاج مع هذا العلاج لتدخل السلطة الحكومية أو السلطة القضائية أو السلطة العسكرية . وقد ذكر القرآن الكريم صفات الأمة القائمة بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة آيات وهي كالتالي :

١- أنهم خير أمة أخرجت للناس : كما في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١٤٠) .

٢- أنهم المفلحون : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَنُكْنِ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٤١) .

٣- أنهم الصالحون : كما في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٤٢) .

٤- أنهم المرحومون : كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٤٣) .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٣٩) .

الرابع : العلاج التشريعي السلبي

العلاج الذي يعتمد على تشريع القوانين والأحكام ذات أدوات الردع ووسائل العقاب التي يلجأ إليها عادة لمعاقبة المجرمين والمفسدين وللحيلولة دون انتشار المفاصل في المجتمع . وهذه التشريعات السلبية في الشريعة الإسلامية على ثلاثة أنواع : (تشريعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتشريعات القضائية ، والتشريعات العسكرية) ، أي أن كل فساد إجتماعي يتناسب لعلاج نوع من هذه الأنواع ، وحاصل الكلام في كل واحدة كالتالي :

أ- تشريعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهي من التشريعات السلبية الإجتماعية التي شرعها الله تعالى لحفظ المجتمع من إنتشار المنكر أو من ترك

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٤٣﴾ .

بد التشريعات القضائية

وهي من التشريعات السلبية
الإجتماعية التي شرعها الله تعالى لمعالجة
المفاسد والتجاوز على حقوق الآخرين وحل
الأختلافات ، وقد منح الله تعالى هذه
السلطة الأنبياء والأوصياء والفقهاء العدول
للإقامة الحدود والتعزيرات والقصاص
وفصل الخصومات .

يلزم معالجة الظواهر السلبية في
المجتمع بالوسائل الإيجابية ، فمن المسلم
به أن المجتمع الملتزم والمتدين لن يكون
سداً منيعاً أمام حصول بعض الظواهر
السلبية من الفساد الإجتماعي ، ولذلك
توضع عادة أنظمة العقوبات ، إلا أنه من
الضروري اعتماد وسائل العلاج الجذري
للظواهر وذلك عبر دراسة الأسباب والدوافع
ومعالجتها ، وعدم الاتكال على أجهزة
القضاء والرقابة .

فالقضاء عندما يعالجون أي مشكلة
فهم يتناولونها من الزاوية الجزائية بقطع

النظر عن الآثار الإجتماعية والأبعاد
الإنسانية التي ترافق الأحكام ، وهو أمر
على أهميته لا يكفي لمن يريد أن يعالج
المفاسد ويبحثها من جذورها ، مما يفرض
على التربويين والمعالجين الإجتماعيين
والمبلغين أن يضعوا برامج خاصة لكل
حالات التورط لإنقاذها والحيلولة دون
انتشار العدوى إلى غيرهم من عناصر
المجتمع .

وقد ذكر القرآن الكريم كثير من
الآيات المرتبطة في التشريعات القضائية
نذكر على سبيل المثال مايلي :

١- وجوب التحاكم عند رسول الله ﷺ :
كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ﴾ (١٤٤) .

٢- حرمة التحاكم عند فاقد المشروعية
(الطاغوت) : كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى
الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١٤٥) .

٣- وجوب الحكم بالعدل : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ ﴾ (١٤٦) .

فاجلدوا كلَّ واحدٍ مِّنْهُمَا مِئَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٠﴾ .

٤- تشريع القصاص : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١٤٧) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٤٨) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٤٩) .

٦- تشريع حكم قطعيد السارق : كما في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٥١) .

٧- تشريع حكم البغاة والذين يسعون في الأرض فساداً : كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٥٢) .

٨- تشريع حكم القتل : كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ * وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١٥٣) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

٥- تشريع أحكام الحدود ومقدار الجلد : كما في قوله تعالى : ﴿ وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي

في قوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١٥٨) .

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١٥٤) .

تد التشريعات العسكرية

وهي من التشريعات السلبية الاجتماعية التي شرعها الله تعالى لصد العدو الخارجي ، أو لإنهاء الفتن الداخلية التي يثيرها البغاة ، من خلال أعداد جيش قوي تحت قيادة ولي أمر المسلمين . وقد ذكر القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تشرع أحكام هذا العلاج ، نذكر على سبيل المثال مايلي :

٨- وجوب جهاد الظالمين وأخماد الفتنة :
كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥٩) .

٩- وجوب جهاد الكفار المحاربين : كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٦٠) .

١٠- وجوب جهاد طائفة الباغية من المسلمين : كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١٦١) .

٥- الأصل في الإسلام السلم لا الحرب :
كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٥٥) . كذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١٥٦) .

١١- وجوب التهيء القوي والاستعداد الدائم للجهاد : كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

٦- وجوب الجهاد الدفاعي وحرمة الاعتداء : كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٥٧) .

٧- وجوب الجهاد من أجل الوطن : كما

ويشتمل القرآن الكريم على منظومة عملية متكاملة لعلاج المفاصل الاجتماعية تبدأ من الإيمان بالله تعالى والمبدأ والميعاد والرسول وإقامة الشرائع السماوية ومحاربة الكفر والظلم والفساد من على وجه الأرض . وتنقسم هذه المنظومة الى أربعة محاور من العلاجات للمفاصل الاجتماعية :

الأول : العلاج الإيماني الإيجابي : هو العلاج الذي يعتمد في تربية الإنسان على تقوية الإيمان بالله تعالى وبالمبدأ والميعاد ؛ لأن تقوية الإيمان والمعرفة بصفات الله تعالى وقدرته تكسب الإنسان الرؤية الكونية الواقعية والهدف الصحيحة وروح شكر المنعم وتجنبه الضلال والضياع والتهيه وتعطيه منعة ذاتية وارتداداً إرادياً من ارتكاب المفاصل والمعاصي التي تغضب الله تعالى .

الثاني : العلاج الإيماني السلبي : العلاج الذي يعتمد في تربية الإنسان على الخوف من الله تعالى والوعيد الإلهي بالعقاب والعذاب بنار جهنم في الآخرة ، أو بتعجيل العذاب على الكافرين في الدنيا لينتج من ذلك حالة التقوى التي تجنب

شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ .

١٢- حرمة بدأ القتال في المسجد الحرام : كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦٣) .

١٣- حرمة بدأ القتال في الأشهر الحرام : كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضَرُّوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ (١٦٤) .

نتيجة البحث المفاصل الاجتماعية :

هي أمراض سلوكية معدية تسري بين أفراد المجتمع وتسبب لهم حالة من الإدمان النفسي ، وتوجد عادات وأخلاق اجتماعية خاطئة تهدد بإهلاك النسل والحرث وفقدان الأمن في هذه المجتمعات . وهي لا تقل خطورة عن الأمراض الجسدية والفايروسية كالطاعون والإيدز وما شابههما .

والأحكام ذات أدوات الردع ووسائل العقاب التي يُلجأ إليها عادة لمعاقبة المجرمين والمفسدين وللحيلولة دون انتشار المفسد في المجتمع . وهذه التشريعات السلبية في الشريعة الإسلامية على ثلاثة أنواع : (تشريعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتشريعات القضائية ، والتشريعات العسكرية) ، أي أن كل فساد إجتماعي يتناسب لعلاجه نوع من هذه الأنواع .

وكل محور من هذه المحاور الأربعة يحتوي على مجموعة من الأبواب ، وفي كل باب مجموعة كبيرة من المسائل والتشريعات الخاصة به . وهذه المنظومة لا تعطي نتائجها المثمرة ما لم تطبق بكاملها .

الإنسان من فعل المعاصي وأقتراف المفسد .

الثالث : العلاج التشريعي الإيجابي :
العلاج الذي يعتمد في التربية على أسلوب تشريع القوانين والأحكام التي تكسب الإنسان منعة ذاتية وارتداعاً إرادياً من فعل الفساد والظلم والمعاصي ، وحتى لا تصل النوبة معها الى وسائل العقاب القضائية المعتمدة في الشريعة الإسلامية . وأغلب التشريعات الإسلامية تقع في هذا المحور أي التشريعات الإيجابية ، مثل التشريعات العبادية ، والعائلية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والتربوية ، الخ .

الرابع : العلاج التشريعي السلبي :
العلاج الذي يعتمد على تشريع القوانين

الهوامش:

- (١) الخليل الفراهيدي - كتاب العين - ج ٧ - ص ٢٣١. نشر مؤسسة دار الهجرة. قم إيران. الطبعة الثانية: ١٤١٠هـ
- (٢) الجوهري - الصحاح - ج ٢ - ص ٥١٩. نشر دار العلم للملايين.. بيروت، لبنان الطبعة الرابعة: ١٤٠٧هـ
- (٣) الزبيدي - تاج العروس - ج ٥ - ص ١٦٤. نشر دار الفكر. بيروت، لبنان ١٤١٤ - ١٩٩٤ م .
- (٤) نفس المصدر.
- (٥) سورة الروم، الآية: ٤١
- (٦) مجمع البحرين - الشيخ الطريحي - ج ٣ - ص ٤٠٠
- (٧) سورة البقرة، الآية: ٨٤

- (٨) سورة النساء، الآية: ٢٩
(٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٨
(١٠) سورة الأعراف، الآية: ٨٦
(١١) سورة الحج، الآية: ٤
(١٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥
(١٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧
(١٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤
(١٥) سورة يوسف، الآية: ٥٣
(١٦) سورة البقرة، الآية: ١٠
(١٧) سورة البقرة، الآية: ٣٦ والآية: الأعراف: ٢٤
(١٨) سورة الإنسان، الآية: ٣
(١٩) سورة الشمس، الآية: ٨
(٢٠) سورة البقرة، الآية: ١٢
(٢١) سورة العلق، الآية: ٧
(٢٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠
(٢٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠
(٢٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠
(٢٥) سورة ص، الآية: ٧٥
(٢٦) سورة ص، الآية: ٧٦
(٢٧) سورة الأعراف، الآية: ١٣
(٢٨) سورة الإسراء، الآية: ٦٢
(٢٩) سورة ص، الآية: ٨١ ، ٨٠
(٣٠) سورة ص، الآية: ٨٢
(٣١) سورة الأعراف، الآية: ١٦
(٣٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧
(٣٣) سورة ص، الآية: ٨٣
(٣٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٣
(٣٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٤
(٣٦) سورة ص، الآية: ٨٥

- (٣٧) سورة الإسراء، الآية: ٦٥
 (٣٨) سورة النور، الآية: ٢١
 (٣٩) سورة البقرة، الآية: ١٦٩
 (٤٠) سورة النساء، الآية: ١٢٠
 (٤١) سورة الشعراء، الآية: ٩٥
 (٤٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢
 (٤٣) سورة الناس، الآية: ٥
 (٤٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢
 (٤٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢١
 (٤٦) سورة الأعراف، الآية: ١٦
 (٤٧) سورة الأعراف، الآية: ١٧
 (٤٨) سورة المائدة، الآية: ٩١ - ٩٠
 (٤٩) سورة الأنعام، الآية: ١٥٥
 (٥٠) سورة الأعراف، الآية: ٧٤
 (٥١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦
 (٥٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤
 (٥٣) سورة يونس، الآية: ٤٠
 (٥٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧
 (٥٥) مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ١٨٥ .
 (٥٦) الطوسي، تفسير التبيان، ج ٢، ص ٣١٣، الآية: الطبرسي، تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٣٦٤ .
 (٥٧) المشهدي، تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص ٤٠٩ .
 (٥٨) سورة المجادلة، الآية: ٢٢
 (٥٩) سورة آل عمران، الآية: ١١٤
 (٦٠) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤
 (٦١) سورة البقرة، الآية: ٢٥
 (٦٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٥
 (٦٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٢
 (٦٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٠
 (٦٥) سورة الأنعام، الآية: ١١

- (٦٦) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥
(٦٧) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣
(٦٨) سورة الأعراف، الآية: ١٤١
(٦٩) سورة آل عمران، الآية: ٥٤
(٧٠) سورة الأعراف، الآية: ٩٩
(٧١) سورة البقرة، الآية: ٤٨
(٧٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤
(٧٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦
(٧٤) سورة البينة، الآية: ٥
(٧٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥
(٧٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٣
(٧٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٧
(٧٨) سورة النور، الآية: ٣٢
(٧٩) سورة النساء، الآية: ٣
(٨٠) سورة النساء، الآية: ٢٤
(٨١) سورة النساء، الآية: ٢٣ - ٢٢
(٨٢) سورة النور، الآية: ٣
(٨٣) سورة الأعراف، الآية: ٨١ - ٨٠
(٨٤) سورة النور، الآية: ٣١
(٨٥) سورة النور، الآية: ٢٣
(٨٦) سورة النور، الآية: ٣٠
(٨٧) سورة النور، الآية: ٣٣
(٨٨) سورة النساء، الآية: ٣٤
(٨٩) سورة الشورى، الآية: ١٣
(٩٠) سورة يوسف، الآية: ٤٠
(٩١) سورة المائدة، الآية: ٤٤
(٩٢) سورة ص، الآية: ٢٦
(٩٣) سورة المائدة، الآية: ٤٩
(٩٤) سورة النساء، الآية: ٥٩

- (٩٥) سورة سورة النساء: (٤)، آية: ٨٣ .
- (٩٦) سورة معرفة، ولاية الفقيه أبعادها وحدودها، ص ٣٥.
- (٩٧) سورة النساء، الآية: ١٤٤
- (٩٨) سورة سورة آل عمران (٣)، آية: ٢٨ .
- (٩٩) سورة سورة المائدة (٥)، آية: ٥١ .
- (١٠٠) سورة المائدة، الآية: ٥٧
- (١٠١) سورة المائدة، الآية: ٨٠
- (١٠٢) سورة الطبرسي، مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٥٥، الآية: الطوسي، التبيان، ج ٣، ص ٥٥٠ .
- (١٠٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٦
- (١٠٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤
- (١٠٥) سورة المائدة، الآية: ٤٥
- (١٠٦) سورة المائدة، الآية: ٤٧
- (١٠٧) سورة المائدة، الآية: ٥٦
- (١٠٨) سورة المجادلة، الآية: ١٩
- (١٠٩) سورة النساء، الآية: ٢٩
- (١١٠) سورة المائدة، الآية: ١
- (١١١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢
- (١١٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٥
- (١١٣) سورة التوبة، الآية: ٦٠
- (١١٤) سورة الأنفال، الآية: ٤١
- (١١٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠
- (١١٦) سورة الأعراف، الآية: ٣١
- (١١٧) سورة الإسراء، الآية: ٢٧
- (١١٨) سورة النساء، الآية: ٣٧
- (١١٩) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢
- (١٢٠) سورة المائدة، الآية: ٦٣ - ٦٢
- (١٢١) سورة النساء، الآية: ٣٦
- (١٢٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧
- (١٢٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣

- (١٢٤) سورة النساء، الآية: ٨٦
(١٢٥) سورة النحل، الآية: ٩٠
(١٢٦) سورة المائدة، الآية: ٨
(١٢٧) سورة النور، الآية: ٢٢
(١٢٨) سورة النور، الآية: ٢٢
(١٢٩) سورة النساء، الآية: ١٤٨
(١٣٠) سورة النور، الآية: ١٩
(١٣١) سورة النور، الآية: ٢٧
(١٣٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٣
(١٣٣) سورة المائدة، الآية: ٩١ - ٩٠
(١٣٤) سورة النساء، الآية: ٢٧
(١٣٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٤
(١٣٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥ - ١٣٦
(١٣٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥٣
(١٣٨) سورة النساء، الآية: ١٧
(١٣٩) سورة النساء، الآية: ١٨
(١٤٠) سورة آل عمران، الآية: ١١٠
(١٤١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤
(١٤٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٤
(١٤٣) سورة التوبة، الآية: ٧١
(١٤٤) سورة النساء، الآية: ٦٥
(١٤٥) سورة النساء، الآية: ٦٠
(١٤٦) سورة النساء، الآية: ٥٨
(١٤٧) سورة البقرة، الآية: ١٧٩ - ١٧٨
(١٤٨) سورة المائدة، الآية: ٤٥
(١٤٩) سورة البقرة، الآية: ١٩٤
(١٥٠) سورة النور، الآية: ٢
(١٥١) سورة المائدة، الآية: ٣٨
(١٥٢) سورة المائدة، الآية: ٣٣

- (١٥٣) سورة النساء، الآية: ٩٣ - ٩٢
(١٥٤) سورة المائدة، الآية: ٣٢
(١٥٥) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨
(١٥٦) سورة الأنفال، الآية: ٦١
(١٥٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٠
(١٥٨) سورة البقرة، الآية: ١٩١
(١٥٩) سورة البقرة، الآية: ١٩٣
(١٦٠) سورة التوبة، الآية: ١٢٣
(١٦١) سورة الحجرات، الآية: ٩
(١٦٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠
(١٦٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١
(١٦٤) سورة التوبة، الآية: ٥

صلاة الجماعة

حركة اجتماعية ونظام حكم

د . أحمد السعدي / د . روح الله شاكري
د . مسلم محمدي / د . حامد بور رستمي
جميع الباحثين أساتذة في جامعة طهران.

الملخص :

المقدمة

في واقع متشطر تقاسمته القبلية
وهيمنت عليه سطوة الاقوياء
فغاب عنه العقل والعلم والقانون
والحب والاخاء والمساواة والرحمة ،
بدت تباشير الصبح وبزغت شمس
الاسلام انطلاقا من مكة لتحمل
للانسانية بشائر الخير .

صلاة الجماعة عمل عبادي اجتماعي
سياسي ودورة مكثفة تعمل على تنظيم
المجتمع والسير به لصياغة المواطن الصالح
الذي يحتل موقعه في المجتمع يأتي هذا
البحث للكشف عن الابعاد المختلفة لصلاة
الجماعة وتوضيح معالمها التي قد تغيب عن
اذهان الكثير حتى اولئك الذين يلتزمون بهذه
الشعيرة المباركة ورسم صورة عن دور احدى
الاعمال العبادية في حياة الانسان والمجتمع .

فيما يتكفل البعد الاجتماعي بتهيئة البيئة والمناخ المناسب للممارسة بأكبر قدر من الاسلامية ، عن طريق رسم وتصميم العلاقات الموزونة المرنة بين كافة اطراف الحياة الاجتماعية وسائر مفرداتها ومقوماتها وكفى أن نلقي نظرة عابرة على القران الكريم لنعرف مكانة البعد الاجتماعي

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٢) ، ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾^(٣) ،

﴿ وَالَّذِي نَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^(٤) ، ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾^(٥) . ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ... ﴾^(٦) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا أِبَاءَكُمْ وَأَخَوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾^(٧) ، ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾^(٨) ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾^(٩) ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ

و كان المولود الجديد منظومة متكاملة متوازنة شاملة تستوعب كل مجالات الحياة فهو دين عبادة وسياسة واقتصاد ومجتمع ينظم علاقات الانسان مع الانسان والمجتمع . ولم يكن الاسلام دين اخرة وحسب وانما هو دين دنيا ومن الدنيا ينطلق الانسان نحو الاخرة ولا يمكن التفكيك بين الجانب العبادي والاخلاقي والسياسي فيه « الذين إن مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور^(١) » فالتمكن يمثل البعد السياسي واقامة الصلاة وابتاء الزكاة يمثلان الجانب العبادي و« لله عاقبة الامور » تمثل البعد المحوري الذي يقوم على أساسه نظام الكون . والاسلام يعمل على تأكيد بعدين ، فالبعد التشريعي ينظم الممارسة ويضع ضوابطها ويرسم مسالكها بالعلم الالهي الذي لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء ، والذي تجيء معطياته التنظيمية وهي تنطوي على كل ايجابيات البعد التشريعي توازنا وتكاملا ومرونة ودقة واحكاما وانسجاما مع مطالب الانسان وتوافقا مع السنن والنواميس .

كان له علي الله عزوجل حق في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان «^(١٤).

و فيكل حلقة ممارسة اجتماعية وتدريب على الشعور بالآخر وانطلاق من دائرة الفرد الى دائرة الجماعة وتأتي الصلاة في صدر قائمة التشريعات الاجتماعية وذلك من خلال أشكالها وحالاتها واذكارها المختلفة

فالصلاة فرادى يتجلى فيها جانب الارتباط الاجتماعي من حيث الاثر الذبيدو كحجر زاوية عندما يحد من الفحشاء والمنكر في المجتمع وعبر اذكارها فالمصلي يقول . « اياك نعبد و اياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم »

و « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » إن كل هذه الكلمات تدور حول مفهوم الجمع .

و اما الصلاة جماعة فيطفح عليها البعد الجماعي من خلال اشكالها والحالات التيواجهها الفرد في كل يوم صلاة مفروضة تؤتي جماعة وهكذا في كل اسبوع مرة وهي

الخير^(١٠) ، ﴿ ولهن مثل الذين عليهن بالمعروف^(١١) ، ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة^(١٢) .

ان تعاليم مفردات تشريعية الزكاة والصدقات ورعاية حال اليتامى والارامل والقاصرين وحماية المال العام من كل يد تمتد اليه بسوء والحجر على أموال السفهاء وتنظيم حقوق سائر الاطراف المشاركة في بنيان الاسرة ، تعبر عن تأكيد التشريع على الجانب الاجتماعي .

المظاهر الاجتماعية في العبادات

إن العبادات في الاسلام تمثل حلقات مترابطة تهدف الى تأسيس تظاهرة اجتماعية ومجتمع واضح الهدف وموحد المسيرة ، معلمي المحور اعني الامامة فقد ورد عن الامام الباقر عليه السلام : « ذروة الامر وسنامه ومفتاحه وباب الاشياء ورضا الرحمن الطاعة للامام بعد معرفته ، إن الله عزوجل يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا^(١٣) » أما لو أن رجلا قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع اعماله بدلالته اليه ، ما

حاجات المعتمدين .

و الصيام يشعر الانسان بما يعاينه
الاخرون وقد عمل اعداء الاسلام وجهل
الكثير من المسلمين على افراغ الاسلام
من محتواه فلم يعد دين حياة واجتماع
وتحول الى مجرد طقوس واعمال فردية
يأتي بها الفرد في بيتهو فقدت التعاليم
الاسلامية اثرها الذي ينبغي أن ينعكس
كسلوك ونظام ومنهج تعايش وحب

فالصلاة لم تشرع إلا لتهنى عن
الفحشاء والمنكر في المرافق المختلفة في
الحياة بدءاً من الاسرة وانتهاء بالكون ،
وغابت محورية الصلاة في الممارسات
فالمسلم الذي يصلي يجد ربه أن تحول
صلاته عن الكذب والغيبة والغش والحيلة
وقول الزور والظلم الا ان ذلك لم يتحقق
في الكثير من الاحيان فالبيت يعج بالظلم
والسوق بالكذب والغش ، والعلاقات
بالتكالب والغلبة وأصبح الصوم امتناعاً عن
مجموعة من المحرمات التي اريد لها أن
تكون مدرسة تربوية ليفقد هذا العمل
العظيم روحه فهو شعور بالآخرين وجوعهم
واذا بشهر رمضان يطل للتنوع موائد الطعام

ما تسمى بصلاة الجمعة^(١٥) وفي كل سنة
مرتين وتعرف بصلاة العيد^(١٦) فيما نرى
صلوات غير مفروضة تصلى جماعة كصلاة
الاستسقاء .

و رغم الحالات التي قد يمر بها الفرد
الا أن البعد الاجتماعي من الصعب أن
يغيب عن الصلاة فهي تصلى جماعة في
الحضر والسفر^(١٧) والصحة والمرض والسلام
والحرب^(١٨) والبر والبحر^(١٩) ، دون اختلاف
بين الرجل والمرأة وقد ورد التأكيد عليها
حتى بالنسبة لمن صلى فرادى قبل اقامة
الجماعة^(٢٠) وهكذا استحباب اختيار الامام
صلاة الجماعة على الصلاة في اول الوقت
منفردا واختياره لصلاة الجماعة مع
التخفيف مع الصلاة منفرداً مع الاطالة^(٢١) .

ايجاد المناخ العام

ساعدت العبادات الاسلامية كالزكاة
والصلاة والصيام على تعزيز وتعميق ملامح
المناخ العام للمجتمع الاسلامي فالزكاة
تمارس الضمان الاجتماعي حتى في
حالات غياب السلطة . والصلاة تعمل على
تمتين الاواصر الاجتماعية وتعميق التعارف
بين ابناء الحي الواحد فيمكنهم من تلبية

صلاة الجماعة

صلاة الجماعة : هي ما يؤدي من الصلوات مؤتماً بإمام^(٢٢) .

صلاة الجماعة من الصلوات التي فيها فضل كثير وثواب كبير^(٢٣) ويمتد عمرها بامتداد عمر الاسلام فعن الصادق عليه السلام : « أول جماعة كانت أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يصلي وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب معه إذ مر به أبوطالب وجعفر معه فقال : يا بني ، صل جناح ابن عمك ، فلما أحس رسول الله صلى الله عليه وآله ، تقدمهما وانصرف أبوطالب مسروراً إلى أن قال : فكانت أول جماعة جمعت ذلك اليوم »^(٢٤) .

وهذه الصلاة كانت في مكة في الفترة الاولى من ظهور الاسلام وقد صلاها النبي ليلة الاسراء ببيت المقدس اماماً بالانبياء^(٢٥) ، ولم يدعها صلى الله عليه وآله طوال حياته وهكذا كان اوصياؤه فقد صلاها أمير المؤمنين علي عليه السلام في الحرب فضلاً عن السلم^(٢٦) ، ولقي ربه شهيداً ، وهو يحاول اقامتها عند الفجر في مسجد الكوفة ، كما لم تحل الاسنة والرماح الامام الحسين عليه السلام من اقامتها في صحراء

وتظهر المسرحيات والالعب التي تشغل الفرد عن حقيقة الشهر العظيم وصار افضل موسم لالعب كرة القدم .

و اما الحج الاجتماع الاكبر لتعارف المسلمين وحمل همومهم ورفض الطاغوت ومواجهة الشياطين فقد غلب عليه التباهي وزيارة اسواق مكة والمدينة وشراء الهدايا واعداد الولائم ، ناهيك عن الواجبات المالية كالزكاة والاحماس ، هكذا هو واقع المسلمين .

و على نفس الصعيد يبرز التعامل مع صلاة الجماعة وفي احسن الاحوال لا تنطلق الغالبية العظمى في التعاطي معها الا من منطلق الثواب والذي هو مفهوم عائم ضبابي في ذهن الكثير لا يعبر الا عن انقطاع الآخرة عن الدنيا وكأن هناك تفكيكاً بينهما ويكفي أن تقف بباب مسجد لتسأل الداخلين عن سبب مجيئهم الى المسجد لاقامة صلاة الجماعة .

و هذا ما يدعونا لبيان الابعاد المختلفة لهذه الشعيرة المباركة والمدرسة المعطاءة .

بالصلاة^(٢٣) ، فالركوع مع الراكعين اتساق الحركة الفردية مع حركة المجتمع . وورد انها تعدل صلاة الرجل فرداً خمسا وعشرين درجة في الجنة^(٢٤) .

فالدرجة تمثل نوع سمو في الفرد في عالم الدنيا لتنعكس على الآخرة والجنة ، وأنها خير من صلاة الرجل في بيته اربعين سنة^(٢٥) وان المؤمن اذا مشى اليها خفف الله عليه احوال يوم القيامة ثم يأمر به الى الجنة^(٢٦) ، وأن مقيمها في المغرب والعشاء الآخرة والغداة في المسجد كمن احيى الليل كله^(٢٧) ، وأنه في ذمة الله عزوجل ومن ظلمه فإنما يظلم الله ومن حقره فانما يحقر الله عزوجل^(٢٨) . وقد اشترط النبي في المدينة المنورة على جيران المسجد حضورها وقال : لينتهين اقوام لا يشهدون الصلاة أو لا من مؤذنا يؤذن ثم يقيم ثم أمر رجلا من اهل بيتي وهو علي عليه السلام ، فليحرقن على اقوام بيوتهم بحزم الحطب لانهم لا يأتون الصلاة^(٢٩)

و عن ابي جعفر عليه السلام قال : « لا صلاة لمن لا يشهد الصلاة من جيران المسجد الا مريض او مشغول^(٤٠) » .

كربلاء يوم العاشر من المحرم^(٢٧) ، وهي من شعائر الاسلام وإقامتها سنة^(٢٨) لا تترك الا لعذر عام أو خاص كالمرض والخوف^(٢٩) والتارك لها « رغبة عنها وعن جماعة المؤمنين من غير علة فلا صلاة له »^(٣٠) .

ولها شروط وهي أن يكون القوم اثنين فصاعداً وأن يكون الامام عدلاً أقرأ الجماعة وأن لا يكون بين الامام والمأموم حائل سوى الصفوف اذا كان المأموم ذكراً وذلك في النساء جائز ، ولا يكون مقام الامام ارفع من مقام المأموم بما يعتد به^(٣١) .

فهي اذن صلاة لاتتم من دون امام ومأموم وتبعية الثاني للاول وعدم فاصلة بينهما أو بين بقية المأمومين وقراءة الامام الحمد والسورة دون المأموم وقد حض عليها في الكثير من النصوص .

قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾^(٣٢) ، والمقصود من « واركعوا مع الراكعين » صلاة الجماعة يقول الشيخ الصدوق حول هذه الآية : فأمر الله بالجماعة كما امر

مشى من بيته غير مستعجل وعليه السكينة والوقار الى مصلاه رغبة في جماعة المسلمين لم يرفع قدما ، ولم يضع أخرى إلا كتب له حسنة ، ومحيت عنه سيئة ورفعت له درجة ، فإذا ما دخل المسجد - الى أن قال ﷺ - ثم افتتح الصلاة مع الامام جماعة ، الا وجبت له من الله المغفرة والجنة من قبل أن يسلم الامام » (٤٢) .

وهي مقياس اجتماعي يعرف من خلاله اهل الصلاح ويميزهم عن الخط النفاقي ، قال رسول الله ﷺ : « من صلى الخمس في جماعة فظنوا به خيرا » (٤٣) .

وعن أبي عبدالله ﷺ : « اما يستحي الرجل منكم أن تكون له الجارية فيبيعها فتقول : لم يكن يحضر ، الصلاة » (٤٤) .

إن حضور الانسان يكشف عن الظن به خيرا وليس هذا الخير في الاخرة وانما هو في الدنيا .

و عن النبي ﷺ : « من صلى اربعين يوما في الجماعة يدرك التكبير الاولى ، كتب له براءة من النار ، وبراءة من النفاق » (٤٥) .

ماذا يعني البراءة من النفاق ؟ ، إن

إن جيران المسجد هم اقرب الناس الى المسجد ، مكان الاجتماع ، وهم الاولى بالانضمام الي التجمع التوحيدي وهذا يعني أن الاقرب اولى بالالتزام والعمل على تطبيق النظام ، على ما ذا يحرق النبي ﷺ بيوتهم ، هل لأنهم لم يصلوا ؟ كلا . انهم يصلون ولكنهم لايسعون ليكونوا ضمن الجماعة .

و يعني هذا أن الصلاة والتدين الفردي لا يكفي لجعل الفرد في امان من العقوبات المترتبة ، وقال أمير المؤمنين ﷺ : « من سمع النداء فلم يجبه من غير علة فلا صلاة له » (٤٦) .

إن نداء الصلاة دعوة للانضمام الى الجماعة المسلمة التي تتجلى في ابرز صورها في صلاة الجماعة فصلاة الفرادى مهما كانت خصائصها فانها لا تقاس بالجماعة من اثر في حركة الجمع ، ومن هذا المنطلق كان الثواب مترتبا على الرغبة في جماعة المسلمين كما ورد في رواية زيد النرسي في أصله قال : « سمعت ابا الحسن موسى بن جعفر ﷺ يحدث عن ابيه أنه قال : من اسبغ وضوءه في بيته وتمشط وتطيب ثم

و - تنجي من الغفلة^(٤٨) .

٢ . على المستوى الخارجي :

أ - مظهر توحيدي : فهي رسالة الى العالم وقاعدة لترسيخ الاسلام ، عن الامام الرضا عليه السلام : « انما جعلت الجماعة لئلا يكون الاخلاص والتوحيد والاسلام والعبادة لله الا ظاهراً مكشوفاً مشهوراً لأن في اظهاره حجة على اهل الشرق والغرب لله وحده ، وليكون المنافق والمستخف مؤدياً لما أقرب به يظهر الاسلام والمراقبة^(٤٩) » .

ب - ورشة تأهيلية لبناء المجتمع والدولة الاسلامية

ج - مقياس لصالح الافراد ، عن الامام الرضا عليه السلام : « جعلت الجماعة ... ليكون شهادات الناس بالاسلام بعضهم لبعض جائزة ممكنة^(٥٠) » .

و عن النبي صلى الله عليه وآله : « من رغب عن جماعة المسلمين سقطت عدالته ووجب هجرانه وإن رفع الى امام المسلمين انذره وحذره ، ومن لزم جماعة المسلمين حرمت غيبته وثبتت عدالته^(٥١) »

و عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام قال :

الصلاة تظاهرة لمواجهة خط يحاول نخر الامة من داخلها ولا بد من وجود اشخاص يأخذون على عاتقهم اظهار الحقيقة .

صلاة الجماعة ... رسالتها ... اثارها العامة

إذا كان الاسلام دين مجتمع فتعاليمه كلمات متناسقة تصنع النص الاجتماعي الواسع ومن هذه الكلمات صلاة الجماعة التي تهدف الى تحقيق رسالة وترتيب اثار .
و من الممكن أن نحدد بعضاً من رسالة صلاة الجماعة واثارها فيما يلي :

١ . على المستوى الداخلي

أ - تنظّم علاقة الانسان بالخالق والمخلوق

ب - تتجاوز بالفرد عن دائرة الأنا والتفوق في الذات

ج - ترسخ في النفس حب الآخرين

د - تدفع الى مد الجسور مع الآخرين
عن الصادق عليه السلام : « استكثروا من الاخوان فان لكل مؤمن شفاعة^(٤٦) » .

ه - تعصم من الشيطان^(٤٧)

فسأل عن اناس بأسمائهم هل حضروا الصلاة ؟ قالوا : لا يارسول الله فقال : غيَّب هم فقالوا : لا يا رسول الله قال : اما إنه ليس من صلاة اثقل على المنافقين من هذه الصلاة وصلاة العشاء الاخرة ولو علموا الفضل الذي فيهما لاتوهما ولو حبا^(٥٧)

« وتقديم الخبر على المبتدأ للقصر اشارة الى ان المانع في المؤمن عن مثل هذا الامر لا يكون الا الغيبة عن البلد »^(٥٨) .

إن الصلاة انما هي صلاة سواء في البيت ام في الجماعة ولكن للجماعة دلالات اجتماعية فالمنافقون يتحركون في المجتمع ولا بد من مواجهتهم ، والتظاهرة الراضة لهم هي صلاة الجماعة

ب- مواجهة الفقر والحرمات :

ان تواصل المؤمنين من خلال صلاة الجماعة يدعوهم للتفكير باخوانهم من ذوي الحاجة والعمل على رفعها .

ج- زجر عن المعاصي :

عن الامام الرضا عليه السلام في علل صلاة الجماعة « والزجر عن كثير من معاصي الله عزوجل^(٥٩) »

« انما جعلت الجماعة والاجتماع الى الصلاة لكي يعرف من يصلي ممن لا يصلي ومن يحفظ مواقيت الصلاة ممن يضيع ولولا ذلك لم يمكن احد أن يشهد على احد بالصلاح لان من لم يصل في جماعة فلا صلاة له بين المسلمين لأن رسول الله ﷺ قال : فلا صلاة لمن لم يصل في المسجد من المسلمين الا من علة^(٥٢) .

د- مروءة : والمرءة كمال الرجولية^(٥٣) والانسانية^(٥٤) قال امير المومنين عليه السلام : مروءة الحضر قراءة القرآن ومجالسة العلماء ، والنظر في الفقه ، والمحافظة على الصلاة في الجماعة^(٥٥)

٣ . مساعدة على البر والتقوى : عن الامام الرضا عليه السلام في بيان علة تشريع صلاة الجماعة ، مع ما فيه من المساعدة على البر والتقوى^(٥٦)

٤ . عنوان وحدة واظهار عز المسلمين

٥ . مواجهة التحديات

أ. مواجهة الخط النفاقي :

صلي رسول الله ﷺ ، الفجر ذات يوم فلما انصرف اقبل بوجهه على اصحابه

٦ . مدرسة لطلب العلم :

١- الأعلام :

ان صلاة الجماعة مدرسة يتعلم الانسان إثر حضورها احكام الاسلام وهو ما يلمسه الفرد بوضوح فقد يخطيء في بعض اجزاء الصلاة فينبهه من حوله وهو ما لا يتسنى لمن يصلي في بيته وقد ورد عن ابي عبدالله عليه السلام قال : « قال له رجل : جعلت فداك رجل عرف هذا الامر لزم بيته ولم يتعرف الى احد من اخوانه قال : كيف يتفقه هذا في دينه ؟ » ^(٦٠)

صلاة الجماعة دروس اجتماعية

صلاة الجماعة تحمل في طياتها مجموعة من الدروس الاجتماعية والسياسية وهي حركة تعمل على وضع الانسان في اطار نظام ودولة ليكون المواطن الصالح الذي لعب دوراً في هذا العالم .

و تتجلى هذه الدروس في تركيبة هذه الصلاة التي تتكون من إمام ، وامام ومأموم وعنوان جماعة يمكن بيان بعضها من خلال النقاط التالية :

الاذان اعلام وشعار ودعوة يؤكد الحقائق الاتية . الاذان والاقامة سنتان مؤكدتان في صلاة الجماعة ^(٦١)

أ - تذكير للساهي وتنبية للغافل

ب - تعريف لمن جهل الوقت واشتغل عنه

ج - داع الى عبادة الخالق ومرغب فيها

د - اقرار لله بالتوحيد

هـ - تجاهر بالايمان .

و - اعلان بالاسلام ^(٦٢)

و اما الاقامة فهي استعداد واصطفاف وشعور ورؤية كونية محورها التوحيد وادراك لعالم يسبح بحمد ربه وانتماء لمدرسة الرسالة الخالدة وقيام جماعة في نسق موحد بين يدي خالق الوجود . وحي على الصلاة والفلاح والعمل مثلث انطلاقا تغييرية شاملة فيكل الميادين . وهنا يرن جرس دخول صف الصلاة الا وهو « قد قامت الصلاة » . إن الاذان والاقامة نشيدا التعبئة ونفيرا المسيرة

٢- الامام :

أ - لا يجوز لاحد أن يتقدم في الصلاة على الامام الاعظم^(٦٣)

ب - اذا حضر الصلاة من نصبه الامام الاعظم لم يتقدم أحد عليه ... ولا يتقدم احد على اميره^(٦٤)

لا يمكن لأي مجتمع أن يبقى هملاً دون امام ومسيرة موحدة تتمحور حوله والامامة في صلاة الجماعة تعبير عن نظام وقانون الحياة فاذا كانت الصلاة جماعة لا تقوم الا بامام فكيف بالامة . إن الامام في الصلاة وافد المأمومين وعليهم تقديم افضلهم كما عن النبي ﷺ^(٦٥)

و عليهم أن ينظروا من يوفدون في دينهم وصلاتهم^(٦٦)

و « إن ائمتكم قادتكم الى الله فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم^(٦٧) »

و « إن امامك شفيحك الى الله تعالى ، فلا تجعل شفيحك الى الله سفيها ولا فاسقا كما قال ابوذر الغفاري^(٦٨) و « من صلى خلف عالم فكأنما صلى خلف رسول الله ﷺ^(٦٩) و « ان سرکم ان تزکوا صلاتکم فقدموا خيارکم^(٧٠) » وان « كل اهل مسجد

احق بالصلاة في مسجدهم الا أن يكون (امير حضر) فإنه أحق بالامامة فيأهل المسجد^(٧١) و « لا تصل الا خلف من تثق بدنيه^(٧٢) » وان من يفارق الذنب لا يصلى خلفه^(٧٣) و « لا يصلين احدكم خلف المجذوم والابرص والمجنون والمحدود وولد الزنا ، والاعرابي لأيوم المهاجرين^(٧٤) » و « من صلى بقوم وفيهم من هو اعلم منه لم يزل امرهم الى سفال اليوم القيامة^(٧٥) »

و « من أم قوما وفيهم من هو اقراً لكتاب الله منه لم يزل في سفال الي يوم القيامة^(٧٦) و ان الصلاة خلف من يتولى ولا يتبرأ منه^(٧٧) » و « ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة ... ورجل ام قوما وهم له كارهون^(٧٨) » و « وما ورد » يتقدم القوم اقرأهم للقران فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سناً فان كانوا في السن سواء فليؤمهم اعلمهم بالسنة وافقههم في الدين ولا يتقدم من احدكم الرجل في منزله ولا صاحب [ال] سلطان في سلطانه^(٧٩) .

كل ذلك يوحي بضرورة أن يتحرك

الله على عباده والتي تتلخص فيها كل صفات الخير والهدى ، فالأفضل هو الإمام ولا تقدم للمفضل عليه وهذا هو قانون العقل والعقلاء فالعمل لامعنى له من دون امامة .

و من هنا قال رسول الله ﷺ : « من مات وهو لا يعرف امامه مات ميتة جاهلية^(٨١) » .

وقال الصادق عليه السلام : « ان الارض لاتصلح الا بالامام^(٨٢) » .

و عنه عليه السلام : « لو لم يكن في الارض الاثنان لكان الامام أحدهما^(٨٣) » .

وقال الباقر عليه السلام : « إن من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه بلا إمام عادل من الله ، فإن سعيه غير مقبول وهو ضال متحير ، ومثله كمثل شاة لاراعي لها ضلت عن راعيها وقطيعها فتاهت ذاهبة وجائبة يومها ...

«^(٨٤) . و « من أصبح من هذه الأمة ولا امام له من الله عادل أصبح تائها متحيرا إن مات على حاله تلك مات ميتة كفر ونفاق^(٨٥) » . وعن ابي جعفر عليه السلام : قال : « قال الله تبارك وتعالى : لاعدبن كل رعية في الاسلام اطاعت اماما جائرا ليس من الله وإن كانت الرعية في اعمالها برة تقية ولأعفون عن كل رعية في

الانسان في حياته خلف امام جمع الشروط والا فلأمعنى لامامته . والامامة تتوقف على مدى علاقة الامام بالقرآن وتاريخه الممتد والمعروف بالصالح والعلم بالسنة والفقهاء في الدين والسلامة النفسية والجسدية كما ان هناك درسا اخر وهو ان الامامة للامام الاسبق والراتب .

ان سفال الأمة عندما تسير خلف امام ليس هو الاعلم . والاعلم ليس في الفقه او الاصول وحسب وانما هو الفقيه بالمعنى العام للكلمة والذبيواكب حركة الزمن ويمتلك الرؤية السياسية التي تحصن الأمة امام التحديات ومنها الادارة والتدبير قال النبي : ما من قوم ولوا أمورهم رجلا وفيهم من هو خير منه الا كان امرهم الى سفال^(٨٦) » .

إن امام القوم لا بد أن يتصف بصفات فلا تسر في حياتك او تقتدي بمن لا تثق بدينه . والثقة ليست اخروية وانما هي عملية تعبر عن مدى ما يتصف به الانسان من قيم في الدنيا .

فمن الضروري أن تقتدي جماعة المسلمين بالامامة الكبرى التي فرضها

و يقول الامام علي عليه السلام : في عهده لمالك الاشر : « فاذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا ، فان في الناس من به العلة وله الحاجة ، وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهني الى اليمن كيف اصلي بهم ؟ فقال صل بهم كصلاة اضعفهم وكن بالمؤمنين رحيماً^(٩١) »

و عن ابي عبد الله عليه السلام انه قال : ينبغي للامام أن يكون صلاته على صلاة اضعف من خلفه^(٩٢)

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من صلى يقوم فاختص نفسه بالدعاء دونهم فقد خانهم^(٩٣) » .

اننا امام درس اجتماعي كبير يعبر عن مسؤولية الحاكم والامام تجاه أمته وهو أن يدرك همومها وان عليه أن يفكر بها وليس بنفسه وهنا نستذكر كلام الامام علي عليه السلام عندما يخاطب الناس قائلاً : « ان لي عليكم حقاً ولكم علي حق^(٩٤) »

أ - تعيين الامام

إذا رأى رجلين يصليان فرادى فنوى أن يأتيهما لم تصح صلاته لان الاقتداء

الاسلام اطاعت اماما هاديا من الله وان كانت الرعية في اعمالها ظالمة سيئة^(٨٦) » .

و اذا كانت الامامة كما يقول الامام الباقر عليه السلام « لاتصلح الا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن المحارم ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الخلافة على من ولي عليه حتي يكون له كالوالد الرحيم^(٨٧) » لم يجز نكت صفقته كما عن الصادق عليه السلام : « من نكت صفقة الامام جاء الى الله اجذم^(٨٨) » .

و اذا كان على المأموم اتباع الامام فان على الامام الشعور بالمأموم ، فقد صلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس يوماً فخفف في الركعتين الاخيرتين ، فلما انصرف قال له الناس : يا رسول الله رأيناك خففت هل حدث في الصلاة أمر ؟ قال : وما ذلك ؟ قالوا : خففت في الركعتين الاخيرتين فقال : « او ما سمعتم صراخ الصبي^(٨٩) » .

و على هذه الاساس ينبغي للامام والافضل له أن تكون صلاته على قدر صلاة اضعف من يقتدى به ، ولا يطولها ، فيشق ذلك على من يأتيه به ، فأما إن كان وحده فالتطويل هو الافضل ، فانها العبادة^(٩٠) .

واحد مع المأموم أو أقل منه وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام قال : إن كان الامام على شبه الدكان او على موضع أرفع من موضعهم لم يجز صلاتهم^(٩٧) .

هذا الحكم وما جاء عن الامام الصادق تعبير عن واقع اسلامي في المجتمع ، فامامة الامام تعني أنه اكثر تواضعا منهم وأنه يعيش شعور المساواة معهم أو أنه أقل منهم ، واذا عاش الامام مثل هذا الاحساس كان لهم كالوالد الرحيم وهو ما ورد عن الامام الباقر عليه السلام^(٩٨) وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « سيد القوم خادمهم^(٩٩) » ، وأمر الله سبحانه نبيه بقوله

« واخفض جناحك للمؤمنين^(١٠٠) » .

و من الملاحظ في هذا الحكم أنه يسد الباب على الشعور بتعالي الامام على مرالازمان والا لاتخذ الحكام الظلمة الذين يتظاهرون بالاسلام ويصلون بالناس ، بروجاً كمقام لهم في الصلاة فيما يصلي المأمومون على الارض .

بالامامين لا يصح واذا نوى أن يأتيهم باحدهما لا بعينه لم يصح لانه اذا لم يعرف امامه لم يمكنه الايتمام به ، فاذا رأى رجلين احدهما امام فنوى الاقتداء بالمأموم لم يصح لأن الامام هو الذي يتبع ولا يتبع المأموم وكذلك « اذا نوى الايتمام بالامام ثم بان أن المأموم كان قد خالف سنة الموقف ووقف مكان الامام لاتصح صلاته لأنه بان أنه أثم بمن لا يصح أن يكون اماماً^(٩٥) »

ما هو الدرس الاجتماعي الذي يوحى به هذا الحكم ؟ ان الامة لا يمكنها أن تحكم من قبل امامين او تتبعهما في وقت واحد ولا يصح أن لاتحدد الامام بل لابد لها أن تنتمي الى امام محدد ولا يقبل منها أن تتبع الوسائط وتترك الامام ولا يصح منها أن تتبع من احتل مكان الامام .

ب. مقام الامام

- لا يجوز أن يكون مقام الامام أعلى من مقام المأموم الا بما يعتد بمثله ويجوز كون مقام المأموم أعلى بعد أن لا ينتهي الى الحد الذي لا يتمكن معه من الاقتداء به^(٩٦)

إن على الامام أن يقف على مستوى

٣- المأموم :

والشعوب والاعم الهرج .

نعم اذا لم يفصح الامام عن رأيه كان بإمكان الآخرين التعبير عن رؤاهم ولكن في نفس اطار ما يؤمن به الامام ولا يقتصر الامر على القراءة وانما يتعداها للدعاء فقد روى ابوبصير عن احدهم (الباقر أو الصادق عليه السلام) قال : « لاتسمعن الامام دعاءك خلفه ^(١٠٤) » فالدعاء وان انيط بالمأموم ولكن مع ذلك لا ينبغي أن يرفع فيه الصوت ليسمعه الامام وهذا الحديث يعلمنا أن لاصوت يؤثر على امامة الامام .

و تأتي التبعية في الافعال للامام في نفس المضمار ، سأل الفضيل بن يسار ابا عبدالله عليه السلام عن رجل صلى مع امام يأتهم به ثم رفع رأسه من السجود قبل أن يرفع الامام رأسه من السجود قال : « فليسجد ^(١٠٥) »

ان تبعية الامام في الحركات والسكنات تعلمنا اتباع الامام العادل وعدم التقدم عليه ، ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى عن التقدم هذا ﴿ يا ايها الذين امنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم ^(١٠٦) .

« يلزم المؤتم الاقتداء عزمًا وفعلاً ولا يقرأ خلفه بالاولين من كل صلاة ^(١٠١) »
و « لا يجوز للمأموم أن يتدبّر بشيء من افعال الصلاة قبل امامه ^(١٠٢) »
فمن « قرأ خلف امام يأتهم به فمات بعث على غير الفطرة » كما ورد عن اميرالمومنين ^(١٠٣) .

ماذا نستوحي من هذا الحكم في صلاة الجماعة ولماذا كل هذا النهي والتخويف عن القراءة خلف الامام الذي توفرت فيه شروط الامامة ؟ وما هي العلاقة بين القراءة والبعث على غير الفطرة ؟ إن الفطرة قانون الحياة الاول وهي لاتخص صلاة الجماعة او القراءة وانما تستوعب كل جوانب الممارسات .
وصلاة الجماعة عملية تأهيلية لاقامة النظام فالكلام للامام دائماً فاذا تكلم شخص في وقت يتكلم الامام بعث على غير الفطرة وهذا يعني أن الاجتهادات لاعمى لها مقابل موقف الامام ومن يعبر عن رؤى الجماعة والامة انما هو الامام دون سواه وهذا ما نراه في نظام الدول

٤. الجماعة

انسجام وتناسق يقوم ويقعد معهم ،
يذكرهم في صلاته ويدعو لهم ويشعر
بانتمائهم معهم الى مدرسة واحدة هي
مدرسة صلاة الجماعة هذه .

وقد اكد الاسلام على الجماعة
بمعناها العام كما اكد عليها بالمعنى
الخاص (اي المضافة الى الصلاة)

فعن النبي : « ثلاث لا يغفل عليهن
قلب امرئ مسلم اخلاص العمل لله ،
والنصيحة لائمة المسلمين وال لزوم
لجماعتهم ، فإن دعوتهم محيطة من
ورائهم ، المسلمون اخوة تتكافىء دماؤهم
ويسعى بذمتهم ادناهم » (١١٢) .

إن هذا الحديث يتجلى في صلاة
الجماعة بوضوح فهناك اخلاص لله وامام
وجماعة وتتكون من مسلمين اخوة
تتكافىء دماؤهم دون فرق بين اللغة
واللون والقبيلة .

وعن علي عليه السلام « إن يد الله علي
الجماعة واياكم والفرقة فان الشاذ من
الناس للشيطان كما ان الشاذ من الغنم
للذئب » (١١٣) وعنه عليه السلام « الزموا ما عقد عليه
حبل الجماعة وبنيت عليه اركان

ماينعقد به الجماعة اثنان فصاعداً
واكثره لاحصره ، وكلما كثروا كان
افضل » (١٠٧) .

إن اقل عدد تنعقد به الجماعة انما هو
الامام والمأموم (١٠٨) . دون فرق بين الرجل
والمرأة (١٠٩) هذا في المأموم واما الامام
فلاتصح امامة المرأة للرجل (١١٠) وكلما ازداد
عدد المصلين كان لتلك الجماعة فضل
اكبر .

ان مفهوم الجماعة من المفاهيم التي
اهتم بها الاسلام ولم يقتصر على صلاة
الجماعة بل ان ارتباطه بالصلاة خطوة
لتكوين الجماعة المؤمنة والامة
الاسلامية . فالحب الذي يسود المصلين
يمثل الاساس لتواصل اجزاء المجتمع
والامة ، وهو اوثق عرى الايمان كما ورد
عن النبي ﷺ : « إن اوثق عرى الايمان
الحب في الله والبغض في الله ، توالي ولي
الله وتعادى عدو الله » (١١١) .

والجماعة في الصلاة تمرين لبناء
الجماعة والامة الاسلاميتين فالمصلي
على صلة بامام ومصلين يتحرك معهم في

الطاعة^(١١٤)»

و من دعاء الامام السجاد في مكارم الاخلاق « واكمل ذلك لي بدوام الطاعة ولزوم الجماعة^(١١٥) »

و اذا كان هناك نهى من ترك صلاة الجماعة فالنهى مثله بل اشد من مفارقة جماعة المسلمين ، عن النبي « من فارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ، قيل يا رسول الله : وما جماعة المسلمين ؟ قال : جماعة اهل الحق وإن قلوا^(١١٦) »

و عن الصادق عليه السلام : « من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع ربقة الايمان من عنقه^(١١٧) »

و عن علي عليه السلام : قال : « ثلاث موبقات : نكث الصفقة وترك السنة وفراق الجماعة^(١١٨) »

و الموبقات هي المهلكات^(١١٩) و نظراً لاهمية الحفاظ على الوضع الاسلامي العام وردت الروايات التي حضت على الصلاة وراء المخالف ، عن ابي عبدالله عليه السلام قال : « من صلى معهم في الصف الاول كان كمن صلى خلف رسول الله ﷺ^(١٢٠) » .

لماذا هذا الاهتمام بالصف الاول خلف المخالف ؟ ان هذه الصلاة تقوم بعملية لملمة الشتات وتوحيد الصف ، ومن المطلوب لتحقيق الجماعة رسم لوحة جماعية تتأتى عبر مايلي :

١- تسوية الصفوف وسد الفرج :

إن صلاة الجماعة تعمل على تحويل الافراد الى بنيان مرصوص ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾^(١٢١) .

فتتلاحم القلوب وتزول الفوارق دون فرق بين الاسود والابيض والعربي وغيره والتاجر والفقير

و من هنا جاء التاكيد على ذلك كعمل يحبه النبي ﷺ ويستدعي صلاة الملائكة على من يتمون الصفوف ، عن الامام علي عليه السلام : « سدوا فرج الصفوف ، من استطاع أن يتم الصف الاول والذي يليه فليفعل فان ذلكم احب الى نبيكم واتموا الصفوف فان الله وملائكته يصلون على الذين يتمون الصفوف^(١٢٢) » .

و ينبغي أن تكون الصفوف تامة

النهى وتناط بهم مسؤولية كبرى يتفادون من خلالها وقوع الخطأ ومن هذا نتعلم أن على ائمة الامة وقادتها أن يختاروا من حولهم ممن تتوفر فيهم مواصفات من اهمها « الاحلام والنهاي » ومن احكام الصفوف ايضاً أن افضلها « أولها وافضل أولها مادنا من الامام وهو المروي عن الامام الباقر عليه السلام (١٢٨)

و هو حكم له دلالاته الاجتماعية فالوقوف في الصف الاول والراقي نحو سيرورة الفرد جزء منأولي النهي والمبادرة وعدم التخلف عن حركة المجتمع يعني أن يكون الانسان في صميم الاحداث لا في الهامش ؟

٢ . التواصل

لاتصح صلاة الجماعة اذا كان بين الامام والمأمومين او فيما بينهم فاصلة مالايتخطى ولاحائل من بناء او نهر (١٢٩)

إن الامامة لايمكن أن تكون امامة مع وجود الفواصل وهكذا هو حال الجماعة ، فالفواصل موانع تخل بالوحدة القائمة في الجماعة وهذا هو شأن الامة والامام ، فالامة اذا حالت الاحوال بينها وبين الامام

متواصلة بعضها الى بعض كما جاء عن الامام الباقر عليه السلام (١٣٣) و المشهور بين الاصحاب كراهة وقوف المأموم وحده مع سعة الصفوف ، ونقل بعضهم الاجماع (١٣٤) .

و حذر النبي صلى الله عليه وسلم من عدم اقامة الصفوف « لتقيمن صفوفكم او ليخالفن الله بين قلوبكم (١٣٥) »

و المراد أن التباعد سيأخذ طريقه الى قلوبهم إن صرف كل منهم وجهه عن الآخر بينما يعد اقبال الوجه على الوجه من اثر المحبة والالفة (١٣٦) واذا كان تراص الصفوف يحظى بكل هذا الاهتمام فهو يدعو الى تماسك الامة وعدم ايجاد ثغرات فيما بينهما تتخذها الشياطين اوكاراً لتمزيقها فالمسافات بين المؤمنين كلما ابتعدت ادى الى التباعد واختلاف القلوب ومما يتعلق بالصفوف ايضاً هو أن يكون الذينيلون الامام أولي الاحلام والنهاي وذلك ليتحملوا مسؤولية التقويم عندما ينسى الامام أو يتعايا مثلما ورد عن الامام الباقر عليه السلام (١٣٧) .

إن اقرب دائرة الى الامام انما هم اهل

قطعها اذا كان الامام امام الاصل واذا لم يكن الامام امام الاصل وكان ممن يقتدى به تتم صلاته التي هو فيها ركعتين على التخفيف ويعدهما نافلة^(١٣٣)

خسرت الامامة وغاب عنها عنوان الامة ، وقد قال الامام الباقر عليه السلام : إن صلى قوم وبينهم وبين الامام ما لا يتخطى فليس ذلك الامام لهم اماماً^(١٣٠)

٣ . موقف المأموم

يدل هذا الحكم على تقديم الجماعة على الفردي حتى بالنسبة لمن دخل الصلاة فرادى ثم اقيمت الجماعة وقد روى سليمان بن خالد قال : سألت ابا عبد الله عليه السلام عن رجل دخل المسجد وافتتح الصلاة فبينما هو قائم يصلي إذا أذن المؤذن وأقام الصلاة قال : فليصل ركعتين ثم ليستأنف الصلاة مع الامام ولتكن الركعتان تطوعاً^(١٣٤)

من المندوب أن يقف المأموم - ان كان واحداً - عن يمين الامام^(١٣١) وقد علل ذلك في رواية عن احمد بن رباط عن ابي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : لأي علة اذا صلى اثنان صار التابع علييمين المتبوع ؟ قال : لانه إمامه وطاعته للمتبوع ، وان الله تبارك وتعالى جعل اصحاب اليمين المطيعين فلهذه العلة يقوم علييمين الامام دون يساره^(١٣٢)

ان هذا الحكم في صلاة الجماعة يدربنا على الانضمام الى دائرة المجتمع الكبيرة فمشاريع الفرد التي بدأها ينبغي التضحية بها اذا تطلب واقع المجتمع ذلك كما أن حركة الانسان من دائرة الفرد الى دائرة المجتمع امر مطلوب ومن هذا المنطلق تبدأ عملية التمرين في صلاة الجماعة

إن التعليل في الرواية في غاية الروعة من حيث الممارسة الاجتماعية إذ هناك امامة وطاعة ، والطاعة حق الامام على الامة والا اختل النظام

٤ . قطع النافلة ودخول الجماعة

٥ . الاتصال بالجماعة بأية صورة

أ - اذا سمع تكبيرة الركوع قبل وصوله الى الصف فليركع ويمشي وهو كذلك حتي يصل الى الصف ويتم ركوعه^(١٣٥)

اذا دخل انسان في صلاة نافلة ثم اقيمت الصلاة كان له قطعها والدخول في الجماعة ، واذا كان في فريضة كان له

نفس الانسان معنى الاتباع للقائد والامام وهو يذكرنا بماورد في بعض الادعية حول اهل البيت « المتقدم لهم مارق »^(١٣٨)

٧. ابواب مشرعة

أ- من ادرك الامام وهو ساجد كبر وسجد معه ولم يعتديها^(١٣٩)

ان مايستوحى من هذا الحكم أن اتباع الامام ينبغي أن يكون في طوال المسيرة والمهم هو المحافظة على العنوان العام للجمع المؤمن فرغم ان الصلاة في آخر اجزائها ولكنها تبقى الجماعة التي يمكن للانسان أن يكون جزءاً لا يتجزأ عنها

ب - « من لحق الامام في تشهده ، وقد بقيت عليه منه بقية فدخل في صلاته ، وجلس معه ، لحق فضيلة الجماعة ، ثم ينهض فيصلّي لنفسه . »^(١٤٠)

مما يدل على ان مدرسة صلاة الجماعة تترك ابوابها مشرعة لاستقطاب الفرد ومن ناحية اخرى على الفرد أن يتحين الفرص لعدم الحرمان منها وهذا ما ينسحب الى المجتمع ايضا .

و اذا كان الحديث « عليك بالجماعة

ب - الامام اذ علم بدخول قوم الى المسجد وهو في الركوع أطال فيه حتى يلحقوا به في ذلك »^(١٣٦)

ان اتصال الفرد بالجماعة بهذه الطريقة قد يثير الاستغراب اليس المشيئينافي هيئة الصلاة ويبطلها ؟ ولكن مع ذلك كان امراً مطلوباً وهو وإن دل على اهمية صلاة الجماعة ولكنه يوحى بضرورة الانتماء الى المجتمع المسلم والمشاركة في الانضمام الى الحركة الاسلامية الشاملة .

٦. الاتباع

اذا اقتدى انسان بغيره فيصلاته لم يجز له ان يرفع رأسه قبل رفع رأسه من ركوع ولا سجود فان فعل ذلك ناسيا عاد الى الركوع او السجود حتى يرفع رأسه مع الامام^(١٣٧) .

صلاة الجماعة قوامها الاتباع فلا يمكن أن تكون جماعة اذا تقدم عمل المأموم على الامام ومن هنا لا يجوز للمأموم أن يرفع رأسه من ركوع او سجود قبل الامام واذا انفتحنا على المجتمع من خلال هذا الحكم لرأيناه سلوكا يرسخ في

ولكن يبقى عنوان الجماعة مصوناً عن انعكاس الخطأ « عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام : عن الرجل أم قوما وهو على غير طهر فأعلمهم بعد ما صلوا ، فقال : يعيد هو ولا يعيدون ^(١٤٥)

و كتب أمير المؤمنين الى محمد بن أبي بكر : انظر يا محمد صلاتك كيف تصلحها لوقتها فإنه ليس من امام يصلي بقوم فيكون في صلاته نقص الا كانت عليه ولا ينقص ذلك من صلاتهم ^(١٤٦)

إن الدرس الذي نستلهمه من هذا الحكم في الحياة هو أن الامام والقائد قد يطرأ في ممارسته القيادية بعض النقص الا أن الالفة الكبرى وهي عنوان الجماعة مصون عن التزعزع ومع ذلك فإن الخطأ حقيقة لا يمكن غض الطرف عنها وإن صدرت من أعلى شخصية فعليه أن يدفع الضريبة بنفسه لا أن تحمّل الامة اخطاء القيادة

صلاة الجماعة والمبادئ الاجتماعية المستوحاة

ان المتأمل في صلاة الجماعة يفتح على مجموعة من المبادئ الاجتماعية

فإنما يأكل الذئب القاصية ^(١٤١) . يحذر من خطر الذئب فالذئاب التي تترصد المجتمع الاسلامي هي اضعاف مضاعفة

٨ . الخط الممتد

إذا أم رجل قوما صلى بهم ركعة ، ثم مات يقدمون رجلاً آخر فيعتد بالركعة ^(١٤٢)

ان هذا الحكم الوارد عن الامام الصادق عليه السلام يوحى بان الامامة خط ممتد لا ينتهي بموت امام وانما لابد من وجود امام آخر وان الحركة لا تنتهي بالفرد وأن الثاني لا ينقض عمل الاول من هذا القبيل قول الفقهاء : « من كان اماماً ثم احدث في الصلاة حدثاً ينقض الطهارة او يقطعها ، فينبغي أن يقدم غيره لئتم الصلاة بالناس ، ويستحب أن يكون هذا الذي يقدم من قد شهد الاقامة للصلاة ، فإن لم يكن كذلك جاز تقديمه عليك حال ^(١٤٣)

٩ . مكانة العنوان

من صلى بقوم ركعتين ثم اخبرهم انه لم يكن على طهارة اتم القوم صلاتهم ، وبنا عليها ولم يعيدوها ^(١٤٤)

إن الامام قد يكون عرضة للخطأ

للحياة أن تقوم اذا لم تكن هناك ثقة فالزوجان اذا انعدمت بينهما الثقة تحول الجو الى جحيم وانعدم الامان ، واذا غابت الثقة عن السوق ساد الغش ولو فقدنا الثقة بالطبيب والمعلم والمصرف والقصاب والخباز لتحول العالم الى غابة وحرمانا الاستقرار واصبنا بانواع الامراض النفسية والعصبية

و نتيجة لأهمية الثقة ودورها الكبير في علاقات الانسان اكدت عليها ديانات السماء ومدح الباري بها اعظم انبيائه في قوله تعالى : ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ^(١٤٨) .

و جاءت تعليمات الاسلام مرسخة الثقة في المجتمع فقاعدة سوق المسلمين والتي تعني امارية سوق المسلمين للطهارة والذكاة عند الشك فيهما بالنسبة الى البضائع التي توجد في اسواق المسلمين ، من اللحوم والجلود وغيرهما فان نفس كونهما في سوق المسلمين يكفي للطهارة والحلية ^(١٤٩) « و» المراد من (سوق

تؤكدها هذه الصلاة وهي مبادئ ترسم مسار الحياة العامة وتمثل ركائز قيام الامة التيعمل الاسلام على بنائها . ويمكن أن نقدم نماذج من هذه المبادئ :

١- مبدأ الامامة :

الامامة قوام صلاة الجماعة ولا يمكن لها أن تتحقق من دون إمام وهي وإن كانت محدودة بحدود الصلاة نظراً لعدد المصلين وقصر الزمان الا أنها ترسخ في النفس مفهوم الامامة بمعناه الواسع الذي لامناص من وجوده في الجماعة الكبرى وهي الامة . فاذا كان المأموم الواحد لا ينطبق عليه عنوان الجماعة بلا إمام فكيف يكون المجتمع مجتمعاً اذا فقد الامام ؟ ومن هنا تأتي النصوص الدالة على الامامة « وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتهمهن قال إني جاعلك للناس اماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ^(١٤٧) » .

٢- مبدأ الثقة

إن تأسيس مجتمع متماسك ومتآلف لا بد أن يركز على مبدأ الثقة ولا يمكن

أخيك^(١٥٥) « وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما من مؤمنين الا وبينهما حجاب ، فإن قال له : ليست لي بولي فقد كفر ، فإن اتهمه فقد انماث الايمان في قلبه كما ينحاث الملح في الماء^(١٥٦) .

و من اعظم الاعمال التي تعزز الثقة صلاة الجماعة ، فالمأموم ينطلق من مفهوم الثقة ليصلي خلف شخص يحكم عليه بالاسلام والايمان والعدالة والطهارة وملكية الملابس والالتيان بالقراءة وغيرها ، ويقف المأموم في الصف الثاني ليتصل بالامام من خلال مأموم آخر ويحكم عليه بنفس الاحكام السابقة . ومما يقوي دعائم الثقة هذه وقوف المسلم الي جانب اخيه المسلم حيث تربطهما علقه الحب ووحدته الهدف والحركة وايمانهما بأن الجماعة انما تقوم بكل جزء من اجزائها ليقول كل واحد منهم للآخر في نهاية الصلاة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فيعطي بذلك الامان لأخيه ليخرجوا من مكان الصلاة الى المجتمع وقد جعلوا السلام شعاراً لهم

٣- مبدأ العقد الاجتماعي

لقد عمل الاسلام منذ أن اطل على

المسلمين (مطلق الامكنة ، التي تكون في سيطرة المسلمين لا السوق بالمعنى الخاص^(١٥٠) »

وقد سئل الامام الباقر عن شراء اللحم من الاسواق ولايدرون ما صنع القصابون ، قال : « كل إذا كان ذلك في سوق المسلمين ولا تسأل عنه^(١٥١) » وهكذا اعتبار غيبة المسلم من المطهرات بالنسبة لبذنه او لباسه او فرشه او ظرفه او غير ذلكما في يده^(١٥٢) .

وشهادة العدلين بالتطهير واخبار ذي اليد وان لم يكن عادلاً واخبار الوكيل في التطهير بالطهارة وغسل مسلم للشيء بعنوان التطهير وإن لم يعلم أنه غسله على الوجه الشرعي ام لا ، حملاً لفعله على الصحة^(١٥٣) .

وقواعد اخرى غيرها بالاضافة الى عدد كبير من الروايات من قبيل ما ورد عن امير المؤمنين عليه السلام « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوء وانت تجد لها في الخير محملاً^(١٥٤) » وعن الامام الكاظم عليه السلام : « كذب سمعك وبصرك عن

والتعالى ، وقوله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »^(١٦١) .

و اذا كانت هناك تعاليم تدعو لترسيخ العقد الاجتماعي وإن هناك نواهي تحول دون فسخ هذا العقد من قبيل « ليس منا من غشنا »^(١٦٢) و « يا ايها الذين امنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنازروا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون يا ايها الذين امنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »^(١٦٣)

و « من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً »^(١٦٤) .

و جعل الاسلام الحق مقياساً ومعياراً لقيام الجماعة فقد قال رسول الله ﷺ لرجل سأله عن جماعة امته : « جماعة أمتي أهل الحق وإن قلوا »^(١٦٥)

و دلت نصوص العترة الطاهرة على

ايجاد عقد اجتماعي بين المسلمين وذلك من خلال البيعة التي اخذها النبي من المسلمين الاوائل كبيعة العقبة^(١٥٧) ، وعقد المدينة^(١٥٨) و وصف المسلمين « كمثل الجسد اذا وجع بعضهم وجع كله بالسهر والحمى »^(١٥٩)

و الجسد يمثل تواصل الاعضاء وترباطها وقيام بعضها بخدمة بعض وانصياعها لقرارات العقل مما يعني وجود عقد يحكمها وهو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المؤمن ويسعى الاسلام بكل تعاليمه لاجاد عقد اجتماعي فقوانينه فيما يرتبط بالاسرة والجار والشارع والسوق والعلاقات العامة تصب في هذا المصب .

و تقع الاية المباركة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عندالله اتقاكم »^(١٦٠) في رأس قائمة التعاليم الداعية للعقد الاجتماعي فالخلقة والجعل تسييران بالانسان نحو التعارف ويقضي التكريم عليك عوامل التفرقة والتباغض فليس الاكرم بماله او نسبه او منصبه وانما بالتقوى التي هي حصن واق من التمزق

٤ . مبدأ الطاعة والاتباع

أمر الله سبحانه بالطاعة والاتباع في مواطن من كتابه الكريم « قل اطيعوا الله والرسول ^(١٦٨) » و« يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ^(١٦٩) » وهو ما يبين أهميتها وأثرهما . إذا لولاهما لسادت الفوضى ، وقد جاء الدين ليقضي على هذه الظاهرة المرضية ، ومن هنا يحث الانسان على مجموعة امور تسير به نحو النظام والطاعة وذلك من قبيل صلاة الجماعة فالمأموم يمارس عملية الطاعة في مواكبته لحركة الامام وعدم التقدم عليه واتباعه في الافعال والاقوال

٥ . مبدأ الوحدة والانسجام

للجماعة الاسلامية شخصية دينية سياسية مستقلة بها ، تتحقق من خلال الوحدة والانسجام . وقد عمل النبي على بنائها منذ أن وطئت اقدمه المباركة ارض المدينة المنورة حيث كتب كتابا بين المهاجرين والانصار جاء فيه : إنهم أمة واحدة من دون الناس ^(١٧٠) «

و الوحدة ترسي قواعد الامة التي تتمحور حول مفهوم التوحيد والنبوة والمعاد

العقد الاجتماعي معتبرة اياه نعمة لايعرف المخلوقون قيمتها ، جاء عن اميرالمؤمنين عليه السلام : « ان الله سبحانه قد أمتنّ على جماعة هذه الامة فيما عقد بينهم من حبل هذه الالفة التيينتقلون في ظلها ويأوون اليكنفها ، بنعمة لايعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنها أرجح من كل ثمن واجلّ من كل خطر ^(١٦٦) » .

و قال عليه السلام : « والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة وبنيت عليه اركان الطاعة ^(١٦٧) »

و مما يعمق اساس هذا المبدأ صلاة الجماعة ، فالمصلون يتعاقدون فيما بينهم لتأسيس الجماعة واعتماد آلية لاختيار الامام والتبعية له وتناسق الحركة . والعقد هذا لايجتاج الى اوراق وتوقيعات وصناديق اقتراع وجيوش وليس هناك تنافس على الامامة بل العكس فان كل واحد من اعضاء الجماعة يرى اخاه أصلح منه وأقدر على ادارة هذا الجمع . والممارسة بشكلها الرائع هذا عندما تأخذ طريقها الى المجتمع تجذّر العقد الاجتماعي وتجعله عصيًا امام محاولات التفكيت كالبنيان المرصوص

العربي علي العجمي ولا للأحمر على
الاسود الا بالتقوى^(١٧٤) »

ولا يمكن تأسيس مجتمع فاضل
ومتكامل الا على اساس المحبة والعدل
والمساواة والمؤاخاة فقد اخى النبي ﷺ :
بين اصحابه من المهاجرين والانصار
فقال : تأخوا في الله اخوين اخوين^(١٧٥)

وأخى بين الاوس والخزرج ووضع ميثاقا
ينظم العلاقة بين المهاجرين والانصار^(١٧٦)
واعتبر تفكيك عرى الاخوة « دعوى
الجاهلية » و« إنها منتنة » وذلك عندما
حاول الانصاري استنهاض الانصار وفعل
مثله المهاجري حين نادى يا للمهاجرين
اثر صراع دار بينهما^(١٧٧) وورد عنه ﷺ :
خير المؤمنين من كان مألفة للمؤمنين
ولاخير فيمن لا يألف ولايؤلف^(١٧٨) .

و مما يحكم مبدأ المساواة والاخاء
صلاة الجماعة فالمسلمون يقفون في صف
واحد لا فرق بينهم في الاصل والعنصر
والامكانيات والمستويات . ومن تأمل
الصفوف انفتح على لوحة مزدانة بالازهار
المنوعة فالابيض والاسود والاصفر
والاحمر والتاجر والفقير والرئيس والمرئوس

« وان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم
فاتقون^(١٧١) » لتكون الامة الوسط « وكذلك
جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا^(١٧٢)
وخير امة « كنتم خير أمة اخرجت
للناس^(١٧٣) »

و تعمل الاوامر والتعاليم الاسلامية
على تقديم منهج وحدوي متماسك ومن
اهم هذه التعاليم صلاة الجماعة فهي
موسم وحدوي يتكرر كل يوم عدة مرات يلهم
الانسان باقية من الممارسات الوحدوية
كوحدة الامام والجمع والقلوب والكلمة
والابتداء والانتهاء والجهة والهدف والرب .
وعندما يأتي المسلم بصلاة الجماعة كل
يوم فهو يتمرن على الوحدة ليطبقها في
جميع مرافق الحياة

٦ . مبدأ المساواة

المساواة والاخوة من اساسيات
الاسلام فالبشر خلق الله وعباله فلا فرق
بين مخلوق واخر في الانسانية ولافضل الا
بما جعله الله ميزانا لتفاضل فقد روي عن
رسول الله ﷺ : « إن الناس من آدم
اليومنا هذا مثل اسنان المشط لا فضل

خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (١٨٠) و اعتبرته الروايات من واجب حق الله سبحانه كما ورد عن اميرالمومنين عليه السلام : « من واجب حق الله على العباد النصحية بمبلغ جهدهم والتعاون على اقامة الحق بينهم (١٨١) »

و اعداد المناخ الصالح مسؤولية الجميع فلاعذر لأحد في ذلك .

و تعتبر صلاة الجماعة احدى اهم المحاولات لتوفير المناخ الصالح ففيها اظهار الاخلاص والتوحيد والاسلام والعبادة وحجة على اهل الشرق والغرب والزام للمنافق والمستخف بتأدية ما أقر به كما جاء عن الامام الرضا عليه السلام (١٨٢) .

فالمسلم عندما ينتمي الى الجماعة وصلاتها يجدجوا ومناخاً اسلامياً يغير من خلاله الفكر والسلوك والعلاقات والاتباع واذا تحول ذلك الى سجية دخل المجتمع كمواطن صالح .

واخيراً

يخرج المصلي بعد اتمام صلاة

والكبير والصغير والعربي والعجمييقفون جنباً الى جنب يصلون لرب واحد ونحو قبلة واحدة وخلف امام واحد ويرددون ذكراً واحداً ويسجدون على الارض بصورة واحدة . وفي هذه الاجواء الاخوية يتحسسكل واحد منهم معاناة الآخر ومشاكله ليعمل على تذليل الصعاب وتجاوز المحن

٧ . مبدأ توفير المناخ الصالح

المناخ الصالح ضرورة يفرضها نظام الكون فالحبة لايمكنها أن تكون شجرة وارفة مثمرة مالم تحتضنها ارض خصبة فيما يحتضن الرحم السليم النطفة ليقدم للعالم عالماً واذا كان الامر هكذا بالنسبة للطبيعة فالافراد لايتسنى لهم أن يولدوا على الارض من جديد ويحيوا الحياة الطيبة من دون المناخ الصالح وقد جاءت شرائع السماء لتوفر المناخ المناسب الذييكون الارضية الطيبة لتكامل الفردو شعار الاسلام لتحقيق ذلك قوله تعالى « تعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان (١٧٩) » وقوله عزاسمه « بسم الله الرحمن الرحيم والعصر إن الانسان لفي

يمثل جوهر الاسلام

٣- صلاة الجماعة رسالة على المستوى الداخلي والخارجي

٤- إن كل عمل من اعمال صلاة الجماعة له مدلول اجتماعي

٥- الامامة في صلاة الجماعة تدريب على الامامة في المجتمع

٦- إن مبدأ الثقة في صلاة الجماعة ممارسة لزرع الثقة في نفوس ابناء المجتمع

٧- صلاة الجماعة مبدأ عقد اجتماعي
٨- تعلم صلاة الجماعة مبدأ الطاعة والاتباع

٩- الوحدة والانسجام من المبادئ التي تؤكد صلاة الجماعة

١٠- المساواة ضرورة اجتماعية تثبتها صلاة الجماعة

١١- توفر صلاة الجماعة المناخ الصالح

الجماعة من المجتمع المصغر الى المجتمع الكبير فيدخل بيته ويكون عضوا صالحاً فيمارس دوره كأب قائد للعائلة وكأم مربية لجيل رسالي وكأبن يعي مسؤوليته ، أو يذهب الى السوق فيكون البائع الذي لا يغش ولا يكذب لأن الثقة في صلاة الجماعة قدّمت له درساً في الثقة في ابعادها المختلفة او ينضم الى المدرسة او الجامعة او المعمل فيصون نفسه عن الفحشاء والمنكر ويؤدي ما عليه بأحسن وجه .

فهو المواطن الذي دخل دورة في الاخاء والطاعة والوحدة والمساواة ، والعامل الذي يوفر المناخ العام للسير نحو الله سبحانه وتعالى .

الخاتمة

١- الاسلام دين دنيا واخرة لا يمكن التفكيك فيه بين البعد الاخلاقي والعبادي والسياسي والاجتماعي

٢- تتسم العبادات بطابع اجتماعي

المصادر

- السرائر، ابن ادریس، محمد بن منصور، قم، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٠ هـ، ط ٢.
- المهذب، ابن البراج، قم، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٦ هـ، بلاط
- علل الشرائع، ابن بابويه القمي، محمد بن علي، النجف، منشورات المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥-١٩٦٦ م، بلاط
- من لا يحضره الفقيه، ابن بابويه القمي، محمد بن علي، قم، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، بلاتا، ط ٢.
- الامامة والتبصرة من الحيرة، ابن بابويه، علي بن الحسين، قم، مدرسة الامام المهدي، ١٤٠٤ هـ، ط ١
- امالي الصدوق، ابن بابويه، محمد بن علي، قم، مؤسسة البعثة، ١٤١٧ هـ، ط ١.
- ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، ابن بابويه، محمد بن علي، قم، منشورات الرضي، ١٣٦٨ ش، ط ٢.
- مسائل علي بن جعفر، ابن جعفر، علي، قم، مهر، ١٤٠٩ هـ، ط ١.
- مسند احمد بن حنبل، ابن حنبل، احمد، بيروت، دارصادر، بلاتا، بلاط.
- مسند الشهاب، ابن سلامة، محمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ط ١.
- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، قم، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤٠٤ هـ - ١٣٦٣ ش، ط ٢.
- سنن ابن ماجه، ابن ماجه، محمد بن يزيد، دارالفكر، بلاتا، بلاط.
- مقتل الحسين، ابن مخنف، لوط بن يحيى، قم، مطبعة العلمية، بلاتا، بلاط.
- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، قم، ادب الحوزة، ١٤٠٥ هـ، بلاط.
- السيرة النبوية، ابن هشام، القاهرة، المدني، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م، بلاط.
- كتاب المؤمن، الاهوازي، الحسين بن سعيد، قم، مدرسة الامام المهدي، ١٤٠٤ هـ، ط ١
- المحاسن، البرقي، احمد بن محمد، طهران، دارالكتب الاسلامية، ١٣٧٠ هـ، بلاط،
- السنن الكبرى، البيهقي، احمد بن الحسين، بلامطبعة، بلاتا، بلاط.
- الصحاح، الجوهري، اسماعيل بن حماد، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ط ٤.
- وسائل الشيعة، الحر العاملي، محمد بن الحسن، قم، مؤسسة ال البيت لاحياء التراث، ١٤١٤ هـ، ط ٢.
- الكافي، الحلبي، ابوالصلاح، اصفهان، مكتبة الامام أمير المؤمنين علي العامة، بلاتا، بلاط.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محمد مرتضى، بيروت، دارالفكر، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، بلاط.
- الصحيفة السجادية، الامام زين العابدين، تحقيق محمد باقر الابطحي، قم، نمونه، ١٤١١ هـ، ط ١.
- المراسم العلوية، سلا، قم، أمير، ١٤١٤ هـ، بلاط.
- تاريخ الطبري، الطبري، محمد بن جرير، بيروت، مؤسسة الاعلامي للمطبوعات ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ط ٤.

- المبسوط في فقه الامامية ، الطوسي ، محمد بن الحسن ، طهران ، المطبعة الحيدرية ، ١٣٨٧ هـ ، بلا ط .
- الاستبصار فيما اختلف من الاخبار ، الطوسي ، محمد بن الحسن ، طهران ، دارالكتب الاسلامية ، ١٣٦٣ ش ، ط ٤ .
- الخلاف ، الطوسي ، محمد بن الحسن ، قم ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، ١٤٠٧ هـ ، بلا ط .
- تهذيب الاحكام ، الطوسي ، محمد بن الحسن ، طهران ، دارالكتب الاسلامية ، ١٣٦٤ ش ، ط ٣ .
- مصباح المتهجد ، الطوسي ، محمد بن الحسن ، بيروت ، مؤسسة فقه الشيعة ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ط ١ .
- نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، قم ، النهضة ، ١٤١٢ هـ ، ط ١ .
- روضة الواعظين ، القتال النيسابوري ، محمد ، منشورات الشريف الرضي ، بلاتا .
- العين ، الفراهيدي ، الخليل بن احمد ، دارالهجرة ، ١٤٠٩ ، ط ٢ .
- دعائم الاسلام ، القاضي النعمان ، القاهرة ، دارالمعارف ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م ، بلا ط
- شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار ، القاضي النعمان ، قم ، مؤسسة النشر الاسلامي ، ١٤١٤ هـ ، ط ٢ .
- معجم لغة الفقهاء ، قلنجي محمد ، بيروت ، دار النفائس ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ط ٢ .
- الكافي ، الكليني ، محمد بن يعقوب ، طهران ، دارالكتب الاسلامية ، ١٣٦٣ ش ، ط ٥ .
- بحار الانوار لدرر أخبار الائمة الاطهار ، المجلسي ، محمدباقر ، بيروت ، مؤسسة الوفاء ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ط ٢ .
- رسائل المرتضى ، المرتضى ، علي بن الحسين ، قم ، سيدالشهداء ، ١٤٠٥ ، بلا ط .
- مائة قاعدة فقهية ، المصطفوي ، محمد كاظم ، قم ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، ١٤١٧ هـ ، ط ٣ .
- الارشاد في معرفة حجج الله على العباد ، المفيد ، محمد بن محمد ، بيروت ، دارالمفيد ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ط ٢ .
- مستدرک الوسائل ، النوري ، ميرزا حسين ، بيروت ، مؤسسة ال البيت لاحياء التراث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ ، ط ١ .
- صحيح مسلم ، النيسابوري ، مسلم ، بيروت ، دارالكفر ، بلاتا ، بلا ط .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الهيثمي ، علي ، بيروت ، دارالكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- العروة الوثقى ، اليزدي ، محمد كاظم ، قم ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، ١٤٦٧ هـ ، ط ١ .

الهوامش:

- (١) حج ٤١
- (٢) الحجرات ١٣
- (٣) التوبة ٥٩
- (٤) التوبة ٣٤
- (٥) التوبة ٢٩
- (٦) الممتحنة ٨
- (٧) التوبة ٢٣
- (٨) النساء ٣٤
- (٩) الشورى ٣٨
- (١٠) آل عمران ١٠٤
- (١١) البقرة ٢٢٨
- (١٢) الروم ٢١
- (١٣) النساء ٨٠
- (١٤) الكافي، ج ٢، ص ١٩
- (١٥) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٣١٢
- (١٦) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٨٥
- (١٧) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٨٣
- (١٨) النساء ١٠٢، وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٣٥
- (١٩) الاستبصار، ج ١، ص ٤٤
- (٢٠) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٠١
- (٢١) المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٢٩
- (٢٢) معجم لغة الفقهاء، ٢٧٥
- (٢٣) رسائل المرتضى، ١، ٣٧١
- (٢٤) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٩
- (٢٥) الكافي، ج ٨، ص ١٢١
- (٢٦) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٢٤٦
- (٢٧) بحار الانوار، ج ٤٥، ص ٢١، مقتل الحسين، ص ١٤٩
- (٢٨) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٥

- (٢٩) المبسوط، ج ١، ص ١٥٢
- (٣٠) وسائل الشيعة، ج ٨ ص ٢٨٥
- (٣١) المراسم العلوية، ص ٨٥
- (٣٢) البقرة، ٤٣
- (٣٣) ابن بابويه، محمد بن علي، بلاتا، ج ١، ص ٣٧٥
- (٣٤) الكافي، ج ٣ ص ٣٧٢
- (٣٥) مستدرك الوسائل، ج ٦، ص ٤٤٦
- (٣٦) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٨
- (٣٧) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٩٦
- (٣٨) المصدر السابق، ص ٢٩٥
- (٣٩) المصدر السابق، ٢٩٢
- (٤٠) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٧٦
- (٤١) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٩١
- (٤٢) مستدرك الوسائل، ص ٤٤٧-٤٤٨
- (٤٣) الكافي، ج ٣، ص ٣٧١
- (٤٤) المصدر السابق
- (٤٥) مستدرك الوسائل، ج ٦، ص ٤٤٧
- (٤٦) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٠٨
- (٤٧) مسند احمد بن حنبل، ج ٦، ص ٤٤٦
- (٤٨) سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٢٦٠
- (٤٩) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٧
- (٥٠) المصدر السابق، ص ٢٩٣
- (٥١) بحار الانوار، ج ٨٥، ص ٣٧
- (٥٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٩٣
- (٥٣) العين، ج ٨، ص ٢٩٩
- (٥٤) لسان العرب، ص ١٥٤
- (٥٥) مستدرك الوسائل، ج ٦، ص ٤٤٧
- (٥٦) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٧
- (٥٧) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٣٧

- (٥٨) المصدر السابق
- (٥٩) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٧
- (٦٠) المصدر السابق، ج ١٥، ص ٣٥٤
- (٦١) الخلاف، ج ١، ص ٢٨٤
- (٦٢) علل الشرائع، ج ١، ص ٢٥٨
- (٦٣) المذهب، ج ١، ص ٨٠
- (٦٤) المصدر السابق
- (٦٥) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٧٨
- (٦٦) بحار الانوار، ج ٨٥، ص ٨٦
- (٦٧) مستدرک الوسائل، ج ٦، ص ٤٦٣
- (٦٨) علل الشرائع، ج ٢، ص ٣٢٦
- (٦٩) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣٤٨
- (٧٠) المصدر السابق، ص ٣٤٧
- (٧١) مستدرک الوسائل، ج ٦، ص ٤٧٥
- (٧٢) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٤
- (٧٣) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٨٠
- (٧٤) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٥
- (٧٥) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٧٨
- (٧٦) مجمع الزوائد، ج ٢، ص ٦٤
- (٧٧) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٨٠
- (٧٨) مستدرک الوسائل، ج ٦، ص ٤٧٤
- (٧٩) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٦
- (٨٠) شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار، ج ١، ص ١٩٦
- (٨١) المحاسن، ج ١، ص ١٥٤
- (٨٢) المصدر السابق، ص ١٥٤
- (٨٣) الكافي، ج ١، ص ١٨٠
- (٨٤) المحاسن، ج ١، ص ٩٣
- (٨٥) المصدر السابق
- (٨٦) المصدر السابق، ص ٩٤

- (٨٧) ابن بابويه، ص ١٣٨
 (٨٨) المحاسن، ج ١، ص ٩٤
 (٨٩) بحار الانوار، ج ٨٥، ص ٩٣
 (٩٠) السرائر، ج ١، ص ٢٨٥
 (٩١) نهج البلاغة، ص ١٠٣
 (٩٢) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٣٩٠
 (٩٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٠
 (٩٤) نهج البلاغة، ص ٨٤
 (٩٥) المبسوط، ج ١، ص ١٥٣
 (٩٦) رسائل المرتضى، ج ٣، ص ٤٠
 (٩٧) الكافي، ج ٣، ص ٣٨٦
 (٩٨) الامامة والتبصرة، ص ١٣٨
 (٩٩) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٧٨
 (١٠٠) الحجر، ٨٨
 (١٠١) الكافي للحلي، ص ١٤٤
 (١٠٢) السرائر، ج ١، ص ٢٨٨
 (١٠٣) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٨
 (١٠٤) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٠٠
 (١٠٥) المصدر السابق، ص ٣٩٦
 (١٠٦) الحجرات، ١
 (١٠٧) المبسوط، ج ١، ص ١٥٢
 (١٠٨) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٩٧
 (١٠٩) المصدر السابق، ص ٢٩٨
 (١١٠) السرائر، ج ١، ص ٢٨١
 (١١١) المحاسن، ج ١، ص ١٦٥
 (١١٢) الكافي، ج ١، ص ٤٠٣
 (١١٣) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٨
 (١١٤) المصدر السابق، ٣٩، خ ١٥١
 (١١٥) الصحيفة السجادية، ص ١١٢

- (١١٦) أمالي الصدوق، ص ٤١٣
(١١٧) المحاسن، ج ١، ص ٢٢٠
(١١٨) مسائل علي ابن جعفر، ص ٣٤٥
(١١٩) الصحاح، ج ٤، ص ١٥٦٧، تاج العروس، ج ١٣، ص ٤٧١
(١٢٠) الكافي، ج ٣، ص ٣٨٠
(١٢١) الصف ٤
(١٢٢) دعائم الاسلام، ج ١، ص ١٥٥
(١٢٣) الكافي، ص ٣٨٥
(١٢٤) بحار الانوار، ج ٨، ص ٨٥
(١٢٥) المصدر السابق، ص ١٠٠
(١٢٦) المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١
(١٢٧) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٢
(١٢٨) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٧٢
(١٢٩) الكافي للحلي، ص ١٤٣
(١٣٠) بحار الانوار، ج ٨٥، ص ٧٠
(١٣١) المراسم العلوية، ص ٨٥
(١٣٢) علل الشرائع، ج ٢، ص ٣٢٥
(١٣٣) المذهب، ج ١، ص ٨٣
(١٣٤) الكافي، ص ٣٧٩
(١٣٥) المذهب، ج ١، ص ٨٢
(١٣٦) مصدر السابق
(١٣٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٢
(١٣٨) مصباح المتعبد، ص ٤٥
(١٣٩) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٠٨
(١٤٠) السرائر، ج ١، ص ٢٨٦
(١٤١) مسند احمد بن حنبل، ج ٦، ص ٤٤٦
(١٤٢) من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٤٠٣-٤٠٤
(١٤٣) المذهب، ج ١، ص ٨٣
(١٤٤) السرائر، ج ١، ص ٢٨٩

- (١٤٥) الكافي، ج ٣، ص ٣٧٨
 (١٤٦) بحار الانوار، ج ٨٥، ص ٩٢
 (١٤٧) البقرة ١٢٤
 (١٤٨) . التوبة ٦١
 (١٤٩) مائة قاعدة فقهية، ص ١٤٢
 (١٥٠) المصدر السابق
 (١٥١) تهذيب الاحكام، ج ٩، ص ٧٣
 (١٥٢) العروة الوثقى، ص ٢٩٢
 (١٥٣) المصدر السابق، ص ٢٩٧-٢٩٨
 (١٥٤) الكافي، ج ٢، ص ٣٦٢
 (١٥٥) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، ص ٢٤٧
 (١٥٦) كتاب المؤمن، ١٤٠٤، ٦٧
 (١٥٧) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٩٣
 (١٥٨) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٤٨
 (١٥٩) مسند الشهاب، ص ٢، ج ٢٨٤
 (١٦٠) الحجرات ١٣
 (١٦١) آل عمران ١٠٣
 (١٦٢) الكافي، ج ٥، ص ١٦٠
 (١٦٣) الحجرات ١١-١٢
 (١٦٤) المائدة ٣٢
 (١٦٥) تحف العقول، ص ٤٨
 (١٦٦) نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٤-١٥٥
 (١٦٧) المصدر السابق، ص ٣٩
 (١٦٨) آل عمران ٣٢
 (١٦٩) النساء ٥٩
 (١٧٠) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٤٨
 (١٧١) المومنون ٥٢
 (١٧٢) البقرة ١٤٣
 (١٧٣) آل عمران ١١٠

(١٧٤) بحار الانوار، ج ٢٢، ص ٣٤٨

(١٧٥) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٥١

(١٧٦) السنن الكبرى للبيهقي، ج ٨، ص ١٠٦

(١٧٧) صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٩

(١٧٨) بحار الانوار، ج ٧٥، ص ٢٦٥

(١٧٩) المائدة ٢

(١٨٠) العصر

(١٨١) نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٩٩

(١٨٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٧

الدراسات الفكرية

الهرمونوطيقا

ومسألة التأويل(*)

السيد محمد علي الموسوي

باحث وكاتب من العراق / حوزة قم المقدسة.

الهدف .
ويقوم البحث في الهرمونوطيقا ضمن
عدّة محاور :
تفكيك وشرح المصطلح وما يرتبط به
من مصطلحات .
مسألة الهرمونوطيقا في الغرب وأبرز
رجالها والمدارس .
دراسة مسألة التأويل في البلاد
الإسلامية .

تعتبر الهرمونوطيقا بمثابة المرجعية
المعرفية لعلم الكلام الجديد ، فعلي سبيل
المثال فإنّ نظرية القبض والبسط إذا ما
خضعت للتحليل والمراجعة فإنّها منبثقة
من الهرمونوطيقا الغربية^(١) .
وهي من الأهمية بمكان لما لها من
دور كبير في الأبحاث الدينية^(٢) ذات
الطبيعة النصّية ؛ فإنّ الهرمونوطيقا في
بعض مدارسها مشروع لفهم النص من
خلال أساليب وآليات جديدة إزاء هذا

المحور الأول:

الهرمونوطيقا

والجذور التاريخية واللغوية وأقسامها

مدخل منهجي

الرسمي للآلهة ولسانها ، ومؤسس الخط واللغة حسب اعتقاد اليونانيين ، ومن هنا فقد اشتقت الهرمونوطيقا بمناسبة اللغة وما يمثلها هرمس من اللغة والنطق نيابةً عن الآلهة .

ويناقش الباحثون هذا الرأي ويذهبون إلى أنه لا يبدو كونه مجرد نظرية وفرض غير مستند بالأدلة .

التسلسل التاريخي

تعتبر الحقبة الزمنية السابقة على القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين

الهرمونوطيقا كلمة يونانية الأصل استعملت في عهد أفلاطون ، ذكرها أرسطو في كتابه الأرغانون في حديثه عن بنية القضية وأقسامها ، واستخدمت الكلمة بعد ذلك حتى فترة متأخرة دون أن تتحول إلى علم قائم بذاته إلى القرن السادس والسابع عشر ، وهو المعروف بعصر النهضة حيث تحوّلت إلى علم ومشروع نظري .

أما اشتقاقها : فقليل من (هرمس) : وهو الإله اليوناني الذي يمثل الناطق

للهرمونوطيقا في الغرب على شكل كتابة مدونات أولية ، ولم تقف هذه المحاولات عند النص الديني ، بل تعدت إلى كل نص قانونياً كان أم أدبياً ... الخ .

يعتبر (دان هاور) المتوفى ١٦٥٤م ، أول من دعا إلى الهرمونوطيقا كعلم مستقل ، ومن ثمّ تتالت الدعوات في الشأن ذاته .

ماهية الهرمونوطيقا :

قبل الخوض في تعريف الهرمونوطيقا لابدّ من الإشارة إلى ملحوظة الفيلسوف (ريتشارد بارنر) - أحد الكتاب المعاصرين في موضوعة الهرمونوطيقا - ؛ إذ يشير إلى التباس هذا المفهوم وعدم وضوحه ، وهو الأمر الذي استدعاه لإفراد فصل كامل لتعريفه ، على الرغم من أنّ هذا المصنّف - الهرمونوطيقا - غير معنيٍّ بمسألة تعريف المفهوم .

ومن خلال مراجعة لترجمة المفهوم إلى العربية ، يتّضح انصرافه إلى معنيين : التأويل (تأويل النص) والتفسير (تفسير النص) ، على الرغم من كون المصطلح تاريخياً لم يقتصر على ذلك .

حقبة (ما قبل تاريخ الهرمونوطيقا) ، وقبل ذلك لا وجود لها كنظرية مستقلة .

وهنا ملحوظة : أنّ النظريات تكون بادىء الأمر مجرد ممارسات ، ثم تتكوّن على شكل معرفة مستقلة بذاتها ، وتصبح صيغة مفهومية .

وصاحب النظرية هو الشخص الذي يمسك بزمام الممارسات فيحوّلها إلى مفاهيم ، وتعقيباً على هذا ؛ فإنّ الهرمونوطيقا في القرنين السادس والسابع عشر اقتصرت على الممارسة ، وعلماء الغرب يفسّرون النص الإنجيلي ، هو نوع من أنواع الفعل الهرمونوطيقي ، مما يدلّ على وجودها عند كبار العلماء المسيحيين ، إلّا أنّ تحوّلها إلى علم قائم بذاته فإنّه لم يعرف إلّا في عصر النهضة ، وهو المقصود بتاريخ ما قبل الهرمونوطيقا وبعدها .

في القرنين السادس والسابع عشر ظهرت بوادر أوليّة لكتابة منهج في تفسير الإنجيل بعملية مشابهة لتبلور المنهج الأصولي الاجتهادي وتقنيته بشكل واضح ، ومن هنا كانت الولادة الفعلية

معنى العلائم وهو تعريف (فريدريك ولز) ، ويلاحظ في هذا التعريف دخول العلائم الفنية والإشارات ، والهدف من هذا العلم عند (ولز) أمورٌ عدة منها : فهم اللغة ، ثانياً : فهم المحيط التاريخي للمتكلم ، وهنا تظهر نقلةٌ في حركة الهرمونوطيقا تاريخياً ؛ حيث قيّد فهم الكلام والعلائم بملاحظة تاريخ والمتكلم نفسه^(٤) .

مجموعة من القواعد المنظمة والمنهجية التي تهدف إلى رفع سوء فهم النص - وهو تعريف (فريدريك شلاير ماخر) المتوفى ١٨٣٤م - ، وهذا التعريف يؤسس لأصل مفاده : "أصالة الخطأ في فهم النص" ، فقد اعتبر شلاير ماخر أن أي نص - ديني أو غيره - يُعرض على إنسان فإن احتمال الخطأ وارد وذلك للطبيعة التكوينية للإنسان ، ولذا فإن الهرمونوطيقا تكون لاجتناب هذا الخطأ وسوء الفهم .

العلم المتكفل بتقديم منهج معرفي في العلوم الإنسانية - وهو لوليم ديلتاي المتوفى ١٩١١م - ، وقد لاحظ صاحب التعريف مشكلةً في العلوم الإنسانية وهي

بعد هذا ، يمكن استعراض التعاريف التي قدّمها (ريتشارد بارنر) ، وهي ستة ، بالإضافة لتعريفين آخرين :

العلم المعني بتفسير الكتاب المقدس وهي الهرمونوطيقا البدائية ، ويلاحظ فيه عدم شمول الهرمونوطيقا لغير النص المقدس كالشعر مثلاً ، يدل هذا المعنى على أن العلم ولد من رحم الكنيسة بصيغتها البروتستانتية التجديدي الإصلاحية .

فن فهم الكلام المقول والمكتوب فهماً وقولاً فهماً كاملاً تاماً - وهو تعريف (جان مارتن كلادينوف) المتوفى ١٧٥٣م - ، وهو أمرٌ يركز على قواعد خاصة تشبه قواعد المنطق تستخدم في فهم كافة الكلام مقولاً ومكتوباً .

ويلاحظ هنا : اتساع الدائرة لتشمل الكلام المقول ليشمل المكتوب أيضاً ، ولا يقتصر على الكتاب المقدس فقط ، ولكنه - كلادينوف - ضيق سعته التطبيقية حين قصر استخدامه في مرحلة التباس النصوص المعقدة^(٣) .

العلم بالقواعد التي تساعد على معرفة

صاحب التعريف - قبل (ديلتاي) اقتصرت على النص ، ومعه تطوّرت لتصبح منهجاً معرفياً في العلوم الإنسانية ، وصولاً إلى غادامر لتصل إلى شكلها الفلسفي ، حيث انتقلت لتحليل عملية فهم سير العقل نحو النص .

ومن الملاحظ أنّ تفسير الهرمونوطيقا بعملية الفهم وتحليلها أمر يشوبه التعقيد والتداخل مع بقية العلوم ؛ لدورها في الوصول إلى فهم معين إزاء موضوعة محددة .

هذه التعاريف الثمانية يلاحظ فيها اتجاهات ثلاثة :

اتجاه النص مطلقاً منهج معرفي للعلوم الإنسانية فلسفي بحث تحليلي يتجه نحو تحليل الفهم

أقسام الهرمونوطيقا :

تنقسم الهرمونوطيقا إلى ثلاثة أقسام^(٥) :

الخاصة : ويقصد بها العلم المعني بتفسير النص ، على شريطة أن يكون مقوِّلاً أو مدوِّناً ، ولكل نص خصائصه

التشعب والفوضى على العكس من تلك العلوم الرياضية والتجريبية المعروفة بدقتها ، لذا طرح الهرمونوطيقا كمنهج لضبط العلوم الإنسانية .

والملاحظ هنا : الاتساع والخروج عن دائرة النص والتأويل ، فمدرسة ديلتاي تختلف عن المدرسة السائدة في الهرمونوطيقا والتي يغلبُ محوريتها حول النص والتأويل .

تعلم الفهم ، وهو تعريف للفيلسوف (بوبنر) ، وقد اختلف موضوعه الهرمونوطيقا بناءً على هذا التعريف ؛ إذ أخذ الفهم - الفهم المطبق - كارتكاز لموضوعة الهرمونوطيقا .

٧ . علم عمل الفهم في علاقته بتفسير النص ، أي دراسة حركة العقل نحو الفهم ، وتحليل الفهم . وهو لـ (فول ديكور) صاحب كتاب (من النص إلى الفعل) .

حركة التأمل الفلسفي الألماني والفرنسي بدءاً (بشلاير ماخر ، وديلكاي) وانتهاءً بـ (غادمار وتوبتي كور) ، فالهرمونوطيقا - حسب (ريتشارد بارنر)

(سيما) اليونانية ، وتعني الرمز أو الدلالة ، وأهم من أسس له (كارناب) ، إذ اعتبر الفلسفة هو تحليل اللغة ، ويبحث هذا العلم في دراسة شكل الكلمة وبنيتها الحروفية مع المعنى .

فمثلا : كلمة يخضع ، يلاحظ أن حرف الخاء يشابه عملية الضخ ، فهناك تناسب بين الدلالة الصوتية والمؤدى الذي ترتبط به .

وبعبارة أجلى : هناك نوع علاقة بين الإيقاعات الصوتية والمعنى الموضوعة له .

ويرتكز أصحاب هذا الفهم على الاعتقاد بالأصول الواحدة لجميع اللغات ، رغم كثرتها ، والجامع بينها المعنى نفسه التي تحاول الحروف أداءه .

علم الأسلوب أو الأسلوبية : وقد مرَّ هذا العلم بمرحلتين :

الأولى : القديمة : في بدايات القرن العشرين ، حيث بادر الفرنسي (شارل باله) بكتابة مؤلف باسم (مبحث في أسلوب العلم الفرنسي) ، تأثر فيه بأستاذه (دويسير)^(٧) ، وذهب فيه لدراسة اللغة في واقعها الراهن ، ولا شأن له في اللغة

الذاتية ، وليست على نسقٍ واحد ؛ فلا يمكن تطبيق قواعد الهرمونوطيقا في الأدب مع النص الديني ، كذلك بقيّة النصوص^(٦) .

العامة : وتعني الإيمان بوجود قواعد حاكمة في فهم النص بشكل عام ولا تمايز بين نص وآخر .

الفلسفية : وهي دراسة الفهم وتحليله تحليلاً فلسفياً كاملاً .

الهرمونوطيقا والعلوم المقاربة :

وهي علوم يكثر استخدامها في الكتب المعنية بتأويل النصوص كما في كتابات د . حسن حنفي ومحمد أرغون .

و يتم الحديث عن ستة علوم بشكل موجز :

علم السيميوطيقا ، ويسمى بعلم السيمياء ، وليس المقصود منه ما ذكره ابن خلدون في مقدمته ، إذ ذاك يختص بالشعوذة والسحر .

ويترجم هذا العلم الى العربية بـ علم معاني الألفاظ أو علم الدلالة العام .

والسيميوطيقا مشتق من كلمة

بتطوراتها التاريخية .

وكان السؤال المحور : كيف يمكن التعبير عن الوجدان الداخلي بلغة أصيلة ؟

وحاول من خلال هذا التساؤل تحليل الكيفية التي تصاغ فيها اللغة لتعبّر عن هذا الوجدان ، وكيف تنساب الوجدانيات داخل نص ؟ .

اعتقد شارل باله أن إطلاق أي جملة يتضمن مضمونين :

أ : المعنى : ويؤخذ من الكلمات .

ب : الفكرة التي تحكي عنها الجملة .

فمثلاً : (اشتريت اللحم) ، يحكي معناها التوجّه للسوق وابتياح كمية من اللحم ، أمّا الفكرة فإنّها أمر آخر ؛ إذ مغزى هذه الجملة وفكرتها أمور عدّة محتملة ، فقد تكون : الغنى ، أو أنّه غير نباتي ، وهو حالة مشابهة للكناية ؛ فزيد كثير الرّماد ، جملة ذات مضمونين : كثرة الرماد المعنى الحقيقي ، والكرم وهو مغزاها .

ويقول (باله) : إنّ هذا التفريق بين المدلول الأولي للكلمة ومغزاها موجود في

النظام اللغوي بشكل عام ، وعليه فلا يصح في شرح جملة الاقتصار على المعاني الحقيقية ، بل لابدّ من بيان المغزى ؛ لعدم التطابق الدائم بين المعنى والمغزى .

وبعبارة أخرى : إنّ المغزى هو عين المشكلة ، وهو ما يجب حلّه والمبادرة لعلاجّه ، وعدم الاكتفاء بمظاهر المشكلة (المعنى) ، فالأشكال الصوتية ومعانيها لها مغازي ما ورائية هي المقصودة من قبل المتكلّم .

الثانية : الحديث : هذا التفريق بين المعنى والفكرة (المغزى) ذو أهمية في المدرسة الأسلوبية ، وبهذا القدر كانت أسلوبية (باله) ، إلّا أنّ (نيونستر) ذهب إلى فكرة محدثة ، فقد آمن بأنّ أي نص يصدر من متكلّم يشتمل على مضمونين :

أ : كلمات ودلالات تدرس من خلال اللغة .

ب : المتكلّم نفسه .

وبمعنى آخر : كل نص هو صورة حاكية عن الشخص المتكلّم ، مما يعني اختلاف النصوص تبعاً لاختلاف الأشخاص وتجاربهم ، فالنصوص تختزل شخصية

الفونولوجيا : علم وظائف الأصوات ، وهو متفرّع عن الفونوتيك ، ويدرس من خلاله الأصوات وعلاقتها بالمعاني ، وعلاقة الصّوت باللغة في لغةٍ معيّنة .

مثلاً : دور الصوت في أداء معنى معيّن ؛ إذ هناك فرق بين النصّ الملفوظ والمكتوب^(٩) .

علم اللغة المقارن ، وهو المعني بالمقارنة بين اللغات ، والتعرّف على ميّزاتها ، مثلاً : ما يقال : إنّ نظام اللغة العربية نظام ذكوري^(١٠) يستخدم فيه لفظ المذكر ليشمل المؤنث مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أو (القمرين) للتعبير عن الشمس والقمر . ومثل هذه النتيجة لها دورها في نقد القرآن ، فهو جاء ضمن بنية اللغة العربية وهي ذكورية فهو ذكوري ضدّ حقوق المرأة ... إلخ .

المتكلّم ، وهذه الشخصية لها الأثر الكبير على النص ، كما يمكن اكتشاف شخصية المتكلّم من خلال نصوصه ؛ لأنّه منكشف داخل النص .

وهذه المدرسة الأسلوبية الحديثة أواخر القرن العشرين .

الفيلولوجيا ، أو علم فقه اللغة ، أو فلسفة اللغة ، أو سر اللغة ، أو أصول اللغة ، ويُقصد به تحليل بنية لغة^(٨) معيّنة ، أي امتيازها عن بقية اللغات وأنظمتها ، وجذورها أساليبها الداخلية بالتعبير ، وهو من العلوم الحاضرة بقوة في تحليل النصوص الإسلامية .

علم الفونوتيك أو الفونوتيكيا ويقصد منه علم الأصوات اللغوية ، علم فزنجي ، ومهمّته تحليل تجريبي للصوت اللغوي ، ومعرفة الكيفية التي يصدر بها ، وما علاقة الدماغ به ، وكيفية انتقال الأصوات إلى السمع ... إلخ .

المحور الثاني :

الأفكار الهرمونية تطبيقية لأبرز روادها في الغرب

(التوراة والإنجيل) ، لكن مع شلاير ماخر
تبدّل الحال ؛ إذ حاول أن يحلّل عملية
فهم النص ، دون التحديد بنص مقدّس ،
بل دعا إلى إرساء قواعد لعملية الفهم
بشكل عام لأي نص ، وتحليلها فلسفياً
بنيوياً ، فالخطوة الأولى عند (ماخر) هو
الانتقال من النص المقدّس إلى كل
النصوص وتحليل الفهم .

الثانية : ذهب (ماخر) إلى أنّه من
غير الممكن فهم قصد المتكلّم ومراده من
خلال النص فحسب ، إذ يوجد عنصر آخر

تبيّن سابقاً أنّ المدرسة التأويلية بدأت
مع (شلاير ماخر) ، ويذهب إلى أنّها بدأت
في أواخر القرون الوسطى ، ومما لاشكّ
فيه أنّ بروز هذه الحركة كانت في القرن
التاسع عشر والأكثر بروزاً في القرن
العشرين ، ونستعرض عدّة مفكرين لهم
الأثر الكبير في الحركة التأويلية .

شلاير ماخر : الفيلسوف الألماني
المعروف وتتلخص نظريته بعدّة نقاط :

الأولى : قبل شلاير ماخر كانت
الهرمونية تطبيقاً مقتصرة على النص المقدّس

الملتبسة وذات التعقيد ، إلا أنَّ ماخر وسَّع من هذا الأمر ليجعل دائرة الهرمونوطيقا في كافة النصوص المعقَّدة وغيرها ، والنص أعم من المقروء والمكتوب .

الرابعة : كان الاعتقاد السائد أنَّ الهرمونوطيقا علم في خدمة النص المقدَّس إلا أنَّ شلاير ماخر ذهب إلى أنَّه فهم النصوص بشكل عام دون التقييد بنصٍ مقدَّس أو معقَّد .

الخامسة : هناك اتجاهان في الغرب إزاء الفهم أولهما القائل بأنَّ النص لا يمكن أن يُفهم ، وإذا أريد ذلك فعلى القارئ أو المتلقِّي للنص أن يعلن موت المؤلف ، ولا يعير اهتماماً لما يقصده ، بل يكفي أن يكون هو والنص وما يمكن أن يفهمه أو يفسِّره حتى وإن كان غير مراداً لصاحب النص الأصلي .

شلاير ماخر من المدرسة التي تؤمن بالفهم ، وأنَّ ذلك ممكن من حيث المبدأ ، والسبب في ذهاب ماخر إلى هذا الأمر ؛ لأنَّه يعلن أنَّ هناك تمايزاً بين الأنا والهو ، هذا التمايز هو نوع غربة بين الطرفين ، لكن مع هذا فهناك قواسم مشتركة

من دونه لا تتم عملية الفهم حتَّى وإن كثرت النصوص لشخصٍ واحد ، وهو عنصر (فهم المتكلِّم) ، فقبل البدء بتحليل النص يجب التوجُّه للمتكلِّم نفسه ، وإلا فالإقتصار على النص يعني الركون إلى الدلالة الناقصة في الفهم .

ومعنى (فهم المتكلِّم) هو السياق التاريخي الذي جاء فيه المتكلِّم والأوضاع الاجتماعية والسياسية وكذلك الحالة الشخصية له (غني - فقير)^(١١) .

وبإيجاز : إنَّ عملية الفهم تتلخص في أمرين :
أ : دراسة النص .

ب : فهم المتكلِّم (في ظرفه التاريخي) .

ومن دون هذين العنصرين فإنَّ أي فهم سيكون ناقصاً .

وهذه الطريقة تجتاح الكتابات في الشرق والغرب ، فلا يكتب بحث عن أحد إلا إذا سبقت بسيرته الشخصية .

الثالثة : كان الاتجاه الهرمونوطيقي قبل شلاير ماخر ينحصر في النصوص

موقعه الصحيح ، ومع هذا حاول العلماء الغربيون سد الثغرات الكبيرة في فهم شلاير ماخر والضعف في نظريته .

ديلتاي : (١٩١١-١٨٣٣) كان فيلسوف وطبيب نفساني ألماني ، حاول مجازاة (كانت) في إعادة قراءة العلوم الإنسانية فقد كتب كتاب (نقد العقل التاريخي) على غرار (نقد العقل المحض) ، وتوصل إلى أن العلوم الإنسانية هي أسرة واحدة ذات وشائج وأصل واحد وهو : عبارة عن النظريات والأسس الأساسية أي (منطق العلوم الإنسانية) .

وهنا يلاحظ خروج ديلتاي من دائرة النص ، وأخذ بقراءة النظام التأويلي خارج أسوار النصوص ، فكل إشارة لها دلالة لابد أن تدرس وما لها من فعل ، لتغدو الهرمونوطيقا لفهم الفعل الإنساني سواء أكان الفعل قولاً أم لا ، وسواء أكانت ممارسة جماعية أم لا ، من هنا بدأت بوادر الهرمونوطيقا الفلسفية المسيطرة على الفكر الغربي في الفترة الحالية ، فالهرمونوطيقا مرتت بثلاث مراحل :

تمكنهما من فهم بعضهما ، فمن جهة يتصلان عبر القاسم المشترك ، ومن جهة أخرى يتميزان .

فلا يمكن القول : إنهما لا يفهمان بعض بالكلية ، ولا أنهما يفهمان البعض بالكلية ، ووفاء للامتيار والقاسم المشترك فإنه يمكن فهم الآخر إلى درجة معينة .

السادسة : إن احتمال الخطأ في أي تفسير لأي نص ممكن ؛ وذلك بسبب حالة الاغتراب الناتجة عن التمايز بين (الأنا) و (الهو) ، وهذا معناه : إسقاط الجزم في فهم النصوص ، ولا وجود لمثل قاعدة : (دلالة النص صريحة) .

السابعة : من الخطأ التضخيم من دور اللغة في عملية فهم النص ، فهي جزء ولكنها ليست بالجزء الأساسي والمعيار الأول ، فدور اللغة أقل مما يتوقع .

شلاير ماخر لم يترك أثراً كاملاً في الهرمونوطيقا ، وبقيت دراساته حول هذا الموضوع ناقصة ، حيث تثار الكثير من الأسئلة دون الإجابة ، وهذا الأمر لا غرابة فيه ؛ فالمشروع التجديدي كثيراً ما يواجه النقد والسخرية ، إلا أنه فيما بعد يأخذ

خطوات المشروع الهيدغري :

إنَّ أهم خطوة قام بها هيدغر والتي على إثرها تحوّلت الدراسات الهرمونوطيقية تحوُّلاً جذرياً هو الانتقال من ضوابط فهم النص إلى حقيقة النص والفهم ، ومع اكتشاف حقيقة الفهم فإنَّ الخروج بضوابط الفهم يصبح أمراً اعتيادياً ، وإلا فإنَّ التركيز على الضوابط هو بحث سطحي .

أول دراسة كتبها هيدغر كانت سنة ١٩٢٣ ، وقد شارك فيها بمؤتمر وكانت بدايةً لمباحثه في الهرمونوطيقا ، إلا أنَّ أهم مصنفاته في هذا الصدد هو (الوجود والزمان) ، وهو من أهم الكتب في مجال الهرمونوطيقا ومسألة النص .

الخطوة الثانية في مشروعه اعتبره الفهم المعني بالدراسة هو الفهم العام ، خلافاً لما عليه (ديلتاي) الذي قصره في دائرة العلوم الإنسانية ، فهيدغر لا يفرّق بين الفهم في العلوم التجريبية والإنسانية ، وهذا يعني سعة دائرة البحث ، مما يعني أنَّ علم الهرمونوطيقا على تماس مباشر مع جميع العلوم البشرية لارتباطها بالفهم .

غالباً ما يتبادر من دراسة الفهم الأمور

الأولى : الكلاسيكية .

الثانية : الرومانسية .

الثالثة : الحديثة .

مارتن هيدغر : المتوفى ١٩٦٧ ، من أهم علماء الغرب ، ويعرف بـ مؤسس الهرمونوطيقا الفلسفية ، وتأثر بفكره كافّة التيارات الإصلاحية في الكنيسة البروتستانتية ، وأعدت إنتاج فكره وتطويره ، وأكثر الأشخاص ترويحاً لفكره هو (بولسمان) ، فقد أخذ الكثير منه ، وأعاد صياغة فكره فلسفياً ، وأقحمه بقوة في الفكر المسيحي .

ويعتبر اختلاف الآراء في هيدغر منشؤه اللغة البالغة التعقيد في كتاباته ، وقيل : إنّه كلما امتدَّ به العمر زادت تعقيداً .

وإزاء هذا التعقيد انقسم المفكرون الغرييون إلى قسمين حول هيدغر :

– قسمٌ عظموه وجعلوه في مصاف (كانت) و(أرسطو) .

– وقسم آخر نفوا عنه الفهم .

نظرية هيد غري في الفهم :

يمكن إيجازها في نقاط عدة :

الفهم ليس فعلاً إنسانياً ، بل هو رتبة من رتب الإنسان ، فالإنسان يرفع سعته الوجودية ، والفهم منزلة وجودية ، ومع عدم الفهم فإنّ لازم ذلك الحرمان من مرتبة وجودية .

الفهم واحد لا يقبل التجزئة ، ففهمك للمسألة الطبيعية هو ذاته للمسألة الإنسانية . وهو ما اختلف فيه مع ديلتاي .

الفهم ذو بعدين ، فتارة يؤخذ الفهم بما هو هو ، وأخرى حال كونه مرآة وآلية .

الفهم بعيدان : وجودي وهرمونوطيقي ، والهرمونوطيقي هو حال كونه في رتبة الحكاية والمرآتية ، وعليه فلا بدّ من دراسة الفهم وجودياً كي يتسنّى الفهم الهرمونوطيقي لاحقاً^(١٣) .

لا يمكن فهم شيء إلا مع توقّر مخزون داخل الذهن ، ووجود فرضيات قبلية وتصوّرات مسبقة . ففهم النص مثلاً يتم من خلال القابل والفاعل ، أي من النص ومن قابليات القارئ ، فإنّ صاحب التوجه الفلسفي يقرأ الأمور بشكل

غير الظاهرية والوجود ، إلا أنّ هيدغر ابتكر فكرة حساسة ، فذهب إلى أن دراسة الفهم إنما هو بحث عن ظاهرة وجودية وليست معيارية أو معرفية ، فالفهم كأمر خارجي ، ولذا فهو بحث في أمر وجودي .

وعلى هذا ، فإنّ تحليل الفهم ليس إلا الوجود ، وأنّ الإنسان يساوي الفهم ، وأنّ إدراك الفهم هي إدراك لحقيقة الإنسان والعكس كذلك .

هنا ملحوظة : لا يمكن الوصول إلى الوجود العام الكلي إلا عن طريق واحد وهو فهم الوجود الإنساني ، وهي خطوة مشابه لما فعله (كانت) من خلال فهم نفسه ليفهم لاحقاً من خلال ذلك الفهم بشكل عام .

وهيدغر وإن كان يسعى لفهم الوجود العام للعالم ، إلا أنّ الخطوة الأولى لفهم العالم يتم من خلال فهم الذات (الأنا) ، وحقيقة الوجود الذات (الأنا) هي الفهم كما تقدّم .

فلسفي ... الخ .

لتأثراته ، فوجدت أفكار أفلاطون وأرسطو
وهيدغر ... الخ في نظرياته .

من أهم كتب غادمر (الحقيقة
والمنهج) ، وقد شكّل قفزة كبيرة في حياة
الرجل الفكرية ، وهو مفصل ما بين
حقبتين في حياته .

والكتاب في حقيقته شرح لكتاب
(الوجود والزمان) لهيدغر ، وقد قام
غادمر بتعميقها - أي أفكار هيدغر - إلا أنّ
هناك فارقاً بين هيدغر وغادمر أنّ هيدغر
أحدث قطيعة مع الهرمونوطيقا ما قبل
القرن العشرين ، ولكن غادمر مدّ جسور
التواصل معها ، فأعاد دراسة النصوص ،
وتحليل الفهم المرتبط بالنصوص ، وهو
تطوّر أساسي في الحركة الفكرية لغادمر .

وهناك نقطة أساسية في منهجه حيث
كان على اعتقاد أنّ الوهم الذي أصاب
الحضارة الغربية حيث اعتقدت بأنّ العلوم
وتقدّمها يمكن أن توفّر الإنسان وطاقاته
هو وهم باطل ، وأنّ ما يجب استعادته هو
الفلسفة العملية (أي موضوع الأخلاق
والقيم) .

لقد اهتم غادمر بالبعد التاريخي ،

(موت المؤلف) ، فهو لا يعير
اهتماماً لما يريده المؤلف من الكلمة وماذا
قصد منها ، بل لا يوجد إلا القارئ والنص
لا ثالث معهما ، فليس الفهم محاولة للعبور
من النص إلى المؤلف كما هو الحال في
الهرمونوطيقا المنطقية في القرن الثامن
والتاسع عشر . ففهم النص هي المباشرة
بين القارئ والجمل ذات المعاني والدلالات
لتعطي فهماً ووعياً أكبر وارتفاع في الرتبة
الوجودية . وهذه النظرية كما هو ملاحظ
مخالفة للتفكير الإسلامي ؛ فإنّ فهم مراد
المتكلّم وقصده من أهم الارتكازات
الفكرية التي تعتمد عليها نظرية الفهم
الإسلامية ، فالمراد الجدّي هو المطلوب
فيها .

وهذه أهم ملامح نظرية هيدغر بشكل
موجز .

٤ . غادمر : المولود ١٩٠٠ والمتوفّى
٢٠٠٢م ، يعد مزيجاً من الفلسفة اليونانية
القديمة ، والفلسفة الغربية الحديثة ، شديد
التأثر بأفلاطون وأرسطو ، وهيغل
وهيدغر ، ولذا كانت أفكاره انعكاس

يصيب ، وبعبارة أوضح : هناك (فهم خاطئ) و (فهم صحيح) ، ولكن في الفهم الهرمونوطيقي فإنه لا معنى لوجود هذا التقسيم ؛ إذ لا قرار للمعنى فلا خطأ ولا صواب^(١٣) ، بل كل التفاسير مصيبة ، وبدرجات معينة من الإصابة .

وجود منهج لتفسير النص : من المعروف وجود منهج^(١٤) لفهم النص في التراث الإسلامي القديم ، وحتى عند بعض مدارس الهرمونوطيكا ، إلا أن هناك مدارس هرمونوطيكية متطرفة لا ترضي الحديث عن منهج وتترك الأمر انسياحاً .

إمكانية الوصول إلى المنهج : في الفهم الإسلامي تعتبر مسألة الوصول إلى المنهج أمراً ممكناً ، غير إن المدارس الهرمونوطيكية لا تجزم بإمكان الوصول إليه ، وإن كان موجوداً .

قامت ثقافة فهم النص في التراث الإسلامي على تقسيم النصوص إلى صريح ، وظاهر ، ومجمل ، وعلى هذا التقسيم تقوم كل كتب التفسير والحديث والأصول وغيرها .

إلا أن التفسير الهرمونوطيقي المعاصر

فكل شيء عنده يجب أن يفهم ضمن سياقاته التاريخية أي في إطار زمانه ومكانه ، فالإنسان كائن تاريخي في الزمان والمكان .

– الفوارق الرئيسية في نظرية الفهم في التراث الإسلامي والفهم الهرمونوطيقي الحديث

١ . محورية المؤلف : فمؤلف النص في التراث الإسلامي هو الأصل ، والمفسر يسعى لفهم مراده . أما في الهرمونوطيكا فإن المفسر هو الأصل ولا أهمية للمؤلف ومراداته .

٢ . ثبات المعنى وتغيرات في الفهم ، وبعبارة أخرى : في عالم الثبوت ثبات في المعنى ، والتغير في عالم الإثبات (الفهم) ، وهذا الأمر هو ما عليه الفهم القديم التراثي ، وعلى العكس من ذلك في الفهم الهرمونوطيقي ، فما دامت الأصالة للمفسر فلا ثبات في المعنى ، والمعنى هو ما يصنعه المفسر .

الوصول إلى المعنى : في الفهم التراثي حيث إن المعنى ثابت فيحتمل في الوصول إليه الوقوع في الخطأ ، وقد

يسمى بالتفسير بالرأي ؛ لأنَّ المعيار هو
المفسّر وما يوجد من معنى .

يعتقد الهرمونوطيقيون بالنسبية في
فهم النصوص طبقاً لاختلاف المناخات
الزمانية والمكانية والظروف المحيطة
بالنص ، وهذا ما لا تقبله وغير موجود
أساساً في نظريات الفهم في التراث
الإسلامي ، فليس هناك تفسير نسبي ، بل
إما أن يكون صائباً أو مخطئاً .

هذه أهم الفوارق المذكورة والتي تؤثر
في النتائج كثيراً .

لا يرى صواب هذا التقسيم ، فالظهورات
إنّما تنجز وتعذر بناء على فهمك الأصولي
لا أنّها شيء واقعي ، وفي عملية فهم
النص يتم البحث عن شيء واقعي
والظهورات احتمالات والاحتمالات لا يقين
معها .

الفهم التراثي يؤمن بأنَّ البعد الزمني
عن المؤلف غير ضار ويمكن اختزاله ، على
العكس من التفسير الهرمونوطيقي حيث لا
يرى إمكانية الاختزال .

في التراث يُعتقد أنّ التفسير قد ابتلي
بمسألة التفسير بالرأي وهو تفسير مذموم ،
أما التفسير الهرمونوطيقي فليس هناك ما

المحور الثالث :

دراسة مسألة التأويل في البلاد الإسلامية

نموذجين إسلاميين هرمونوطيقيين

١. نصر حامد أبو زيد

ولد عام ١٩٤٣م ، صاحب شهرة واسعة خصوصاً في حقبة التسعينات بعد أن حكم عليه بالردة بسبب كتابه (مفهوم النص) ، وكان هذا الكتاب مقدماً للارتقاء إلى درجة الأستاذية ، ولكن الدكتور عبد الصبور شاهين حكم عليها بكتب كفر ، فهاجر أبو زيد إلى هولندا واستقر بها .

أهم كتبه في مسألة التأويل (مفهوم النص) ، وهو خلاصة قراءة أبو زيد للقرآن

وفق المناهج الهرمونوطيقية الحديثة ، هذا المصنّف لم يعن بالتفسير ، بل هو من ضمن علوم القرآن^(١٥) ، فأبو زيد أراد بلورة علوم القرآن ، وقد ذهب البعض إلى نجاحه في هذا العمل كالكتور حسن حنفي ، بينما اتجه آخر لا يرى ذلك .

ويمكن إيجاز تجربة أبو زيد في عدّة نقاط :

- ١- التفريق بين المنهج العلمي والغيبى^(١٦) ، يؤكّد على وجود منهجين في دراسة القرآن الكريم وهما سائدان :
أ- المنهج الأيديولوجي (الغيبى)

ب - المنهج العلمي

والمنهج الغيبي لا يعمل وفق قواعد العلم الحديث ، ويقرأ النص القرآني باعتباره نصاً إلهياً ، ومن خلال ذلك يحاول دراسته .

هذا المنهج يمتلك مسلّمات كلامية ودينية سابقة ، ويقوم بضغط من هذه المسلّمات بحلّ مشاكل النص ، وهو مرفوض عند أبو زيد .

أمّا المنهج العلمي فإنّه لا ينظر للقرآن بأنّه نص إلهي ، وأنّ الله تعالى هو صاحب له ، بل هو نص أدبي لغوي ويتعامل معه على هذا الأساس ، وهذا مشابه لما تقدّم في الهرمونوطيقا الغربية بما يعرف بـ (موت المؤلف) .

وقد ناقش علي حرب في حصر القراءة الصحيحة للقرآن بالمنهج العلمي كما ذهب لذلك أبو زيد ، بل إنّ الصّواب هو ما يذهب إليه أركون من أنّه (مجموعة العدة العلمية المعاصرة) ، بمعنى علم الاجتماع والتاريخ ... وكافة العلوم الإنسانية .

٢- الفارق الكبير بين مشروع أبو زيد وغيره من المشاريع في مسألة تأويل القرآن

كمشروع أركون وأدونيس وعلي حرب وغيرهم مسألة التواصل والقطيعة مع التراث ، فإنّ المرجعيات المعرفية التي يحاول أبو زيد الارتكاز عليها هي مرجعيات من التراث ، على العكس من بقية المشاريع والتي تعلن بشكل صريح (القطيعة مع التراث) لاسيّما أدونيس .

٣- لابدّ من المبادرة لدراسة أنطولوجيا النص قبل النص نفسه ، بمعنى دراسة وقائعية النص واعتباره أمراً موجوداً ، والتعامل معه كموجود مادي دون التركيز على ما يختزله من قيم ومعرفيات ، بل كتاب أدبي ، ويمكن رصد التعامل الأنطولوجي عند أبي زيد في نقاط ثلاثة :

الأولى : الحروف المقطّعة : وهي نوع من إعلان وجود وليس لها دلالات ، بل إن الكتاب يريد أن يشير إلى شيء غير مفهوم ليقول : إنّهُ موجود أدبي متمايز يختلف عن النصوص العربية ، وبمعنى آخر : (الحروف ليس لها معنى ، بل وجودها معنى) وجود ليس له نظير في السّاحة .

الثانية : يذهب أبو زيد إلى أن القرآن

الواقع ، وخاضعٌ له ومتحرِّكٌ بتحريك الواقع .
واستشهد أبو زيد لمقولته هذه بدراسة
ثلاث موارد في علوم القرآن وهي : الناسخ
والمنسوخ ، وأكَّد أنَّ وجود الناسخ
والمنسوخ دليل بارز على أنَّ القرآن يتحرَّك
مع الواقع ، وكذلك المكي والمدني ،
وأَسباب النزول ، وهو ما يسميه (جدل
النَّص والواقع) .

٢. محمد مجتهد شبستري^(١٧) : مقوّمات التفسير

يعدُّ الشيخ شبستري أنَّ العملية
التفسيرية تقوم على عدَّة مقوّمات منها :

الأولى : قِليّات المفسرِّ أو (الدور
الهرمونوطيقي) ، فلا يمكن لأحد على
الإطلاق الفهم دون وجود معلومات مسبقّة
عنده حول النص ولو بشكل مجمل ،
فالمعلومات بعضها يولّد بعضاً ، فهناك
علاقة جدلية بين المعلومة المتوقّرة عند
الشخص والتي يراد اكتسابها ، وكلّما
اكتسبت معلومة فمن خلالها يُعاد النظر في
تلك المتوقّرة .

والدور يكمن أنَّ المعلومة المكتسبة

منتج ثقافي عربي ، فصاحب القرآن أراد
إعمار مجتمع فوجد السبيل إلى ذلك عبر
اللغة ، والتي تعكس طرائق التفكير ، فأولد
القرآن من بطن اللغة العربية ، والنظام
العربي والتفكير العربي ، ولكِنَّه طوّر اللغة
فتغيّرت المعاني ، والدلالات ، وتغيّرت اللغة
يعني تغيّرت الثقافة ، وبهذا هيمن النص
القرآني على العقل ؛ لأنَّه امتلك نظام
اللغة .

الثالثة : يجب التخلي عن نظرية
(قِدم القرآن) التي قال بها الأشاعرة ،
فالقرآن محدثٌ خُلِق كأي شيء ينقطع عن
خالقه بنحوٍ من الأنحاء .

وقد أراد أبو زيد بهذه المسألة أن
يقول : إن هناك ثلاث أمور : الله تعالى ،
القرآن ، الواقع ، والأشاعرة ربطوا بين الله
تعالى والقرآن ، وبما أن الله قديم ساكن
فالقرآن كذلك ، وهذه مشكلة كبيرة وهي
سكونية القرآن ، عندها دعا إلى فصل
الكتاب عن صاحبه ، وليس المراد من
الفصل إنكار أو تجاهل أنَّ الله تعالى هو
صاحب الكتاب ، ولكن هو محدثٌ - أي
داخل الزّمان والمكان - فهو متفاعل مع

وليس المقصود من القبليات أن جميع المفسرين يتلاعبون بالنصوص ، بل هناك أمناء في عملية التفسير ولكن من المستحيل وجود فهم إطلاقي ١٠٠٪ .

الثانية : ميول المفسر وتطلعاته ، إنَّ أيَّ مفسرٍ يتغنى من النص شيئاً ، فإنَّه بناءً على تطلعاته المسبقة يحصل على جواب منه ، فكل قراءة لنصٍ يتوقع منها القارئ إجابةً لإشكالٍ محدد ، فقراءة نص فلسفي يراد ويتوقع منه حل إشكال فلسفي وليس تاريخي ، وهذا التوقع المسبق هو من أساسيات فهم النص .

ولهذا الميل المسبق دورٌ كبير في اختلاف القراءات ؛ فعلى سبيل المثال : فإنَّ السَّيد الخوئي رحمته الله يقرأ الخمس على أنَّه ملكٌ شخصي للنبي صلى الله عليه وآله ، أمَّا الإمام الخميني رحمته الله فيفهم منه إقامة دولة ومشروع إسلامي ، وكذلك الاختلاف قائمٌ بناءً على التطلعات المسبقة من النص والميول .

ويذهب شبستري إلى أنَّ الخطأ في التفسير غالباً ما يكون سببه الميول المسبقة والخطأ فيها ، فالخطأ والصواب لا يجب أن يُقرأ بشكلٍ جزئيٍّ على مستوى

متوقفة على المتوقفة ، والمتوقفة متوقفةٌ على المكتسبة تصحيحاً وتقويماً . ويعتقد شبستري عدم إمكان فهم أي موضوع بنحوٍ واحد ، ولا نص بقراءةٍ واحدة ، بل الفهم الأعظم هو نتيجة القراءات المتعددة وصولاً إلى العمق الكبير في الفهم .

ويؤكد شبستري على هذا الأمر من خلال تركيزه على أنَّ المعرفة دائماً تولد بالتساؤل ، ومن خلال تحليل السؤال فهو عبارة عن معلومات مخترنة في ذهن السائل وكانت السبب في التساؤل ، وعليه فتبعاً لتطور المعلومات تتطور الأسئلة ، وتبعاً لتطور الأسئلة تتنوع الإجابات ، وحينها لن يكون هناك فهمٌ واحد .

ويؤكد أيضاً على أنَّه لا يمكن لإنسان فهم نصٍ إلا أن يكون عنده مسبقاً نظرية في اللغة ، أي تصورٌ ما لبناء اللغة ، فمن لا يؤمن بمجاز القرآن - مثلاً - تختلف قراءته عن المؤمن به ، وطبقاً لهذا الاختلاف تتباين النتائج ، وهو راجعٌ إلى القبليات أيضاً .

وهنا ملحوظة : لا يعتقد شبستري أن القبليات هي العامل الوحيد في التفسير ،

هذه القرائن ؟ ! .

الرابعة : مركزية المعنى ، فالنص فيه نقطة مركزية وأجزاء متممة ، والاطلاع على النص دون الوصول إلى النقطة المركزية غير مجدٍ ؛ لأنَّ مركزية النص هي المراد الأساسي للمتكلّم وهي مغزى النص .

فالمفسّر لابدَّ أن يحصل الرسالة الأساسية ومن ثم يربط الأجزاء بالمغزى ، وهو ما لم يلتفت المفسرون إليه عبر التاريخ ، حيث أولو عناية كبيرة بالجزئيات مع إهمال النقطة المركزية ، وللبحث التاريخي أهمية ودور في اكتشاف هذه المركزية .

الخامسة : ترجمة النص : إنَّ النص كتب في حقبةٍ محددة ، والآن يراد فهمه وترجمته ، ودائماً ما يواجه عملية الترجمة انحرافان :

- الأول : المحافظة على الصورة القديمة للنص ، والتغيير في الشكل ^(١٨) ، وهذه ليست ترجمة بل انحراف ؛ لأنَّ الترجمة أخذ المعنى المراد ، وإعادة صياغته ضمن متناسبات العصر (عصر الترجمة) .

النص ، بل لابدَّ من مراجعة في المرتكزات التي اعتمدها المفسّر وقارئ النص .

وهنا إشكالية : إنَّ المتكلّم أصدر النص بناءً على توقعات يريدها منه ، والمفسّر أيضاً لتوقعاته دور كبير في تفسير وفهم النص ، وهنا الإشكال حيث إنَّ المفسّر لا يمكن أن يحدد تطلعاته وتوقعاته التي يتغيها من النص بشكل دقيق ، فكيف له أن يحدد توقعات المتكلّم !! .

الثالثة : استنطاق التاريخ ، وهي مرحلة تعقب السابقتين وتعني : أنه لا يمكن فهم نص إلا في ظرفه التاريخي ، فلا بدَّ من أن يتماهى المفسّر مع المؤلف ، ولكن بشرط زمان ومكان صدور النص وولادته .

وهنا إشكالٌ أساسي ، وهو : أنَّ المتكلّم يريد إفهام معنى في ذهنه حين صدور الكلام منه ، ولكن لا وجود لشيء يؤكّد نجاح النص في تأدية ما في الذهن ، فالنص لا يعطي تمام المعنى ، ولكن المتكلّم يعتمد على قرائن مشتركة بينه وبين السامع في زمان ومكانٍ محدد لتمام المعنى ، ولكن ماذا لو ابتعدنا عن مكان النص وزمانه ، فهل يمكن الوصول إلى

- الثاني : الميول الذاتية للمترجم قد تؤدي إلى ترجمة خاطئة ، وهو بدوره يؤدي إلى حرف النص والأخذ به إلى حيث الجو الذي يناسب المترجم ، فالتعديدي يقرأ النص بهذه الأجواء ، والشمولي يسوق النص لفكره ، وهكذا .

وهنا يمكن القول : إنَّ الشك هو الحاكم مع عدم ضمان سلامة المعنى ، فلا بدَّ من سبيل وضمانة - ولو بنسبة محددة - على أساسه ينتفي الشك ، وهو ما يسميه الشيخ شبستري (المشترك الإنساني) ، فالاشتراك في الإنسانية يمكن من خلاله فهم النصوص نوعاً ما ، وهو رأي مقارب لشلالير ماخر .

- وقد طبق شبستري مشروعه على كافة الفرقاء الإسلاميين ، وبعض الشخصيات مثل العلامة الطبطبائي وابن رشد وحتى الفقهاء ، ومن تطبيقاته نذكر ثلاث نماذج :

الأول : أهل الحديث والسلفيين والأشاعرة ، إنَّ نتائجهم راجعة لقبلياتهم والمناخ الفكري الذي ساروا عليه وهو مناخ الاتباع للسلف الصالح والتسليم لهم دون

التساؤل أو إثارة شبهات أو أي شيء آخر . إضافة لذلك فكرة (المقدس) التي تهيمن على فكرهم ، والمقدس هو ما يتعالى على أي تحليل وتفكير ، هذا المقدس الذي توسع شيئاً فشيئاً ليشمل التراث ، حينئذٍ انتفى السؤال حتى مع وجود إشكال ، إلاَّ أنه ينفيه عن المقدس ؛ لأنَّه يبرر ذلك بقدسيته التي تلو على الإشكال والتحليل وحركة العقل .

كما أنَّ هناك فكرة أخرى تشكّل المرجع القبلي لقراءتهم للدين وهي (عجز العقل وتوسّع الغيب ، ولا يمكن للعقل إدراك الغيب) ، والنص غيب ، فالعقل لا يصل إليه ، فكل تعزيز للغيب يتراجع على إثره العقل ، ومنهج هذه الفئة الأولى منهج إعلاء الغيب وانكماش العقل .

الثاني : المعتزلة : نظروا إلى أن الدين جاء إرشاداً لحكم العقل ، وأنَّ للعقل جزء من الهيمنة ومن حقّه أن يتساءل ، ومن ثم إنَّ نظرتهم في اللغة خاصّة ، حيث آمنوا بالمجاز بشكل كبير ، واعتبروه النظام السائد ، وأنَّ القرآن ظاهرة إنسانية قابلة للدراسة والتحليل والتساؤل .

الثالث : الصّوفية : والقائمة على
الظاهر والباطن - كما تبين سابقاً - .
وتعرّض مشروع شبستري لعدّة
مناقشات ومطارحات مثل :
تغيب المصادر المعرفية الغربية التي

استقى منها نظريته ومشروعه التفسيري .
الارتكاز على نظرية القبليات وأخذها
على نحو المسلّمات أمرٌ خاطيء ؛ فإنها في
بلدها الأم - الغرب - لا زالت مثار أخذٍ ورد ،
وإلى غير ذلك من الملاحظات^(١٩) .

المحور الرابع :

المدرسة التفكيكية الخراسانية في إيران

تمهيد :

ينصبُّ اهتمام التفكيكين في مسألة المنهج الذي يجب اعتماده في قراءة الدين ، وهو ما يميّزها من حيث موقعيّة المنهج في الفكر الحديث والإسلامي أيضاً .

إطلالة تاريخية : (أعلام المدرسة)

تزعم كتابات هذه المدرسة أنّها تعود من حيث النشأة إلى القرون الأولى ومن ثم انحرف المسار لتختفي وتظهر مرّة أخرى في عام ١٣٠٠ هـ باسم المدرسة العقائدية الخالصة ، ومن أبرز أعلامها :

١. السيد موسى الزرّآبادي القزويني :

وتعود بذور الحركة التفكيكية في الوسط الشيعي الإيراني إلى السيد موسى

لا يراد من التفكيك هنا ما يقصد من المصطلح في الغرب والمدارس التفكيكية أو اللسانيات أو العلوم الإنسانية ، تسمّي أصحاب هذه المدرسة أنفسهم بـ (المدرسة العقائدية الخالصة) .

هذه المدرسة يجب أن تفهم وتدرس داخل السياق الإيراني لا الشيعي بوجهٍ عام ، فلها خصوصيتها داخل هذا السياق ، وإلا فقد لا يوجد لها خصوصيات لو أخذت في السياق الشيعي العام ؛ لأنّ المدرسة التفكيكية واجهت تفسير الدين تفسيراً عرفانياً فلسفياً ، وهما الأمران ذات الموقعية في التفكير الإيراني ، الأمر الذي يشكّل مصادمة حقيقية .

الزرّبادي القزويني المتوفى ١٣٥٣ هـ ، وقد درس في النجف وطهران ، ومن المشهود لهم بالاجتهاد .

أبرز أساتذته الشيخ فضل الله نوري شهيد صاحب (مشروطة المشروعة) ، والذي أعدم في طهران على يد عملاء بريطانيا ، بعد فشل ثورة الإصلاح الشيعي في تلك الحقبة .

السيد القزويني كان شديد الإيمان بالعلوم الخفية (قضايا الروح والمكاشفات) ، إلا أنه لم ينقل عنه استعمالها ، له حواشي وتعليقات في الفلسفة على المنظومة ، وتقارير دروس أساتذته ، وتعليقات وحواشي على الكفاية والرسائل . وأكثر كتبه مفقودة .

وللسيد اهتمامات سياسية ضمن أفق محدود ، وقد ألف كتاباً حول الحركة الدستورية أو ما يعرف (بالمشروطة) ، وهو أستاذ الجيل الأول من التفكيكين .

١٢. الشيخ مهدي الأصفهاني

رائد التفكيكية والمنظر لها المتوفى ١٣٦٥ هـ ، درس في النجف ١٨ عاماً ، ويعد من ضمن الحلقة التأسيسية لدرس

الخارج للميرزا النائيني ، والأكثر علماً بين علماء التفكيك ، حصل على إجازة اجتهاد من النائيني ، وعلّق على هذه الرسالة أكابر العلماء كاليزدي والمحقق العراقي معترفين بعلمه واجتهاده .

عاد الشيخ الأصفهاني من النجف إلى مشهد ، واستقر بها ٢٥ عاماً ، وانتقاله إلى مشهد له الدور في تأسيس المدرسة التفكيكية في مشهد ، وافتتح درس الخارج ، وكسب درسه شهرة كبيرة ، وتغلّلت بفضل المدرسة التفكيكية في مشهد ، حتى عرفت فيما بعد بالمدرسة الخراسانية بفضل الشيخ الأصفهاني .

عرضت عليه لمكانته العلمية المرجعية ولكنه رفض ، وأشار للسيد البروجردى ودعم مرجعيته ، ويشير البعض أنّ انسجام الرجلين ودعمهما لبعضهما لموقفهما المشترك المناهض للفلسفة ، وإن كان السيد البروجردى أقلّ حدة .

وللمفارقة فإنّ الشيخ الأصفهاني رغم أنّه مناهض لتفسير الدين فلسفياً وعرفانياً ، إلا أنّه كان مقرباً من أساتذة وأكابر العرفاء كالسيد علي القاضي ، والسيد أحمد الكربلائي ، وهو أمرٌ يدل على إيمانه

عالج فيه كثيراً من المسائل الكلامية
كالمعاد وإثبات الله تعالى وغيرها .

ب : رسالة في نقد الأصول الفلسفية
للملا صدرا .

٤. الشيخ محمد رضا الحكيمي

وهو من أبرز شخصيات المدرسة
التفكيكية في هذه الآونة ، وقد أحدث
ثلاث تغيرات أساسية في الحركة
التفكيكية :

الأولى : العطف على السياسية
والحياة الاجتماعية ، وقد كتب الكثير في
هذا الصدد - مثل : موسوعة الحياة وهي
رائدة في الاجتماع والاقتصاد - ، خصوصاً
بدايات الثورة الإسلامية ، وقد دعمها ،
وإن كان لاحقاً شديد الانتقاد للحكومة
ومسار الثورة .

الثانية : مارس نقداً تفصيلياً للفلسفة
أكثر من غيره ، ووجه دعوة علنية لنقد
الفلسفة .

الثالثة : يقال : إنّ الفترة التي سبقت
الحكيمي كان العقل والشهود والعرفان عند
التفكيكين مرفوضاً ، والاقتصار على

بالعرفان والفلسفة وأنها من السبل ، ورفضه
اقتصر على تفسير الدين بهذا المسلك .

مما يحسب للشيخ الأصفهاني أنه بادر
لفتح درس خارج في علم الكلام ، وهو ما لم
يكن معروفاً آنذاك . وقد ركّز الشيخ على
العقيدة والتي من خلالها يُقرأ الدين قراءة
سليمة ، ولذلك عرفت المدرسة (بالمدرسة
العقدية) .

له مؤلفات عديدة منها : أبواب
الهدى ، رسالة الإفتاء والتقليد .

٣. الشيخ مجتبى القزويني

المتوفى ١٣٨٦ هـ ، وقد أحدث
انعطافاً كبيراً ؛ حيث اعتقد أنه ل يمكن نقد
الفلسفة إلا من الداخل ، بمعنى آخر :
يجب أن يكون الناقد فيلسوفاً ليتكّن من
نقدها ، ولذلك صوّب اهتمامه في
الفلسفة ، فعُرفَ بأنه فيلسوف رغم عدم
إيمانه بنجاعة وصحة استخدامها لقراءة
الدين ؛ لكونه تفكيكياً .

من أساتذته : السيد اليزدي ،
والسيد القزويني الزرآبادي .

أهم كتبه : أ : بيان الفرقان ، وقد

٣- الوحي : وهو الكتاب والسنة .

فالعقل والعرفان - حسب هذه المدرسة - ذو اعتبار ومكانة إلا أن الأخذ بنتائجه وتطبيقها في الدين أمر خاطئ ، والمقصود من العقل هنا العقل اليوناني ، وليس كل من رفض الفلسفة رفض العقل ، فالعقل عقلان نظري وعملي ، أما الثاني فلا إشكال فيه ، وهو أساس لا محيد عنه .

أما النظري ، فقسمان :

أ : بديهي النتائج كاستحالة اجتماع النقيضين وغيرها من البديهيات ، فإن مما لا إشكال فيه ويؤخذ بنتائج ومعطيات هذا القسم .

ب : غير البديهي : ويعتبرون نتائجه حجة في دائرة البحث المخصص له ، ولا حجية له في الدين ولا يجوز تطبيق نتائجه فيه .

أما العرفان : فإنه إن انتهى إلى نتائج تتطابق مع العقل العملي أو النظري البديهي فلا إشكال ، إلا أنه لو كانت النتائج غير بديهية من قسم العقل النظري فإنها حجة في ما تقوم لأجله ، ولكن لا يفسر بها الدين .

الحديث ، ولكن معه تغيّر الأمر^(٢٠) ، فهو لم يرفضها ولكنه دعا لفصلها عن بعضها البعض وأن لكل منها دائرة خاصة .

أهم كتبه : موسوعة الحياة ، الاجتهاد والتقليد في الفلسفة ، السيد شرف الدين ، مكتب تفكيك (المدرسة التفكيكية) وقد ترجم الدكتور عبد الجبار الرفاعي جزءاً منه وبالتحديد الفصل الأول منه .

وهذا رصد تاريخي موجز لأبرز أعلام المدرسة .

أفكار ومبادئ التفكيك

يمكن إيجاز ذلك في سبعة مبادئ :

المبدأ الأول : الدعوة للاجتهاد الكلامي ، فلا يمكن الاقتصار على ما قاله فلاسفة ومتكلمي الشيعة الإمامي ، بل لابد من الاجتهاد وإعادة النظر فيها .

المبدأ الثاني : تحليل الموقف من العقلي البديهي والنظري ، يذهب التفكيكيون إلى أن هناك ثلاث مصادر للمعرفة البشرية :

١- العقل : وهو يعطي معرفةً فلسفية .

٢- القلب : وهو الكشف والعرفان .

ولكن الحكيمي يدّعي أنه لم يجد ظهوراً قرآنياً عارض برهاناً بديهيّاً ، وعليه فالتأويل عملياً منحصرٌ في القسم الأول فقط ، والظهورات القرآنية والروائية حجة لا مناص عنها إلا في حال كون مستلزمات اللغة تفرض ذلك .

المبدأ الرابع : وجود علم ديني خالص^(٢١) : غير مشوب بمعطيات من خارج الدين ، فهم يؤمنون أن كلّ العلوم الدينية (فقهاً عقائداً ...) تقوم على معيارين : الكتاب والسنة ، وليس لأي معطى بشري الاختلاط بالكتاب والسنة ؛ لأنه ينتج علماً هجيناً .

المبدأ الخامس : نقد الفلسفة وإعادة تجديدها لا سيّما الصدرائية ، يعتقد التفكيكيون أن الهالة القدسية التي صنعت حول الفلسفة ورموزها الإسلاميين مثل ابن سينا والملا صدرا^(٢٢) وغيرهم أمر خاطئ ويجب تجاوزه .

ولا يمكن النقد مع وجود فواصل تحول دون التجرؤ على ذلك ، ومع وجود ثقافة التقليد الفلسفي ، ومن ثم : إنّ الفلسفة الحاضرة والتي لها محورية في الدراسات

وبعبارة أخرى : اعتمادهم في الاجتهاد على النص ومعطيات العقل العملي والنظري البديهي .

ولهذا يسمّون أنفسهم بالمدرسة العقدية ؛ لأنّهم يعتقدون أن أصول الاجتهاد عندهم غير مختلطة ومشوبة بالفلسفة والعرفان .

المبدأ الثالث : الموقف من مسألة التأويل ، بناءً على ما تقدّم دخل التفكيكيون خضمّ الصراع التأويلي وإشكالياته ، حيث رفضوا رفضاً قاطعاً كافة أشكال التأويل الذي يمارسه العلماء المسلمون ، والتأويل يكون في حالتين فقط :

الأولى : أن يكون التأويل من مستلزمات النظام اللغوي والأدبي ، مثل : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ، فإنّ النظام اللغوي يستلزم التأويل وهو سؤال أهل القرية .

الثاني : حين يقف البرهان البديهي مقابل الظهور القرآني ، والبرهان البديهي : كل برهان هيئة القياس فيه من الشكل الأول من الأقيسة ، ي هيئة القياس ومادته بديهية ، حينها لابدّ من التأويل .

الجسماني ، فالتاريخ الفلسفي من خلال المعطيات التي قدّمها والنتائج يدعو للحذر منه ؛ لأنّه سيعطي نتائج خاطئة ومعارضة للقرآن والسنة ، فالرصد التاريخي ذو أهمية لأي علم ؛ لأنّه يمكن أن يعطي شهادات قاذحة أو مادة للعلم ، مما ينعكس سلباً أو إيجاباً لاستخدامه .

أهم الملاحظات المسجلة على المدرسة التفكيكية (ملاحظات منهجية)

الملاحظة الأولى : لقد أخطأت المدرسة التفكيكية في فهمها للعقل ، توضيح هذا الأمر ؛ يقول (كانط) : (إن القوة الفاهمة إن أطلق سراحها في التفكير فلن تقبل أن تقتيد) فهي مثل العصفور ، إذا وضعته في قفص فإنّه يبقى في دائرة محددة ، ولكن لو أطلقته لا يمكن تحديده حينئذٍ .

من هنا فالإشكال على التفكيكين : إنكم إما أن تقبلوا العقل أو لا ، وإلا فالتجزئة غير ممكنة ، ومن ثم ليست النتائج هي من تحدد نجاعة المنهج ، بل بالعكس تماماً ، فلا يمكن الحكم على الفلسفة من خلالها ما أودت إليه من نتائج

الدينية هي فلسفة بالية لا تجد لها مكاناً مع تطوّر العلوم الحديثة ، بل ولا تعرف شيئاً عن العلوم المتطورة وتجاهلها ، مع أنّ لنتائج تطوّر هذه العلوم أثر كبير في تغيير خارطة ومسائل ونتائج البحث الفلسفي .

المبدأ السادس : تقديم المعرفة الدينية القائمة على ظواهر الكتاب والسنة ، إنّ أهم المصادر هي الكتاب والسنة ، وكثيراً ما يركّزون على دراسة الروايات العقائدية ، وهذا ما أغفله المتكلمون .

وفي هذا الصدد يرفض التفكيكيون تهمة (الأخبارية) ، فهناك فرق بين الأخبارية وبين جعل الأخبار مصدراً أساسياً في المعرفة الدينية ، فالأخبارية منهج في الفقه ، أما التفكيك منهج في العقائد ، والأخبارية تعارض المشروع الأصولي ، أما التفكيك فإنّها تعارض الفلسفة .

المبدأ السابع : الرصد التاريخي للعلوم الإسلامية ، إنّ اختيار علم لاستخدام نتائجه في قراءة الدين موقوفٌ على رصد تاريخي لمسيرته ، فتاريخ الفلسفة - مثلاً - يشهد بمعارضاتها الكثيرة للقرآن والسنة ، مثل مسألة الخلود في النار ، والمعاد

التداخل بين هذه المعارف ، فقد يكون التداخل كبيراً بحيث تتأثر النتائج بمقدار وحجم التداخل ، فما هو مقدار التداخل ؟ ، وما طبيعته ؟ ، كان لابد من الإجابة عنه وتقديم نظرة دقيقة عن ذلك وهو ما لم تقدمه المدرسة ولا مصنفاتها .

الملاحظة الرابعة : إنها مدرسة تكفيرية وخصوصاً في الجيل القديم من التفكيكين المتطرفين ، فهناك نصوص تدل بصراحة أو ظاهرة في تكفير الفلاسفة ، وقد نقل كتاب (رؤياي خلوص) نصوصاً كثيرة في هذا الصدد وأكد أنهم أصحاب نزعات تكفيرية وأهل تطرف .

يضاف إلى هذا أنهم لم يختلفوا من حيث أغلب النتائج مع ما وصل إليه الفلاسفة ، فما الداعي لهذا المنهج المتطرف .

الملاحظة الخامسة : إن اعتبار المعيار التاريخي هو المعيار الوحيد لنجاعة علم هو أمر خاطئ ، وإلا فلا يسلم علم حتى الفقه ، فإن مراجعة للفقه تاريخياً يكشف عن وجود نتائج كارثية ومفجعة . فهل معنى ذلك الغاء هذا العلم أيضاً ؟ ، نعم لا إشكال في وجوب نقد الفلسفة ولكن لا يعني ذلك سد بابها ،

وهو ما فعله التفكيكيون وتحدد موقفهم على طبقه ، وهو أمر خاطئ ؛ لأنَّ الموقف من المنهج هو من يحدد الموقف من النتائج لا العكس ، فمعارضة نتيجة ما لا يمكن من خلالها شطر المنهج وقبول بعضه ورفض البعض الآخر .

الملاحظة الثانية : إنَّ مدعى وجود علم ديني خالص هو مجرد فرض لا صحة له ، فلا يوجد استنتاج وأو علم - حتى الفقه - لا يتوقف على العلوم البشرية الخارجة عن الدين ، فالمنطق خارج عن الدين ويستخدم في الفقه ، أصول الفقه خارج عن الدين ويستخدم في الفقه ، ما اختلاف النتائج الفقهية بين العلماء العرب والفرس وغيرهم إلا لتدخل العلوم البشرية في تكوين رؤاهم ، بل الفقهاء أنفسهم يقرّون بضرورة اكتساب عدّة علوم خارجة عن الدين للوصول إلى الاجتهاد .

الملاحظة الثالثة : ذهب الشيخ الحكيمي الى التداخل بين المعارف الثلاثة (العقل ، القلب ، الوحي) ، ومع ذلك رفض التفسير بالقسمين الأوليين (العقل والعرفان) ، ولكنه لم يبيّن مدى هذا

نقدمهم ، كل هذه الأمور أدت إلى ضبابية وتشويش هذه المدرسة ، إضافة لأمر أن النقد يجب أن يوجه إلى المدرسة في ظهورها الحالي ، فالرجوع إلى التاريخ التفكيكي أمر غير خاطيء ، إلا أن النقد يجب أن يلاحظ الوجود الحالي ؛ فقد يتعرض لمسائل قد أعرضت عنها المدرسة ذاتها لاحقاً .

وهذه خلاصة القول في التفكيكين .

وتسليط الضوء في تحليلها على مواضع الضعف والثغرات دون القوة ، إنَّ هذا المعيار غير صحيح كما هو واضح .

هذه بعض الملاحظات على التفكيكين وما يرد عليهم .

ملحوظة عامة على مجموع الملاحظات :
إنَّ فقدان نصوص التفكيكين وغموض عبائرتهم ، وغياب التحليل للنصوص ، واستخدام أسلوب التقطيع في عملية

الهوامش:

- (*) تقرير لدروس ومحاضرات الشيخ حيدر حب الله في قم المقدسة.
- (١) لم يفصح د. سروش عن المرجعيات المعرفية في تكوين نظريته، إلّا أنّها ومن خلال التحليل يمكن إرجاعها إلى مرجعياتها في الغرب ومن بينها الهرمونيوطيقا. وكذلك د. محمد عابد الجابري؛ فقد حلل د. طرايشي نظرياته وأبان عن المرجعيات المعرفية الغربية في تكوينها وغير ذلك من المفكرين.
- (٢) خصوصاً في الحوزات العلمية و المدارس الشرعية التي تعتمد النصوص (القرآن والسنة) كمصدر رئيس في التحليل والاجتهاد والاستنتاج، ومن خلال فهم مضامينها المطابقة والتضمنية والالتزامية وغير ذلك.
- (٣) وهو مشابه لما قاله علماء التفسير المسلمين في تعريف التفسير بكشف القناع، والظاهر من القول لا قناع فيه لاحتاج إلى تفسير، وعندئذٍ فالتفسير يكون في الموارد المعقّدة المتنّبة المعنى والغامضة.
- (٤) ولذا ظهرت الدراسات التي تتحدث عن الأشخاص وحياتهم قبل الشروع في بيان نظرياتهم؛ وذلك لمُدخلية الشخص وسيرته في فهم كلامه، بلا يكون الفهم تاماً دون الإمام بحياته.
- (٥) ليس المقصود من الأقسام المدارس.
- (٦) من هنا ظهرت أبحاث قواعد اللغة الدينية ومناهجها وخصوصيتها مثل ما يقال: إنّ اللغة الدينية تمثيلية لا علاقة لها بالواقع، وهي ليست باللغة القانونية، وغير ذلك.
- (٧) العالم المعروف وأستاذ التفكيك الكبير، ذات التأثير على أكثر الأفكار البارزة في التفكيكية في العالم العربي.
- (٨) لا يقصد من بنية اللغة الفاعل والمفعول والمبتدأ وما إلى ذلك، بل ما يشكل العمود الفقري والنظام الحاكم فيها.
- (٩) محمد أركون يصف الآيات القرآنية (بالخطاب القرآني)؛ لأنه يعتقد أنّه نص ملفوظ في الأصل، وهو الآن صار مكتوباً

فما وصل هو نصف القرآن والنصف الآخر هو الخطابي، وهذه الخطابات والأصوات لها دلالاتها اللغوية وبنية اللغة، ومثل هذه الآراء نابعة من هذه العلوم وأهملها الفونولوجيا.

(١٠) وهو ما ذهب إليه الباحث السوري السيد القمني.

(١١) وهناك من يذهب إلى مثل هذا التحليل الشخصي، فعلى سبيل المثال: إن مسألة تحويل التراب إلى ذهب، فقد اعتقد الفارابي بإمكانها، وخالفه ابن سينا. فحلل البعض ذهاب الفارابي إلى الإمكان؛ بسبب أنه فقير، والفقر يدفعه إلى مثل هذه المسألة، على العكس من ابن سينا المتمول النافذ.

(١٢) وهو أمر مشابه لما في الفلسفة الإسلامية من دراسة الوجود الذهني ومن ثم مماهاته للوجود الخارجي.

(١٣) لا خطأ ولا صواب، بل وجود وعدم، فإثك إن انتجت فهماً فهذا وجود وإلّا فالعدم ولا حديث عن ثنائية الصواب والخطأ.

(١٤) هناك منهجين في فهم النص في التراث الإسلامي:

الأول: العرفي الظهوري وهو المشهور.

الثاني: الصوفي العرفاني (البطون) : ويقوم على مقولة البطون، وأن للنص الديني وجهان: الظاهر لعامة الناس، والآخر للخواص.

العرفاء ما بعد ابن عربي كانوا وما زالوا لهم سعي لإسناد أفكارهم إلى التصوص الدينية، لا أقل من الناحية الاثباتية؛ إذ المرجعية المعرفية عندهم هي المعرفة الشهودية، وليس النص ولا العقل، والكشف نوعان:

١. كشف مثالي قائم عالم المثال وهو أدنى مراتب الكشف.

٢. الكشف الحقيقي وهو أن تتحد مع ما تدركه.

فالقرآن هو العلم الإلهي الذي تجلّى في عالم الموجودات فصار له نسخة مجردة، وتنزل في عالم المثال فصارت له نسخة أقل نوراً عن تلك التي في العالم المجرد، وتنزل في عالم الوجود فصارت له نسخة بهذه الحروف، ولكن مرتبته الوجودية أدنى من المرتبتين السابقتين.

فلا يفهم الكلام من خلال اللغة؛ لأن اللغة تكشف عن مرتبة وجودية أخيرة، ولكي يفهم القرآن لابد من الصعود إلى مرتبته الأعلى.

فالقرآن خارج عن قواعد العقلاء والعرف؛ لأن لغة القرآن خارج نطاقها وفوق العقلانية، فيجب تخليصها من هذه القواعد؛ لأنه أعلى منها، فكتب التفسير عند العرفاء لا تهتم باللغة ومدايلها والظاهر وغير ذلك؛ لأن منهمجهم يختلف عن ذلك، فهم يؤمنون بالبطون والعوالم.

وللبطون معاني:

ـ هو كل مدلول الترامي للنص القرآني.

ـ هو كل ما خطر ببال المتكلم حال إيجاده أو كتابته للنص ويتوصل إليه عبر طرق مختلفة. وقد اعترض عليه أن هذا لا ربط له بالبطون، و شيء غير النص.

البطون في المدلول: حيث إنَّ المدلول له رتب ومشكك فمثلاً الإنفاق معناه الأولي أن تعطي مما عندك تكرماً، و لكن له معني أخرى مثل أن تتفق علماً أو تضحية.... وهذا هو المقصود بالبطون وهو الرتب المشككة التي لا تظهر من النص.

(١٥) علوم القرآن في الثقافة الإسلامية مستقاة من مرجعين فكريين:

١. البرهان في علوم القرآن للزركشي.

٢. الإتيان في علوم القرآن للسيوطي .

وكل ما بعدها تكرر، إلّا اللهم بعض التجديد الذي لا يمكن عدّة نقالات كبيرة في هذا المجال.

(١٦) هناك من يعتقد أن أبا زيد أخذ هذه الفكرة من د. أمين خولي فهو المنظر لها في القرون العشرين، ودعا إلى دراسة القرآن كنص أدبي ولغوي.

(١٧) تبدأ المحاضرة من هذه الفقرة، و الظاهر أن المحاضرة السادسة غير مكتملة.

(١٨) التغير في الشكل يمثل له بمسألة الاحتكار؛ فقد أعاد فقهاء العصر الحالي ما عليه الاحتكار في الزمن السابق وموارده المعروفة، وما يقصده شبستري هو أخذ المغزى من مسألة الاحتكار وهو (حفظ التوازن) والانتقال منه إلى صياغة تناسب العصر وموارده.

(١٩) اقتصر الشيخ على هذا الكم القليل من النقد؛ لأنه تعرّض بالنقد الواسع في محاضرات القبض و البسط، و التي يمكن توجيهها الى شبستري كما هي واردة في حق د. سروش، وقد بين ذلك خلال المحاضرة.

(٢٠) هذه الدعوة يرفضها الشيخ الحكيمي بشدّة.

(٢١) مثّلوا له بالفقه و بكتاب شرائع الإسلام تحديداً.

(٢٢) ففكر الملا صدرا عندهم خليط من المدارس الفلسفية المختلفة و الأخلاقية و لا أصالة في فكره ومنهجه، بل هو أشبه بالجماعة ، و لذا لا بدّ من النقد و الجرأة، وكسر الحالة القدسية التي تحوم حول الفلسفة و منظريها الإسلاميين.

مصادر المستشرقين عن الإسلام والمسلمين

د. علي بن براهيم الحجازي
باحث وأستاذ في الاستشراق

« واليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة ونتيه في عالم الخيال لما تذكرها أقلام المستشرقين ، وإن نكرتها يعترينا مركب النقص ، وفي كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات في روحنا حرماناً مزدوجاً ، لا نستطيع التخلّص منه إلا إذا تذكرنا السّلم الذي وضعه القرآن ليتسلّقه الفكر الإنساني ، حتى يصلَ على درجاته إلى تلك الإنجازات العلمية التي تهيمن حتى اليوم على التقدّم التكنولوجي ... ، وإذا تذكرنا هذا السّلم فلنعلم أنه ما زال تحت يد أو تحت قَدَم المجتمع الإسلامي متى ما أراد استخدامه من جديد ، وبحسبنا أن نقرّر أنّ مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الإنسانية العلمي ليست تقدّر فحسب بإنجازات يُقرّها أو ينفّيها المستشرق ، حسب هواه ، بل تقدّر بالتغيير الجذري الذي أحدثه الفهم القرآني في المناخ العقلي والبناءات العقلية منذ كلمة « اقرأ »^(١) .

مالك بن نبي

التمهيد

العودة إلى الدين بين الأمم قاطبة ، بما فيها الأمة الإسلامية ، هذه الظاهرة التي تعارف جمعٌ من المفكرين المسلمين على تسميتها بالصحة أو الإحيائية^(٢) ، كما يسميها رضوان السيّد^(٣) . وفي الوقت نفسه يتفرغ الغرب بثقافته القائمة على الخلفية النصرانية واليهودية - وما شابه معظم طوائفهما من تدخل الصهيونية - للعالم الإسلامي معتقداً أنه هو العدو القادم .

ومن منطلق هذه النظرة وهذه الخلفية درس معظم المستشرقين ذوي الدوافع الدينية الإسلام ؛ قصداً إلى الإساءة إليه ، وذلك لتحقيق رغبة الكنيسة في الحد من انتشار الإسلام بين الأوساط الغربية بخاصة ، ثم على المستوى العالمي بعامة ، ومن ثمّ حماية الكنيسة من مزاحمة المسجد لها فيما يعتقد أنها « عقر دارها »^(٤) . ويؤيد هذا المنحى أنّ طلائع المستشرقين قد انطلقوا من الأديرة والكنائس^(٥) . كما يؤيد كذلك أنّ الاهتمام الرسمي بالدراسات العربية والإسلامية قد انطلق من مؤتمر « فيينا » الكنسي سنة ٧٢٠ هـ / ١٢١٣ م الذي أوصى بإنشاء كراسي للغات عدة ومنها اللغة العربية في

من الظاهرات التي صاحبت المدّ الإسلامي وازدهار الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية حركة أو ظاهرة الاستشراق التي عُنت بعلوم المسلمين بالدراسة والتحليل ، واهتمّت بتراث المسلمين المخطوط منه والمطبوع ، تحقّقه وتدرسه وتهمُّ به في فترة من الفترات التي انشغل فيها المسلمون عن هذا التراث ، وانصرفوا إلى متطلّبات الحياة البدائية في معظم المجتمعات المسلمة ، حتى أصبح العلم والعلماء غرباء في هذه المجتمعات .

وإذا كان المستشرقون يمثلون هذه الظاهرة فإنّ اهتمام معظمهم بالثقافة الإسلامية لم يبدأ بالضرورة من منطلق حسن ، إذ يرى بعض الدارسين العرب والمسلمين لظاهرة الاستشراق التي تدرس الثقافة الإسلامية بخاصة أنّ هذه الظاهرة قد اتّكأت كثيراً على « خلفية غير إيجابية » تجاه الإسلام والمسلمين ، وذلك حينما نظر الغرب ، منشأ ظاهرة الاستشراق ، إلى الإسلام على أنه التهديد العقدي والثقافي الأوّل للوجود الثقافي والحضاري للغرب ، الأمر الذي تجدد الآن مع بروز ظاهرة

أكثر من مؤسسة تعليمية عالية في أوروبا^(٦).

ولتحقيق هذه الأهداف ذات المنطلق الديني المبني أساساً على نتائج الحروب الصليبية التي انهزم فيها الصليبيون ، وأُخرجوا من الشرق الإسلامي^(٧) ، وإلى ما قبل الحروب الصليبية ، كان لا بدّ من إظهار الإسلام وأهله ورموزه كالقرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسيرته وصحابته وعلماء الإسلام وقادة المسلمين بمظهر غير لائق بهذه الرموز .

وفي سبيل الخروج بهذا كان لا بدّ أن يقف ثلّة من الغربيين حياتهم على دراسة الإسلام ، يغوصون في علومه وآدابه ولغته وتاريخه وكلّ ما له به علاقة ، « واقفين عليه مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم ، مصطنعين لنشره المطابع والمعاهد والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات ، حتى بلغوا فيه - منذ مئات السنين ، وفي شتى البلدان ، وبسائر اللغات - مبلغاً عظيماً من العمق والشمول والطرافة وأصبح جزءاً لا ينفصل من تراثنا ... »^(٨).

وقد خلف هذا الاتجاه في الدراسة

وراء زخماً هائلاً من المعلومات المغلوطة في الغالب عن الإسلام والمسلمين ، كانت هي « القاعدة المعلوماتية » التي بنى عليها المتأخرون من المستشرقين وغيرهم دراساتهم التالية استند إليها صنّاع القرار في رسم سياساتهم في المنطقة ، رغم المحاولات المتأخرة من بعضهم في طرق أبواب الموضوعية والتجرّد ، ولكن ظلت فكرة « تهديد » الإسلام للغرب مسيطرة ، ليس على مستوى العلماء والمحيط العلمي « الأكاديمي » فحسب ، ولكن على مستوى القيادات السياسية والتخطيط للعلاقات الغربية مع « العالم الآخر » ، التي استمدّت معظم معلوماتها من الدراسات الاستشراقية المخصّصة لهذه الأغراض أو الدراسات الشاملة عن الإسلام والمسلمين . ولا يزال هذا الأسلوب في استقاء المعلوماً مسيطراً على الدراسات الغربية عن الإسلام والمسلمين . على أنّ الدراسات الاستشراقية ، التي استطاعت التحرّر من هذه الخلفية التي تتكئ كثيراً على دراسات استشراقية سابقة ، قليلة جداً .

ورغم محاولات التجرّد والموضوعية

اليوم . فإذا افترضنا أن البدايات العلمية للاستشراق تعود إلى سنة ٧٢٠ هـ / ١٣١٢ م^(١٠) ، فإنَّ المدة الزمنية تصل إلى ، أو يزيد عن ، سبع مئة وعشر سنين من سنة ٧٢٠ هـ / ١٣١٢ م إلى سنة ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م . ولذا يمكن تصنيف التوجُّهات الاستشراقية بحسب الزمان . وعلى سبيل المثال نجد أنَّ إدوارد سعيد^(١١) يعيد أسباب عدم الأمانة العلمية لدى المستشرقين المعاصرين إلى عوامل ثلاثة هي :

أ- التحيز الشعبي ضدَّ العرب والمسلمين .

ب- الصراع العربي الصهيوني .

ج- الغياب شبه الكلي لأيِّ موقع ثقافي مؤثِّر^(١٢) .

وهذه الأسباب حديثة لم تكن تؤثر في الماضي ؛ لأنَّ مسبباتها لم تكن موجودة بالصورة التي هي عليها الآن ، كما يذكر عبد الجليل شلبي أنَّ « موقف المستشرقين اليوم قد تغيَّر كثيراً عن موقفهم بالأمس . ولكن هذا التغيُّر يبدو في التخلّي عن الأكاذيب والاختلاقات ، وليس ثمة تحلُّ عن طعن الإسلام وتلمُّس

التي حاولها بعض المستشرقين ، ولا سيَّما بعض المتأخرين منهم ، إلا أنَّ طبيعة دراسة الإسلام والمسلمين ، مهما كانت درجة التجرُّد والموضوعية فيها ، تستلزم توافر الانتماء العقدي فيها ، هذا الانتماء الذي يفرض جانباً كبيراً من التوثيق والتوثُّق من الأخبار والروايات ، والتثبت من مصادر المعلومات التي تكون عادة مادَّة « دسمة » لتقرير موقف ما يعين على الخروج بحكم على الإسلام ، بينما يتبيَّن بعد التثبت والتوثُّق أنَّ هذا الحكم قد قام على معلومات موضوعية ومختلفة أو ضعيفة أو اعترافاً خلل في الرواية أو الراوي ، على ما هو مبسوط في علم الرجال عند المسلمين^(٩) .

صعوبة الدراسة

ويصعب في وقفة واحدة إجراء دراسة مستقصية عن مصادر المعلومات عند المستشرقين ، وذلك لأسباب عدَّة ، لعلَّ من أهمها :

طول المدَّة التي قام فيها المستشرقون بدراسات عن الإسلام والمسلمين ، منذ نشأة الاستشراق إلى

وغيرها من اللغات الأوروبية الأخرى ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنَّ اللغة الألمانية تُعدُّ في هذا المجال أمَّ اللغات الأخرى ، وأنها جميعها تُعدُّ عائلةً عليها مباشرة أو عن طريق اللغات التي أخذت عنها^(١٤) .

تُعدُّ المدارس الاستشرقية بحسب الزمان ، أو بحسب المكان ، والاختلاف الطفيف في المنطلقات العقدية لكثير من المستشرقين ، بحسب انتماءاتهم ، فهناك المدرسة الألمانية والمدرسة الإنجليزية والمدرسة الفرنسية والمدرسة الإسبانية والمدرسة الروسية ، وغيرها من المدارس^(١٥) .

تُعدُّ فئات المستشرقين ، بحسب مواقفهم من الإسلام والمسلمين ، وبحسب الخدمات التي يقدمونها في دراساتهم ، فهناك المستشرقون الكاثوليك والمستشرقون البروتستانت والمستشرقون الملحدون والمستشرقون الشيوعيون والمستشرقون اليهود ، وهكذا^(١٦) .

٦- تُعدُّ أغراض المستشرقين وأهدافهم ، بل ومنطلقاتهم التي ساروا منها لدراسة الإسلام والمسلمين بين

مواطن للهجوم عليه «^(١٧) . فالنمط السالف في التعامل مع الإسلام يختلف عن النمط الحالي ، وهكذا .

تُعدُّ الموضوعات التي طرقها المستشرقون داخل الثقافة الإسلامية ورموزها ، فقد درسوا جميع العلوم العربية والإسلامية من علوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والعلوم الإسلامية الأرى والعلوم العربية كذلك ، بما في ذلك الدراسات الاجتماعية المعاصرة ، ومتابعة التطورات التي تمرُّ بها المجتمعات العربية والإسلامية .

وتُعدُّ الموضوعات يؤذن بعدم الدقة الموضوعية في إطلاق الأحكام على الجميع ، دون النظر إلى الموضوعات التي طرقوها ، ودون النظر إلى الزمان الذي أُجريت فيه الدراسات والزمان الذي أُجريت حوله هذه الدراسات .

تُعدُّ اللغات التي كتب بها المستشرقون دراساتهم ، مع ضالة الترجمات العربية لها ، فقد كتبوا بالألمانية والروسية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية والبولندية والبرتغالية والعربية كذلك ،

الإسلامية ، مثل الأستاذ إسماعيل بالتش (١٣٣٨ - ١٤٢٤ هـ الموافق ١٩٢٠ - ٢٠٠٢ م) في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت بألمانيا .

وكان الأستاذ الدكتور محمد فؤاد سزكين يحصر على اقتناء هذه المواد في مكتبة المعهد المتميزة . ولا يزال يقوم بهذا وتتخذ لهذا جميع الوسائل الممكنة من استعارة الكتب وتصويرها وتصوير المقالات بعد استعارة الدوريات استعارة خاصة باتباع أسلوب الإعارة بين المكتبات .

ويشير إدوارد سعيد إلى أن مجموع ما نُشر من الكتب فقط في قرن ونصف القرن من الزمان من بدء القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري إلى منتصف القرن العشرين الميلادي / الرابع عشر الهجري قد وصل إلى ستين ألف (٦٠٠٠٠) كتاب (١٩) .

تشئت الإنتاج العلمي الاستشراقي جغرافيًا ، وتعدُّ وجوده ، أو وجود غاليته ، في جهة واحدة أو جهات محدّدة ، يمكن متابعتها والوقوف على نسبة « معقولة » من

الدينية والسياسية والاقتصادية والاحتلالية والعلمية النزيهة وغير النزيهة ، على ما هو مبسوط في الإنتاج العلمي المقصود به التعريف بالاستشراق والمستشرقين (١٧) .

كثرة الدراسات المنشورة « الإنتاج العلمي » ، إذ إن مجموع ما نشره المستشرقون بين سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٩١ م فقط يزيد على ٧٥٠٠٠ دراسة نُشرت في الدوريات الاستشرافية والعربية ، منها ٣٥٠٠٠ دراسة بين سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٦٠ م (١٨) . هذا عدا عن الكتب والمحاضرات ووقائع المؤتمرات .

ويعمل الأستاذ فؤاد سزكين مدير معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت بألمانيا على حصر وراقي (بليوجرافي) للدراسات الاستشرافية باللغة الألمانية . وقد أظهر إلى الآن مجموعة ضخمة من المجلدات التي دأب المعهد على إظهارها منذ حوالي ربع قرن . وتشمل القائمة الوراقية (البليوجرافية) المقالات العلمية والكتب . وقد تابعت هذا العمل عندما كان يقوم به فريق من المتخصصين في مجالات الدراسات

المنشور منها .

على نقط بعينها ، والرضا فيما عدا ذلك
بفكرة إجمالية عامّة عن العلم في
مجموعه « (٢١) .

ولذا فإنّ « كلّ دراسة في هذا الميدان
هي في حقيقتها جزء صغير أو ضئيل من
كلّ كبير ، ولا سبيل إلى بلوغه ، بل إلى
الاقتراب منه في أحسن الأحوال إلا بخطئ
صغيرة » (٢٢) .

وتؤكد الدراسات حول الاستشراق
والمستشرقين على أنّ بعض المدارس
الاستشراقية قد اعتمدت في تكوينها الأول
على مدارس سابقة لها ، ثم أخذت مساراً
مختلفاً استحققت معه أن تكون مدرسة
مستقلة متميّزة ، فالمدرسة الاستشراقية
الروسية - على سبيل المثال - قد اعتمدت
في نشأتها على المدرسة الاستشراقية
الفرنسي ، التي تُعدُّ أشدّ المدارس جوراً
على الإسلام والمسلمين (٢٣) ، ممثلة
بالمستشرق الفرنسي دي ساسي (٢٤) الذي
تتلذذ على يديه مجموعة من المستشرقين
الروس ، ومنهم جيرجاس (٢٥) الذي رحل
إلى فرنسا . كما أنّ دي ساسي نفسه قد
استعانت به جامعة بطرسبرج في إنشاء

ومن أجل هذه الأسباب مجتمعة ،
ومعها غيرها ، تبرز الصعوبة العلمية في
تقصّي الإنتاج العلمي الاستشراقي الذي
يتيح المجال لتقصّي مصادر المعلومات
لدى المستشرقين عن الإسلام
والمسلمين .

تضييق مجال الدراسة

قد يعين على التغلّب على بعض هذه
العوامل السالف ذكرها تضييق مجال
الدراسة ، إما من الناحية الزمانية ، أو من
الناحية المكانية ، أو من الناحية الفكرية
فيما يتعلّق بالفئات والمدار ، أو من الناحية
اللغوية ، إذ قد يصل الباحث إلى نتائج
« أولية » إذا ما درس مرحلة من مراحل
الاستشراق - مثلاً - من حيث أطواره التي
مرّ بها (٢٦) .

وفي هذا يقول رودى بارت : « ...
فمن ذا الذي يستطيع الإحاطة بمادّة في
هذا اليمّ . ليس أمام العلماء من حلّ سوى
اختيار طائفة محدّدة من الموضوعات من
بين الكمّية الهائلة من موضوعات العلم
والبحت المتشعبة ، وتركيز البحث الخاصّ

جولدتسيهر المجري « الهنجاري » الذي تبني اللغة الألمانية لغةً علميةً لإنتاجه العلمي في مجال الدراسات الاستشراقية^(٢١).

كما أنَّ دواعي الاستشهاد المرجعي ودوافعه قد تكون عاملاً مهماً من عوامل اعتماد المتأخرين من المستشرقين على أسلافهم في توثيق معلوماتهم. ومن هذه الدوافع - عد إظهار الفضل والريادة للسابقين - مجاملتهم أو الدفاع عن آرائهم التي بثوها في دراساتهم، أو تنفيذها والردُّ عليها، أو تصحيحها، أو ما إلى ذلك من دواعي الاستشهادات المرجعية العلمية وغير العلمية^(٢٢).

إلا أنَّ الميل هنا ينصبُّ على عاملين مهمَّين يقفان وراء اتِّكاء المستشرقين المتأخرين على أسلافهم في توثيق أبحاثهم ودراساتهم، هما توافر المصادر العلمية مادياً، وكونها مكتوبة بلغة يجيدونها وبقية دواعي الاستشهاد المرجعي الأخرى تكون عادة مضمَّنة في ثنايا الاستشهادات المرجعية للمستشرقين.

واعتماد المستشرقين في معلوماتهم

المدرسة التهذيبية العالية سنة ٨١٦ م، وتلمذ عليه، غير جيرجاس، ديمانج^(٢٣) وشارومي^(٢٤)، وغيرهم ممن هم عالة على المدرسة الاستشراقية « الغربية »^(٢٥).

الاعتماد على المستشرقين السابقين

من المقرَّر أنَّ كثيراً من المستشرقين قد اعتمدوا على سابقهم في توثيق أبحاثهم ودراساتهم عن الإسلام والمسلمين. وهذا أمر وارد؛ إذ إنَّ المتأخرين من المستشرقين ينظرون لسلفهم من علماء المستشرقين نظرة إجلال وإكبار من ناحية^(٢٦)، ومن ناحية أخرى يجدون هذه الدراسات السابقة هي المصادر القريبة منهم، من حيث توافرها، ومن حيث لغتها التي يجيدونها إجادة تامَّة، فقد تكون هي لغتهم الأم، أو اللغة الثانية التي تعلَّموها؛ لأنها ثرةٌ بالإنتاج العلمي الاستشراقي كالألمانية مثلاً^(٢٧). بل إنَّ هناك بضعةً من المستشرقين الذي تركوا لغتهم الأمَّ وجنحوا إلى لغة « استشراقية » قوية في مجال الدراسات الاستشراقية، كما هي الحال مع إجناس

من سبقوه إلى ما وصل إليه قسٌ من قرطبة يُدعى إلجوس قرطبة الذي كتب بحثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله ينمُّ عن جهل فاضح ، « أو كذب متعمد ، كما تبدو فيه الصيغة المسيحية ؛ إذ جاء فيه أنَّ النبيَّ محمداً صلى الله عليه وآله كان يخبر أصحابه أنه بعد ثلاثة أيام من موته سيُرفع إلى السماء ، فلما مات بقي بدون دفن حتى يُرفع جسده ، ولكنه لم يُرفع حتى تعفن جسده ، وأخذت الكلاب تنهش منه ... » (٣٦) .

وبعلق عبد الجليل شلبي على هذا بقوله إنَّ هذا القس لم يكن يعرف اللغة العربية ، ولكنه اعتمد في نقل معلوماته المغلوطة هذه على مخطوطة لاتينية عثر عليها صدفة في مدينة بامبالونا (٣٧) . ومصادر سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله تذكر أنه توفي - عليه الصلاة والسلام - منتصف يوم الإثنين ١٢ / ٣ / ١١ هـ ودُفن يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ١٣ - ١٤ / ٣ / ١١ هـ ، ولم يمض عليه سوى يوم ونصف اليوم قضاها المسلمون في تجهيزه وتصريف أمور خلافته صلى الله عليه وآله (٣٨) .

حول دراساتهم عن الإسلام والمسلمين على من سبقهم من المستشرقين يؤدِّي إلى أن يقع المتأخرون في الأخطاء نفسها التي وقع فيها المتقدمون عن غير قصد ، وهذا هو الأصل ، وعن قصد ؛ وهذا قد يحصل إذا ما كانت الدوافع والأهداف غير علمية ، مما عرف الآن من دوافع المستشرقين وأهدافهم (٣٩) .

وفي هذا يقول مونتجمري وات : « جدَّ الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام . وعلى رغم الجهد العلمي الذي بُذل في هذا السبيل ، فإنَّ آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة . فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنبها » (٤٠) . والمؤلف مونتجمري وات نفسه قد وقع ضحية نظريته هذه ، فلم يستطع التخلص من الاتكاء على الماضي الاستشراقي في كتاباته حول الرسول محمد ﷺ (٤١) .

وإن لم يصل في هذا الاعتماد على

ولا من خلفه . على الرغم من أنَّ الدراسات النقدية الحديثة لهذه الحركة قد زلزلت بدرجة كبيرة البرج العاجي الذي يعيشون فيه ^(٤٢) . وهم في هذا « يريدون قتل حضارة الشرق عمداً لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة » . كما يذكر بريستيد في كتابه عن انتصار الحضارة ^(٤٣) .

ومع صعوبة الدراسة المنهجية العلمية الجادة عن مصادر المعلومات لدى المستشرقين بعامة ، ومع إمكانية دراسة الحقب التاريخية التي مرَّ بها الاستشراق والمستشرقون فإنَّه من الممكن أن تبرز ظاهرة الاستشهادات الخاطئة في الأزمنة الأولى للاستشراق .

كما أنه من الممكن الافتراض بأنَّ ظاهرة الاستشهادات الخاطئة في الدراسات الاستشراقية تخفُّ حدَّتها كلّما تقدَّم بنا الزمان ، رغم الافتراض كذلك أنَّ المستشرقين اللاحقين عمَّ عالية على أسلافهم من المتقدِّمين ، إلا أنَّ الرغبة في الاستقلالية العلمية والتميُّز والظهور بمنهجية جديدة والتقرب من العلماء العرب والمسلمين ، والاستجابة لانتقادات

ويذكر نورمان دانيال أنه « على الرغم من المحاولات الجديَّة المخلصة التي بذلها بغض الباحثين في العصور الحديثة للتحرُّر من المواقف التقليدية للكتَّاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكَّنوا أن يتجرَّدوا منها تجرُّداً تاماً ^(٣٩) » . كما يقول برنارد لويس : « لا تزال آثار التعصُّب الديني الغربي ظاهرةً في مؤلَّفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرسومة في الأبحاث العلمية ^(٤٠) » .

والحواشي المرسومة في الغالب مأخوذة من دراسات المستشرقين السابقين ^(٤١) . ولذا نجد « سلسلة من المستشرقين يرِدُّون ويطوِّرون النظريات نفسها القائمة على ما كتبه المستشرقون من قبل ... أسوأ ما في الأمر جميعاً أنَّ المستشرقين سايروا في كثير من الأحيان تقاليد معيَّنة ، حيث يمدُّون الجمهور الغربي بما يتوقَّع منهم أن يمدُّوه به ... بل إنَّ الأسوأ إن نجد ثيراً من المستشرقين قد بنوا مواقفهم على الموقف العام للاستشراق دونما نقد أو تمحيص كدليل على كماله ، أو باعتباره أمراً لا يأتيه الباطل من بين يديه

متخلفون^(٤٤) .

دراسة أعلام المستشرقين

لعلّ من الأنسب في سبيل دراسة مصادر المعلومات في الدراسة الاستشراقية أن يُنظر إلى كبار المستشرقين الذين كُونوا منهجية متميّزة تابعهم فيها كثير ممن أتى بعدهم ، فيدرس هؤلاء المستشرقون الكبار كلُّ على حدة ، ليُنظر مدى اعتمادهم على المصادر المعتبرة في موضوعاتها في دراساتها الثرة . ويأتي من أبرز هؤلاء المستشرقين الذين عُرفت عنهم منهجية متميّزة في دراسة الإسلام والمسلمين المستشرق المجري (الهنجاري) إجناس جولدتسيهر والهولندي كريستيان سنوك هورخرونية^(٤٥) والألماني كارل هينرش بيكر والكندي دنكن بلاك ماكدونالد والفرنسي الأب لوي ماسينيون^(٤٦) والإنجليزي هاملتون جبّ والانجليزي يوسف (جوزف) شاخت والألماني كارل بروكلمان^(٤٧) وغيرهم من « أئمة » المستشرقون ومشهورهم .

ودراسة أعلام المستشرقين كلاً على حدة كفيلة بأن تبين مدى اعتمادهم على

العلماء العرب والمسلمين وملاحقة الاستشراق بالنقد ، كلُّ هذه تؤيّد خفّة الحدة في ظاهرة الاستشهادات المرجعية الخاطئة . ومع هذا فإنّ هذه الافتراضات تحتاج إلى وقفات بحثية متأنّية في سبيل إثباتها أو دحضها .

ومع هذا الميل إلى تبرئة المستشرقين المحدثين من « تسنّم » آثار سالفهم نجد في الجانب الآخر هناك تأكيداً على عدم التجرّد والموضوعية لعوامل مستحدثة ، يلخصها إدوارد سعيد في الآتي :

١- التحيُّز الشعبي ضدّ العرب والإسلام ، الذي ينعكس في تاريخ الاستشراق قديمه وحديثه .

٢- الصراع العربي الصهيوني . ولو قيل الصراع بين المسلمين واليهود لكان التعبير أدقّ .

٣- الغياب شبه الكلّي لأيّ موقع ثقافي مؤثّر . هذا بالإضافة إلى عوامل آنية مثل صورة اليهود في فلسطين المحتلة التي تصوّرهم على أنهم يمثّلون الديمقراطية في المنطقة ، في مقابل صورة العرب لدى الغرب ، الذي يُصوِّرون على أنهم إرهابيون

رحمة الله تعالى - نماذج من هذه التجاوزات المتعمدة مع نصوص المصادر الإسلامية بيّن فيها شيئاً من التمويه والكذب والتعسف في فهم النصوص الذي يتحدث عنه محمود بدوي في حال واحدة مع مستشرق واحد^(٥٠) . وقد أوردت جملة منها في وقفة لاحقة مع الاستشراق مصدراً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين^(٥١) .

ومن ذلك أيضاً ما قام به جورج سَيل^(٥٢) في ترجمته لمعاني القرآن الكريم ، إذ يترجم عبارة يا أيها الناس بيا أهل مكة . وهذا المستشرق يعدُّ من أوائل من ترجموا معاني القرآن الكريم ، وقد اتكأ عليه كثيرون في ترجمات تالية . ويثني أربري على ترجمة جورج سَيل ، يثني على مقدّمته التي قرّر فيها أنّ القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وآله^(٥٣) . والغرض من هذه التحريفات في العبارة يعود إلى رغبة كثير من المستشرقين في نفي الرسالة وحصر الرسول صلى الله عليه وآله في جزيرة العرب فقط^(٥٤) .

والحكم التعميمي على هذه

المصادر العربية وغير العربية التي يسعون فيها إلى إلباس دراساتهم اللباس العلمي الموضوعي المتجرّد المطلوب في كل دراسة علمية . كما أنها كفيلة بالرجوع إلى هذه المصادر كلّها أو جلّها للتبيّن من مدى الدقّة في النقل .

وفي ترجمة للمستشرق الفرنسي الأب هنري لامانس^(٤٨) ، يذكر محمود بدوي أنّ « أبشع ما فعله خصوصاً في كتابه (فاطمة وبنات النبي) هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها . وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها فوجدت أنه إنما يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب ، أو فهماً ملتوياً خبيثاً ، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدلُّ على فساد الذهن وخبث النية ، ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارئ على إشارات إلى مراجع ، فإنّ معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص . ولا أعرف باحثاً من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية^(٤٩) .

وقد أورد عبد العظيم محمود الديب -

بدراساته الموسوعية عن الأدب العربي بالمفهوم الأجنبي الآخر لكلمة أدب « Literature » في كتابه تاريخ الأدب العربي^(٦١) ، بالإضافة إلى كتابه الآخر تاريخ الشعوب الإسلامية^(٦٢) ، وإسهاماته الأخرى المتعددة .

إتقان اللغة العربية

برزت فئة من المستشرقين ممن درسوا اللغة العربية ودرّسوا بها ، وحاولوا الإلمام بها وإجادتها ورجعوا في دراساتهم إلى بعض المصادر العربية ، إلا أن دراساتهم للغة العربية لم تكن قويّة ، رغم قدم الدراسة بقدم اتصال الغرب بالشرق الإسلامي عن طريق الأندلس وصقلية^(٦٣) ، فكان القصور واضحاً في فهمهم للنصوص العربية التي استعانوا بها دراسةً وتحقيقاً ، فوقعوا في أخطاء أدّى إليها سوء الفهم الناتج عن الضعف اللغوي لديهم .

ورغم أن هذه الفئة كانت تحاول إبراز هذه الميزة في اللقاءات والمؤتمرات ، وتظهر الحرص على سلامة اللسان ، من حيث المفردات المنتقاة والإعراب والتصريف ، إلا أنها لم تتمكن من اللغة

المجموعة من المستشرقين وغيرها غير ممكن في دراسة فردية محدودة في زمانها وفي مصادرها ، غير قادرة على الاستقراء الدقيق والمتابعة لجميع ما أنتجه هؤلاء . ولذا تبرز الحاجة والدعوة إلى إيجاد المؤسّسات العلمية التي تتابع إنتاج المستشرقين^(٥٥) ، كما برزت الدعوة إلى قيام موسوعة إسلامية في الرد على المستشرقين . ومن الرد عليهم بيان منهجيّتهم في الرجوع إلى المصادر وانتقاؤهم المعلومات منها^(٥٦) .

وفي هذا المجال ظهرت على الساحة العلمية العربية ظهرت على الساحة العلمية العربية والإسلامية الدراسات المتخصصة بمستشرقين بأعيانهم مثل الدراسة التي تابعت إسهامات كارل بروكلمان وفيليب حتّي^(٥٧) في التاريخ الإسلامي^(٥٨) ، ودراسة مستشرقين آخرين بأعيانهم^(٥٩) .

بل ربّما دُرست ناحية واحدة من النواحي التي أسهم بها مستشرق واحد كما فعل - مثلاً - غيثان علي جريس في تتبّعه لاقتراءات كارل بروكلمان على السيرة النبوية^(٦٠) . والمستشرق المذكور مشهور

اللسان الذي نشأ فيه صغيراً ، والثقافة التي ارتضع لبانها يافعاً ، يدخل قسم « اللغات الشرقية » في جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدئ تعلم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد هوز ، في العربية ، ويتلقى العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وشعرها وسائر آدابها وتواريخها عن أعجمي مثله ، وبلسان غير عربي ، ثم يستمع إلى محاضر في آداب العرب أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسان غير عربي ، ويقضي في ذلك بضع سنوات قلائل ، ثم يتخرج لنا « مستشرقاً » يفتي في اللسان العربي والتاريخ العربي والدين العربي !! عجب وفوق العجب « (٦٦) .

ومن أبرز المؤيّدات لنصّ محمود محمّد شاكر ما ذكره رفاعه رافع الطهطاوي^(٦٧) أحد تلامذة دو ساسي من أنه كان « حين يقرأ ينطق كالعجم ، ولا يمكنه أن يتكلّم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب » (٦٨) .

وفي رسالة جوابية من دي ساسي إلى أحد مراسليه من الشرق يقول فيها : « ... وأنت تريد أن تعم إذا ما كان لي شيوخ

العربية التمكن الذي يعينها على الاستناد التام على النصوص العربية وأربابها ؛ لتبيان أيّ مشكل لغوي يمرّ على المستشرق ، ولا ريب أنها مرّت بهم مشكلات مهما بدا أنهم أتقنوا اللغة العربية إلى حدّ نظم الشعر بها^(٦٤) .

ويجدر هنا تكرار الاستشهاد بنصّ كتبه العلامة محمود محمّد شاكر^(٦٥) في رسالته في الطريق إلى ثقافتنا ، حيث يقول : « المستشرق » فتى أعجمي ناشئ في لسان أمّته وتعليم بلاده ، ومغروس في آدابها وثقافتها (ألماني ، أو إنجليزي ، أو فرنسي) ، حتى استوى رجالاً في العشرين من عمره أو الخامسة والعشرين ، فهو قادر أو مفترض أنه قادر تمام القدرة على التفكير والنظر ، ومؤهل أو مفترض أيضاً أنه مؤهل أن ينزل ميدان « المنهج » و« ما قبل المنهج » بقدّم ثابتة . هذا ممكن أن يكون كذلك^(٦٥) .

ويضيف محمود محمّد شاكر : « ولكن هذا الفتى يتحوّل فجأة عن سلوك هذه الطريق ليبدأ في تعلّم لغة أخرى ، (هي العربية هنا) ، مفارقة كل المفارقة

ويشير تقريرُ للامبرت حول الدراسات الإسلامية إلى أنَّ الذين يهتمُّون بالإسلام والعربية لا يجيدون اللغة العربية ، وأنَّ نسبة من مجيديها لا تصل إلى ١٧٪ (١٦/٧ ٪) فقط من مجموع المهتمِّين بالإسلام والمسلمين وبلغه العرب والمسلمين .

أما الذين اعتمدوا على مصادر إسلامية لمعلوماتهم في دراساتهم عن الإسلام والمسلمين فقد نظروا إلى هذه المصادر وما تحويه من معلومات نظرتهم هم ، ولم يلبسوا لباس النظرة الإسلامية للمعلومات الإسلامية ، التي تعتمد على أنَّ الأصل في هذه المعلومات الصَّحَّة حتى يثبت عكس ذلك .

ولا تتأتَّى هذه النظرة إلا إذا توافرت الروح الإسلامية التي يتعامل فيها المسلم مع النصوص والمصادر ، لذا تقوى هذه النظرة عند النظر إلى النصِّ القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد^(٧٥) ، ثم نصوص السنَّة الثابتة صَحَّتْها بالمعايير التي وضعها رجال الحديث^(٧٦) ، ثم تأتي بالمرتبة الثالثة

علَّمني اللغة العربية .. ، وإنني أستطيع أن أُؤكِّد لك أنه لم يكن لي من معلِّم سوى الكتاب . وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية شيئاً ، ولا أفهم ما يقال بها ، إذ لم تتح لي في شبابي أيُّ فرصة لممارسة الكلام أو الاستماع للأحاديث بالعربية . وقد أطررتني كثيراً ما قلته لي عن مؤلَّفاتي ، وعليَّ أن أقرَّ لك بأنني آسف لأنني لم أرحل في شبابي إلى مصر أو الشام ، وبأنني بعيد جداً عن امتلاك معرفة تامَّة بهذه اللغة الواسعة كالمحيط^(٧٩) .

والمستشرق المذكور درَّس اللغة العربية ، وكتب فيها وعنهما عدَّة أعمال ، لعلَّ من أهمَّها التحفة السنيَّة في علم العربية ، وهو في النحو والعروض العربيين ! وهو الذي حقَّق مقامات الحريري^(٧٠) ، ونشر ألفية ابن مالك^(٧١) .

ومما يؤيِّد نصَّ محمود محمَّد شاكر رحمته الله كذلك ما دُكر عن الترجمة التي أعدها فرانز روزنتال^(٧٢) لمقدِّمة ابن خلدون^(٧٣) ، حيث ظهرت هزيلةً وغير مستقيمة ، وأبرزت الروح اليهودية لدى المستشرق المترجم ، كما أبرزت جهله باللغة العربية^(٧٤) .

معايير النقد لدى المستشرقين

والمستشرقون يُعْمِلون النظر في النصوص الإسلامية من المصادر الإسلامية ، ويطبقون عليها معايير نقدية تاريخية هي نفسها المعايير التاريخية التي يطبقونها على تاريخ الفكر عندهم ، يقول رودى بارت في هذا الشأن : « فنحن معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها فقط لكي نبرهن على ضعة العالم الإسلامي ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثل الإسلام ومظاهره المختلفة والذي عبّر عنه الأدب العربي كتابة »^(٧٩) .

وبضيف رودى بارت القول : « ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء تروييه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر ، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو كأنه يثبت أمامه . ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التي نشغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن . وإذا

نصوص العلماء المسلمين من السلف والخلف التي يحكمها من حيث القبول والرد ، النص الإسلامي المشهور : « كُلُّ يُوْخَذُ مِنْ كَلَامِهِ وَيُرَدُّ إِلَّا الْمَعْصُومَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ^(٧٧) » الذي لا ينطق على الهوى ، وما يقوله إنما هو وحي يوحى وذلك مصداقاً للآية الكريمة : قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم] .

ويفتقد المستشرقون لهذه الروح التي نتعامل فيها مع النصوص الإسلامية ، ولا نتظر منهم أن يكونوا مسلمين ، وعندها لا يكونون مستشرقين . يقول محمود حمدي زقزوق : « ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغيّر معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام ، ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمي السليم ... »^(٧٨) . ومن أبرز سمات هذه الأوليات التحقق من الأخبار والروايات قبل قبولها قبولاً مطلقاً من منطلق النص القرآني الكريم ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات] .

القرآن الكريم كلامُ الله المنزَّل غير المخلوق ، وأنه ثابت غير قابل في محكمه ومتشابهه للنفي أو النقد أو التعديل أو التحريف أو الزيادة أو النقص . ونتعامل مع القرآن في دراسته ، من حيث تفسيره وقراءته وأسباب نزول الآيات فيه ، والناسخُ والمنسوخُ مما هو معلوم في علوم القرآن الكريم ، مما يدور حوله ولا يدخل في صلب النص ، من حيث ثباته من عدمه . وقد تتبع محمَّد حسين علي الصغير وقفات المستشرقين هذه وغيرها مع القرآن الكريم والدراسات القرآنية^(٨٣) .

هذا مع فئة من المستشرقين الأوائل الذين نظروا إلى الثقافة الإسلامية وطَبَّقوا على دراستها معاييرهم النقدية . وهذا خطأ علمي منهجي كان يُتَوَقَّع أن يتخلَّص منه المستشرقون المتأخرون الذين يظهرون أنهم علميون جامعيون موسوعيون . ولكن نذير حمدان يفتِّد هذا بنفيه العلمية والجامعية والموسوعية عن الغالبية العظمى من المستشرقين ، حيث يقول في ردِّه على « ميكائيل أنجلو جويدي »^(٨٤) : « إِنَّ السَّمَات العلمية التحليلية التي طرحها الكاتب على الاستشراق لا تعبِّر عن أعمال

كانت إمكانيات معرفتنا محدودة - وهل يمكن أن تكون إلا كذلك ؟ - فإننا نؤكِّد بضمير مطمئن أننا في دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية ، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة . أما الرأي المضادُّ لذلك والذي نشره عالم الأزهر الأستاذ البهي في كتيبه الذي صدر أخيراً باسم المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام ، فنحيط به علماً ونحن هادئو البال »^(٨٥) .

وهم بهذا يزعمون أنهم يهدفون من دراساتهم للثقافة الإسلامية واللغة العربية إلى العمل على تمحيص الإسلام من منطق علمي يتَّسم بالموضوعية التي تُخضع لقواعد المنهج العلمي^(٨٦) .

ولم يسلم كتاب الله تعالى ، القرآن الكريم ، من هذا التمحيص ، فقد وقفوا معه وقفاتٍ طويلةً في مجمله وفي بعض سوره وآياته ، فأثبتوا ونفوا وحلَّلوا وفسَّروا بالرأي والهوى ، مما هو غير جائز للمسلمين المنتمين لهذا الكتاب ، فكيف يجوز لمن يفتقرون إلى الانتماء^(٨٧) .

على أننا نحن المسلمين نؤمن بأنَّ

لرأيها . ويختار المستشرقون شعورهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون إليه مبدئياً «^(٨٦) .

ويستحضر هنا النص الذي طالما ردّته في مثل هذه المناسبات ، ذلك الذي قاله أبو الحسن الندوي : « ومن دأب كثير من المستشرقين أنهم يعيّنون لهم غايةً ويقرّرون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات - من كل رطب ويابس - ليس لها أيّ علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب والشعر أو الرواية والقصص ، أو المجنون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، ويقديّمونها بعد التمويه بكلّ جرأة ، وبينون عليها نظرية لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم »^(٨٧) .

ويذكر حسين مؤنس « أن المستشرق المعاصر جاستون فييت^(٨٨) قد عرض تاريخ الإسلام في كتابه مجد الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرّخين والكتّاب المعاصرين لكلّ فترة من فترات تاريخ الإسلام والمسلمين . وعلى الرغم

المستشرقين عموماً ، وليست نتيجة لجهودهم المدرسية ، فإنّ الموسوعية والنموذجية والقياسية والجامعية سمات يندر أن تجتمع في بعضهم ، إن لم نقل يستحيل أن تتوفر في أحدهم ، وإن ظهر منهم أعلام لهم سمعتهم الثقافية المرموقة »^(٨٥) .

ومما يؤيد صعوبة الخروج كذلك من النظرة الغربية للفكر الإسلامي اللجوء إلى التعصّب ، والخروج بنتائج سالفة تُبنى عليها فيما بعد الأدلة ، أي أنّ الاستنتاج يُبنى قبل أن تحلّل الوقائع والأحداث ، فتطوّع الوقائع والأحداث للاستنتاج المسبّق على غرار ما كانت تقوم به دواوين التفتيش في العصور الوسطى . يقول محمّد أسد : « ... وعلى الجملة فإنّ طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتّبعها أكثر المستشرقين تذكّرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ، أي إنّ تلك الطريقة لم يتّفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرّد ، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متّفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصّبها

يكن شيء منها ليس من الإسلام ولا يمارس في بلاد إسلامية أخرى .

وإذا زار مستشرق آخر مضرباً من مضارب البادية في جزيرة العرب - مثلاً - كتب عن هذه المضارب على أنها تمثل المجتمع المسلم كله ، وإن يكن من عادات أهل هذه المضارب ما لا يتفق بالضرورة مع الأحكام الإسلامية . والقاعدة عندنا أن تصرفات العباد تُقاس بمدى تمسكهم بالإسلام ، فالإسلام هو الحجة على الناس ، وليس العكس .

والإنتاج العلمي في هذا المجال كثير تزر به كتب الرحلات . ولعل من قبيل التمثيل العودة إلى كتاب العقل المسلم للمستشرقة الأسترالية تساريس وادي ، وهو كتاب وصفي لأوضاع المسلمين في الزمن الذي كانت في هذه الكاتبة تجوب بعض المجتمعات الإسلامية^(٩٠) .

ومثل ذلك الكتاب الذي ظهر به المستشرق الإنجليزي إدوارد وليم لين^(٩١) بعنوان المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم . وقد وقف معه عدلي طاهر نور في مجلة الرسالة وقفات نقدية طويلة^(٩٢) .

من ذلك فإن كتاب مجد الإسلام ينضح بالحق والطعن في الإسلام والمسلمين وتاريخهم ، لأن المؤلف جاستون فييت اختار فقط النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اختاره هو سلفاً ، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكرهية للإسلام^(٩٣) .

الحكم من الواقع

من المستشرقين من استهوتهم الرحلة إلى عالم الشرق ، ففضى أياماً أو أشهراً في إحدى ديار المسلمين ، ودرس أحوالهم على ما هم عليه من تخلف تركه لهم الاحتلال ، وأعان عليه الجهل بالدين والحياة ، ثم ظهر من ذلك بكتاب أو عدة مقالات تُنشر في دوريات علمية استشرافية . وجعل من هذا الواقع الذي عاينه مجالاً واسعاً للحكم على الإسلام والمسلمين في ماضيهم وحاضرهم ، وفي مختلف المواقع التي يعيشون عليها .

فإذا زار أحد المستشرقين مصر - مثلاً - ورأى ما فيها من عادات وتقاليده في المدن والأرياف لا تتفق بالضرورة مع روح الإلام ، بل إنها منافية للأحكام الإسلامية ، جعل هذه التقاليد عامّة على المسلمين ، وإن

العلمية لديهم في استشهاداتهم المرجعية ، وانتفاء التعميم يعني وجود حالات من انعدام الأمانة العلمية لدى بعض المستشرقين .

ولعلّ مما ساعد على إطلاق هذا الاتّهام بضعة عوامل من أهمّها :

١- انطلاق المستشرقين ابتداءً من الأديرة والكنائس ، مما يؤكّد الخلفية الدينية لظاهرة الاستشراق .

٢- كون المستشرقين ينطلقون ثقافياً من معتقدات لا تؤمن بالإسلام ديناً شاملاً لكل الأماكن والأزمنة .

٣- الشعور المستمرّ بالعداء بين الإسلام والديانات الاخرى ، أنّ الإسلام يهدّد وجود هذه الأديان ورعايتها .

٤- اعتماد المستشرقين المتأخّرين في مصادر معلوماتهم عن الإسلام والمسلمين على المستشرقين المتقدمين زمنياً ، ممن عُرف عنهم عداؤهم المفضوح للإسلام والمسلمين .

٥- جهل معظم المستشرقين لغة الإسلام الأمّ وهي اللغة العربية ، واللغات

ومثل هذا الإنتاج الأدب الوصفي القائم على المشاهدات والانطباعات والخروج منها بأحكام عامة زماناً ومكاناً من شأنها أن تقدّم صورة غير دقيقة عن الإسلام والمسلمين ، تبعد الآخرين عن تلّمس الموضوعية في دين حجة على الناس ، ويقاسون به بدلاً من أن يكونوا حجة عليه ويُقاس بهم . وسيفرد ذلك فصل مستقلّ في هذا الكتاب .

الخلاصة والنتيجة

يُتهم بعض من المستشرقين بضعف أمانتهم العلمية ، فيما يتعلّق ببحوثهم ودراساتهم حول الإسلام والمسلمين . وتّضح هذه التهمة من خلال استقراء الإنتاج العلمي لهؤلاء المستشرقين . إلا أنّ الاستقراء والاستقصاء متعذّران إذا ما أريدت الإحاطة التامة بالإنتاج العلمي للمستشرقين ، بل الذي يظهر أنّ أخذ عينات من فئات ومدارس وأزمنة مختلفة للمستشرقين تدخل في حكم المتعذّر على الباحثين الأفراد ، ولذا يصعب التعميم الذي يطلقه بعض الباحثين العرب من وصف جميع المستشرقين بانتفاء الأمانة

الأخرى التي يتحدث بها المسلمون غير العربية .

وتتبع هذه الحالات من أجل إثباتها بالشواهد المادية يحتاج إلى جهود علمية مضنية مؤسسية جماعية من أجل الخروج بحكم علمي موثق ، قد يصل في النهاية إلى عدم الاكتراث بإسهامات المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية^(٩٣) ، وليس بالضرورة في مجالات خدمة التراث الإسلامي من نواح علمية أخرى ، كحفظ المخطوطات وفهرستها ، والأعمال « الخدمية » الأخرى التي لا تتعلق بالدراسة والتحليل والغوص في النصوص .

وليس في هذا محاولة لتحريم النصوص الإسلامية من الوحي وغيره على الآخرين ، فلا أحد يملك اليوم هذا التحريم عملياً ، ولكن المقصود هو دراسة وضع هذه الدراسات التي تنتفي فيها الأمانة العلمية ، من حيث استخدامها في مصادر الدراسات العلمية الجادة .

ويظهر أن الوصول إلى هذا الحكم متعذر الآن ، ذلك أن دراسات المستشرقين قد نالت قبولاً قوياً لدى

الأوساط الثقافية العربية والإسلامية ، وبدا تأثيرها واضحاً على الإنتاج العربي والإسلامي ، مما يحتاج إلى دراسات مستقلة تتبّع مدى هذا التأثير .

ويؤيدّ تعذر الوصول إلى حكم تعميمي على انتفاء الأمانة العلمية لدى المستشرقين في نقلهم من المصادر العربية عوامل عدّة منها :

كثرة الإنتاج الفكري لدى المستشرقين .

تعدّد الموضوعات التي طرقها المستشرقون داخل إطار الثقافة الإسلامية والعربية .

تعدّد منابع الإنتاج الفكري لدى المستشرقين ، بحيث يشمل الغرب كلّه تقريباً وأجزاء من الشرق كذلك .

تعدّد لغات الإنتاج الفكري التي كتب بها المستشرقون دراساتهم وأبحاثهم .

طول المدة الزمانية التي يدرسها المستشرقون ، إذ إنها تمتدّ من الجاهلية إلى الزمن الحاضر .

طول المدة الزمانية التي باشر فيها

دراسة مدرسة واحدة من مدارس
الاستشراق ، وتتبع استشهاداتها
المرجعية .

دراسة فئة واحدة من فئات
المستشرقين ، وتتبع في مدى دقتها في
استشهاداتها المرجعية من المصادر
الإسلامية .

دراسة حقبة زمانية من حقب
الاستشراق التي مرَّ به وتتبع مدى عنايتها
بالاستشهادات المرجعية من المصادر
الإسلامية .

دراسة موضوع واحد من الموضوعات
التي طرقها المستشرقون ، وتتبع مدى
اهتمامهم بالمصادر الإسلامية حول هذا
الموضوع .

دراسة الإنتاج الفكري الاستشراقي
بلغة بعينها ، ومتابعة مدى التزام هذه اللغة
بالأمانة العلمية في الاستشهاد بالمصادر
الإسلامية . والذي يبدو أنَّ دراسة الإنتاج
الفكري الاستشراقي بلغة من لغات
الاستشراق من الأمور المتعدِّرة علمياً ، إلا
إذا ربطت الدراسة بمتغيِّر آخر من أحد
المتغيِّرات التي مرَّت ، كالموضوع أو العَلَم

المستشرقون دراساتهم وأبحاثهم ، فهي
تمتدُّ من سنة ٧٢٠ هـ / ١٣١٢ م أو قبل
ذلك بكثير إلى الزمن الحاضر .

تعدُّ فئات المستشرقين ، بحسب
انتماءاتهم الدينية والفكرية ، مما ينعكس
على مدى موقفهم من الموضوعات
الإسلامية التي يدرسونها .

تعدُّ المدارس الاستشراقية التي
ينطلق منها المستشرقون ، مما يؤثِّر في
النظرة إلى الثقافة الإسلامية .

اختلاف الدوافع التي ينطلق منها
المستشرقون ، والأهداف التي يرمون إليها
من خوضهم في الثقافة الإسلامية .

ويمكن علمياً - على ما يظهر - متابعة
فرضية عدم الأمانة العلمية لدى
المستشرقين في نقلهم من المصادر
الإسلامية إذا ما صُيِّقت النظرة ، بحيث
تقتصر على إحدى الزوايا التالية من ظاهرة
الاستشراق :

دراسة الإنتاج الفكري لمستشرقين
محدَّدين من أعلام الاستشراق ، وتتبع
استشهاداتهم المرجعية .

أو الزمان .
تقود إلى الأحكام التعميمية . والخروج
بنتائج علمية قائمة على البرهان بالأدلة
والشواهد كفيلاً بأن يضع هذه الظاهرة في
موضعها الذي يليق بها في مجالات
الإسهام في دراسة الإسلام ديناً وفكراً .

ودون أخذ هذه المتغيرات في
الحسبان يصعب الحكم السريع على
ظاهرة الاستشراق من حيث مصادر
المستشرقين بناءً على انطباعات مسبقة

الهوامش:

- (١) انظر: مالك بن نبي. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. - مرجع سابق. - ص ٤١ - ٤٢.
- (٢) انظر: علي بن إبراهيم النملة. كنه الاستشراق: المفهوم - الأهداف - الارتباطات. - مرجع سابق. - ٢٧٧ ص.
- (٣) انظر: رضوان السيّد. الصراع على الإسلام: الأصولية والإصلاح والسياسات الدولية. - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م. - ٢٧٧ ص.
- (٤) انظر: عبد العظيم محمود الديب. المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي. - مرجع سابق. - ص ٣٨ - ٣٩.
- (٥) انظر: نجيب العقيلي. المستشرقون. - ط ٥ - ٣ مج - القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦ م - ١: ١١٠ - ١٣٧.
- (٦) انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق - مرجع سابق - ص ١١٠.
- (٧) امتدّت الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي قرابة مئتي سنة، وقد بدأت من ربيع الأوّل من سنة ٤٩١ هـ الموافق مارس ١٠٩٨ م وانتهت في شعبان سنة ٦٩٠ هـ الموافق أغسطس من سنة ١٢٩١ م. انظر في ذلك: سعيد عاشور. الحركة الصليبية. ٢ مج. - القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦ م. - ٢: ١١٢٦.
- (٨) انظر: نجيب العقيلي. المستشرقون. - مرجع سابق. - ١: ٧.
- (٩) ويسمّى علم الإسناد أو علم الجرح والتعديل.
- (١٠) انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق. - المرجع السابق. - ص ١١٠.
- (١١) إدوارد إبراهيم وديع سعيد (١٩٣٥ م - ٢٠٠٣ م)، أستاذ أمريكي من أصل فلسطيني، درّس في جامعة كولومبيا بنيويورك. وله كتابات متعدّدة حول نظرة الغرب إلى الإسلام، منها «تغطية الإسلام» [وكان الأوّل أن يُترجم «جَبُّ الإسلام»] و«فهم الإسلام» وغيرها، وهو عضو في المجلس الوطني الفلسطيني. ويذكر أنه أقام في القدس، وواصل نشاطه الصحفي في المجال نفسه حتى وفاته. لاقى كتابه «الاستشراق» ردود فعل شديدة على المستويين العربي والغربي.

(١٢) انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق. - المرجع السابق. - ص ٧٦ - ٧٧.

(١٣) انظر: عبد الجليل شليبي. صور استشراقية. - القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٦ هـ - ص ٣٠.

(١٤) انظر: صلاح الدين المنجد. الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله - الهلال - مج ٨٢، ع ١١، ١٠ / ١٣٩٤ هـ /

١١ / ١٩٧٤ م). ص ٢٢ - ٢٧.

(١٥) في تصنيف الاستشراق إلى مدارس انظر: ساسي سالم الحاج. نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية. - ٢ ج. بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٢ م - ١: ١١٩ - ١٩٦.

(١٦) في مناقشة فئات المستشرقين انظر: عباس محمود العقاد. ما يقال عن الإسلام. - القاهرة: دار الهلال، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م. - ص ٩ - ١٨. (سلسلة كتاب الهلال؛ ١٨٩). وانظر أيضاً: محمد عبد الفتاح عليان. أضواء على الاستشراق. - مرجع سابق - ص ٥٣ - ٥٧.

(١٧) انظر: في مناقشة أهداف المستشرقين وأغراضهم: علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق في الأدبيات العربية: عرض للنظرات ورصد وراقي للمكتوب - مرجع سابق - ص ٤٣ - ٥٨. وانظر للمؤلف أيضاً: كُنه الاستشراق - مرجع سابق - ٢٧٧ ص.

(١٨) انظر: أحمد سميلوفتش. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر - مرجع سابق - ص ١٠٥.

(١٩) انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق - مرجع سابق - ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢٠) في أطوار الاستشراق انظر: أحمد سميلوفتش. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر - مرجع سابق - ص ٧٠ - ٨١.

(٢١) انظر: رودى بارت. الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية - مرجع سابق - ص ٥٧.

(٢٢) انظر: رودى بارت. الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية - المرجع السابق - ص ١٠٧.

(٢٣) انظر: محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - ط ٥ - بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣ م. ص ٤١٥ - ٤٥٦.

(٢٤) البارون دي ساسي (١٧٥٨ - ١٨٩٢ م)، ويكتب أحياناً دو ساسي مستشرق فرنسي، انتخب رئيساً للجمعية الآسوية سنة ١٨٢٢ م. وألف في الدروز وعني بهم. ولقب البارون سنة ١٨١٣ م جزاءً لجهوده وخدماته. انظر: نجيب العقيلي. المستشرقون - مرجع سابق - ١: ١٦٢ - ١٦٥.

(٢٥) جيرجاس (١٨٣٥ - ١٨٨٧ م) تخرج باللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج، وانتقل إلى باريس وتعلم العربية على مستشاري فرنسا، وانتقل إلى مصر وسوريظ ولبنان وعاد إلى بطرسبرج ودرّس بها، وعُدد أول مؤسس للدراسات العربية الحديثة في روسيا. انظر: نجيب العقيلي. المستشرقون - مرجع سابق - ٣: ٧٤ - ٧٥.

(٢٦) ديمانج درس الاستشراق في فرنسا، وتلمذ على دي ساسي وغيره من المستشرقين الفرنسيين، وقع اختيار دي ساسي عليه مع شارومي لتدريس اللغات الشرقية في جامعة بطرسبرج بناء على رغبة إسكندر الأول. انظر: نجيب العقيلي - المستشرقون - مرجع سابق - ٣: ٦٩.

(٢٧) شارومي (١٧٩٣ - ١٨٥٥ م) رحل إلى باريس وتلمذ على دي ساسي وودي برسفال، وأرسل إلى فرنسا إلى جامعة بطرسبرج ليدرّس الفارسية بها. نال أوسمة عدة وله آثار في التاريخ. انظر: نجيب العقيلي - المستشرقون - مرجع سابق - ٣: ٦٩.

- (٢٨) انظر: ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية - مرجع سابق - ص ١٦٧ - ١٧٣.
- (٢٩) انظر: نعمان عبد الرزاق السامرائي. الفكر العربي والفكر الاستشراقي بين د. محمد أركون ود. إدوارد سعيد - الرياض: دار صبري، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، ص .
- (٣٠) انظر: صلاح الدين المنجد. المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية - ج ١ - بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٢ م. ص ٧ - ١٣.
- (٣١) إجناس جولدتسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) مستشرق مجري (هنجاري)، اتجه إلى دراسة العبرانية في بداية حياته العلمية، وتخرج في اللغات السامية، ثم اهتم باللغة العربية والإسلام، ونشر أبحاثه بالألمانية والإنجليزية والفرنسية. يذكرون عنه أنه أعطى الدراسات العربية والإسلامية قلباً جديداً. انظر: محمّد بن عبّود. الاستشراق والنخبة العربية. - المجلة التاريخية المغربية. - مج ٩، ع ٢٧ و ٢٨، (١٩٨٢ م). - ص ١٩٩ - ٢١٥.
- (٣٢) انظر في دوافع الاستشهادات المرجعية: حشمت علي قاسم. دراسات في علم المعلومات. القاهرة: دار غريب، (١٩٨٤ م) - ص ١١٧.
- (٣٣) في مناقشة الدوافع والأهداف لدى المستشرقين بعامة انظر: علي بن إبراهيم النملة، الاستشراق في الأدبيات العربية - مرجع سابق - ص ٣٣ - ٥٨.
- (٣٤) انظر: إبراهيم اللبّان، المستشرقون والإسلام - القاهرة الأزهر، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م - ص ٣٦ - ٣٧، (ملحق مجلّة الأزهر).
- (٣٥) في متابعة ما كتبه مونتجمري وات عن النبي صلى الله عليه وآله يجد المرء هناتٍ يصعب وقوع باحثٍ منصفٍ فيها. ومن أقرّبها إلى ضرب المثال قوله عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يصعد إلى غار حراء ليتبرّد من حرّ مكّة، إذ لم يتمكّن لفقره من الصعود إلى الطائف للاصطياف! كما كانت بفعل أغنياء قريش. والناظر في مصادر سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله أنه كان يصعد إلى الغار للتأمل لا للاصطياف. انظر: مونتجمري وات. محمّد في مكّة. - كراتشي: جامعة أكسفورد، ١٩٧٩ م - ص ٤٤.
- W.Montgomery Watt. Muhammad At Mecca Karachi: Oxford Univesity Press, ١٩٧٩, p.٤٤
- (٣٦) انظر: عبد الجليل شلبي. صور استشراقية. - المرجع السابق. - ص ٢٧.
- (٣٧) انظر: عبد الجليل شلبي. صور استشراقية. - المرجع السابق. - ص ٢٨.
- (٣٨) انظر: عبد الملك بن هشام الماعفري. السيرة النبوية لابن هشام - ج ٤، مج ٢ - القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د. ت. - ٤: ٢٢٢، وانظر أيضاً: محمّد بن عبد الوهّاب وعبد الله بن محمّد بن عبد الوهّاب. مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وآله. - الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت. - ص ٤٦٤.
- (٣٩) انظر: قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. - مرجع سابق. - ص ٦٩.

- (٤٠) انظر: إبراهيم اللّبان. المستشرقون والإسلام. - المرجع السابق. - ص ٣٦.
- (٤١) انظر: إبراهيم اللّبان. المستشرقون والإسلام. - المرجع السابق. - ص ٣٦.
- (٤٢) انظر: محمّد بن عبود. منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي. - في مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. ٢ مج. - الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م. - ١: ٣٦٤.
- (٤٣) انظر: عبد الحميد متوّلي. الإسلام وموقف علماء المستشرقين، أنّهمهم الشريعة بالجمود وعلماءها الأقدمين بالتأثر بالقانون الروماني. جدة: شركة مكتبات عكاظ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. - ص ١٢.
- (٤٤) انظر: إدوارد سعيد. الاستشراق - مرجع سابق - ص ٧٦ - ٧٧.
- (٤٥) كريستيان سنوك هورخرونية (١٨٧٥ - ١٩٣٦ م) مستشرق هولندي، رحل إلى جاوة وخدم حكومته فيها، يذكر أنه أسلم، وتسمّى بعد الفغار، ودخل مكّة المكرّمة، وأقام فيه ستة أشهر خرج منها بكتاب عن الحج. ويناقش قاسم السامرائي مسألة إسلامه في: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية - المرجع سابق - ص ١١٠ - ١٣٧.
- (٤٦) الأب لوي ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢ م) مستشرق فرنسي وأستاذ في الدراسات العربية والإسلامية، تتلمذ عليه جملة من المستشرقين، واستعان به كثير من مراكز الاستشراق العالمية كالمدرسة الروسية، اهتم كثيراً بالتصوّف والمتصوّفة كالحلاج وابن سبعين. درّس في مصر، وأدار مجلّة العالم الإسلامي التي تحوّلت إلى مجلّة الدراسات الإسلامية. انظر: محمود بدوي. موسوعة المستشرقين - مرجع سابق - ص ٣٦٣ - ٣٧٠.
- (٤٧) كارل بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني، تخرّج في اللغات السامية، وكتب في الآداب العربية والتاريخ الإسلامي. ومن أشهر آثاره تاريخ الأدب العربي وتاريخ الشعوب الإسلامية. انظر: نجيب العقيقي. المستشرقون - مرجع سابق - ٢: ٤٢٤ - ٤٣٠.
- (٤٨) الأب هنري لامانس (١٨٦٢ - ١٩٣٧ م) مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي شديد التعصّب ضدّ الإسلام. وقد تعلّم في الكلية اليسوعية ببيروت، ودرس بها. رأس تحرير مجلّة المشرق ومجلّة تصيرية أخرى اسمها البشير، وكتب في السيرة والخلافة الأموية. انظر: عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين - مرجع سابق - ص ٣٤٧ - ٣٤٩.
- (٤٩) انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين - مرجع السابق - ص ٣٤٨ - ٣٤٩.
- (٥٠) انظر: عبد العظيم محمود الديب. المستشرقون والتراث - المحرّق: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م - ص ٤٥.
- (٥١) انظر: علي بن إبراهيم النملة، أعمال المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين. مجلّة جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية. ع ٧، (٤/ ١٤١٣ هـ - ١٠/ ١٩٩٢ م). - ص ٥١٩ - ٥٦٤. ومجمل المعلومات في هذه الوقفة مستقاة من هذا المرجع ومرجع آخر للمؤلف تحت عنوان: مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: استقراء للمواقف. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م. - ٥٦ ص، وهما يؤلّفان الفصلين الأول والثالث من هذا الكتاب.
- (٥٢) جورج سبيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦ م) مستشرق إنجليزي، اهتم بالإسلام وترجم معاني القرآن الكريم ترجمة متقدمة ما أتى بعدها يعدّ عالمة عليها، وقد قدّم لها بمقدمة ضافية «حشاشا بالإفك واللغو والتجريح» كما يذكر نجيب العقيقي في:

المستشرقون. - ٢: ٤٧.

(٥٣) انظر: أ. ج. آربري. المستشرقون البريطانيون / تعريب محمد الدسوقي النويهي. - لندن: وليام كولينز، ١٩٤٦ م. - ص ٤.

(٥٤) انظر: محمد أحمد دياب. أضواء على الاستشراق والمستشرقين، القاهرة: دار المنار، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م - ص ٥٢.

(٥٥) انظر: عدنان محمد وزان. الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر. - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. - ص ١٦١ - ١٩٥. (سلسلة دعوة الحق؛ ٢٤).

(٥٦) انظر: محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. - ط ٢ - القاهرة: دار المنار، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م. - ص ١٥٥ - ١٦٤.

(٥٧) فيليب خوري حتي (١٨٨٦ - ١٩٧٨ م) مستشرق أمريكي من أصل عربي لبناني، تخرّج في الجامعة الأمريكية بيروت، وأنهى دراسته العليا من كولومبيا بنيويورك، ودرّس في برنستون وهارفارد والجامعة الأمريكية ببيروت، ألّف أكثر من ٢٥ عملاً بالعربية والإنجليزية، و ٥٠٠ دراسة عن الشرق العربي، انظر: نجيب العقيقي. المستشرقون. - مرجع سابق. - ٣: ١٤٨ - ١٥١.

(٥٨) انظر العمل الذي قام به عبد الكريم علي الباز بعنوان: افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي. - جدّة: تهامة، ١٤٠٣ هـ ص ١٧٤. (سلسلة رسائل جامعية؛ ١٦). والعمل الآخر الذي قام به شوقي أبو خليل بعنوان: موضوعية فيليب حتي في كتابة تاريخ الرعب المطوّل. - دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م. - ص ٢٢٠.

(٥٩) درس مازن صلاح المطبقاني المستشرق الأمريكي المعاصر بنارد لويس في رسالة لنيل درجة الدكتوراة في الاستشراق من كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمدينة النبوية، ونشرت الدراسة عن مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض سنة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م، وجاءت في ٦١٤ ص، كما خرجت دراسات عن مستشرقين آخرين من كلية الشريعة وكلية أصول الدين من الجامعة المذكورة، وغيرها من الدراسات، ودرس الجيلي محمد يوسف الكبشاني المستشرق بولند ألن نيكلسون ومفترياته على الإسلام في رسالة لنيل درجة الدكتوراه في المذاهب المعاصرة من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٧ هـ، ودرس محمود حمزة عزولي كتاب الدعوة إلى الإسلام لتوماس ووكر آرنولد في رسالة لنيل درجة الماجستير في الدعوة والاحتساب من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة النبوية (كلية الدعوة) بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥.

(٦٠) انظر: غيثان علي جريس. افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية - أبها: نادي أبها الثقافي والأدبي، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م - ٨١ ص.

(٦١) ظهر الكتاب في مجلدين، وأعقبهما المؤلف بلحقين كبيرين باللغة الألمانية، وقد ترجم هذا العمل إلى اللغة العربية على يد الأستاذة عبد الحليم النجار والسيد يعقوب بكر ورمضان عبد التوّاب، ونشرته دار المعارف بمصر بين سنة ١٩٧٧ وسنة ١٩٨٣ م.

- (٦٢) ترجمة إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، وظهر سنة ١٩٤٨ م، وتوالت طبعاته إلى أن وصلت إلى الثامنة التي أظهرتها دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٧٩ م.
- (٦٣) انظر: نجيب العقيقي. المستشرقون. - مرجع سابق. - ١: ٨٣.
- (٦٤) وقد نظم المستشرق يوسف فون هامر - بورجستال أبياتاً أورد شيئاً منها صلاح الدين المنجد في: المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية. - مرجع سابق. - ص ٢٧ - ٣٨، وهي ترجمة للأصل الألماني نقلتها إلى العربية آنا ماري شمل.
- (٦٥) انظر: محمود محمد شاكر. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. - مرجع سابق. - ص ٢٥٩.
- (٦٦) انظر: محمود محمد شاكر. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. - مرجع سابق. - ص ٢٥٩.
- (٦٧) رفاعه رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) تخرج في الجامع الأزهر، وبعد شيخ المترجمين المصريين، تعلم الفرنسية في ديارها وأسهم بالترجمة عنها، ووصف رحلته إليها في كتابه تخلص الإبريز في تلخيص باريز، وله آثار غيره، انظر: الموسوعة العربية الميسرة / بإشراف محمد شفيق غربال. - القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٥ م. - ص ٨٧٣.
- (٦٨) انظر: رفاعه بك بدوي رافع الطهطاوي. تخلص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس. - بيروت: دار ابن زيدون، د. ت. - ٣٣٥ ص.
- (٦٩) انظر: محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا. - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م. - ص ٢٣٦. - (سلسلة عالم المعرفة: ١٦٧).
- (٧٠) الحريري، أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحريري، ولد بقرية المشان من أعمال البصرة، واشتهر بالمقامات، توفي بالبصرة سنة ٥١٦ هـ وعمره سبعون عاماً، انظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. سير أعلام النبلاء. - ٢٣ مج. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م. - ١٩: ٤٦٠ - ٤٦٥.
- (٧١) ابن مالك، محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجبائي الشافعي، إمام النحاة وحافظ اللغة، ولد سنة ٦٠٠ هـ ببيان بالأندلس، وانتقل إلى دمشق وبها عاش، وقد وصلت أعماله إلى الثلاثين مصنفاً، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢ هـ، انظر: محمد عبد العزيز النجار. ضياء السالك إلى أوضح المسالك. - ٤ مج. - القاهرة، مطبعة الفجالة، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م. - ١: ٢٠.
- (٧٢) فرانز روزنتال مستشرق أمريكي، من أساتذة جامعة ييل. وقد تناول العلاقات الثقافية اليهودية والإسلامية، وأثر الفلسفة اليونانية في العالم الإسلامي، وكتب في مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. انظر: ساسي سالم الحاج. - نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية. - مرجع سابق. - ١: ١٥٦. وانظر أيضاً: نجيب العقيقي. المستشرقون. - مرجع سابق. - ٣: ١٦٢ - ١٦٣.
- (٧٣) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨) يعدُّ من أبرز علماء المسلمين في جميع العصور عمل في التدريس، وتنقل إلى بلاد كثيرة، اشتهر بمقدمة كتابه في التاريخ (العبر...) التي أرست مبادئ علم الاجتماع. انظر: على عبد الواحد وافي. عبد الرحمن بن خلدون. - القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢ م. - (سلسلة أعلام العرب: ٤).

(٧٤) إدوارد سعيد. الاستشراق. مرجع سابق. - ص ٢٠، بالإنجليزية، طبعة لندن نقلاً عن: عدنان محمد وزّان. الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر. - مرجع سابق. - ص ١٢٩. ولم أعرّ عليه في الترجمة العربية والنسخة الانجليزية التي بين يديّ ورجعت إلى نجيب العقيقي. المستشرقون. - مرجع سابق. - ٣: ١٦٢ - ١٦٣، فلم أجد العقيقي يذكر أنّ روزنثال قد ترجم مقدّمة ابن خلدون. على أنه قد يكون ترجمها بعد ترجمة العقيقي له، فهي موجودة في المراجع التي لحقت العقيقي، وقد ظهرت في ثلاثة مجلّدات.

(٧٥) من الآية الكريمة: قال تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت].

(٧٦) في علم مصطلح الحديث تفريع لأنواع الحديث الشريف من حيث المتن ومن حيث السند من الصحيح والحسن والمرسل والمتواتر والآحاد والمتصل والضعيف والموضوع وغيرها من التفريعات التي تبين مدى اهتمامنا نحن المسلمين بالتوثيق والوصول إلى الثابت مما ينسب للمصطفى صلى الله عليه وآله.

(٧٧) وهذا الأمر منسوب إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى في قوله: «ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا يؤخذ من قوله ويرك إلا النبي صلى الله عليه وآله، وقد أثرت هذه العبارة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وأخذها عنه مجاهد - رحمه الله - وأخذها عن مجاهد مالك بن أنس - رحمه الله، وأخذها عن مالك أحمد بن حنبل - رحمه الله.. انظر في هذا: محمد ناصر الدين الألباني، صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله من التكبير إلى التسليم كأنك تراها. - ط ١٣ - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م - ص ٢٦ و ٢٧.

(٧٨) انظر: محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. - مرجع سابق - ص ٥٩، وانظر أيضاً: الملحقية الثقافية بسفارة المملكة العربية السعودية بواشنطن. دليل الدراسات العربية والإسلامية والشرق أوسطية بالجامعات الأمريكية. - ط ٢ - واشنطن: الملحقية ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م - ص ٢٧٩.

(٧٩) انظر: رودى بارت. الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية - مرجع سابق - ص ١٠.

(٨٠) انظر: رودى بارت. الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية - مرجع سابق - ص ١٠.

(٨١) انظر: عدنان محمد وزّان. الاستشراق والمستشرقون. وجهة نظر - مرجع سابق - ص ١١٩ - ١٣٨.

(٨٢) يقول ابن كثير في تفسير القرآن العظيم: «... فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير - رحمه الله تعالى - حيث قال: ثنا محمد بن بشر، ثنا يحيى بن سعيد، ثنا سفيان حدثني عبد الأعلى وهو ابن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار». انظر: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، الحفاظ عماد الدين، أبو الفداء. تفسير القرآن العظيم - ٤ مج - بيروت، دار المعرفة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م - ١: ٥.

(٨٣) انظر: محمد حسين الصغير. المستشرقون والدراسات القرآنية. - بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م - ص ١٣٥.

(٨٤) مايكل أنجلو جويدي (١٨٨٦ - ١٩٤٦ م) مستشرق إيطالي، وهو ابن علامة المستشرقين إغناطيوس جويدي (١٨٤٤ - ١٩٣٥ م)، تعلّم العربية ودرس في إيطاليا ومصر، أكب على كتابة تاريخ العرب، إلا أنه توفي قبل إكماله،

- وقد صدر الجزء الأول منه سنة ١٩٥١ م، وينتهي بوفاة الرسول محمد صلى الله عليه وآله، انظر: نجيب العقيقي - المستشرقون - مرجع سابق - ١: ٤٤١ - ٤٤٢.
- (٨٥) انظر: نذير حمدان. الرسول صلى الله عليه وآله في كتابات المستشرقين. ط ٢ - جدة: دار المنارة، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م - ص ٣٢.
- (٨٦) انظر: محمد أسد. الإسلام على مفترق الطرق / ترجمة عمر فروخ - بيروت، دار العلم للملايين - ١٩٧٤ - ص ٥٣.
- (٨٧) انظر: أبو الحسن علي الحسيني الندوي. الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين: تقييم لكتابات المستشرقين، واستعراض لبحوث المؤلفين، المسلمين في الموضوعات الإسلامية - ط ٣ - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م - ص ١٦.
- (٨٨) جاستون فييت (١٨٨٧ - ١٩٧١ م) مستشرق فرنسي تخرج باللغة العربية الفصحى، وأجاد بعض اللهجات العربية المحلية واللغة الفارسية والتركية، وكتب كثيراً عن مصر الحاضرة، وترجم لبعض أدبائها المعاصرين. انظر: نجيب العقيقي. المستشرقون - مرجع سابق - ١: ٢٧٦ - ٢٨٠.
- (٨٩) انظر: حسين مؤنس. كتاب مجد الإسلام لجاستون فييت. - في: محمد البهي. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - مرجع سابق - ص ٤٥٧ - ٤٧١.
- (٩٠) انظر: عبد الجليل شلبي. صور استشراقية - مرجع سابق - ص ١٠١ - ٢١٦.
- (٩١) إدوارد وليم لين (١٨٠١ - ١٨٧٦ م) مستشرق إنجليزي نبغ في الرياضيات، وألم بالعربية، ودرس حضارة قدماء المصريين، وقصد مصر، وألف كتابه بإنجلترا، وترجم كتاب ألف ليلة وليلة. انظر: نجيب العقيقي. المستشرقون - مرجع سابق - ٢: ٥٤ - ٥٥.
- (٩٢) انظر: عدلي طاهر نور، المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم، تأليف المستشرق الانجليزي إدوارد وليم لين - ١. الرسالة - مج ٩، ع ٤٢٤ (٢٥ / ٧ / ١٣٦٠ هـ - ١٨ / ٨ / ١٩٤١ م) - ص ١٠٤٢ - ١٠٤٥، إلى مج ١١، ع ٥٠٦ (٩ / ٣ / ١٣٦٢ هـ - ١٥ / ٣ / ١٩٤٣ م). ص ٢٥٣ - ٢٥٦.
- (٩٣) انظر: علي بن إبراهيم التملة. أعمال المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين - مرجع سابق - ص ٥٥٩ - ٥٦٤.

قراءة تحليلية في كتاب الشر السائل (العيش مع اللا بديل)

الشيخ عبد الهادي الدراجي
باحث وأستاذ / حوزة النجف الأشرف

كتاب يبحث عن سيولوجيا العمى الاخلاقي الذي يعتري الانسان والمجتمع خصوصا مع استغلال الانسان سياسا واستخدامه كسلعة من سلع الانتاج السياسي والاقتصادي ، الكتاب هو عبارة عن حوار معرفي ثري جمع بين زيجمونت وليونيداس لكشف حقيقة الشرور السائلة باعتبار ان العيش في هذا العالم وهذا العصر الذي نحن فيه تتسم ظواهره بالسهولة ومن هنا يأتي عنوان الشر السائل

هو كتاب مشترك ما بين الكاتب البولندي زيجمونت باومان عالم الاجتماع وبين الفيلسوف والسياسي ليونيداس دونسكيس الليتواني ، كتاب جديد يعالج مشكلات العصر الاجتماعية والفكرية والفلسفية والاهم من ذلك التعقيدات السياسية وصراعاتها العنيفة الدائرة في العالم وبالتالي فهو ليس كتابا في لاهوت الشر او دراسة الشياطين بحسب تعبير الدكتورة هبة رؤوف مُقدِّمة الكتاب وانما هو

الاهتمام بالأمن " مع انها تُستخدم اساسا لأغراض بعيدة الى حد ما من اهتمامات بالسلامة والامان [راجع ص ١٤] من نفس الكتاب .

ومن هنا يرى زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس في مقدمتهما عن الكتاب بانه في اغلب واكثر الحالات يظهر الشر وباستطاعته الظهور على انه صديقا حميما لا شيطانا مريدا وهو من القوى الناعمة التي تستطيع السير في حركة الاغواء بدلا من حركة الاكراه كاستراتيجية مرسومة واساسية في معتنقي فكرة الشرور ويضربان مثالا متقنا وهو بنوك المعلومات التي تتجاوز سعتها وظيفتها اجهزة الاستخبارات بملايين المرات ، فأى توظيف للشر السائل اقوى من هذا التوظيف !!! يقول زيجمونت وليونيداس :

في عدد كبير من المجالات يستطيع الشر السائل ان يظهر باعتباره صديقا معينا ، لا شيطانا مريدا ، فهو احدى القوى الناعمة التي تُوظف الاغواء بدلا من الاكراه كاستراتيجية اساسية ، كما في حالة المراقبة المعاصرة المتنوعة القائمة على

فالكاتبان يبحثان ويساهمان في بحثهما استجلاء وبيان طبيعة هذه السيوالة للشر والتي تؤدي في نهاية المطاف الى شرور محضة بمعنى خروج الشر من حيز انه فعل مدان الى النظر الى الكون والحياة ومن هنا تظهر لنا محظية الشرور التي لا تتعلق بفعل شرى واحد وانما تتعدى لتصل الى مسرح الحياة والكون معا وعلى حد تعبير الدكتور هبة رءوف ان الكتاب يستمد رؤيته من خلال ما يثيره السؤال التالي : وهو كيف يمكن اجتناب حرب الجميع ضد الجميع اذا كانت الفضيلة مجرد قناع لحب النفس ، واذا كان لا يمكن الوثوق باي احد ، واذا كان المرء لا يستطيع ان يعتمد الا على نفسه ، وهذا هو اول سؤال للحدائثة بكل تأكيد ثم تضيف : تلك الحضارة الغربية التي شرعت لأول مرة في التاريخ في تأسيس تقدمها على " الارتباب " المنهجي والخوف من الموت والاعتقاد بان الحب والعطاء فعالان مستحيلان وواقع الامر ان الاتجاه الى اخفاء النعمة في صورة النعمة هو السمة الاساسية المميزة لتكنولوجيا غسل الدماغ في الوقت الراهن تلك التكنولوجيا التي ترتدي عباءة "

ماتشير اليه مقدمة الكاتبان في حوارهما الشيق عن الشرور السائلة التي تعتري المجتمع الاوربي شرقا وغربا وجنوبا ووسطا مستظهرين بذلك كل الشرور التي غزت العالم الانساني منذ الحريين العالميتين مروراً بما جرى على الاتحاد السوفياتي والحروب المعاصرة وكذا حروب الاعلام والسوشيال ميديا فكل ذلك يظهر بصورة الشرور السائلة وان كان البعض منها كالفيس بوك وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي تظهر بصورة الصديق الحميم الذي يريد ان ينفعك لكنه يستبطن شراً سائلاً يحمله معه كلما احتاج الى معلومة منك ومن المجتمع .

تظهر صورة الكتاب بأربعة فصول ومقدمة تعريفية عن الشر السائل وفكرة الابدال ففي المقدمة التعريفية عنه يرى ليونيداس : اننا نعيش في عالم بلا بديل عالمٌ يفترض واقعا وحيدا للجميع علي حد تعبيره عالم غريب الاطوار عالم يعتقد بان كل شئ له بديل بما في ذلك الحكومات الناجحة او الفكر العميق او المشاريع الهندسية او التجارية ويرى ليونيداس دونسكيس بان هذا طوفان من المعتقدات

بناء بنوك معلومات تتجاوز سعتها ملايين المرات التي لم يكن بإمكان اجهزة الاستخبارات السرية في الماضي الحديث الصلب الا ان تحلم بها هذا بشرط امتلاكها سعة الخيال ، فهي تفيد من معلومات يقدمها على مدار سبعة ايام في الاسبوع طواعية او من دون علم ، مستخدموا اجهزة الهاتف النقال وبطاقات الائتمان ، ومرسلو الرسائل ومستقبلوها عبر اجهزة الكمبيوتر ، فليس هناك من حاجة الان الى وزارة المحبة التي صورها جورج اوريل في روايته ١٩٨٤ من اجل ارغام الناس على الاعتقاد بان الحرب هي السلام ، وان الاكراه هو الرعاية الحنونة والعون الودود [راجع ص ٢٠ من الكتاب] .

فالشر السائل له القدرة الرهيبة مثل كل السوائل الاخرى في الالتفاف على العوائق التي تظهر له او تعيق طريقه في الوصول الى مبتغاه فالشر السائل حاله كحال تلك السوائل التي تُرطب العوائق وتنقعها عند اعتراضها له وغالبا ما تكون السوائل هي المنتصرة في نهاية المطاف على تلكم العوائق المعترضة ، والشرور السائلة هي على هذا النحو تماما وهذا

واقعيان وبينهما تصارع على الدوام وهذه هي المعركة بين المسيحية والمانوية فكرا واعتقادا ، وهنا يسال ليونيداس في مقدمته عن الشر السائل عن مدى اهمية الرؤية المانوية في عالمنا اليوم وهل هي متحققة بصياغاتها المحدثثة والجديدة ام لا ؟

ويجب ليونيداس عن ذلك من خلال استشهاده بمفكرين اعتنقوا فكرة المانوية حينما لاحظوا حجم الدمار الفظيع الذي شهده القرن العشرين الامر الذي استدعى الى استحضار فكرة المانوية من خلال ما كتبه ميخائيل بولجاكوف في روايته " المعلم ومارجاريتا" والتي تم نشرها بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٨٤ وكل عمل تلك الرواية نابع من عمل يموج بروح العقيدة المانوية يقول ليونيداس معلقا عن المانوية الحديثة ومعتنقيها الجدد [فالرواية تحتوي على اشارات عدة لمفاهيم " النور " و " الظلام " التي صاغها النبي الفارسي ومهندس هذه المنظومة العقدية التي اشتق اسمها من اسمه وتفسير الشر في هذه الرواية التي ولدت في شرق اوربا في القرن العشرين هو تفسير يؤكد ان الشر يتمتع بالكفاية الذاتية]

القدرية والحتمية تتخلله كثير من الرؤى والتحليلات المخيفة والمروعة حول نهاية العالم بحيث لا يوجد بديل للمنطق السياسي المعاصر ولا بديل ايضا للاستبداد الاقتصادي ولا للعلم والتكنولوجيا فكله خاضع للقدرية والحتمية فلا اعتقاد عنده بان الشر امرا عابرا وانه لا يهزم رافة الانسان بل له القدرة على الهزيمة ومعه لا يكون هناك مجالا للتفاؤل على هذه الشاكلة من الاعتقاد ويذهب ليونيداس بان المعتقدين حول التشاؤم : على انه هو الكائن الاكثر ابداعا ونبلا وسموا من المتفائل ليس هو مجرد اثر من اثار رؤية العالم والحساسية الحديثة الرومانتيكية بل هو اكثر من ذلك بكثير [ص ٢٣] من الكتاب .

المانوية الحديثة :

وتلك النظرة عن القدرية والحتمية تعود بنا الى الديانة المانوية كما يقول ليونيداس والصراع الكبير الذي وقع بينها وبين المسيحية كديانة ، فالمسيحية ترى الشر معصية ونقيصة يمكن التغلب عليها بينما ترى المانوية الخير والشر امران

كتاب الشر السائل ص ٢٤ .

وعلى كل حال فان استحضر المانوية كعقيدة في الفكر الغربي جاء ايضا على لسان الشاعر "تشيسلاف ميلوش" والذي اعتبر نفسه من انصار المانوية وذلك بسبب ملاقاته لشرور القرن العشرين كما يذكر ليونيداس ، وكذا ظهرت المانوية بصورة سرية لدى الفيلسوفة الفرنسية "سيمون فايل" بحيث انها كما يقول فيلسوفنا الذي نتحدث عنه اضفت معنى من معاني الالفية على عبارة "ليات ملكوتك" في الصلاة الربانية ، ويسترسل ليونيداس مستشهدا بتدريس ميلوش الشاعر في جامعة كاليفورنيا وخصوصا في كتابه [ABC] والذي يحدد فيه فصلا افتتاحيا عن الشر والشرور في القرن العشرين من خلال قصة حركة البوجميل [Bogomils] والتي هي الغنوصية في بلغاريا وغيرها من حركات الغنوصية الاخرى كحركة الكاثار الغنوصية في مدينة فيرونا وغيرها من المدن الايطالية ، فكل هؤلاء من عظماء الشرق الاوربي كانوا مانويي المعتقد بحسب عبارة ليونيداس ، ما يعني ان شرور القرن العشرين والفضائع التي برزت فيه استدعت

تفسيرا خطيرا لفكرة الاله بل ربما زاد من ذلك عدم الايمان الى حد كبير بان الله قدير وبان الله محبة نتيجة تلك الممارسات البشعة التي حصلت في المجتمع الاوربي ابان ذلك القرن ، وعليه يقع السؤال التالي ماذا يعني مفهوم الشر السائل ؟؟؟
الشر السائل "معناه" :

يتساءل ليونيداس عن معنى الشر السائل وكيفية فهمه على احسن وجه خصوصا مع كثرة وتعدد وتالف الظواهر المتعارضة فهو يرى ان الشر السائل يرتدي ثوبين ، ثوب الخير ، وثوب الحب بعكس الشر الصلب الذي يقوم وفق الرؤية الاجتماعية التي ترى الامور من خلال اللونين الابيض والاسود ناضرين الى سهولة التفريق بين الشر السائل والصلب من خلال الشرور المحيطة بنا في عالمنا الاجتماعي والسياسي وبعبارة ليونيداس [ان الشر السائل يستعرض نفسه كانه تقدم الحياة المحايد والمتجرد من الاهواء وكأنه السرعة غير المسبوقة للحياة والتغير الاجتماعي بما ينطوي عليه من نسيان وفقدان للذاكرة الاخلاقية كما ان الشر

وجميعنا يكشف عن نفسه من خلال بياناته على ان تكون جميع تلك البيانات متاحة للآخر فهي بعدُ لم تعد خافية على اجهزة الدولة الحساسة وهكذا يقوم الشر السائل الكامن في وسائل التواصل الاجتماعي باستحضار كامل خصوصيتنا امام مرأى ومسمع الجميع بلا حدود وقيود ، تلك الخصوصية التي كانت ينبغي ان تذهب معك الى قبرك ، وبعبارة فيلسوفنا لقد اختفت كلمة " السر " وصارت بضاعة معروضة للبيع وسلعة تجارية وكلمة مرور الى نجاح لحظي مؤقت .

وعلى سبيل المثال يستحظر ليونيداس ما للفيس بوك من خطر قاتل وشر مميت حيث يقول [ان الناس يذيعون بحفاوة حياتهم الحميمة في مقابل الظهور العابر في بؤرة الضوء ، وهذه الاحتفالات باستعراض الذات ليست ممكنة الا في عصر الاتصالات السريعة المتغيرة ، في عصر اغتراب غير مسبوق ... ثم يضيف اشارة مهمة مفادها : ان مثل الذين يعرضون انفسهم على صفحات الفيسبوك كممثل اصحاب المدونات الغارقين في النرجسية ، يُنْفَسون فيها عن ازماتهم

السائل يرتدي عباءة غياب البدائل وامتناعها ويصبح المواطن مستهلكا ويخفي الحياء القيمي حقيقة الانسحاب [كتاب الشر السائل ص ٢٥ .

ما يعني ان الحديث عن الشر وسيولته عند ليونيداس هو نوع من القدرية والحتمية والتشاؤمية التي تستدعي الخوف والهلع يقول " فعندما اتحدث عن سيولة الشر فانني اعني اننا نعيش في مجتمع تستحوذ عليه نزعات الحتمية والقدرية والتشاؤمية والخوف والهلع وهو مجتمع مازال يميل الى تمجيد انجازاته الديمقراطية الليبرالية العتيقة وان كانت قديمة وخادعة " انظر كتاب الشر السائل ص ٢٩ .

سيطرة التكنولوجيا والشبكات الاجتماعية وشروطها السائلة :

وفي بيان جميل مقتضب في حوار ليونيداس مع زيجمونت باومان يستعرض الشر السائل الكامن في داخل عصر التكنولوجيا والشبكات الاجتماعية التي تستدعي السيطرة والانفصال بحيث اصبحت رؤية الجميع ممكنة ومتاحة

خطر " وهكذا عناوين متعددة تحاكي واقع الخصوصية المخترق ، كل ذلك يرمز لفقدان السر في حياة الفرد والمجتمع الامر الذي يتيح التعرف على خصوصياتنا بسلاسة تامة ، فقد مضى عهد اجهزة الاستخبارات والشرطة السياسية التي كانت تستخدم الارغام كوسيلة لانتزاع بعض الخصوصيات الفردية وبعبارة ليونيداس على تلك الاجهزة الابتهاج الكبير الذي حققه مجتمع الفيسبوك ومواقع التواصل الاجتماعي لكشف الخصوصية التامة للفرد والمجتمع .

عولمة العالم واحباطات الليبرالية الجديدة في ظل غياب شبج البديل :

وبالانتقال الى الحوار الثاني مع زيجمونت باومان والذي يحاور ليونيداس دونسكيس في هذا الكتاب الثري بالابستيميا نجد حوارا من نوع اخر يمتد عبر عولمة العالم من خلال اراء زيجمونت والذي يرى فيه ان هناك شبجا قد خيم على اوربا وقد اسماه بشبج غياب البديل ولكن ظهوره الجديد هذه المرة كان على

واحباطاتهم ، ومنهم من يحاول التغلب مؤقتا على مشاعر العزلة وعدم الامان ، وبهذا المعنى فان الفيسبوك هو ابتكار ذكي ظهر اوانه ، فعندما لم يعد للناس طاقة بمشاهدة التلفزيون السيئ ولا قراءة الصحف السادية المازوخية ، ظهر الفيسبوك الى الوجود ولكن ظهر مع الفيسبوك امكانات الخطر القاتل والشر المميت والفيسبوك يجسد جوهر ظاهرة " افعل الامر بنفسك " تجرد من ملابسك وارنا اسرارك ، افعل ذلك بنفسك ، وبارادتك الحرة ، واسعد بما تفعل ، فعليك ان تفعلها بنفسك وانت تتعري يا عزيزي [كتاب الشر السائل ص ٣٢ .

من هنا يكمن الشر السائل في هذا العالم الفيسبوكي والذي بدا بخرق خصوصيتنا وهنا يتسائل ليونيداس ما الذي جرى لتلك الخصوصية التي تتمتع بها وبخاصة يضرب مثالا واضحا عن القلق المجتمعي في امريكا والذي بدا يشعر بازمة الخصوصية بحيث ان هناك كتبا الفت في هذا المضمون تحت عناوين "نهاية الخصوصية" و "استراق النظر" و "الجمهور العاري" و "لاملاذ" وكذا "الخصوصية في

ص ٣٨ .

من هنا يرى زيجومنت ان فكرة اللابديل في اوربا خلفت اثارا دائمة لم تحظ لا بالعمق ولا بالقوة بتقدير كاف ، يرى باومان ان اوربا السياسية والاقتصادية في تفكك دائم لشبكة مؤسساتها المنوطة بالدفاع عن ضحايا ذلك الاقتصاد القائم لحد كبير على الجشع وتحرير السوق هذا مضافا الى الظلم الاجتماعي الحاصل ازاء فكرة اللابديل بالاضافة الى الانقطاع التام بين النخب السياسية وتواصلها الدائم والمستمر مع عامة الناس حيث ان تلكم النخب السياسية عجزت في اوربا عن دورها كقيم امين على مصالح الناس ومن هنا تفقد الناس الاهتمام بالانتخابات والجدل السياسي على حد تعبير زيجومنت باومان وخلاصة فكرة الشر السائل وفكرة اللابديل يتلخص عند باومان وليونيداس ب :
لابدية الارتقاء بشبح البديل الغائب وفق معطيات العولمة الحالية لكن هذا الارتقاء يكمن في نقطة جوهرية وهو انهاء عصر " الشر الصلب " بمعنى محو امكانية [تداعي التكتلات المتكاملة عبر تجاوز الاقطار ومحو الحدود المحكمة الحصينة المنيعة

يد العولمة العالمية وهو يضرب لنا مثالا عن فكرة اللابديل من خلال سقوط جدار برلين والعولمة بعدها يقول زيجومنت [ان سقوط جدار برلين ، انما يؤكد من جديد على امتزاج اشباح محلية لفكرة اللابديل في شبح عولمي ... ثم يضيف قائلا : ان سقوط جدار برلين قد فتح اراضي كانت محظورة امام شبح الليبرالية الجديدة ، واوحى بفكرة نهاية التاريخ وانتشارها على طريقة فرانسيس فوكوياما ، وكان التنافس عبر القرون بين الاخوة الاشباح يتحول من حين لآخر الى حروب تُسفك فيها دماء الاخوة ، وقد وصل الى نهايته ، وهكذا فان المنتصر ، شبح الليبرالية الجديدة وجد نفسه وحيدا في كوكب الارض ، من دون تحد ومن دون اضطراب الى بذل جهد كبير في السيطرة على بدائله او احتوائها او تغييرها تلك البدائل التي لا تظهر بوضوح الا بغياها الوشيك وعلى الاقل هذا ما اعتقده انبياء الليبرالية الجديدة فكان على بوش الابن وجورج بوش الاب ومارغيت تاشر وتوني بليز ، ان يعرفوا خطأ اعتقادهم وفساده بطريقة صعبة بطريقة وحشية ومخزية ومهينة [كتاب الشر السائل

الكتاب مهم ومهم جدا يحتوي على اربعة فصول ، الاول منه يتحدث عن الاحتفاء بالنزعة غير الشخصية يختزلها ليونيداس دونسكيس بهذه العبارة المهمة وهي ان [تصدر المنافع العامة من الرذائل الخاصة مثلما يصدر الخير العام عن واقعتنا وعقلانيتنا وعيبننا ، فليس هناك من شيء يقيني واضح فالاحمق الطماع المجتهد قد يكون اكثر نفعاً للمجتمع من حكيم كسول وفي هذه الايام يمكننا ان نسمع بوضوح الصوت الباكر للحداثة وما تتسم به من ايهام واحتفاء بالنسبية وشك رافض للحقيقة المطلقة ثم يستشهد ليونيداس بمقولة سميث القائلة : ليس من خيرية الجزار ولا الخمار ولا الخباز نتوقع عشائنا ، ولكن من اهتمامهم بمصلحتهم الشخصية] كتاب الشر السائل ص ٨٠ .

اما باومان فيتحدث عن النزعة غير الشخصية بملاحظة الغموض والابهام واحطائنا بالشرور الدائمة السيالة حيث يقول [النزعة اللاشخصية والغموض والابهام وتدمير القطاع العام والعودة المنتشرة لما اسماه كارل ماركس الافقار وهذه هي قائمة الشرور التي اشترت لها في حديثك - يقصد

القادرة على حماية مبدا القطرية وانهاء الشر الصلب ... فاغلب الانواع المقيتة اللعينة للشر من الشرور الفتاكة بجسد الانسان ومرورا بالشرور المدمرة للاجتماع الانساني ووصولاً الى الشرور المدمرة لروح الانسان ، كل هذه الشرور لم يعد من الممكن احتوائها في اية حاوية فضلا عن احكام احتوائها انها تتدفق بحرية وتخرق بسهولة كل الحدود الطبيعية او الصناعية وعلى مدى السنوات الاخيرة التزم الشر ومازال يلتزم بهذه العادات والنزعات المائلة] . كتاب الشر السائل ص ٤٣ .

تلك هي فكرة الكتاب والمحاورة بين باومان من جهة وبين ليونيداس من جهة اخرى وقد اتفقا على ان تلكم الشرور السيالة مصدر قلق وازعاج ودمار للانسان وروحه على مستوى المادة والفكر والروح والسياسية والاقتصاد وكل ما يتعلق بالموضوعات الاجتماعية المختلفة والتطور العلمي والصناعي المكتشف فكل واحد من هذه المفاصل والقطاعات الاجتماعية تستبطن شرورا سائلة وان كانت تُبدي خيرا ظاهرا .

واضحاً عن الصراع الروسي الاوكراني والذي يحظى ولازال باهتمام الاتحاد الاوربي حيث يستشهد بفلم ذيل الكلب الذي يستدعي في فكرته استغلال القوة الطاغية للرأي العام وكذا الصورة الثقافية وتداعياتها السياسية والثقافية حيث يقول ليونيداس [ويولد الفلم انطباعاً مهماً بسبب تأكيد على شيء آخر وهو انه من الممكن فبركة حرب ما ، ومن الممكن تضليل الرأي العام واقناعه بان الحرب ضرورية ، بل ومرغوب فيها للغاية ، فما عليك الا ان تفعل ازمة وان تضحي ببضع عشرات الارواح البريئة سياسياً وان تزيد من احساس الناس بعدم الامان وعندئذ بين عشية وضحاها وفي لمح البصر سيرغب كل واحد من الناس في يدٍ مهيمنة ثابتة وفي لغة بلاغية خشنه بل وربما في شن الحرب] وهنا يرى ليونيداس ضرورة الرجوع الى رواية جورج اوريل ١٩٨٤ التي يرى فيها ان اغلب مفرداتها لها صلة بالواقع المعاصر بسبب ما يسميه هو [انزلاق روسيا الى التوحش والفاشية بسرعة وشدة مذهلتين ، فقد دارت في الرواية سلسلة من مشاهد التحقيق بين اوبراين وونستون

بالحديث ليونيداس - هي الشرور السائدة في اوربا ان لم تكن تسود الكوكب بأسره وهي تلازم عالماً مجرداً من بديل واقعي لنفسه وهذا لا يعني اننا قد توقفنا عن الشكوى من الحالة المؤسفة لامورنا الشخصية ، ان قلة منا يمكنها التعويل على الهروب من تهديد اللقاء المتكرر في عالم القسوة غير الانسانية المقززة لما يحيط بنا من نزعة لا شخصية وفقدان للاحساس وانعدام الشفقة] كتاب الشر السائل ص ٨٩ .

ويستعرض الكاتبان ماتعرضت له الدول الاوربية الشرقية من معاناة التقشف والاقتصاد الكسول وكذا في بقية المجتمعات الغربية . الشرقية التي تحكمها استراتيجية السيادة . الحكم ما يعني استمرارية الشرور السائلة التي نصنعها بايدينا وانا لموسعون في نشرها !!! ! !

اما الفصل الثالث من الكتاب فقد تناول هذه المسألة [من عالم فرانز كافكا الى عالم جورج اوريل الحرب هي السلام والسلام هو الحرب] وكمثال على هذه الحرب يضرب ليونيداس مثالا سياسياً

روسيا جزءا من واقع افتراضي مفتعل من اجل سياسات محلية تنفع روسيا .

وهكذا يستطرد الكاتبان مجموعة من الافكار السياسية المتصارعة في الشرق والغرب الاوربي وبقية مناطقه تستحق منا كمتابعين قراءتها ومعرفتها كي نعلم اين تكمن نقاط قوتنا اذا وجدت عندنا نقاط قوة فالشر السائل يكمن في كل داخل دولي سياسي وفكري ونفسي واجتماعي انه التمرد المطلق الذي يحكيه البير كامو حينما يقتبس من عبارة ديكارت الشكية انا افكر اذا انا موجود ليقول (انا اتمرد ، اذا انا موجود) .

وفي نهاية مطاف الاحتفاء بالنزعة غير الشخصية يختتم زيجونت باومان حديثه عن اللعبة السياسية من ان الشرق والغرب الاوربي يقعان في زمن فلكي واحد لا زمان تاريخي واحد ومن هنا تنقيد الحريات من خلال تلك المنافاة التاريخية تلك الحرية التي لا تعني فك القيود على تعبير مانديلا الذي ساورد النص الذي نقله باومان عنه وعن تلك المنافاة حيث يقول نيلسون مانديلا[عندما خرجت من السجن ، كانت تلك رسالتي ، احرر المضطهدين والمضطهدين ، ويقول البعض ان رسالتي قد

سميث ، وهي تشير ضمنا الى الشيوعيين والنازيين على انهم اسلاف اوقيانا الذين كانوا يدافعون عن ايديولوجيا ، ولكنهم سمحوا لضحاياهم بان يصبحوا شهداء ، هذه المشاهد تبدا الان افضل دعوة للاستيقاظ ، فالبوتينية دخلت مرحلة الحرب على الارهاب كما ان الاحاديث الجديدة للاخ الكبير وفعاليات " دقيقتي الكراهية (Tow minutes Hate) () " والبيادة العسكرية (jackboot التي تدوس وجوه البشر وتذلهم من اجل سلطة غير محدودة ، صارت واقعا معيشا [كتاب الشر السائل ص ٩٧ .

ويبدو من خلال النزعة اللاشخصية يرى باومان ان زمن توحيد الامة المفككة والشعارات القديمة بالنسبة لروسيا قد انتهى ، وهنا يرى ان ماساة روسيا كمثال على النزعة غير الشخصية في ان اهل روسيا قد وقعوا فريسة لخبراء الكرملين وكذا خبراء الدعاية والعلاقات العامة وقدرتهم على فرض الواقع الافتراضي والتلفزيوني الفوقي الذي يخفي بين طياته الواقع الحقيقي لجمهور روسيا مما جعل اوكرانيا كمثال على الصراع بينها وبين

الطموح يمكن معه تغيير المنطق السائد وهنا يسرد لنا ليونيداس قصة الثورة الهادئة التي وقعت في زمن نيكولا ميكيافيللي حيث يقول [وقعت منذ زمن نيكولا ميكيافيللي ثورة هادئة في الوعي الانساني والحس الانساني ، واذا كان معيار الحقيقة (بمعنى اتساق الامر مع الفكر) مازال حيا في العلم والفلسفة كما كان في اعمال القديس توما الاكوييني وغيره ، فانه لم يعد له من معنى في الحياة والسياسة العملية ولا بان السياسة في جوهرها هي مقام الفضيلة واخذ اشكال الحكمة ، والثورة الحديثة التي هندسها الفكر السياسي عند نيكولا ميكيافيللي انما تتجسد على افضل وجه في مفهوم الحقيقة الفعالة حيث تصبح الحقيقة ممارسة ، بل فعلا عمليا ، فالحقيقة في السياسة ينتجها الشخص الذي يولد الفعل ويحقق نتائجه ، ولا يحققها الشخص الذي لا يعرف ذلك الفعل ولا تلك النتائج ، ويوضحها وينقدها في ضوء الفضيلة ويفحصها في سياق معيارها القديم فالحقيقة نجاح ، والنجاح حقيقة] كتاب الشر السائل ص ١٢٥ .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار معيار الحقيقة

تحققت الان ، ولكنني اعلم ان هذا غير صحيح ، فالحقيقة هي اننا لسنا احرارا بعد ، فلم نحقق الا حرية الحرية ، لم نحقق الا الحق في امتناع القمع ، اننا لسنا نخطئ الخطوة الأخيرة في رحلتنا بل الخطوة الاولى على طريق هو اطول واصعب ، فالحرية ليست مجرد رفع للقيود والاغلال ، بل العيش بطريقة تحترم حرية الآخرين وتعززها فالاختبار الحقيقي لحريةنا مازال في بدايته [كتاب الشر السائل ص ١٢٣ .

وعود الحداثة واخفاقاتها

يستعرض زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس عدم وفاء الحداثة ويتسائلان اين هو وفاء الحداثة بالوعود الكبرى التي قطعتها على نفسها وخصوصا ونحن على اعتاب القرن الحادي والعشرين الذي اصبحت فيه السلطة الناجحة وممارستها اما على مستوى العنف او الاقتصاد الناجح الامر الذي معه يتم التخلي عن الحرية الفردية وكذا الحقوق المدنية وحقوق الانسان بل يتطور الامر الى ابعد من ذلك اذا لاحظنا عدم وجود شبكات اجتماعية ولا حتى تعليم بمستوى

ولا باختيار نشط للشرب بل بفقدان القوة والعجز عن الحفاظ عليها والمعاناة من الهزيمة فالقوة تلقى احتراماً واجلالاً واما العجز التام اوحتى الضعف فلا يستحق اهتماماً فلسفياً ولا تعاطفاً جذاباً ففي هذا النموذج لا يستحق التعاطف ولا الشفقة الا اهل السلطة ، ولكن اذا كان المرء في مجال السلطة فاما ان النصر ينتظره ، والا فالموت والاختفاء ، فالموت يمكن ان يكون نسياناً بسيطاً ، انهما الشيء نفسه [كتاب الشر السائل ص ١٢٦ .

ولذا على هذا النحو يمكن فهم ميتافيزيقيا الخيانة على انها خيبة من خيبات الامل في صداقات الشركاء القدامى في الجهاد والنضال علي حد تعبير ليونيداس وما اجمله من تعبير لديه حينما يقول :

[ففي عالم تسوده الروابط الانسانية المحطمة والوعود والكلمات المبالغ فيها ، لم تعد الخيانة مسالة صادمة ، فعندما يغيب الاخلاص عن مركز شخصيتنا ، ويختفي كقوة جامعة لهوية الانسان ، فان الخيانة تصبح فضيلة اللحظة ، فماذا يحدث للسياسة اذا ؟ انها تصبح ملاذاً لاناس

فان الناجح السياسي بحسب مايقول ليونيداس هو ذلك الذي يخلق الممارسة الدائمة ويحول افكاره الى افعال زائداً اضافة الشرعية لذلك الفعل اما الوسائل فليس لها اهمية تُذكر امام الحقائق وهذا لا يقدر بقانون الغاية تبرر الوسيلة لان الامر متعلق بفعل السياسي الحاذق الذي يحول ممارساته الى افعال ومن هنا تكون الحقيقة هي الذاكرة الوحيدة اما الفشل فمحكوم عليه بالموت على حد تعبيره .

يستخدم ليونيداس هنا مفهوم الطاغية كمثال على التلاعب بالقيم والمبادئ ، حينما يقوم الطاغية بتصفية خصومه فيصبح الاب المؤسس لامته اما الاستبداد الذي يفعله الآخرون ولا ينجحون به بنفس فعل الطاغية لكنه قد يكون استبداداً فاشلاً فانه محكوم عليه باحتقار العالم وهنا تنقلب المفاهيم فكل قوة نجحت في تنفيذ انقلاب ما او ثورة تسمى قوى بطولية بعكس التي تفشل فتسمى متامرة ومثيرة للاضطراب والفوضى كما حصل مؤخراً في تركيا ومن هنا يقول ليونيداس [فالعار والخزي لا يلتصقان برفض الفضيلة ولا بقبول الرذيلة

توجد في وقت الطفرات التي مررنا بها ، انها
اصبحت شيئا مختلفا اختلافا جذريا عما
تخيلناه واعتقدنا ورغبنا فيه [كتاب الشر
السائل ص ١٣٠ .

وبهذا النقد لسياسة اوربا يظهر نقد
الحدثة لليونيداس بل هو يشير الى نقطة
مهمة جدا وهي ان المسار السياسي القائم
والمتجذر الان معتمد اعتمادا رئيسيا على
الشعبوية التي ترسخت وبقوة في مسارات
الدول ويتسائل ليونيداس هنا هل ان
الشعبوية بهذه السيطرة هل هي مهمة
اهتمام حقيقي بخيرات الامم حينما يجري
الحديث عنها بصورة الوطنية ؟ ؟ ؟
ويجب هو بعدم الموافقة علي هذا الكلام
ذلك لان الشعبوية هي ترجمة قد اتقنت
جيذا وتحولت من الخاص الى العام مع
قدرتها على استغلال الخوف اتم استغلال
زائدا الكراهية فهما توام سيامي لا يتفارقان
على حد تعبيره ، نعم انه الخوف الذي
يشكل هاجس اوربا انه خوف من الاسلام
والمسلمين كنموذج وكذا الخوف من
المهاجرين والملحدين والرايكيالين
والمؤامرات العالمية وووو فاليمين المتطرف
الفرنسي كمثال يستخدم الشعبوية

يؤمنون بما اسماه اريك فروم من قبل "
الحقيقة المتقلبة" الظرفية ، انها تناسب
المغامرين والمجرمين والمحتالين ، والفائز
ياخذ كل شيء كما في امور عالمنا الذي
يزداد فيه التنافس والنزعة الادائية [كتاب
الشر السائل ص ١٢٧ .

تقييم الوضع الاوربي على ضوء تلك المعطيات :

من هنا يرى ليونيداس ان المثالية
المفرطة في الاغترار بالوضع الاوربي ليس
سوى صورة خيالية لتصوراتنا الخاطئة عن
الحرية والديمقراطية المتمثلة بها حيث
يتسائل هو [ماذا حدث لنا حتى تكون
جميع صور التمرد في الثورة في اوربا
الوسطى في جوهرها رومانيكية واستعادة
ومحافظة وغير عصرية وبسبب من
تصوراتنا المثالية لاوربا ، فاننا نقرن بين
اوربا والحرية والديمقراطية ، ونشكل بذلك
سياسات تحرنا باعتبارها عودة الى اوربا ،
لقد اعتقدنا لاسباب وجيهة بان النسخة
السوفياتية من الحدثة كانت ابشع نسخة ،
ولذا سعينا الى اوربا بدلا منها ، ولكن اوربا
التي كانت في مخيلتنا وتماهينا معها لم

النجاح والنجاح هو الحقيقة وان الفائز
فيهما يأخذ كل شيء ، لكن مع هذه
الموافقة والرأي السديد لليونيداس كما
يراها باومان لكنه يتساءل هل هذه الحقيقة
تخبرنا عن الحقيقة الكاملة فهو يراها
بالمطلق لا ، وتفسير ذلك بحسب باومان
هو ما يعتقد من [اننا بحاجة الى كشف
الافتراض الخفي الكامن فيما تقوله . ان "
الحقيقة " هي فكرة اقتتالية ، فكرة تنتمي
الى مفردات العداوة والاقتتال والتنافس
والنزاع والصراع ، ومتى وردت فكرة
الحقيقة في الخطاب ، فانها تشير الى
حضور المتنافسين والمتنازعين
والمتصارعين ، فالمعارضة التي يجسدونها
هي التي تستدعي او ربما تحتم ورودها ،
وفي حالة الموافقة العالمية غير المحتملة
ستكون فكرة الحقيقة لا اهمية لها ، ولو
كانت تلك الحالة الغريبة عالمية للابد لكان
ميلاد فكرة الحقيقة خارج طوق الفكر
والخيال [كتاب الشر السائل ص ١٣٢ .

ولهذا يرى باومان هذه المفارقة في
الحقيقة فهي وان كانت واحدة لكنها
تستبطن دليلا ضمنا على تعدديتها على
اعتبار ان مانقوله هنا من انه صحيح انما

كتحريض على الجاليات الاسلامية بعد
حادثة تشارلي ابيدو يقول ليونيداس [وكما
بين مارك ليلا في تحليله الدقيق لفرنسا
بعد تشارلي ابيدو فقد صارت رواية ميشال
ويلبك " استسلام " اداة قوية في ايدي
اليمن المتطرف بدلا من خدمة اهدافه
الاولية والاساسية باعتباره روائيا ساخرا
وسجاليا ومستغزا ونافيا لليوتوبيا حيث تصور
الرواية صعود رئيس عربي لفرنسا واستيلاء
المسلمين على الحكم عام ٢٠٢٢ بسبب
الهجرة ففي الرواية مجتمع الخوف ،
يخاطر الضحك بالتحول الى صيحة
حرب ، وتتجه الرواية الساخرة مثل كل
روايات الانذار الى التحول الى منشورات
سياسية قائمة من الخوف والكراهية ، لقد
تحولنا الى اوربا التي اعتقد انها لن تقبلنا
ابدا جزءا منها ، لقد اخذنا بكل مخاوفها
المرضية وتعميماتها النمطية التي تعمل
ضدنا في الماضي [كتاب الشر السائل ص
١٣٢ .

وعلى هذا الضوء من ذكر الحقائق
وانها هي النجاح لليونيداس يوافق
زيجمونت باومان صاحبه في تشخيصه
ورايه السديد هذا في قوله ان الحقيقة هي

فان الذاكرة الجمعية عند باومان هي ذاكرة انتقائية ضرورةً ولكن السؤال هنا من الذي يسيطر على ذلك الانتقاء ؟ ؟ الجواب عند باومان هو : ان المسيطر هم ساسة التاريخ الان او الطامحين ، من هنا يرى باومان ان الموضوع اكبر من مقولة " النجاح هو الحقيقة " باعتبار تلك الرؤية وهي ان النجاح السياسي معناه القدرة على تعديل الذاكرة التاريخية وهناك في الكتاب يذكر باومان امثلة على ذلك التعديل في الذاكرة التاريخية منها اعادة تسمية الشوارع والبيادين ، واعادة تاليف الكتب المدرسية كذلك استبدال الآثار العامة الامر الذي معه يكون نجاح السياسة وهو المطلوب عند قادة الانتقاء .

غزو العراق :

وفي مثال واضح وجلي للعبة سياسة التاريخ يستعرض زيجمونت باومان قراءة مهمة انقلها حرفيا حتى تتضح لنا فضيحة سماسرة بورصة الذاكرة التاريخية ، يقول باومان : [وثمة دراسة حديثة ثاقبة ، وان كانت صادمة ، لا غنى عن قراءتها لكل المهتمين الجادين بالحالة الراهنة للعبة

يستمد معناه بحسب اقترانه بمفهوم اخر وهو " ان هذا غير صحيح " لذا فان مقولة هذا صحيح تستبطن ضمنا انكار تلك الصحة ومن هنا يتسم وضع الحقيقة بتعددية الرؤى ووجهات النظر والآراء والمعتقدات من هنا ينشا عند باومان فكرة ان الصواب والخطا لا يمكنهما ان يكونا ركيزة التنافس امام تعدد الادعاءات المتعارضة او الرفضة للتوافق خصوصا بعد التأمل ان تلك التعددية حتمية قاطعة باعتبار تنوع طرق البشرية في الوجود والعالم وهو تنوع حتمي قاطع بحسب تعبيره بمعنى انتماء الحقيقة الى اسرة كبيرة تضم مفاهيم خلافية في كامن جوهرها على ماينقله باومان عن وايتهد .

الذاكرة الجمعية وسياسة التاريخ :

من هنا يفتح باومان على الذاكرة الجمعية باعتبار تلك المفاهيم الخلافية في جهورها فتلك الذاكرة الجمعية وسياسة التاريخ عند باومان هي التي تغذي اوجه القصور وكذا مواطن الضعف وهي التي تغذى عليها وترعرع في كنفها ، وعليه

سياسة التاريخ فبعد بضع سنين من الغزو الكارثي غير المسؤول للعراق يقول هنري جيرو :

ان الجدل السائد الراهن بشأن الازمة في العراق وسوريا هو مثال شبه مثالي على موت الذاكرة التاريخية وانهايار التفكير النقدي في الولايات المتحدة الامريكية ، كما انه يدل على ظهور ثقافة معادية للديمقراطية ايما معادة ، انها ثقافة الجهل المصنوع واللامبالاة الاجتماعية ، فبكل تأكيد تواجه الذاكرة التاريخية الاعتداء عندما تغطي وسائل الاعلام المهيمنة تغطية مباشرة لشائعات الحرب المتواصلة التي يتاجر بها ساسة من امثال السيناتور جون ماكين وليندسي غراهام ، ومثقفون رجعيون امثال بيل كريستول ودوغلاس فيتث وكوندليزا رايس وبول فولوفيتس ، ولا يتمتع اي من هؤلاء باية مصداقية على ضوء ما فعلوه لاضفاء الشرعية على الشبكة المتواصلة من الاكاذيب والتضليل التي وفرت غطاء للغزو الامريكي الكارثي للعراق تحت ادارة بوش / تشيني [كتاب الشر السائل ص ١٣٤ .

كل ذلك يعزوه هنري جيرو بحسب ما ينقل عنه باومان الى ان تلك الهيمنة الراهنة تمارس دورا قذرا وهو " ثقافة الامية " التي تُنشا الاكاذيب والتلفيق مما يؤدي الى فقدان العام للذاكرة في محتويات وعينا التاريخي بحسب تعبيره او مايعبر عنه بفقدان الثقة بسبب ما يحدث من تجهيل وموت للعلم ، خداع الثقة هذا هو مايريده الاقوياء كوسيلة للاقناع باننا جميعا نعيش في حاضر يختصر الحياة بكلا امرين هما التامل على الفيسبوك او ان السرد التاريخي يعتمد في تخصصه على ما تنتجه هوليوود . ان ما يحصل بحق نستطيع تسميته باستعمار الذاكرة وهذا ما حصل ويحصل فعلا في زمن الحداثة التي يسميها باومان وهكذا يستمر باومان في تحليله وانتقاده لزمن الحداثة ووعودها فيتحدث عن التقاء القرن الحادي والعشرين بالتاسع عشر التقاء دراميا وذلك من خلال استرجاعات قاتمة كانت شهدتها اوربا هناك ابان الوعود التي قطعتها الحداثة على نفسها على اعتبار ان التاريخ الخطي والتقدمي وعد حدثي لكنه لم يتحقق بعد . يقول ليونيداس دونسكيس عن تكلم الوعود

الشر السائل ص ١٦٩ .

من هنا تَضمّن الفصل الرابع عناوين عديدة ومهمة وكان الحديث عنها حديثا معرفيا وناقدا وبارعا من خلال حوارية باومان وليوينداس اترك شوق قراءتها للقارئ اللبيب واختصر على ذكر العناوين فقط . اهمها :

...اكتشاف الذات

...ارتداء عباءة الثقافة

...ثقافة الحتمية

...الفرق بين الثقافة الحتمية وثقافة

الاختيار

...المانوية الحديثة على ضوء القلق

الوجودي الفلسفي عند قولتير ولا بينتيس

...لاهوت الشر في نظرية التطور

الداروينية

ثلاث نظريات عن الاصلح الوجودي

وقراءتها نقدا وتحليلا وهي : " نظرية

داروين " البقاء للاقوى " ونظرية سبنسر "

الانتقاء الطبيعي " وكذا نظرية توماس هوبز

" حرب الجميع ضد الجميع " والنظرية

الرابعة هي لصمويل هانتينغتون " صدام

للحدثاء في نهاية الفصل الثالث [فاين يجد الناس الوفاء بالوعود الكبرى التي قطعتها الحدثاء على نفسها ؟ الحراك والحرية وحرية الحركة وحرية الاختيار ، الم تكن تلك هي وعود الحدثاء ؟ الم تعد بعالم بغير حدود ؟ ولكن ذلك العالم لن يؤسس دولا صغيرة وضعيفة اقتصاديا وسياسيا تكتسب قوة ، ففي ذلك العالم تزداد الدولة القوية قوة الى قوتها ، وتزداد الدول الضعيفة ضعفا الى ضعفها ، الم نُوعِد باننا سننعم بحرية عبور اية حدود اوربية] كتاب الشر السائل ص ١٦٢ .

المانوية ونزعتها الحديثة :

وهكذا في نهاية الكتاب يستعرض باومان وليوينداس بشكل مفصل الحديث عن الاسلاف المنسيين واشباحهما ومراجعة نقدية للنزعة المانوية القديمة والحديثة والتي شقت طريقها الى اختراق النظريات الفلسفية الحديثة والمذاهب السياسية والتي خلفت اثرا دائما وواحدا وراء رسالتها وهو : [ليس هناك بديل ، احبوا قدركم ، هذه هي الطريقة التي تظهر بها القدريّة والحتمية في ثوبها الحديث] كتاب

الحضارات "

التعددية الانيقة والتعددية القوية
والفرق بينهما
فن التعايش

مقارنة بين المانوية القديمة والمانوية
الحديثة

السائل والصلب من الحداثة
جدار برلين وسقوطه شكلا مع بقاء
القيود والانغلاق
القوة المملوكة
البشر سلعة للاستخدام " وحدة
احصائية "

ازمة الاتحاد الاوربي " الثورة
التكنوقراطية لا الثورة الديمقراطية "
الديمقراطية وضمان حالة التبعية

وفي نهاية المطاف يختتم باومان
الكتاب بعبارات قيمة تلخص القيمة
الانسانية في هذا الوجود الامكاني وتنتقد
الشروط حيث يقول [فليس التفاؤل افتراضا
ابله بان كل شيء رائع ، بل هو رؤية تقول
بان الشر انما هو امر عابر لا يقدر دوما على

تدمير انسانيتنا ، واعتقاد بانه توجد دوما
بدائل ، واما كان الامر فان التفاؤل لا يصدر
عن سذاجة ولا عن سطحية فكر ، بل عن
حكمة وعن تجربة عظيمة ، انه الايمان
بان العالم شيء اعظم مني ومن البيئة
المحيطة ، وانه مشابه لي ، واذا كان الامر
كذلك ، فان مجرد وجودي في العالم
وامكانية التفكير والشك لهما هبة تستوجب
الشكر والتقدير ، لان كل شيء ربما يصبح
اسوا مما كان عليه الان ، او ربما كان اسوا
مما كان عليه ، فكان من الممكن الا
اكون اصلا ولذا فان مسألة سعادتي
ورضائي هي مسألة ثانوية ، فوجودي في
العالم وقدرتي على التفكير في موضوعي منه
شهادة على ان هذا العالم هو افضل العوالم
الممكنة ، لاني لا اوجد في عوالم اخرى ،
واما غيري فعليه ان يحل قضية خيره او
شره [. كتاب الشر السائل - العيش مع
اللابديل - ص ٢٠٢ .

في رحاب أهل البيت عليهم السلام

الحياة السياسية للإمام الكاظم عليه السلام

بقلم : يوسف بيات

تعريب : حسن مطر

توطئة :

الحياة السياسية للإمام الكاظم عليه السلام ضمن محاورين . وسوف نتحدث في المحور الأول عن الظروف الثقافية لعصر الإمام الكاظم عليه السلام . واما المحور الثانية فسوف نفرده لتحليل الأوضاع السياسية التي سادت ذلك عصر ، مع بيان مواقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في مواجهة حكام الجور في عصره .

الأوضاع والظروف الثقافية والاجتماعية :

بعد استشهاد الإمام جعفر الصادق عليه السلام

ولد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام صبيحة يوم الأحد أو الثلاثاء ، السابع من شهر صفر ، عام ١٢٨ أو ١٢٩ من الهجرة في منطقة الأبواء - بين مكة والمدينة - من أمة اسمها حميدة . أما شهادته - طبقاً للمشهور - فكانت في الخامس والعشرين من شهر رجب المرجب من عام ١٨٣ للهجرة في سجن بغداد على يد السندي بن شاهك ، وبأمر من الطاغية هارون الرشيد . وفي هذه المقالة سنتحدث حول

بذلك تحقيق أمر وفاته عند الظانين خلافته له من بعده ، وإزالة الشبهة عنهم في حياته ^(٣) .

ومع ذلك فإن الشيعة الذين كانوا يسكنون في المناطق البعيدة والمتطرفة انقسموا بعد رحيل واستشهاد الإمام الصادق عليه السلام إلى ست فرق : الفرقة الأولى : تتكون من جماعة ذهبت إلى القول بـ (مهديّة) الإمام الصادق عليه السلام ، وقالوا بأنه آخر خلفاء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، وأنه قائم آل محمد . والفرقة الثانية : هي الفرقة التي أقامت على القول بإمامة إسماعيل ، وقالت بمهديّته ، ولم تؤمن بوفاته . والفرقة الثالثة : هي الفرقة التي أقرّت بموت إسماعيل ، وذهبت إلى القول بإمامة ولده محمد . والفرقة الرابعة : هي الفرقة التي ذهبت إلى القول بإمامة عبد الله الإبن الآخر للإمام الصادق عليه السلام وهو المعروف بـ (الأفضح) ، ومن هنا اشتهرت هذه الفرقة بالفضحية . والفرقة الخامسة : هي الفرقة التي قالت بإمامة محمد بن جعفر ، وكان أجمل أبناء الإمام الصادق ، وكان يلقب بـ (محمد الديباج) . وأما الفرقة السادسة والأخيرة : فهي التي

انتقلت الإمامة إلى ابنه الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام بنص صريح منه ، وكان له من العمر حينها عشرون عاماً ، وامتدت إمامته على الأمة الإسلامية لأربع وثلاثين أو خمس وثلاثين سنة ^(٤) .

بعد ارتحال الإمام الصادق عليه السلام حدث اضطراب شديد بين الشيعة بشأن تحديد الإمام ، خاصة مع الأخذ بنظر الاعتبار شبهة خلافة إسماعيل لأبيه التي شاعت في حياة الإمام الصادق عليه السلام رغم موت إسماعيل في زمن أبيه ، من هنا كان الإمام الصادق يغتنم كلّ فرصة سانحة ومناسبة متاحة للتأكيد على عدم إمامة إسماعيل ، وعلى الرغم من حزنه الشديد على ولده إسماعيل أمر مراراً بكشف الغطاء عن جسده ليؤكد للناس وفاته ، فلا يبقى لديهم شك في عدم انتقال الإمامة إليه .

قال الشيخ المفيد : (روي أنّ أبا عبد الله عليه السلام جزع عليه [إسماعيل] جزعا شديداً ، وحزن عليه حزناً عظيماً ، وتقدّم سريره بلا حذاء ولا رداء ، وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة ، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه ، يريد عليه السلام

القدرية ، ولا إلى المعتزلة ، ولا إلى الزيدية ^(٤) .

الأوضاع والظروف السياسية :

يشهد التاريخ على حقيقة أن بني العباس لم يكن لديهم أي رصيد يؤهلهم إلى قيادة المجتمع ، لذلك فإنهم انطلقوا في حركتهم تحت شعار الانتصار للعلويين وأبناء علي بن أبي طالب عليه السلام وإعادة الحق المغتصب إليهم ، ولكنهم ما أن أطاحوا بسلطة بني أمية حتى قلبوا لأبناء عمومتهم من العلويين ظهر المجن ، وأنزلوا عليهم من البلاء ما يبيضوا به صحيفة بني أمية ، وفي ذلك قال أبو فراس الحمداني :

(والله ما فعلت بنو أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس) ^(٥)

وقد كان مستهل هذه الأزمة منذ بداية اعتلاء المنصور العباسي عرش السلطة ، وبلغت ذروتها في سنة ١٤٨ للهجرة النبوية ، وهي السنة التي استشهد فيها الإمام الصادق عليه السلام ، بحيث كان شيعة الإمام الكاظم عليه السلام يتخوفون حتى من ذكر اسم الإمام الكاظم ، فكانوا يكونون عنه بأوصاف وألقاب من قبيل : عالم آل

تشكل الأكثرية ، وهي التي قالت بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام لوجود نص خاص وصريح باسمه والقول بإمامته من قبل الإمام الصادق عليه السلام نفسه ^(٦) .

لقد تولى الإمام الكاظم إمامة الشيعة في ظل هذه الظروف العصيبة ، وهذا المناخ الثقافي والاجتماعي الناشز ، وتمكن من قيادة الأمة الإسلامية والبلوغ بهذه السفينة إلى بر الأمان وسط هذا الطوفان الذي أحاط بها من كل جانب .

جاء في المناقب لابن شهر آشوب : اجتمع الناس على عبد الله بن جعفر بعد وفاة الصادق عليه السلام ، فدخل عليه هشام بن سالم ومحمد بن النعمان صاحب الطاق فسألاه عن الزكاة في كم تجب ؟ فلم يسمعا منه جواباً صحيحاً ، فخرجوا يقولان : إلى المرجئة ، إلى القدرية ، إلى المعتزلة ، إلى الزيدية ؟ فرأيا شيخاً يومئ إليهما ، فاتبعاه خائفين أن يكون عيناً من عيون أبي جعفر المنصور ، فلما ورد هشام على باب موسى عليه السلام فإذا خادم بالباب فقال له : أدخل رحمك الله ، فلما دخل قال : (إليّ إليّ ، لا إلى المرجئة ، ولا إلى

٣- موسى بن المهدي ، المعروف بـ (الهادي) ، وقد امتد حكمه لسنة وبضعة أيام^(٦) .

٤- هارون الرشيد^(٧) ، وهو أخو (الهادي) ، وكان أقوى سلاطين بني العباس على الإطلاق ، وقد امتد حكمه ثلاث عشرة سنة ، وحكم على رقعة جغرافية واسعة من الأراضي الإسلامية ، فكان لذلك يخاطب الغيوم والسحب التي تمرّ فوق سماء قصره بسرعة بالغة : (إذهبي حيث شئت ، فسيأتييني خراجك) .

الوصية السياسية والإلهية :

في ظلّ هذه الظروف القاهرة التي مرّ بها المجتمع الإسلامي ، كان المنصور الدوانيقي بوصفه سلطاناً جائراً من سلاطين بني العباس يمارس العدوان على آل علي بن ابي طالب عليه السلام ، ويمارس الظلم والقتل الشنيع بحق شيعتهم ومواليهم^(٨) . وفي ظلّ هذه الظروف لم يكن بالإمكان التصريح بمن يخلف الإمام جعفر الصادق عليه السلام في إمامته . فكان لابدّ من القيام بهذه المسؤولية الإلهية في منتهى

محمد ، أو العبد الصالح ، أو الرجل . ولكن هذه الظروف لم تحل دون الإمام الكاظم وأصحابه وممارسة مسؤولاتهم ، ولم تمنعهم من مقارعة الظالمين لحظة واحدة ، بل كانوا يواصلون هذا النشاط الديني من خلال العمل بـ (التقية) ، فقد قامت سيرة الأئمة المعصومين عليه السلام في تعاليمهم السماوية على توجيه أتباعهم المخلصين إلى حرمة الركون إلى الظلمة وعدم جواز ذلك بحال من الأحوال ، وإن اختلفت أساليب المواجهة باختلاف الأزمنة والظروف .

السلاطين الذين عاصروا الإمام الكاظم عليه السلام :

عاصر الإمام الكاظم عليه السلام طوال مدة إمامته البالغة قرابة خمس وثلاثين سنة أربعة من سلاطين بني العباس ، وهم :

١- المنصور العباسي المعروف بالدوانيقي .

٢- محمد بن المنصور ، المعروف بـ (المهدي) ، وحكم حوالي عشر سنوات وشهر واحد .

السريّة وبشكل متكتّم للغاية .

وبعد استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) ، كتب المنصور الدوانيقي إلى عامله على المدينة : (إذا كان جعفر بن محمد قد اختار خليفة له فابحث عنه واضرب عنقه) . فكتب إليه عامله في الجواب : (لقد أوصى جعفر بن محمد إلى خمسة نفر كخلفاء وأوصياء له ، وهم :

١- المنصور الدوانيقي .

٢- محمد بن سليمان (عامل المنصور على المدينة) .

٣- عبد الله بن جعفر الأفطح (الأخ الأكبر للإمام الكاظم (عليه السلام)) .

٤- حميدة (زوج الإمام الصادق (عليه السلام)) .

٥- موسى بن جعفر (عليه السلام) .

واضح أنّ هذه الوصية لم تكن سوى حركة سياسية كان الهدف منه هو التمويه من أجل المحافظة على الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، فكما أعترف المنصور الدوانيقي لم يكن هناك سبيل إلى قتل جميع هؤلاء الأشخاص بما فيهم المنصور نفسه^(٩) . كما

عمل الإمام في الوقت نفسه بمسؤوليته المهمة والمصيرية تجاه قيادة الأمة الإسلامية أيضاً ، حيث هدى الناس إلى أنسب شخص يمكنه قيادتهم من بعده ، والأخذ بأيديهم إلى جادة الصواب .

عندما سمع أبو حمزة الثمالي نبأ استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) أغمى عليه من هول الصدمة ، فلما أفاق سأل من حوله : هل أوصى الإمام بمن يخلفه ؟ فقالوا : أجل . ففرح أبو حمزة وشكر الله على هدايته ، فلما استوضحوا منه الأمر قال : إنّ الإمام الصادق (عليه السلام) ومن خلال تسمية المنصور مع الآخرين أراد بذلك توفير الحماية لوصيه الحقيقي ، وذلك لأنّ عبد الله الأفطح وإن كان هو الأكبر ، ولكنه كان يعاني من عاهة ظاهرية (والإمام وحجّة الله لا تكون به عاهة) ، كما أنه لم يكن على معرفة بالمسائل الدينية ، فيكون الإمام الصادق قد حصر الوصية بالإمام موسى بن جعفر الكاظم^(١٠) .

في ظلّ هذه الظروف السياسية لم يكن من صالح الشيعة القيام بأيّ عمل

القصور ، وأدار ديوان المحاسبات للمرّة الأولى ، وعمد إلى ما كان ادخره أبوه من الضرائب التي هي حاصل عرق الناس وجهدهم من الأموال البالغة أربعة عشر ألف ألف دينار ، وست مئة ألف ألف درهم ، ووزعها على أفراد حاشيته^(١٤) . الأمر الذي أدّى به إلى إهمال شؤون الحكم ، وعدم تفقّد وضع العاملين في جهاز السلطة ، وتجاهل أوضاع الناس ، فشاع الفساد الإداري بين العاملين في سلك الدولة وتفشت ظاهرة أكل الرشا وما إلى ذلك من أنواع الموبقات^(١٥) .

وعلى الرغم من اختلاف أسلوب حكم المهدي عن أسلوب أبيه المنصور ، ولكن يبدو أنه ورث من أبيه العداء لآل علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقد أكد ذلك على المستوى العملي أيضاً . من ذلك أنه قد دفع للشاعر بشار بن برد سبعين ألف درهم على إنشاده شعراً في مدح بني العباس واعتبارهم أحق بالخلافة من أبناء فاطمة الزهراء عليها السلام . كما أعطى مروان بن أبي حفص مئة ألف درهم جائزة له على نظمه مئة بيت من الشعر بنفس المضمون^(١٦) .

جهادي أو مواجهة علنية . من هنا عمد الإمام الكاظم عليه السلام إلى مواصلة سياسة أبيه الإمام الصادق عليه السلام القائمة على البرنامج التثقيفي وإعداد الطلاب ونشر العلوم . وقد استر هذا الوضع على ما هو عليه ، حتى تنفس الناس الصعداء بعد مضي اثنين وعشرين عاماً من تحمّل الكبت والضغوط ، وذلك بعد موت المنصور في السابع من ذي الحجة من سنة ١٥٨ من الهجرة النبوية^(١٧) . وبعد تربّع (المهدي) على عرش السلطة في بغداد وتولى شؤون الحكم رسمياً .

أسلوب جديد في إدارة الدولة العباسية :

استقبل الناس حكم (المهدي) بترحيب حار ، وذلك لانتهاجه سياسة لطيفة ومرنة ، فأطلق في بداية حكمه سراح جميع السجناء السياسيين^(١٨) ، وأعاد الأموال التي صادرها أبوه المنصور إلى أصحابها^(١٩) . وبذلك خفت حدّة الثورات التي كان يقودها العلويون ضد العباسيين .

ولكن حيث كان المهدي شخصاً ماجناً ومتهتكاً ، فقد بنى الكثير من

المواجهة الأولى بين الإمام الكاظم عليه السلام والمهدي العباسي :

كان المهدي العباسي يعمد في تبرير مجونه وموبقاته إلى توظيف العلماء من ضعاف الإيمان المنغمسين في الماديات . ومن هؤلاء (أبي معشر السندي) الذي كان طبقاً للشهادة الخطيب البغدادي من أكذب الناس على وجه الأرض . وكان من جملة قام به هذا الشخص أن وضع حديثاً على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله تبريراً لولع المهدي العباسي باللعب بالحمام ، فأعطاه المهدي عشرة آلاف درهم ، ثم قال للحاضرين : أعلم أنه كذب على الله ورسوله ، ولكنه أراد بذلك أن يثبت إخلاصه وشدة حبه لنا ^(١٧) .

وفي السنة التي زار فيها المهدي قبر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، التقى الإمام موسى بن جعفر الذي كان أفقه أهل زمانه ، فتحدث عن حرمة شرب الخمر ، وقال : إنَّ الناس يقولون ليس هناك في القرآن ما يثبت حرمة الخمر ، فما تقول في ذلك ؟ فقال الإمام الكاظم عليه السلام : إنَّ الله قد حرّمها من خلال آيتين في القرآن الكريم :

١ ، قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ

الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ^(١٨) .

٢- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ^(١٩) وَإِثْمَ

ففي الآية الأولى عرّف الخمر بأنها إثم ، وفي الآية الثانية عرف الإثم بأنه حرام . فتظاهر المهدي العباسي بسروره لإجابة الإمام ، فأخذ يثني على الإمام ، ثم التفت إلى علي بن يقطين وقال : والله هذه هي الفتوى الهاشمية . فقال علي بن يقطين : الحمد لله الذي جعل العلم بينكم أهل البيت . فأجابه المهدي وهو يكتم غيظه : (صدقت أيها الرافضي !) ^(٢٠) .

سجن الإمام الكاظم عليه السلام :

لم يكن بيد المهدي العباسي ما يبرر إيذاء الإمام الكاظم عليه السلام ، فإنَّ الإمام لم يعطه أيّ ذريعة بعد أن كان يتشدد في ممارسة التقية . فكان ينتهج سياسة والده في تربية الطلاب وإيجاد الارتباط بين الشيعة في مختلف البقاع ، حتى رفعت بعض التقارير من قبل الحاسدين وأصحاب النوايا السيئة إلى المهدي العباسي تخبره بالهدايا والعطاءات التي ينفقها الإمام على

الكاظم عليه السلام والمهدي العباسي عندما جلس المهدي ذات يومٍ لردّ المظالم . فاغتنم الإمام الفرصة وقال له : (ما بال مظلمتنا لا تردّ ؟ ! فقال له : وما ذاك يا أبا الحسن ؟ قال عليه السلام : إنّ الله تبارك وتعالى لما فتح على نبيه ﷺ فذك وما والاها لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ (٢٣) .. فدعا رسول الله ﷺ فاطمة وأعطاهها فذك نحلة ، بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام وأمّ أيمن ، والحسن والحسين عليه السلام ، وقد كان أبو بكر يروم أرجاع فذك لها ، ولكن حال دون ذلك عمر بن الخطاب .. فقال له المهدي : يا أبا الحسن حدّها إلي . فقال عليه السلام : حدّ منها جبل أحد ، وحدّ منها عريش مصر ، وحدّ منها سيف البحر ، وحدّ منها دومة الجندل . فقال له : كلّ هذا ؟ ! قال عليه السلام : نعم هذا كله مما لم يوجف عليه أهله رسول الله بخيل ولا ركاب .. فقال : كثير وأنظر فيه (٢٤) .

وبطبيعة الحال فإنّ المهدي العباسي لم يرجع فذكاً لأصحابها أبداً ، وإلا لتعرّضت للسقوط والإنهيار .

الفقراء والمحتاجين ، الأمر الذي جعل المهدي العباسي يستشعر الخطر الذي يتهدده من جانب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، وخاف أن يكون الإمام يحصل على هذه الأموال من شيعته ، ليقوم بواسطتها على تنظيم صفوف أنصاره وأتباعه للإنقضاض على حكمه وسلطانه ، من هنا فقد أصدر الأمر إلى عامله على المدينة بإلقاء القبض على الإمام الكاظم عليه السلام . وهذا ما كان ، فقد قبض عليه عامل المدينة ووجهه إلى بغداد ليحبس هناك تحت أنظار المهدي العباسي . ولكن بعد مضي عدة أيام رأى المأمون الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فيما يراه النائم ، وما أن اتيقظ من منامه حتى أوعز إلى حارسه الربيع بإطلاق سراح الإمام الكاظم فوراً ، فأخرج الربيع الإمام من السجن وأدخله على المأمون ، فقص عليه المأمون خبر الرؤيا ، وسأله أن لا يقوم بعمل يهدد سلطانه ، وأهداه ثلاثة آلاف دينار ، وأعادته إلى المدينة المنورة (٢٥) .

إثارة مسألة فذك :

وكانت المواجهة الثانية بين الإمام

حكومة (الهادي العباسي) :

المسلمين في (موسم الحج) لإيصال رسالته وبيان أهداف ثورته . إلا أن القمع الذي مارسه عامل السلطة على المدينة (عمر بن عبد العزيز) من أحفاد عمر بن الخطاب ، بحق آل علي بن أبي طالب عليه السلام خدمة للخليفة ، بما في ذلك ضربه لهم بالسياط ، واتهامهم ظلماً بشرب الخمر تبريراً لضربه إياهم ، والتشهير بهم في الأسواق والطرقات ، وإجبارهم على تسجيل حضورهم يومياً في مقر الإمارة ، أدى إلى التعجيل بالثورة قبل أوانها المحدد لها^(٢٥) .

إثر شجار نشب بين عامل المدينة والحسين ، عمد الحسين إلى تجهيز جيش من انصاره قوامه ثلاثمئة رجل ، وتوجه به شطر مكة المكرمة^(٢٦) . وفي السنة ذاتها كانت جماعة من بني العباس قد توجهت إلى مكة أيضاً ، ومنهم : سليمان بن منصور ، ومحمد بن سليمان . فأبلغ الهادي العباسي بعزم الحسين على الثورة ، فكتب كتاباً إلى محمد بن سليمان يأمره بمحاربة الحسين ، وجهز جيشاً عظيماً وبعث به إلى مكة ، وحدثت المعركة بين الجيشين غير المتكافئين في منطقة

هلك المهدي العباسي بعد سنوات قضاها في التهلك والفسق والفجور وظلم أهل بيت النبي عليه السلام ، وكان ذلك في سنة ١٦٩ للهجرة ، وحلّ محله ابنه موسى المعروف بـ (الهادي) . وكان له من العمر حينها خمس وعشرون سنة ، وسار على نهج أخيه من قلة الورع والمبالاة بالدين^(٢٤) . وقد بدأ ظلمه لبني هاشم منذ أن جلس على سدة الحكم إذ قطع عطاءهم من بيت مال المسلمين ، وباشر حملة شرسة في مطاردتهم في كافة أرجاء الدولة الإسلامية ، وزج بهم في السجون والمطامير .

واقعة فخ :

إنّ الظلم والجور الذي مارسه الهادي العباسي أفضى إلى تأسيس حركة مقاومة في المدينة المنورة بقيادة حفيد من أحفاد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، وهو : (الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن) المعروف بـ (شهيد فخ) ، حيث أراد أن يتخذ من مكة - حرم الله الأمن - قاعدة لنهضته ، وأن يغتنم فيها حضور

تلك الحادثة ، وبذلك منع الهادي من الإقدام على قتل الإمام^(٣٠) .

ويقع مزار شهداء فخ حالياً في مدينة مكة على طريق الذين يذهبون إلى العمرة إلى مسجد التنعيم ، إلا أنَّ الوهابيين قد ضاقوا ذرعاً حتى ببقية الأطلال التي تحدد تلك المزارات ، فأحاطوها بسور إسمنتي ، والويل كلَّ الويل لمن يدنو منه .

بداية عهد هارون الرشيد :

ربما أمكن القول : إنَّ عهد هارون كان من أسوأ العهود على الشيعة وخاصة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام . فقد عمد هارون الرشيد بمجرد استلامه السلطة إلى حبس الإمام الكاظم عليه السلام . فعندما توجه هارون إلى الحج رفع إليه جلاوزته الكثير من التقارير عن حصول الإمام موسى بن جعفر الكثير من الأموال والحقوق الشرعية التي تأتيه من كلِّ حدبٍ وصوب ، فخيم عليه الوجوم والخوف الشديد من أن يتمكن الإمام من زعزعة سلطانه ، فقال له أثناء لقائه به في الطواف حول الكعبة : (هل أنت من يباعه الناس سرّاً ؟ فأجابه الإمام عليه السلام بجواب يقطر بالحكمة : أنت

يقال لها (فخ) على مسافة ثلاثة أميال من مكة المكرمة ، استشهد فيها الحسين مع مئة من أنصاره ، وتشتت الآخرون ، وأسر بعضهم ، وكان من بين الأسرى : سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقد نقل جميع الأسرى إلى بغداد لتضرب هناك أعناقهم صبراً . وقد روى المسعودي أن أجساد القتلى بقيت على الأرض ثلاثة أيام تحت حرارة شمس الصحراء اللاهبة ، تنهشها وحوش الأرض وكواسر السماء^(٣١) .

وقد كانت هذه الواقعة الأليمة كما عبّر الإمام الباقر عليه السلام أشد حادثة على أهل البيت عليه السلام بعد واقعة كربلاء^(٣٢) . وقد كان تاريخ وقوعها في اليوم الثامن من ذي الحجة الحرام من تلك السنة^(٣٣) .

وكان الهادي العباسي قد غضب غضباً شديداً لحدوث هذا التمرد وكان ينسبه إلى تخطيط من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، فعقد العزم على قتله ، إلا أنَّ القاضي أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة والمقرَّب من السلطة الحاكمة أقسم للهادي أنَّ موسى بن جعفر عليه السلام لم يكن له أي دور في

إمام الأجساد ، وأنا إمام القلوب (٣١) .

المخطط المشؤوم :

على الرغم مما كان يتمتع به هارون الرشيد من السلطة والقدرة ، إلا أنه كان يخشى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لسببين ، إلى الحد الذي أخذ يفكر بارتكاب جريمة عظيمة تتمثل بقتل الإمام عليه السلام ، وإنّ ذنك السببين هما :

السبب الأول : الموقع الاجتماعي والمكانة المعنوية التي كان يتمتع بها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في قلوب الناس . فعلى الرغم من أنّ الإمام لم يكن يسعى إلى الثورة ، إلا أنّ هارون الرشيد - شأنه شأن غيره من حكام الظلم والجور - كان يدرك أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام يقوم بثورة معنوية وثقافية ، من هنا كان يسعى على الدوام وبكل السبل إلى إسقاط الإمام من منزلته ومرتبته الاجتماعية والعلمية ، ولكن هيهات !

إنّ صفة الانتساب إلى رسول الله ﷺ من جملة الفضائل والمناقب الكثيرة الثابتة للأئمة المعصومين عليهم السلام . وقد حاول هارون

الرشيد أن يشكك الناس في ثبوت هذه المنقبة للأئمة ، فسأل الإمام الكاظم عليه السلام : لِمَ جُوزَتم للعامة والخاصّة أن ينسبواكم إلى رسول الله ﷺ ويقولون لكم : يا بني رسول الله ، وأنتم بنو علي ، وإنما يُنسب المرء إلى أبيه ، وفاطمة إنما هي وعاء ، والنبي ﷺ جدّكم من قبل أمّكم ؟ فقال الإمام عليه السلام : لو أنّ النبي ﷺ نشر ، فخطب إليك كريمتك ، هل كنت تجيبه ؟ فقال : سبحان الله ، ولم لا أجيبه ؟ بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك . فقال له الإمام عليه السلام : لكنه ﷺ لا يخطب إليّ ولا أزوجه ! فقال : ولم ؟ فقال عليه السلام : لأنّه ﷺ ولدني ولم يلدك . فقال هارون : أحسنت يا موسى ، ثم قال : كيف قلت : إنا ذرية النبي ﷺ والنبي لم يعقب ، وإنما العقب للذكر لا للأنثى ، وأنتم ولد البنت ولا يكون لها عقب ؟ فقال الإمام عليه السلام لهارون : أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما أعفيتني عن هذه المسألة . فقال هارون : لا أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي .. ولست أعفيك في كلّ ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجّة من كتاب الله تعالى .. فقرأ الإمام الكاظم قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ

نفسه .

وفي عام ١٧٩ من الهجرة توجه هارون الرشيد لأجاء العمرة المفردة ، وزيارة قبر رسول الله ﷺ ، فتوجه نحو قبر رسول الله بحشد من أعوانه ورؤساء القبائل ودعا لذلك الإمام نموسى بن جعفر أيضاً ، وفي سلوك أراد به التمويه على العامة خاطب رسول الله ﷺ قائلاً : (السلام عليك يا ابن عم) ، فما كان من الإمام الكاظم إلا أن سلّم على النبي الأكرم ﷺ قائلاً : (السلام عليك يا أبة) . فقال هارون : (إنّ هذا لهو الفخار) ولكنه أضمرها له في نفسه ، وسرعان ما نفّذ مبتغاه ، فألقى القبض على الإمام الكاظم وأخذ معه إلى بغداد^(٣٥) . ولكي يبرر جريمته الشنيعة ، عمد إلى الاعتذار من رسول الله ﷺ قائلاً : (إني أعتذر إليك من أمر قد عزمت عليه ، فإنني أريد أن آخذ موسى بن جعفر فأحبسه ؛ لأنني قد خشيت أن يلقي بين أمتك حرباً تسفك فيها دماءهم)^(٣٦) .

السبب الثاني : خوف هارون الرشيد - كسائر حكام الجور - من الدعم الاقتصادي والمادي الذي يحصل عليه الشيعة من

ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَكَرِياً وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٣٧) ، ثم قال لهارون : من أبو عيسى ﷺ ؟ فقال هارون : ليس لعيسى أب . فقال الإمام ﷺ : إنما ألحقناه بذراري الأنبياء ﷺ من طريق مريم ﷺ ، وكذلك ألحقناه بذراري النبي ﷺ من قبل أمنا فاطمة ﷺ . ثم قال الإمام ﷺ لهارون : أزيدك ؟ قال : هات . فقال الإمام ﷺ : قول الله عز وجل : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾^(٣٨) ، ولم يدّع أحد أنه أدخل النبي ﷺ تحت الكساء عند المباهلة للنصارى إلا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ﷺ ، فلم يكن لهارون الرشيد إلا أن تظاهر باستحسان ما قاله الإمام^{(٣٩)*} .

وعلى الرغم من سكوت هارون الرشيد وتظاهره بالرضا من هذه الأجوبة الشافية التي ذكرها الإمام الكاظم ﷺ ، إلا أنّ نار الحسد والغضب كانت قد تأججت في

الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) . فكان يعلم جيداً أنّ الوضع المعاشي للأئمة يحصّنهم في مواجهة أعدائهم .

قال المأمون : لقد حججت معه [يعني أبيه هارون] سنة فلما صار إلى المدينة أمر حبابه بعد دخول أحد عليه مهما عظم شأنه إلا بعد التعريف بنفسه .. فبينما نحن كذلك إذ دخل الفضل بن الربيع ، فقال : على الباب رجل يزعم أنه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، فأمر هارون بإنزاله على بساطه .. فقام الرشيد واستقبله إلى آخر البساط ، وقبّل وجهه وعينه وأخذ بيده حتى صيّره في صدر المجلس وأجلسه معه .. ثم قام ، فقام الرشيد لقيامه وقبل عينيه ووجهه ، ثم أقبل عليّ وعلى الأمين والمؤمن فقال : امشوا بين يدي عمكم وسيدكم ، خذوا بركابه ، وسووا عليه ثيابه وشيئوه إلى منزله . فأقبل عليّ أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) سرّاً بيني وبينه فبشّرني بالخلافة ، فقال لي : إذا ملكت هذا الأمر فأحسن إلى ولدي ، ثم انصرفنا وكنت أجراً ولد أبي عليه ، فلما خلا المجلس قلت له :

من هذا الرجل الذي قد أعظمته وأجلّته وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس ، وجلست دونه ، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له ؟ ! قال : هذا إمام الناس ، وحجّة الله على خلقه ، وخليفته على عباده . فقلت : أوليست هذه الصفات كلها لك وفيك ؟ فقال : أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر ، وموسى بن جعفر إمام حقّ ، والله يا بني إنه لأحقّ بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مني ومن الخلق جميعاً ، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك ، فإنّ الملك عقيم .. فلما أراد الرحيل من المدينة إلى مكة ، أمر بصرّة سوداء فيها مئتا دينار ، ثم أقبل على الفضل بن الربيع فقال له : إذهب بهذه إلى موسى بن جعفر .. فقامت في صدره فقلت : تعطي أبناء المهاجرين والأنصار وسائر قريش وبني هاشم ومن لا تعرف حسبه ونسبه خمسة آلاف دينار إلى ما دونها ، وتعطي موسى بن جعفر - وقد أعظمته وأجلّته - مئتي دينار أخسّ عطية أعطيتها أحداً من الناس ؟ ! فقال : أسكت لا أمّ لك ، فإني لو أعطيت هذا ما ضمنت له ، ما كنت أمنت أن يضرب

إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشياً قد أتاني ومعه حرب ، فقال : إن أخليت عن موسى بن جعفر الساعة ، وإلا نحررتك بهذه الحرب ، فاذهب فخلّ عنه .. فمضيت إلى الحبس لأخرجه ، فلما رأني موسى ظنّ أني أمرت فيه بمكره ، فقلت : لا تخف ، فقد أمرني بإطلاقك .. قال : فإني أخبرك بينما أنا نائم ، إذ أتاني رسول الله ﷺ فقال : يا موسى حُبست مظلوماً ، فقل هذه الكلمات ، فإنك لا تبيت هذه الليلة في الحبس .. الحديث (٣٩) .

فدك :

لقد شغلت الرقعة الجغرافية لأرض فدك - التي كان يمكن لها أن تلعب دوراً كبيراً في رفع المستوى الاقتصادي لأئمة الشيعة - اهتمام الموالين وأعداء الإسلام على طول التاريخ . ولكي يختبر هارون الرشيد ما يجول في ذهن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام كان يقترح عليه إرجاع فدك مراراً وتكراراً ، ولكن حيث أنّ الإمام كان يعلم أنه ليس جاداً في ذلك لم يكن ليتفاعل معه في الحدث عن ذلك ، ولكن هارون أصرّ عليه ذات يوم ، فقال له

وجهي غداً بمئة ألف سيف من شيعته ومواليه ، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم وأعينهم (٣٧) .

كتب يحيى بن خالد البرمكي تقريراً عن أوضاع المدينة ورفعته إلى هارون الرشيد ، وزاد عليه أنّ الأموال تحمل إلى موسى بن جعفر من المشرق والمغرب .. فدخل هارون الرشيد من ذلك خوف شديد ، وعزم على الحج من تلك السنة .. وفي المدينة حيث استقبله الناس لم ير الإمام الصادق وأصحابه ضمن المستقبلين ، فأمر بالقبض عليه ، وسجنه في بغداد (٣٨) . ولكنه بعد مدة رأى جثاماً في منامه ، فأصدر أمر لذلك بإطلاق سراح الإمام من السجن . وقد ذكر ابن خلكان القصة على النحو الآتي : (إنّ عبد الله بن مالك الخزاعي كان على دار هارون الرشيد وشرطته ، فقال : أتاني رسول الرشيد وقتاً ما جاءني فيه قط ، فانتزعني من موضعي ومنعني من تغيير ثيابي ، فراعني ذلك .. فدخلت فوجدته قاعداً على فراشه فسلمت عليه ، فسكت ساعة .. ثم قال : يا عبد الله ، أتدري لِمَ طلبتك في هذا الوقت ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين . فقال :

حظر التعاون مع الجهاز الحاكم :

أما النموذج الآخر الذي يعكس الموقف الصريح للإمام الكاظم عليه السلام في مواجهة دولة الجور فيتمثل بتحريم التعاون مع الظلمة . ومثال ذلك ما رواه صفوان بن مهران الجمال ، إذ قال : دخلت على أبي الحسن الأول [الإمام الكاظم عليه السلام] ، فقال لي : (يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً ! قلت : جعلت فداك ، أي شيء ؟ قال : إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - قلت : والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ، ولا للصيد ولا للهو ، ولكن أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسي ، ولكن أبعث معه غلماني . فقال لي : يا صفوان أيقع كراك عليهم ؟ قلت : نعم جعلت فداك . قال : فقال لي : أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك ؟ قلت : نعم . قال : فمن أحبّ بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم فهو ورد النار) . قال صفوان : فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها^(٤١) .

وكا تقدّم أن أشرنا ، فإننا إذا أخذنا بنظر الاعتبار اختلاف أساليب المواجهة باختلاف الظروف الزمانية ، وإذا دققنا في

الإمام عليه السلام : (لا أخذها إلا بحدودها . قال : وما حدودها ؟ قال عليه السلام : إن حددتها لم تردّها . قال : بحق جدك إلا فعلت . قال عليه السلام : أما الحد الأول فعدن ، فتغيّر وجه الرشيد ، وقبل : أيها ؟ ! قال عليه السلام : والحد الثاني سمرقند . فاربّد وجهه . قال عليه السلام : والحد الثالث أفريقية . فاسودّ وجهه ! وقال : هيه ؟ ! قال عليه السلام : والرابع سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية . قال الرشيد : فلم يبق لنا شيء ، فتحوّل إلى مجلسي . قال موسى الكاظم عليه السلام : قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردّها)^(٤٢) .. فعند ذلك عزم هارون الرشيد على قتل الإمام عليه السلام .

وبذلك أوضح الإمام الكاظم عليه السلام أن الجهاز الحاكم لم يكن إلا كياناً غاصباً ، وأنه أراد إلفات الأذهان إلى ما هو أهم من أرض فداك ، من الأمور التي اغتصبت من أهلها وأصحابها الشرعيين ، ألا وهو الإمامة على المسلمين وخلافة رسول الله ﷺ ، وليس هناك ما هو أشدّ صراحة من هذا الموقف في مناوأة السلطة الجائرة .

يأمره بقتل الإمام ، فأجابه عيسى بن جعفر أنه لم ير من الإمام الكاظم عليه السلام طوال تلك المدة غير العبادة والتضرع إلى الله تعالى ، فإن أرسلت من يأخذه مني وإلا خليت سبيله .. فأخذه هارون منه ونقله إلى بغداد ، وسلمه إلى الفضل بن الربيع ، وأراد منه أن يقتله ، ولكنه امتنع أيضاً ، فكتب إليه ليسلمه إلى (الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي) وأبوه يحيى كان وزيراً لهارون الرشيد ، فتسلمه منه ، وأراد منه أن يقتله فلم يفعل ، بل أكرمه ، وبلغ هارون أن الإمام الكاظم عليه السلام يعيش عند الفضل بن يحيى في رفاهية وسعة ودعة ، فغضب هارون غضباً شديداً ولعن الفضل وأمر من كان حاضراً أن يلغنه ، وأمر بتجريدته من ثيابه وضربه مئة سوط .. ثم أمر هارون بتسليم الإمام الكاظم عليه السلام إلى السندي بن شاهك . وبلغ يحيى بن خالد الخبر فركب إلى الرشيد واعتذر له عما بدر من ابنه الفضل قائلاً له : إن الفضل حدث ، وأنا أكفيك ما تريد .. فكان منه أن توجه إلى بغداد وأمر السندي بن شاهك أن يقتل الإمام الكاظم عليه السلام^{(٤٢)*} .

والمشهور في طريقة قتل الإمام

سيرة حياة الإمام الكاظم عليه السلام ندرك بوضوح أنه كسائر الأئمة المعصومين عليه السلام كان على الدوام في مواجهة مستمرة ضد حكام الجور في عصره . وإن استشهاد جميع الأئمة - باستثناء الإمام الحجة المنتظر عليه السلام - دليل واضح على هذه الحقيقة .

استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام :

بعد العديد من محاولات سجن الإمام وإطلاق سراحه ، لم يطق هارون الرشيد صبراً على هذا العبد الصالح ، فأوعز إلى جلاوزته أن يلقوا القبض عليه وسجنه إلى الأبد .

وعندما ذهب جنود السلطان إلى إلقاء القبض على الإمام لم يجده في بيته ، فقصدها مسجد النبي صلى الله عليه وآله حيث كان الإمام الكاظم عليه السلام هناك قائماً يصلي ، فلم يمهله حتى إكمال صلاته ، فأخذوه من مصلاه على تلك الحالة . فأمر هارون الرشيد أن يصيروا بالإمام الكاظم إلى البصرة تحت جُنج الليل ، وأن يسلموه إلى عامله على البصرة (عيسى بن جعفر) . فأمضى الإمام سنة كاملة في سجن البصرة . ثم كتب هارون الرشيد إلى عيسى بن جعفر

الكاظم عليه السلام أنه مات متأثراً بالسم^(٤٣) . ولكن هناك رواية أخرى تقول أن السندي بن شاهك ونفراً آخرين قد حشروه في سجادة وضغطوه داخله حتى حبسوا عنه الهواء ففضى عليه اختناقاً^(٤٤) .

مضي خمسة عشر عاماً على حكم هارون الرشيد ، في الخامس والعشرين من شهر رجب المرجب سنة ١٨٣ هـ ق ، وكان عمر الإمام حينها أربعاً وخمسين أو خمساً وخمسين سنة .

وكان وقوع هذا الاغتيال الغادر والحادث الجلل على القول المشهور ، بعد (والسلام عليه يوم ولد ، ويوم استشده ، ويوم يُبعث حياً)

الهوامش:

- (١) رجال الكشي، ص ٦٦٣، والإرشاد، ج ٢، ص ٢١٥ - ٢٢٠؛ وإنبات الوصية، ص ١٦٣؛ وبحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٢٧، بيروت.
- (٢) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠٩ - ٢١٠، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط ١، ١٤١٣ هـ ق.
- (٣) فرق الشيعة، ص ٧٤ - ٧٨، والشيخ المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ٢٠٩، والحياة الفكرية والسياسية لأئمة الشيعة، ص ٣٨٣.
- (٤) رجال الكشي، ص ٥٠٢؛ ومناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٣١٥.
- (٥) أنظر: ديوان أبي فراس الحمداني.
- (٦) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٦٧.
- (٧) وقد جلس على كرسي الحكم يوم الجمعة الموافق للرابع عشر من ربيع الأول، من عام ١٧٠ للهجرة، وهلك سنة ١٩٣. أنظر: الجواهر الثمينة، ص ١٢٥؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٦٨؛ والبداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٠٧، وتاريخ يعقوبي، ج ١، ص ٤٠٧.
- (٨) تحدّث المسعودي عن سياسة المنصور الدوانيقي الجائرة بحق آل علي × فقال: (إنَّ المنصور كان يقبض على أولاد وأحفاد الحسن بن علي × ويحملهم على المحامل المكشوفة، فيصيرهم إلى الكوفة، ليحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار .. حتى أشكل عليهم أن يعرفوا أوقات الصلاة، فكانوا لذلك يجزّون القرآن خمسة أجزاء، فيصلون الصلاة على الفراغ من كل واحد منهم من حزبه .. وكانوا يتوضأون في مواضعهم حتى اشتدّت عليهم الرائحة، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه! المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩٩، مؤسسة دار الهجرة).
- (٩) أعيان الشيعة، ج ١، ص ٦٧٧.

- (١٠) المصدر المتقدم.
- (١١) البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٥٩.
- (١٢) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٣؛ والبداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٥٩؛ وتاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٩٤؛ وحياة الإمام موسى بن جعفر، ج ١، ص ٤٣٥.
- (١٣) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٩٤؛ وحياة الإمام موسى بن جعفر، ج ١، ص ٤٣٥؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٣.
- (١٤) حياة الإمام موسى بن جعفر، ج ١، ص ٤٣٥؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٤٣.
- (١٥) حياة الإمام موسى بن جعفر، ج ١، ص ٤٤١.
- (١٦) المصدر المتقدم، ج ١، ص ٤٤٣.
- (١٧) المصدر المتقدم. وقد كانت مواجهة هذا النوع من العلماء المتاجرين بدينهم من جملة الأمور التي أخذها الإمام الكاظم على عاتقه، فقال: (الفقهاء أمناء الرسل، ما لم يدخلوا في الدنيا). فقبل له: وكيف يدخلون في الدنيا؟ فقال: قال رسول الله: عندما يتبعون الأحكام، فعنها خافوهم على دينكم. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٦، بيروت.
- (١٨) البقرة: ٢١٩.
- (١٩) الأعراف: ٣٣.
- (٢٠) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٤٩، بيروت؛ وعوالم العلوم، ج ٢، ص ٢٢٥.
- (٢١) تهذيب الكمال، ص ٢٩؛ ووفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٠٨؛ وشذرات الذهب، ج ١، ص ٣٠٤؛ وبحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٤٨، والكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٥٨؛ والبداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٩٧.
- (٢٢) الإسراء: ٢٦.
- (٢٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٥٦-١٥٧، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣م، وحياة الإمام موسى بن جعفر، ج ١، ص ٤٥٠.
- (٢٤) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٨.
- (٢٥) الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٠، ومقاتل الطالبين، ص ٤٤٣.
- (٢٦) مقاتل الطالبين، ص ٤٤٩.
- (٢٧) أنظر: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٨.
- (٢٨) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٦٥، بيروت.
- (٢٩) مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٥٨.
- (٣٠) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٥١.
- (٣١) إسعاف الراغبين، حاشية نور الأبصار، ص ٢٤٨.
- (٣٢) الأنعام: ٨٤-٨٥.
- (٣٣) آل عمران: ٦١.

- (٣٤) بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٢٨، بيروت؛ وعيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٨١، منشورات الفجر، ط ١، ٢٠٠٨م، بيروت، ونور الأبصار، ص ١٦٤.
- (٣٥) روضة الواعظين، ج ١، ص ٢١٥؛ والكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٦٤؛ وإسعاف الراغبين، طبع حاشية نور الأبصار، ص ٢٤٨؛ وتاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٣١، بتصرف قليل.
- (٣٦) الإرشاد، ج ٢، ص ٢٣٩ (سلسلة مؤلفات المفيد)؛ وعيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٧٣، منشورات الفجر، ط ١، ٢٠٠٨م، بيروت، وكتاب الغيبة، للطوسي، ص ٢٨؛ وروضة الواعظين، ج ١، ص ٢١٩.
- (٣٧) عوالم العالم، ج ٢١، ص ٢٤٥، والشهيد مرتضى المطهري، الأعمال الكاملة، ص ١٠٢، وعيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٨٢-٨٣، منشورات الفجر، ط ١، ٢٠٠٨م، بيروت.
- (٣٨) أنظر: مقاتل الطالبين، ص ٥٠١، وروضة الواعظين، ج ١، ص ٢١٨؛ وكتاب الغيبة للشيخ الطوسي، ص ٣١، ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٧٨.
- (٣٩) شمس الدين بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٠٩-٣١٠، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- (٤٠) العلامة محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٤٤، مؤسسة الوفاء، ط ٢، بيروت، ١٩٨٣م.
- (٤١) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٧٦-٣٧٧، كتاب العشرة، باب الركون إلى الظالمين وحبهم وطاعتهم، ح: ٣٤.
- (٤٢) أنظر: مقاتل الطالبين، ص ٤١٥-٤١٦، دار الزهراء، ط ١، ١٤٢٨هـ ق.
- (٤٣) أنظر: وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣١٠؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٨؛ وتهذيب الكمال، ج ١، ص ٢٩؛ وبحار الأنوار، ج ١٩، ص ٥١، وج ٤٨، ص ٢١٢.
- (٤٤) أنظر: تاريخ بغداد، ج ١٣، ص ٣١؛ ومروج الذهب، ج ٣، ص ٣٨٨؛ والكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٦٤؛ وسير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٧٤؛ وأعيان الشيعة، ج ٢، ص ٥.

من أعلام الشيعة

الفاضل جمال الدين الحلي السيوري

إعداد : هيئة التحرير

ترجمة المؤلف

أفاض الله على تربته سجال لطفه .
لكنّا لم نعثر في كتب الرجال والتراجم
على شرح حاله وكيفية حياته إلا على أنّه
سيوريّ ، أسديّ ، غرويّ من أجلّ تلامذة
الشّهِيد فالزّجل مع نبالته وعظم شأنه عند
الأصحاب ، ورواج كتبه المؤلّفة في شتّى
المواضيع ، لم يعرف إلا بأنّه من سيور قرية
من قرى حلّة^(١) وأنّه كان من بني أسد
المتوطّنين بالعراق

و تتلمذ عند الشّهِيد وسمع منه عند ما

هو الشّيخ الفاضل الفقيه جمال الدّين
وشرف المعتمدين أبو عبد الله المقداد بن
عبد الله بن محمّد بن الحسين بن محمّد
السيوريّ الحليّ الأسديّ الغرويّ المعروف
بالفاضل السيوريّ والفاضل المقداد ، عند
الفقهاء المتأخّرين ، كان من أجلاء
الأصحاب ، وعظماء مشايخ الرجال جامعا
بين المعقول والمنقول ، عالما فاضلا
متكلّما محقّقا مدقّقا من أعظم الفقهاء قد
أثنى عليه كلّ من عنونه بالثناء الجميل ،
والذكر النبيل .

المجال .

كان مؤلفنا - أعلى الله مقامه - من مشاهير تلامذته والزّواين عنه ، له اختصاص وحظوة عند الأستاذ ، وولع بالبحث والتّنقيب عنده ، ومن ذلك عمد إلى كتاب شيخه « القواعد الفقهيّة » فنضده ورّبه على أحسن ترتيب وسمّاه « نضد القواعد » كما سيجيء ، كما أنّه ساءله - أو كاتبه - في مسائل عديدة خلافيّة فأجاب عنها ، فسَمّيت تلك المسائل مع أجوبتها بكتاب « المسائل المقداديّة » قال صاحب الرّوضات : وهو الذي ينقل عنه في كتبنا الاستدلاليّة الفتاوي والخلافيّات وكان نسبة تلك المسائل إلى تلميذه الشّيخ مقداد السيوري رحمه الله النوري^(٣) .

وقد نقل رحمه الله كيفيّة شهادة أستاذه وشيخه الشهيد نقله بعين عبارته المنقولة المكتوبة :

قال العلامة المجلسي في بحار الأنوار^(٤) : وجدت في بعض المواضع ما صورته :

قال السيد عزّ الدين بن حمزة بن محسن الحسيني رحمه الله : وجدت بخطّ شيخنا

ارتحل الشّهيد إلى التّجف الغريّ ، وتوفّي رحمه الله سنة ٨٢٦ الهجرية ودفن في مقابر النجف^(٥) .

إلا أنّه حيّ معروف بحياته العلميّة ، مذكور بكتبه القيّمة ، وقد اعتنى المترجمون بالبحث والتّنقيب عن كتبه ، والتّطلّع على ما فيها من التحقيقات والعوائد ، والتدقيقات والفوائد ، يثنون عليه الثّناء الجميل . فليس لنا إلّا أن نعرّفه بحياته العلميّة ، ونسرد إليكم كتبه القيّمة الثمينة .

مشايخه

كان رحمه الله من أجلاء تلامذة الشّهيد ، والزّواين عنه ، وهو :

تاج الشريعة ، وفخر الشيعة ، علامة المتقدّمين ، شمس الملة والدّين ، أبو عبد الله محمّد بن الشّيخ جمال الدّين مكّي بن الشّيخ شمس الدّين محمّد بن حامد بن أحمد النبطيّ العامليّ الجزيّنيّ - نسبة إلى جزيّين من قرى جبل عامل - وهو المعروف بالشّهيد الأوّل قدّس الله سرّه ، ذو الفضل الباهر ، والثّناء العاطر ، أشهر وأعرف وأعظم من أن يعدّ فضائله في هذا

و كان سبب حبسه أن وشى به تقّي الدّين الجبليّ - أو الخياميّ - بعد ظهور أمارات الارتداد منه ، وأنّه كان عاملاً ثمّ بعد وفاة هذا الواشي [الفاجر] ، فأقام على طريقته شخص اسمه يوسف بن يحيى ، وارتدّ عن مذهب الإماميّة ، وكتب محضراً شنع فيه على الشّيخ شمس الدّين محمّد بن مكّي بأقاويل شنيعة ، ومعتقدات فضيعة وأنّه كان أفتى بها الشّيخ محمّد بن مكّي ، وكتب في ذلك المحضر سبعون نفساً من أهل الجبل ، ممّن كان يقول بالإمامة والتّشيع ، وارتدّوا عن ذلك ، وكتبوا خطوطهم تعصّباً مع يوسف بن يحيى في هذا الشّأن ، وكتب في هذا ما يزيد على ألف من أهل السّواحل من المتسنّين ، وأثبتوا ذلك عند قاضي بيروت ، وقيل قاضي صيدا ، وأتوا بالمحضر إلى القاضي عبّاد بن جماعة لعنه الله بدمشق ، فنفذه إلى القاضي المالكيّ وقال له : تحكّم فيه بمذهبك وإلا عزلتك .

فجمع الملك بيد مرو الأمراء والقضاة والشيوخ ، لعنهم الله جميعاً ، وأحضروا الشّيخ رحمه الله وأحضروا المحضر وقرئ عليه ، فأنكر ذلك وذكر أنّه غير معتقد له - مراعيًا

المرحوم المغفور له ، العالم العابد ، أبي عبد الله المقداد السيوريّ ما هذه صورته :

و قال صاحب اللؤلؤة^(٥) : ورأيت بخطّ شيخنا العلامة أبي الحسن الشّيخ سليمان بن عبد الله البحرانيّ ما صورته : وجدت في بعض المجموعات بخطّ من أثق به منقولاً من خطّ الشّيخ العلامة جعفر بن كمال الدّين البحرانيّ ما هذه صورته :

وجدت بخطّ شيخنا المرحوم المبرور ، العالم العامل ، أبي عبد الله المقداد السيوريّ ما هذه صورته :

كانت وفاة شيخنا الأعظم ، الشّهيد الأكرم ، أعني شمس الدّين محمّد بن مكّي قدّس في حظيرة القدس سرّه ، تاسع عشر جمادى الأولى سنة ستّ وثمانين وسبعمائة قتل بالسيف ، ثمّ صلب ، ثمّ رجم ، ثمّ أحرق ببلدة دمشق ، لعن الله الفاعلين لذلك والرّاضين به ، في دولة بيد مرو ، وسلطنة برقوق ، بفتوى المالكيّ ، يسمّى برهان الدّين وعباد بن جماعة الشافعيّ ، وتعصّب عليه في ذلك جماعة كثيرة بعد أن حبس في القلعة الدمشقيّة سنة كاملة .

مع أنه ليس من أهل العلم وإنما كان تاجرا فاجرا . انتهى

تلامذته والراؤون عنه

كان ﷺ علما من الأعلام ، ووجهها من وجوه أصحابنا ، يرود إليه طلاب العلم ، ورواد الفضل ، فهو شيخ من المشايخ العظام ، أسطوانة للفقه والكلام قد تخرج عليه جمع من الفقهاء ، وسمع منه كثير من مشايخ الإجازة :

منهم : شيخ مشايخ الإمامية في عصره ، أبو الحسن علي بن هلال الجزائري مولدا العراقي أصلا ومحتدا ، ففي إجازة المحقق الكركي للقاضي صفي الدين عيسى ، قال بعد ما أثنى على شيخه أبي الحسن علي بن هلال الجزائري ثناء بالغا :

و هذا الشيخ الجليل يروي عن جماعة من الأساطين من أجلاء تلامذة الشهيد الأول وفخر المحققين منهم الشيخ مقداد بن عبد الله السيوري عن الشهيد ^(١) .

٢- الشيخ شمس الدين محمد بن الشجاع القطان الأنصاري الحلبي العالم

للتقية الواجبة- فلم يقبل منه وقيل له قد ثبت ذلك شرعا ولا ينتقض حكم القاضي .

فقال الشيخ للقاضي عبّاد بن جماعة : إني شافعي المذهب وأنت إمام المذهب وقاضيه ، فاحكم في مذهبك ، وإنما قال الشيخ ذلك لأن الشافعي يجوز توبة المرتد ، فقال ابن جماعة لعنه الله : على مذهبي يجب حبسك سنة كاملة ثم استتابتك أما الحبس فقد حبست ، ولكن تب إلى الله واستغفر حتى أحكم بإسلامك ، فقال الشيخ : ما فعلت ما يوجب الاستغفار - خوفا من أن يستغفر فيثبت عليه الذنب - فاستغلظه ابن جماعة وأكد عليه فأبى عن الاستغفار فساّره ساعة ثم قال : قد استغفرت فثبت عليك الحق .

ثم قال للمالكي : قد استغفر والآن ما عاد الحكم إليّ ، غدرا منه وعنادا لأهل البيت عليهم السلام ، ثم قال عبّاد : الحكم عاد إلى المالكي فقام المالكي وتوضّأ وصلى ركعتين ثم قال : قد حكمت بإهراق دمه ، فألبسوه اللباس ، وفعل به ما قلناه من القتل ، والصّلب ، والرّجم ، والإحراق ، وساعد في إحراقه شخص يقال له محمد بن الترمذي

وارجوزة نظم فيها أَلْفِيَّةُ الشَّهِيد ﷺ المسمَّاة « بالجمانة البهيَّة في شرح الألفيَّة » فرغ من نظمها سنة ٨٢٥ وعدد الأبيات ٦٥٣ ، وقد قرَّط منظومته الجمانة هذه شيخه المقداد تقريظا لطيفا ، وهو الَّذي أَرخ وفاة شيخه المقداد لسنة ٨٢٦ ، له أيضا قصائد تعرف بالحليَّات وغير ذلك ^(٨) .

و كان ﷺ معاصرا للشيخ فخر الدِّين أحمد بن عبد الله بن سعيد بن المتَّوجَّ البحرانيِّ صاحب المؤلَّفات الكثيرة الَّتِي منها « التَّهْيَاة في تفسير الخمسمائة آية » وهي آيات أحكام القرآن بمقتضى حصر الفقهاء المحقِّقين ^(٩) . قال في اللؤلؤة عند ذكره لابن المتَّوجَّ : كان معاصرا للشيخ المقداد صاحب كنز العرفان وهو المعنِّي بقوله قال المعاصر ^(١٠) أقول : قد عبَّر المصنَّف ﷺ عنه بقوله : قال المعاصر في ص ١٠٨ و ١٤٣ و ٢٢٢ و ٣٩٠ وغير ذلك من طبعتنا هذه وكأنَّه ينقل عن كتابه التَّهْيَاة في آيات الأحكام وهذا دليل على أنَّ كتابه التَّهْيَاة كان عند المصنَّف ﷺ يطالعه فيبحث عنه ولذلك يقول : قال المعاصر . وأمَّا ما ذكره الرِّوضات : « والمعني بقوله فيه (يعني كتاب التَّهْيَاة) قال المعاصر هو

الكمال صاحب كتاب معالم الدِّين في فقه آل ياسين المعروف بابن القطان .

٣- رضي الدِّين عبد الملك بن شمس الدِّين إسحاق بن عبد الملك بن محمَّد بن محمَّد بن فتحان الحافظ القميِّ محتدا القاسانيِّ مولدا .

٤- الشَّيخ الصالح العالم الفاضل زين الدِّين عليِّ بن الحسن بن علالة وكان من تلامذته أيضا أجازه في ثاني جمادى الآخرة سنة ٨٢٢ قال صاحب الرِّياض : رأيت كتاب الأربعين حديثا للمقداد ﷺ في أردبيل في مجموعة بخط تلميذ المصنَّف وعليه إجازته له صورتها :

« أنهى قراءة هذه الأحاديث الشَّيخ الصالح العالم الفاضل زين الدِّين عليِّ بن حسن بن علالة وأجزت له روايتها عني عن مشايخي قدَّس أرواحهم وكتب المقداد ابن عبد الله السيوريِّ في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٨٢٢ ^(٧) .

٥- الفاضل الفقيه والشاعر الأديب الشَّيخ حسن بن راشد الحلِّي ، وكان من تلامذته أيضا ، له ارجوزة في تاريخ الملوك والخلفاء ، وارجوزة في تاريخ القاهرة ،

و منها الأدعية الثلاثون . يحوي ثلاثين دعاء من أدعية النبي والأئمة المعصومين عليهم السلام ، قال في الذريعة ^(١٤) : رأيت نسخة منه بخط جعفر بن محمد بن بكّة الحسيني سنة ٩٤٠ في كتب السيد محمد علي السبزواري بالكاظمية .

و منها الأربعون حديثاً . قال صاحب الرياض : رأيت في أردبيل في مجموعة بخط تلميذ المصنّف رحمته وعليه إجازته له وقد ألفه لولده الشيخ عبد الله كما مرّ الإشارة إليه .

و منها إرشاد الطالبين : إلى نهج المسترشدين . هو شرح نهج المسترشدين في أصول الدين تأليف العلامة الحلي . شرحه المترجم له رحمته بعنوان « قال : أقول : » فرغ منه آخر نهار الخميس الحادي والعشرين من شعبان سنة ٧٩٢ ، وطبع بيمبئي سنة ١٣٠٣ ^(١٥) .

و منها شرح ألفية الشهيد ^(١٦) قال في اللؤلؤة نسبه إليه بعض مشايخنا المعاصرين نور الله مراقدهم ^(١٧) .

و منها الأنوار الجلالية : في شرح الفصول النصيرية لخواجه نصير الدين

الشيخ شرف الدين مقداد بن عبد الله السيوري في كنز العرفان ^(١١) « فالظاهر أنّه خلط لكلام صاحب اللؤلؤة كما لا يخفى .

و كان للمقداد رحمته ولد يسمّى عبد الله ولأجل ذلك كتّوه بأبي عبد الله وهو الذي ألف له المقداد كتاب الأربعين حديثاً ، على ما صرح به في رياض العلماء ^(١٢) .

تأليفه

كان رحمته فاضلاً محققاً أدبياً ، ذا رأى بديع ، وذوق لطيف فأتقن تأليفه وكتبه أحسن إتقان ، ورتبها على أجمل ترتيب وأقوم برهان ، أودع فيها من لطائف التحقيقات ، وبدائع الفوائد ، ما يروق الناظر ، ويفيد الطالب ، ويهديه إلى بغيته المطلوبة .

فمنها رسالة آداب الحجّ . قال في الرياض : رأيت في مجموعة بخط تلميذ المصنّف رحمته الشيخ زين الدين علي بن الحسن بن علالة ، وعلى ظهره إجازة المصنّف لتلميذه الكاتب المذكور ، وتاريخ الإجازة الخامس والعشرون من جمادى الآخرة سنة ٨٢٢ ^(١٣) .

الأُسعد ، الأمير جلال الدّين أبي المعالي عليّ بن شرف الدّين المرتضى العلويّ الحسينيّ الآويّ ، وسَمّاه من هذه الجهة ، والعلّة الغائيّة ، بالأنوار الجلاليّة للفصول النصيرية^(١٩) .

و منها تجويد البراعة : في شرح تجريد البلاغة . في علمي المعاني والبيان المتن تأليف الشيخ كمال الدّين ميثم بن عليّ بن ميثم البحرانيّ المتوفّى ٦٧٩ ويقال له أصول البلاغة . وبلحاظ الجنس سَمّى الفاضل المقداد شرحه له بتجويد البراعة في شرح تجريد البلاغة^(٢٠) .

و منها التنقيح الرائع : في شرح مختصر الشرائع . قال صاحب الرّوضات :

و أمّا كتابه التنقيح ، الذي هو في الحقيقة معلمه الوضيع ، فهو أمتن كتاب في الفقه الاستدلاليّ ، وأرزن خطاب ينتفع به الدّاني والعالِي ، وفيه من الفوائد الخارجة شيء كثير ومن الزوائد النافجة نبذ غير ، منها ما نقل فيه عن ابن الجوزيّ أنّه قال في وجه تسمية أيّام البيض من أقسام الآونة في الشّهور : سَمّيت بذلك لبياض لياليها والعامّة تقول : الأيام البيض . حتّى

الطوسيّ . والفصول أصله فارسيّ قد ترجمه إلى العربيّة ركن الدّين محمّد بن عليّ الجرجانيّ تلميذ العلامة الحلّي والمؤلّف رحمه الله قد شرح تلك النسخة المعرّبة بعنوان « قال أقول » وصدره باسم الملك جلال الدّين عليّ بن شرف الدّين المرتضى العلويّ الحسينيّ الآويّ ، وسَمّاه باسمه . قال في الذريعة : رأيت منه نسخا منها نسخة بخطّ عليّ بن هلال والظاهر أنّه الكركي^(١٨) المجاز من المحقّق الكركيّ تاريخ كتابتها سنة ٩٨٠ ، وقال في الرّوضات : وإنّما نقله إلى العربيّة (يعني الفصول النصيرية) قريبا من عصر المصنّف شيخنا المحقّق ، المتقن المنصف ، ركن الملة والدّين ، محمّد بن عليّ الفارسيّ الجرجانيّ الأصل والمحتد ، والأستراباديّ المنشأ والمولد ، كما استفيد لنا من شرحه الرّشيق الذي كتبه على سبيل التحرير والتحقيق الشيخ مقداد بن عبد الله السيوريّ الحلّي فيما وجدنا النسبة إليه رحمه الله على ظهر بعض نسخه الذي شاهدناه ، وفيه أيضا أنّ قلم هذا الشّارح المؤيّد المسدّد ، خدم بشرحه ذلك جناب صاحب البلد ، والملك الأوحد الأمجد ، والرئيس الأجلّ الأنجب الأرشد

لخصه ثانياً وسماه الجامع الفوائد في تلخيص القواعد ومنها شرح سى فصل : لخواجه نصير الدين الطوسي في النجوم والتقويم الرقمي^(٢٤) ومنها كنز العرفان : في فقه القرآن وسيأتي تمام البحث فيه .

و منها اللوامع الإلهية : في المباحث الكلامية قال في الروضات : من أحسن ما كتب في فن الكلام ، على أجمل الوضع وأسد النظام ، وهو في نحو من أربعة آلاف بيت ، ليس فيه موضع ليت كان كذا وليت^(٢٥) .

و منها النافع يوم الحشر : في شرح الباب الحادي عشر ، للعلامة . وهو المتداول عند الطلاب المطبوع مرارا من بين الشروح ، وقد كتبت عليه حواشي وتعليقات^(٢٦) .

و منها نضد القواعد الفقهية : على مذهب الإمامية . قال في الروضات :

و هو كتاب بديع رتب فيه قواعد شيخه الشهيد على ترتيب أبواب الفقه والأصول من غير زيادة شيء على أصل ذلك الكتاب ، غير ما رسمه في مسألة القسمة منه .

أن بعض الفقهاء جرى في كتبه على طريق العامة في ذلك وهو خطأ فإن الأيام كلها بيض لكن العرب يسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم وسيأتي تفصيلها في النكاح .

ثم ذكر في كتاب النكاح أن العرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم فلها حينئذ عشرة أسماء : غرر ، ثم نفل ، ثم تسع ، ثم عشر ، ثم بيض ، ثم درع ثم ظلم ، ثم حنادس ، ثم الدادي ، ثم محاق . « فذكر وجه تسمية الأيام بتلك الأسماء فراجع^(٢١) » وقال في الذريعة : التنقيح الرائع من المختصر النافع الذي هو اختصار الشرائع . والتنقيح شرح وبيان لوجه تردّداته في المختصر الذي هو كأصله للمحقق الحلي المتوفى ٦٧٦ والشرح للفاضل المقداد وهو شرح تام من الطهارة إلى الديات في مجلدين بعنوان « قوله : قوله : « فرغ منه في تاسع ربيع الأول سنة ٨١٨ ونسخة عصر المؤلف توجد في الخزانة الرضوية كما في فهرسها كتبت في ٨٢١^(٢٢) ومنها الجامع الفوائد : في تلخيص القواعد . كما نسب إليه قدس سره^(٢٣) وكأنه بعد ما نضد كتاب شيخه الشهيد القواعد الفقهية وسماه نضد القواعد على ما يأتي ،

على مذهب الإمامية إلخ وقد رتبته على مقدمة في تعريف الفقه وما يتعلق بذلك ، وقطبين : الأول منهما في العبادات والثاني في المعاملات وفيه أحكام العقود والإيقاعات .

و قد كان عندنا نسخة منه تفضل بها الفاضل المحترم الأستاذ المكرم مرتضى المدرسي الجاردهي ، فنقلنا قاعدتين منه الأولى في ص ١٣٥ والثانية في ص ١٩٨ حيث أحال المصنف ﷺ توضيح المرام إلى كتابه النضد . فراجع .

ومنها نهج السداد : في شرح واجب الاعتقاد ، للعلامة .

ومنها شرح مبادئ الأصول : للعلامة .

ومنها تفسير مغمضات القرآن .

قال ﷺ في ديباجة كتابه ذلك : أما بعد فإن اتباع الحسنة بالحسنة في العمر الذي سنه منه سنة ، من أعظم الرغائب ، وأسنى المواهب ، ولما وفق الله لزبر كتاب اللوامع الإلهية ، في المباحث الكلامية ، رأيت اتباعه بكتاب في المسائل الفقهية ، والمباحث الفروعية ، إحدى الحسنين ، وأجدى الموهبتين ، وكان شيخنا الشهيد ﷺ قد جمع كتابا مشتملا على قواعد وفوائد في الفقه تأييسا للطلبة بكيفية استخراج المنقول من المعقول ، وتدريباً لهم في اقتناص الفروع من الأصول لكنّه غير مرتّب ترتيباً يحضّله كلّ طالب ، وينتھز فرصة كلّ راغب ، فصرفت عنان العزم إلى ترتيبه وتهذيبه ، وتقرير ما اشتمل عليه وتقريبه ، وسمّيته نضد القواعد الفقهية

الهوامش:

(١) قال في الروضات: ثم إنّ السيوري، و هو بضم السين مع الياء المخففة التحتانية - كما هو المشهور - نسبة إلى سيور هي قرية من قرى حلة المجلّة كما في الفهرست المنسوب إلى شيخنا البهائي - غفر له - و يحتمل أيضاً بعيداً أن يكون نسبة إلى سيور التي هي جمع السير، و هو ما يقدّم من الجلود المدبوغة لمصارف السروج و أمثالها من الأدوات الصرمية، لكون أحد المذكورين في سلسلة نسبه معروفاً ببيع ما ذكر، و العمل فيه، كما نسب إليه أيضاً الحسين بن محمّد و عبد الملك بن أحمد السيوريّان المحدثان، فيما ذكره القاموس، و هو نسبة إلى بلد وقع في شرقي الجند - بالتحريك - الذي هو من جملة بلاد اليمن. انتهى لكنّه خلط في نقل كلام صاحب القاموس حيث قال: و السير بالفتح الذي يقدّم من الجلد ج سيور و اليه نسب المحدثان الحسين بن محمّد و عبد الملك بن أحمد السيوريّان ود شرقي الجند منه يحيى بن أبي الخير السيري العمريّ إلخ. فالبلد الذي هو في شرقي الجند هو السير و النسبة إليه السيري لا

السيور ولا السيوري.

على أنه قد ذكر شارح القاموس على ما في هامش طبعة مصر ج ٢ ص ٥٤: قال شيخنا: وهذا - يعني النسبة إلى لفظ الجمع - على خلاف القياس وقيل اتّهما - يعني المحدثين - منسوبان إلى بلد اسمه سيور وصحّحه أقوام، وفاته أبو القاسم عبد الخالق ابن عبد الوارث السيوري المغربي شيخ القيروان المتوفى ٤٦٠هـ. انتهى.

(٢) قال في الروضات: ومن جملة ما يحتمل عندي قويا هو أن يكون البقعة الواقعة في برية شروان بغداد والمعروفة عند أهل تلك الناحية بمقبرة مقداد، مدفن هذا الرجل الجليل الشأن بناء على وقوع وفاته رحمه الله في ذلك المكان أو إيصائه بأن يدفن هناك لكونه على طريق القافلة الراحلة إلى العتبات العاليات والآل المقداد بن أسود الكندي رحمه الله الذي هو من كبار أصحاب النبي 'مرقده المنيف في أرض بقيق الغرقد الشريف لما ذكره المؤرخون المعترفون من أنه رضى الله عنه توفي في أرضه بالجرف وهو على ثلاثة أميال من المدينة فحمل على الرقاب حتى دفن بالبقيع. انتهى.

لكنه من عجيب الاحتمال حيث إن المسمين بالمقداد كثيرون وليس لنا أن نقول بأن المقبرة المشهورة عندهم لما لم يكن للمقداد بن أسود الكندي فليكن للمقداد بن عبد الله السيوري بل الشيخ المترجم له قد توفي بالمشهد الغروي على ساكنه آلاف التحية والثناء ضحى نهار الأحد السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٨٢٦هـ هجرية ودفن بمقابر المشهد المذكور، على ما صرح به تلميذه الشيخ حسن بن راشد الحلي.

بل هو نفسه ينقل عن بعض الأصحاب التصريح بذلك حيث يقول فيه: وهو الذي يعبر عنه في فقهيات متأخري أصحابنا بالفاضل السيوري وينقل عن كتابه في آيات الاحكام كثيرا وكنيته أبو عبد الله وفي بعض المواضع صفته أيضا بالغروي «نزلا» وكأنه كان من جملة متوطنى ذلك المشهد المقدس حيا وميتا.

(٣) الروضات ص ٥٩٣.

(٤) راجع المستدرک ج ٣ ص ٤٣٨.

(٥) راجع الروضات ص ٥٩٢، لؤلؤة البحرين ص ١٤٥.

(٦) المستدرک ج ٣ ص ٤٣٥، الروضات ص ٦٣٩.

(٧) الذريعة ج ١ ص ٤٢٩.

(٨) الاعلام للزركلي ج ٢ ص ٢٠٤. الذريعة ج ١ ص ٤٢٩ و ٤٦٥.

(٩) الروضات ص ٢٠، المستدرک ج ٣ ص ٤٣٥.

(١٠) اللؤلؤة ص: ١٧٦.

(١١) الروضات ص ٢٠.

(١٢) الروضات ص ٦٩٣.

(١٣) الذريعة ج ١ ص ١٧.

(١٤) ج ١ ص ٣٩٦.

- (١٥) الذريعة ج ١ ص ٥١٥.
- (١٦) الذريعة ج ٢ ص ٢٩٧.
- (١٧) الروضات ص ٦٣٩.
- (١٨) بل هو على بن هلال الجزائري المجاز من المحقق الكركي كما مرّ في تلامذته و كآئه من سهو الكاتب أو الطّابع. راجع الذريعة ج ٢ ص ٤٢٣.
- (١٩) الروضات ص ٥٨١ و ٥٨٢.
- (٢٠) الذريعة ج ٣ ص ٣٥٢.
- (٢١) الروضات ص ٦٣٩.
- (٢٢) الذريعة ج ٤ ص ٤٦٣.
- (٢٣) ربحانة الأدب ج ٣ ص ١٨٢. الاعلام للزركلي ج ٨ ص ٢٠٨.
- (٢٤) ربحانة الأدب ج ٣ ص ١٨٢. الاعلام للزركلي ج ٨ ص ٢٠٨.
- (٢٥) الروضات ص ٦٣٩.
- (٢٦) الذريعة ج ٣ ص ٧.